
مذكرات الحرب
النفير
١٩٤٠ - ١٩٤٢
الجنرال ديغول
ترجمة :
عبداللطيف شرارة
TONKIN
210

النــــــفير

(١٩٤٠ - ١٩٤٢)

الطبعة الثالثة ١٩٨٣

الجنرال ديغول

مذكرات الحرب

★

النفير

١٩٤٠ - ١٩٤٢

ترجمة
عبد اللطيف شرارة

مراجعة
أحمد عويدات

منشورات بحر المتوسط و منشورات عويدات
بيروت - باريس بيروت - باريس

هذه المذكرات وهذه الترجمة

لا تزال المكتبة العربية بحاجة الى المؤلفات السياسية الكبرى التي ترسم تيارات التاريخ المعاصر ، وتكشف ما وراء الاحداث الراهنة ، من قضايا وشؤون .

ولا جدال ان « مذكرات الحرب » لمؤلفها الجنرال الرئيس شارل ديغول ، من أنفس ما كتب ، وأغنى ما نشر ، من مؤلفات تاريخية ، في عصرنا هذا ، لما تلقي من اضواء ، وتكشف من اسرار ، وتحمل من معان وإشارات وعبر . فهي تبسط الوقائع التي كان لها أبلغ الاثر في مجاري السياسة العالمية الراهنة ، بروح موضوعية ، وتحر للحقائق ، وتشدد بجرد في تبين اسبابها ، واستخلاص نتائجها ، ثم تعزز هذا العرض بالوثائق والارقام ؛ ويرفدها بالقوة والسطوع ، بيان مشرق ، واطلاع جم ، وفكر نير ، وتجربة حية عز نظيرها في الآثار التاريخية المماثلة .

وقد ارادت هذه الدار ، سيراً مع خطتها في إغناء المكتبة العربية الحديثة ، ومدها بما تحتاج اليه من نتاج الفكر الفرنسي المعاصر خاصة ـ ارادت ان تحتل تلك « المذكرات » مكانتها في ثقافة العربي السياسية ، اياً كان بلد هذا العربي ، واتجاهه ،

وعمله ، على نحو ما احتلتها في ثقافة الاوروبي والاميركي وابن البلدان الشرقية الاخرى ، فعمدت الى ترجمتها عن الاصل الفرنسي .

تتميز هذه الترجمة بميزتين : اولاهما ان الجنرال الرئيس كان قد رغب في الاطلاع على النص العربي قبل نشره ، وتلبية لهذه الرغبة ارسل اليه المخطوط وعاد يحمل موافقته .

والثانية ان المعرب – وهو من اعلام البيان العربي في ايامنا هـــذه – أفاد في تركيز التعبيرات التقنية ، من جهود العاملين في هذا الحقل وما انتهوا اليه ، ولا سيما في دوائر الجيش اللبناني ، وقيادات كل من الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العربية الســورية .

وإنا لنأمل ان يجد قراء العربية في هــذه الترجمة ، مـا ينشدون من اطلاع على الحقـائق ، وتمرس بالفكر السياسي ، والعسكري ، والتاريخي ، في أعلى مستوياته ، وأرحب آفاقه .

١٠ / ١٠ / ١٩٦٧ الناشر

LE GÉNÉRAL DE GAULLE

Paris, le 11 décembre 1963

Monsieur le Directeur,

Je me félicite de ce que, grâce à vous et à votre Maison, le premier tome de mes Mémoires de Guerre soit mis à la portée des lecteurs arabes.

L'envoi que vous m'avez adressé m'a permis d'apprécier la présentation donnée à l'ouvrage. Il est en même temps pour moi l'occasion de vous remercier du soin que vous-même et vos collaborateurs avez apporté à cette édition. J'ajoute que j'ai été très sensible à votre lettre et aux sentiments d'amitié à l'égard de la France qu'elle manifeste.

Veuillez croire, Monsieur le Directeur, à mes sentiments les plus distingués et les meilleurs.

C. de Gaulle

Monsieur Ahmad OUEIDAT

المنحدر

كان مني ان كوّنت ، على مدى حياتي ، نوعاً من فكرة عن فرنسا اوحى بها إليّ الشعور ، كما كانت من وحي العقل ايضاً . وان الجانب العاطفي من ذاتي ليتخيل فرنسا على نحو طبيعي ، كما لو كانت اميرة من اميرات الحكايا ، او صورة من صور العذراء المزركشة على جدران المنازل ، وكأنها نُذرت لقدر جليل ، غير عادي . وكان لديّ بالفطرة ، هذا الانطباع ، وهو ان العناية الالهية أوجدت فرنسا لإحراز نجاحات مكتملة او المرور بويلات يضرب بها المثل . وإذا حدث ، مع ذلك ، ان اتسمت افعالها ومآتيها بما يخفض من مقامها او يجعلها غير متقدمة ، يخالجني حيال ذلك ، احساس بشذوذ غير معقول ينبغي ان يعزى الى اخطاء الفرنسيين ، لا الى عبقرية الوطن . غير ان الجانب الايجابي من تفكيري يقنعني ان فرنسا لا تكون اياها على حقيقتها ، الا حين تحتل الصف الأول ، وان المشروعات الكبرى ، الشاملة ، وحدها هي التي يتاح لها ان تحل محل خمائر التفكك التي يحملها شعبها في قرارته ، وان على بلادنا كما هي ، وسط بلاد الآخرين كما هي ايضاً ، ان تصوب نظرها الى العلاء وتنتصب واقفة ، مستقيمة . ان فرنسا لا تستطيع في رأيي ، بقول مختصر ، ان تظل فرنسا ، من غير عظمة .

ولقد نما هذا الايمان وكبر مع تناميّ في البيئة التي ولدت بها ، اذ

كان والدي ، وهو من رجال الفكر والثقافة والتقاليد العريقة ، مشبعاً بشعور الكرامة الفرنسية ، وهو الذي كشف لي تاريخ فرنسا . وكانت والدتي تنطوي على هوى لا يتسامح ابداً ، تجاه الوطن ، ولا يوازيه في عرامته سوى وَرعها الديني . وكنا اخوتي الثلاثة وشقيقتي وانا ، نحمل ضرباً من اعتزاز ببلادنا وقلق نزل من نفوسنا منزل طبيعة ثانية . وكنت وانا فتى صغير من مدينة « ليـــل » ، في باريس لا يهزني شيء بمقدار ما تهزني رموز امجادنا : الليل المسدل على « نوتر — دام » وجلال المساء في « فرساي » وقوس النصر المؤتلق تحت الشمس ، ورايات الظفر الخافقة في اعالي « الانفاليد » . وما من شيء كان يودع فيّ من الأثر والتأثير مثل مظاهر امجادنا الباقية : حماسة الشعب عند مرور قيصر روسيا ، استعراض « لونشان » ، عجائب « المعرض » الكبير ، تحليقات طيارينا الاول . وما من شيء كان يحزنني اعمق الحزن مثل نقاط ضعفنا واخطائنا التي كانت تنكشف لي في صباي ، واراها في قسمات الوجوه واسمعها على الألسنة : التخلي عن « فاشودا » ، قضية « دريفوس » ، المنازعات الاجتماعية ، والخلافات الدينية . وما من شيء كان يثير تأثري بمقدار ما تثيره ويلاتنا السالفة : الخروج من « بورجيبه » و « ستينز » دون جدوى حيث جرح والدي ، وهو الذي اعاد لي ذكرى هذه الحادثة ، وحديث والدتي إليّ عن شعورها باليأس يوم كانت صبية صغيرة ، وقد شاهدت اهلها يبكون وهم يهمسون : « استسلم بازين »[1].

كنت وانا يافع ، اهتم قبل كل شيء ، بكل ما جرى لفرنسا ، سواء كان هذا مما يتعلق بالتاريخ ، او يدور في الحياة العامة . كنت اشعر اذن بانجذاب ، ولكن بصرامة ايضاً ، تجاه الرواية التي تمثل ، بلا

---

(١) بازين : احد قادة الجيش الفرنسي في حرب ١٨٧٠ ، كان لاستسلامه اثر كبير في هزيمة فرنسا يومذاك . (المترجم)

انقطاع ، في ميدان حياتنا . وكنت منقاداً الى تلك الرواية بما بذل فيها عديد الممثلين دون حساب ، من ذكاء ، واتقاد ، وبلاغة ، كما كنت اشعر بضيق لما اشهد من مواهب وافرة تهدر في خضمّ البلبلة السياسية والشقاقات الوطنية ، التي كانت تزداد صخباً تفاقم في مستهلّ القرن مع نُذُر الحرب الاخيرة في الظهور . وعليّ ان اقول انني كنت في صباي الاول اتصور من غير ذعر تلك المغامرة المجهولة ، وكان خيالي يجري في تعظيمها وتكبيرها ، قبل ان تحدث . وجملة القول انني ما شككت قط ان على فرنسا أن تجتاز محناً ضخمة ، وان جدوى الحياة انما تقوم في ان اؤدي لها ، ذات يوم ، خدمة مرموقة ، وان فرصة هذه الخدمة ستؤاتيني .

كان الجيش حين دخلته ، واحداً من أعظم الامور واجلّها في الدنيا . وكان يشعر ، تحت ضربات الانتقادات والاهانات التي تنهال عليه ، ان الايام التي يصبح فيها كل شيء معلقاً عليه ، قد دنت . وشعوره هذا كان يخالجه بهدوء وطمأنينة ، وحتى بأمل صامت ، أصمّ . وكان ان عملت بعد تخرجي من « سان – سير » في فوج المشاة الثالث والثلاثين ، « في آرّاس » ، حيث جرى تدريبي على الجندية في صف الضباط . وكان « بيتان » عقيدي الأول ، وهو الذي بيّن لي قيمة الموهبة والفن في اصدار الأوامر (القيادة) . ثم بينما كان الإعصار يتقاذفني كريشة في مهب مآسي الحرب : عمادة النار ، وجلجلة الخنادق ، والغارات ، وقصف المدافع ، والجروح ، والاسر ، وأصبح في وسعي ، ان أشهد فرنسا التي تضاءل عدد مواليدها ، وقد حرمتها المثاليات الفكرية (الايديولوجيا) الفارغة ، وإهمال السلطات ، من بعض وسائل دفاعها الضرورية – اصبح في وسعي ان أشهدها كيف استلّت من نفسها جهداً يفوق الخيال ، كيف عوضت بتضحيات لا تقاس ، عن كل ما كان ينقصها ، كيف

وضعت حداً للنكبة وهي ظافرة . كان في وسعي ان اراها ، في أشد الايام حرجاً ، تعيد تجمعها المعنوي في كنف « جوفر » اول الأمر ، وبوحي « النمر » في آخره . وأتيح لي ان اراها من بعد ، مرهقة بالخسائر والخرائب ، وقد انقلبت رأساً على عقب في بنيانها الاجتماعي وتوازنها المعنوي ، تسترد سيرتها بخطى خائرة نحو مصيرها ، فيما أخذ نظامها السياسي يعود الى الظهور كما كان من قبل ، وقد تنكرت لـ« كليمنصو » ، وطرحت العظمة والرفعة ، ورجعت الى الفوضى والشقاق .

ومررت ، خلال السنوات التي تلت ، بمراحل متنوعة ، مهمة وقتال في بولونيا ، وتدريس التاريخ في « سان – سير » ، والمدرسة الحربيـة ، وديوان المارشال ، وقيادة الكتيبة ١٩ من القنّاصة « تريف » ، وخدمة في الاركان العامة على « الراين » وفي المشرق . وكنت ألمس في كل مكان نزلته تجدّد المكانة التي افضت اليهـا النجاحات الاخيرة وقيمتهـا بالنسبة لفرنسا ، كما كنت ألمس في الوقت نفسه ، الشكوك التي تثيرها تناقضات حكامها في النظر الى مستقبلها . بيد اني كنت اجـد ، مع ذلك ، في المهنة العسكرية ، النفع الجزيل الذي تنطوي عليـه إن للعقل وإن للقلب ، بينما كنت ارى في الجيش ، الدائر في الفراغ ، اداة الاعمال الكبرى المقبلة عما قريب .

كان واضحاً ، في الواقع ، ان خاتمة الحرب لم تؤمن السلم ، اذ راحت ألمانيا تستعيد مطامحها كلما استردت قواها . وبينما روسيا ركنت لعزلة في ثورتها ، وأميركا أقامت في منـأى عن اوروبا ، وانكلترا اخذت تداري برلين لتظل باريس في حاجة اليها ، والدول الجديـدة ظلت على ضعفها وخلافاتها ، كان على فرنسا وحدها ان تضبط « الرايخ » . وقد جهدت فعلاً في اداء هـذه المهمة ، ولكن على نحو متقطع . وهكذا كان من سياستنا بادىء ذي بدء ، ان استخدمت القمع في ظل « بوانكاريـه »

ثم حاولت التوفيق بدافع من « بريان » وسمت اخيراً وراء ملجأ في عصبة الامم . ولكن خطر المانيا كان يتفاقم وهتلر اخذ يقترب من السلطة .

ألحقتُ في تلك الحقبة بالأمانة العامة للدفاع الوطني ، وهي الهيئة الدائمة التي يعتمدها رئيس الوزارة في وضع الخطط والدروس الحربية . ووجدت نفسي في ظل اربع عشرة وزارة من عام ١٩٣٢ الى ١٩٣٧ منخرطاً ، على صعيد الدراسات ، في كل نشاط سياسي ، وتقنيّ ، وإداري ، يتصل بالدفاع عن البلاد . وأتيح لي ان اعرف خطط الأمن وأنواع الاسلحة التي قدّمها على التوالي كل من « اندريه تارديو » و « بول بونكور » لعصبة الامم في جنيف ، وان ازوّد حكومة « دومرغ » بالعناصر اللازمة لمقرراتها ، حين اختارت طريقاً آخر ، بعد تسنّم الفوهرر سدة الحكم . وكان عليّ ان اقوم بأبحاث دقيقة معقدة ، لأضع مشروع قانون ينظم الأمة في اوقات الحرب ، وأن اهتم بالتدابير التي تقتضيها تعبئة الادارات المدنية والصناعات ، والمصالح العامة . وقد كشفت لي الاشغال التي كان عليّ ان اؤديها ، والمذاكرات التي حضرتها ، والاتصالات التي وجب ان اقوم بها ، مدى ما هي عليه مواردنا من غزارة ، ومدى ما هي عليه الدولة من عجز ايضاً .

ذلك بأن تخلخل السلطة هو الذي كان ينكشف في هذا المجال. والاكيد هو ان الذكاء والحس الوطني ما كانا يعوزان الرجال القائمين بهما . لا ، العكس هو الصحيح ، فقد كنت اشاهد على رأس الوزارات رجالاً ذوي قيم لا جدال فيها ، وأحياناً ذوي مواهب كبرى ولكن ألاعيب النظام كانت تحرقهم وتشلهم . لقد كنت اقع كشاهد ذي بصر حديد ، على تكرار مستمر ، للسيناريو نفسه ، فلا يكاد رئيس الوزراء يمارس الحكم حتى يجد نفسه بين براثن الطلبات التي لا تعدّ ، وعرضة

للانتقادات والمزايدات التي يستغرق احباطهـا نشاطه كله ، من غير ان يستطيع السيطرة عليها . وما كان البرلمان وهو ابعد مـا يكون عن تأييده ، ليقدم له سوى العراقيل والمخذلات . ويصبح وزراؤه منافسيه . والرأي العام ، والصحافة ، والمصالح الشخصية ، كل هذه كانت تتخذ منه هدفاً تصوب اليه جميع انواع الشكوى والاذى . وكان كل واحد ، من جهة اخرى - الوزير الاول نفسه - يعرف انه انمـا هو في منصبه لأمد قصير . وكان عليه في الواقع ، ان يتخلى عنه بعد بضعة شهور . وان مثل هذه الاوضاع لتحول دون المسؤولين في شأن الدفاع الوطني ، وتلك الجملة من الاهداف الدائمة ، والمقررات الناضجة ، والتدابير السائرة الى غايتها ، وهي الحصيلة التي نطلق عليها كلمة سياسة .

لذلك ، فان الجسم العسكري الذي لم تكن توليه الدولة من اهتمامها سوى دفعـــات متقطعة ومتناقضة كان ينطوي على نفسه في اطار من الشكليات والاصطلاحات العملية المتشابهة . وكان الجيش يتجمد في المفاهيم التي كانت تراعى ويؤخذ بها قبل نهاية الحرب الاخيرة . وكان تعلقـه بها يزداد على قدر مـــا يشيخ رؤساؤه في رتبهم ، وهم المشدودون الى ضلالات كانت من قبل ، السبب في امجادهم .

وكانت كذلك فكرة الجبهة الثانية الجـامدة تهيمن على الاستراتيجية الموضوعة مسبقاً لعمليات حربيـــة مقبلة . وكان التنظيم ، والعقيدة ، والتعليم ، والتسلح ، كل ذلك ينحدر رأساً من تلك الفكرة . وكان من المفهوم ضمناً ان فرنسا تستطيع ان تعبىء ، في حـــالة الحرب ، جمهرة احتياطييها وتؤلف اكبر عدد ممكن من فرق الاحتياط التي انشئت لا لتقوم بالعمليـات والهجوم والاستثمار ، بل للمحافظة على القطاعات ، ولتكون في مراكزها على طول الحدود الفرنسية والبلجيكيـة - كانت بلجيكا في ذلك الوقت حليفة لنا صريحة - وهناك تنتظر هجوم العدو .

اما الوسائل من دبابات ، وطائرات ، ومدافع نقالة ودوارة ، التي اثبتت في المعارك الاخيرة من الحرب الكبرى انها تتيح مباغتة العدو وتقطع اوصاله ، وما انفكت اهميتها وقوتها تزدادان منذ ذلك الحين ، فلم يخطر بالبال استعمالها الا لتقوية خط الدفاع وإقامتها عند الحاجة بإجراء هجمات معاكسة محلية . وكان ان أثبت بالتالي نماذج الاسلحة الآلية : دبابات بطيئة مسلحة بقطع خفيفة وقصيرة مخصصة لمرافقة المشاة ، وليست للعمليات السريعة المستقلة ، وطائرات مطاردة صممت لحماية الجو ، وليس لسلاح الطيران بجانبها سوى القليل من قاذفات القنابل . اما عدة الهجوم الجوي فكانت معدومة ، وكانت هناك ايضاً قطع مدفعية صنعت لاطلاقها من موقع ثابت ذي مجال ضيق ، افقي ، لا لصد العدو عن جميع الاراضي واطلاق النار عليه من جميع السموت[1] . يضاف الى ذلك ، ان الجبهة كانت مرسومة سلفاً في اعمال خط « ماجينو » ، التي تحددها التحصينات البلجيكية ، وهكذا وقفت الأمة في حمى اسوارها شاكية السلاح ، تنتظر ان ينهك الحصار العدو كما كان شائعاً وان يحمله ضغط العالم الحر على الاستسلام والانهيار .

كان مثل ذلك المفهوم للحرب ينسجم وروح النظام القائم . وهذا المفهوم نفسه الذي مني بالركود في ظل المنازعات السياسية وضعف السلطة ، لم يكن يملك الا ان يقترن بمثل ذلك الجهاز الدفاعي الجامد لهذه الدرجة . غير ان هذا الخدر الشامل الباعث على الطمأنينة كان يستجيب احسن الاستجابة للحالة الذهنية التي كانت تسود البلاد ، بحيث ان كل مرشح للانتخاب كان يريد ان ينجح وأن ينال التصفيق او الاعلان عن نفسه ، ينحني امامه ويصرح بأنه ناجح ومفيد . وكان ان

---

(١) *Azimut* جمع سمت ، والكلمة عربية اساساً . (المترجم)

انصرف الرأي العام انصرافاً تاماً عن كل تفكير في الهجوم وهو الذي انساح مع الوهم القائل إن فكرة مقاومة الحرب تمنع ذوي النزعة العدوانية من عمل الحرب ، واحتفظ بذكرى كثير من الهجمات المدمرة ، ولم يحسن التمييز بين الماضي والحاضر ولا ادرك عمق الثورة التي احدثها المحرك (الموتور) في الحياة العسكرية ، منذ استحدث حتى اليوم . ومجمل القول : ان كل ما كان في الافق من ضباب وغيوم تلاقت واتفقت لتجعل من السلبية نفسها ، مبدأً يعتمده دفاعنا الوطني .

كان مثل هذا التوجيه في نظري ، اخطر ما يمكن ان يكون . وكنت اقدّر انه يضع المبادرة ، من وجهة النظر الاستراتيجية ، في يد العدو ويجعلها ملكه الخاص . ومن الوجهة السياسية كنت اعتقد اننا ندفع المانيا على العمل ضد الضعاف ، حين نعلن عن نيتنا في الاحتفاظ بجيوشنا على الحدود ، ونسوق بالتالي ، عدداً من البلدان الى العزلة : السار ، رينانيا ، النمسا ، تشيكوسلوفاكيا ، دول البلطيق ، بولونيا ، الخ ... ونصدّ روسيا عن الارتباط بنا . وكان من رأيي تطمين إيطاليا ، أيّاً كان موقفها ، اننا لن نفرض عليها ان تضع حداً لسوء مقاصدها . وكان يبدو لي من الناحية المعنوية اخيراً ، ان من المؤلم المهلك ، نشر هذا الاعتقاد الفاسد في البلاد ، وهو ان الحرب لن تكون آخر الأمر اذا وقعت ، الا قصيرة الامد ، واننا لن نخوضها الا بأقل جهد ممكن .

لقد كانت ، والحق يقال ، فلسفة العمل ، وتجديد الجيوش وحسن استخدامها من قبل الدولة ، والعلاقات بين الحكومة والقيادة ، اموراً تشغل بالي منذ زمن طويل . وكنت قد أعربت عما افكر به ، من هذا الجانب ، في بضعة منشورات : « الشقاق لدى العدو » و « حدّ السيف » وعدد من المقالات في المجلات . وقد ألقيت في « السوربون » مثلاً محاضرات عن سير الحرب ، ولكن هتلر اصبح في كانون الثاني

(يناير) من عام ١٩٣٣ ، سيد الرايخ ، وراحت الاحداث منذ ذلك الزمن تتوالى وتختلط بسرعة . ومنذ كنت لا اجد احداً يقترح شيئاً للرد على الموقف ، شعرت ان عـــليّ ان استنفر الرأي العام ، وآتيه بمشروعي الخاص . ولكن هذا الامر ينطوي على مجازفة ، وله ذيول ، فأصبح من واجبي ان انتظر يوماً تلقى به عليّ اضواء الرأي العـــام . وهكذا ، اتخذت موقفي والألم يحزّ في نفسي بعد خمس وعشرين سنة قضيتها في ظل التدابير العسكرية .

وكان ان اطلقت خططي وافكاري تحت عنوان « نحو الجيش المحترف » . وفيه اقترحت انشاء جيش نزال ومقارعة ، آلي ، مدرع ، تتألف قيادته من نخبة تضاف الى الوحدات الكبرى التي تشكل عند صدوره ، لولوج الموضوع . وظهر عام ١٩٣٣ مقـال في « المجـلة السياسية والبرلمانية » أفدت منه كتوطئة . وفي ربيع ١٩٣٤ اصدرت الكتاب الذي بيّن مفهوم الادارة المراد ايجادها ، وشرح اسبابها ومبرراتها .

لماذا ؟ بينت وانا ابحث دفاع فرنسا العسكري اولاً ان الجغرافيـة التي توجه غزو اراضينا في الشمال والشمال الشرقي ، وتفرض تنظيم ذلك الغزو ، وطبيعة الشعب الالماني التي تحمله على المطامح الكبيرة ، وتغريه بالسير غرباً وترسم له وجهته : باريس عـــبر بلجيكا ، وطبع الشعب الفرنسي الذي يعترضه للمباغتة في بداية كل نزاع ، ذلك كله يحدونا على ان نحتفظ دوماً ، بجزء من قوانا في حالة تأهب دائم ، مستعد في كل لحظة للانطلاق باجمعه . وقد كتبت : « نستطيع ان نكل أمرنا ، كي نحمل الصدمة الاولى ، للدفاع العاجل في تكويناته السيئة التي لا يُطمأن اليها . لقد آن الاوان لاضافة عنصر رئيسي من المقاومة الوطنية ، وان كانت بطيئة التجمع ، ثقيلة الحركة ، الى كتلة احتياطنا وامداداتنا ،

وهي اداة عمل قادرة على فاعليتها دون تمهل ، اي دائمة ، متماسكة ، منقطعة لحمل السلاح » .

ثم اثرت قضية التقنية ، فمنذ سيطرت الآلة على نظام الحرب ، شأنه شأن غيره ، اصبحت مزية هؤلاء الذين فوّض اليهم امر الآلات الحربية ، عنصراً جوهرياً في الافادة من الآليات ، وما أصح ذلك في الاسلحة الحديثة خاصة من دبابات وطائرات ، وسفن كانت وليدة المحرك ، وقد اخذت تتكامل على نحو متسارع ، وكان من امرها ان بعثت فن المناورة ، واوضحت مبيّناً انه « واقع فعلي ، من الآن فصاعداً ، ان نخبة من الرجال في البر والبحر والجو تستل الحد الاقصى من عدة آلية قوية ومتنوعة الى أبعد حد ، انما تحرز تفوقاً هائلاً على كتل بشرية قل اضطرابها او كثر » . واستشهدت بهذه الكلمة لبول فاليري : « سيشهد الناس تنامي المشروعات التي يقوم بها نخبة من الرجال العاملين في فرق منظمة ، ينشأ عنها في بضع لحظات وفي مدى ساعة ، ومكان ما ، احداث ساحقة ، غير منتظرة » .

ولاحظت عند التعرض للاوضاع التي تفرضها السياسة بدورها على الاستراتيجية ، ان هذه لا يمكن ان تقف عند الدفاع الضيق المحدود عن الارض ، ما دامت تلك ، اي السياسة ، ملزمة بتوسيع مجالها الى ابعد الحدود : « إننا لنؤلف طوعاً او كرهاً ، جزءاً من نظام قائم ذي عناصر متعاونة فيما بينها ... انّ ما يحدث فعلاً ، لأوروبا الوسطى والشرقية ، لبلجيكا والسار ، يمسنا مساساً جوهرياً مباشراً ... ما أكثر ما كلفنا من الدماء والدموع خطأ الامبراطورية الثانية التي تركت الامر على ما كان عليه في « سادوفا » من غير ان تنقل الجيش الراين ؟ ... علينا اذن ان نكون متأهبين للعمل في الخارج ، لدى كل مناسبة ، وفي كل ساعة . وكيف لنا ان ننجز ذلك عملياً ، اذا كان الإقدام على اي

مشروع يقتضي تعبئة قواتنا الاحتياطية ؟ ... » ، يضاف الى ذلك اننا لا نملك في التنافس الذي يعود الى الظهور بيننا وبين المانيا من ناحية القوة الحربية ، ان نوازي الألمان في القوة العددية ، فهم بها ابداً متفوقون علينا . ومقابل ذلك « ونحن على ما نحن عليه من مواهب المبادرة والتكيف ، والاعتزاز بأنفسنا ، يجب ان نتغلب من ناحية الكيفية ، وهذا ما يتوقف علينا وحدنا » . وختمت جواب ذلك السؤال « لماذا ؟ » كما يلي : « ان اداة نزال وقائية ، ضاغطة ، رادعة ، هي ما يجب علينا ان نتزود به » .

وكيف ؟ المحرك يمدنا بعناصر الجواب . « المحرك الذي يوفر حمل ما نريد ، وحيث يجب على جميع المسافات وانواع السرعة ... المحرك يملك ، اذا كان مدرعاً ، من قوة النار ، والمقارعة ، مـــا يجعل سير القتال منسجماً وسير التطورات » . وعينت ، انطلاقاً من ذلك ، الهدف الذي نرمي اليه : « ست فرق ثقيلة السلاح ، وفرقة واحدة خفيفة ، جميعها مجهزة بالعدة الآلية الوافية ، ومصفحة في جزء منهـا ، تكوّن الجيش اللازم لاحداث الواقعة » .

اما التشكيل الذي يناسب هـــذا الجيش فكان مبيناً على وجـــه الدقة : كل واحدة من فرق الميدان ينبغي ان تشتمل عـــلى لواء مصفح ذي فوجين ، الأول دبابات ثقيلة ، والآخر من الدبابات الوسطى ، وكتيبة من دبابات خفيفة ، ولواء من المشاة ذي فوجـــين وكتيبة قناصة تنقل في عربات نقـل عادية الى جميع الاراضي ، ولواء مدفعية مزوّد بقطع تتحرك في جميع الارتفاعات ، ومؤلف من فوجـــين يستخدمان بالتوالي مدافـــع قصيرة واخرى طويـــلة وتكتمل بفئة من العاملين في الدفاع ضد الطائرات . وعلى الفرقة ان تملك ايضاً ، لتشد ازر هذه الألوية الثلاثة ، فوج استكشاف وكتيبة هندسية ، وكتيبـة مخابرات ، وكتيبة تمويه (كاموفلاج) ومصالح . وتزود الفرقة الخفيفة

المخصصة للاستكشاف والامن البعيد ، بآلات اكثر سرعة ، ويكون تحت تصرف الجيش نفسه ، بالاضافة الى ذلك ، احتياطي عـــام من دبابات ومدافع ثقيلة ، ومهندسين ، ومواصلات استخبار ووسائل تمويه . ولا بد أخيراً ، من طيران قوي للرصد ، والمطاردة والانقضاض يلتحق عضوياً بذلك الجسم الكبير : فئة لكل فرقة ، فوج للجميع ، دون الاضرار بعمليات الجموع التي يسيّرها الجيش الآلي الجـــوي بالتساند والتواصل مع عمليات الجيش الآلي البري .

ولكن لا بد في تشكيل جيش المقارعة من هيئة محترفة ، خبيرة ، ليكون ذلك قادراً على استلال افضل فائدة ممكنة من العـــدة الآلية المعقدة ، الباهظة التكاليف التي يجهز بها ، وليستطيع العمل المباغت على اي ارض ، انتظار نجدات اضافية ، او الشروع في التدريب والتعليم ، ويكون مجموع جنوده ١٠٠،٠٠٠ رجل ، ويتألف الجند اذ ذاك من افراد منخرطين ، ملتزمين ، حتى اذا مضى على انخراطهم ست سنوات في جسم النخبة وجدوا انفسهم ، خلال هذا الزمن ، انهم صبّوا في قالب واحد ، على يد التقنية والتنافس ، وروح الاندماج في كلّ عضويّ . ثم يزودون القوات من بعد وجيوش الاحتياط بملاكات خاصة .

كان استخدام هذه العدّة الاستراتيجية لتحطيم مقاومة احكم انشاؤها ، قد وصفت آنذاك في الكتاب : توضع تلك العدة فجأة في مكان ما ، وفي ليلة واحدة ، وهذا مـــا يجعل موترة[1] (من موتور) جميع العناصر امراً ممكناً ، وكذلك قدرتها على التحرك في جميع الاراضي واستخدام التمويه السلبي والايجابي . ويبدأ هجوم تنطلق به ٣٠٠٠ دبابة مهيأة على عدة مستويات في جبهة معدل طولها ٥٠ كيلومتراً ، يتبعها

---

١ ــ الموترة : افضل ما رأينا لترجمة *Motorisation* . (المترجم)

ويساندها عن قرب المدفعية المتنقلة ، ويلحق بها على الاهداف المتوالية المشاة المنقولون ومعهم اسلحتهم الآلية وتنظيمهم البري ، والكل مرتبط بجسمين او ثلاثة من اجسام الجيش ، يسانده سلاح الطيران الخاص بالفرق وبالجيش ، وينير مسالكه . وتقدم الجهاز بجملته يبلغ في المعتاد خمسين كيلومتراً خلال نهار واحد في الميدان . ويتبع ذلك اذا ثبت العدو في ابداء مقاومة مستمرة ، تجميع عام اما لتوسيع الثغرة جانبياً ، واما لاعادة الكرة الى الامام ، واما للاحتفاظ بالارض المحتلة .

ولكن لا يكاد السور يخرق مرة من المرات ، حتى تأخذ آفاق نظر واسعة تنكشف للذهن فجأة . وعند ذاك ينشر الجيش الآلي مروحة الاستثمار وقد كتبت في هذا الموضوع : « اذا احرز النصر ، يسرع المنتصر غالباً الى قطف الثمار والتوغل في منطقة الغنائم . ويرى الناس الاستثمار يتحول الى واقع بينما لم يكن من قبل الا حلماً ... وحينذاك تنفتح الطريق امام انتصارات كبرى ، هذه الانتصارات التي تثير لدى العدو ، بتأثيراتها العميقة وانتشارها السريع ، اضطراباً عاماً ، شأنها شأن عمود في كاتدرائية قطع ، وانهارت الكاتدرائية على أثره ... لا بد للناس ان يروا جنوداً مسرعين في تعقب العدو ، يضربون نقاطه الحساسة ويبعثرون عتاده ... وهكذا يعــــاد بعث هذا المرض الاستراتيجي للنتائج ، كما يعاد نهج في التعبئة كان يشكل قديماً الغاية العليا للفن الحربي ، وكأنها شرفه الأسمى » . ولكن شعب العدو ودولته يمكن ان ينهارا لدى حالة من حالات الضيق واليأس ، واضمحلال اجهزة دفاعها .

وكلما قوي هذا الاستعداد للمفاجأة سريعــاً ، وتوثقت صلاته بالسلاح الجوي ذي الاهمية الكبرى في حرب اليوم تقطعت بالعــدو الاسباب . وقد ذكرت سلاح الجو وهو يساند العمليات البرية التي يقوم بهـا الجيش البري الآلي ، وهـــذا بدوره يقدّم فيما يحدث من انفجار في المناطق

المخربة ، فائدة استراتيجية مباشرة لعمليات التدمير التي تقوم بها الاساطيل الجوية .

كان مثل هذا التطور العميق في الفن الحربي يتطلب تطوراً مماثلاً في فن القيادة . وكنت قد ابرزت ذلك الواقع ، وهو ان الاتصال اللاسلكي اصبح ، من الآن فصاعداً ، وسيلة الربط بين عناصر الجيش المقبل ، وأنهيت الكتاب مبيناً الوسائل التي ينبغي للقيادة استعمالها لتسيير الاداة الجديدة . فليس المراد ان يوجه الرؤساء أوامر مغفلة ، انطلاقاً من مراكز مخبأة الى مرؤوسين يبعدون عنهم . العكس هو المراد ، فالحضور المباشر وإلقاء نظرة على الموقف ، وإعطاء اشارة ومثل صالح عادت فأصبحت جوهرية وسط المأساة المتحركة المفعمة بالمصادفات المباغتة والمناسبات الخاطفة ، هذه المأساة التي هي قتال القوات الآلية . وفيها لشخصية الرئيس من الاهمية ما هو اكثر بكثير من الوصفات المقننة المدوّنة ؛ وقد تساءلت : « ألا يكون من الأحسن ، اذا كان على التطور ان يعزز ارتفاع اولئك الذين يجدون انفسهم وحدهم واقفين في الساعات الحرجة التي يحطم بها سيلُ الخطوبِ ، الاعرافَ ، والعادات ، ويجعلهم بذلك ضرورة لا غنى عنها ولا سبيل الى التخلص منها ؟ »

وتوجهت في الختام ، بنداء الى الدولة استنفرها . فالجيش في الواقع ، كأية هيئة او مؤسسة ، لا يتغير من تلقاء ذاته . ومذ كان على الهيئة المختصة ان تقوم في الآن نفسه بتغييرات عميقة في المؤسسة العسكرية ، كما في تقنية الحرب وسياستها ، فان امر انشائها منوط بالسلطات العامة . والأكيد انها تحتاج هذه المرة ايضاً الى رجل مثل « لوفوا » و « كارنو »[1] . ثم ان اصلاحاً كهذا لا يمكن ان يكون إلا جزءاً من

---

(١) لوفوا وكارنو شخصيتان كبيرتان ، ادخلا تجديدات مفيدة على تنظيم الجيوش الفرنسية ، الاول في القرن السابع عشر (١٦٤١ – ١٦٩١) والثاني في القرن التاسع عشر (١٧٥٣ – ١٨٢٣) . (المترجم)

كل ، او عنصراً في الجهد الذي يبذل لإنهاض البلاد . ولكن اذا كان على هذا الصهر الوطني الجديد ان يبدأ بالجيش ، فلن يكون في ذلك الا ما هو مطابق لنظام الاشياء . وكان العمل الشاق آنذاك الذي ينبغي ان يعيد لفرنسا فتوتها وقوتها انما الذي يستخدم جيشها ملاذاً وخميرة . وذلك لأن السيف محور العالم ، والعظمة لا تتقسم .

وقد أفدت بطبيعة الحال ، كي انهض هـذا المشروع من التيارات الفكرية التي عمت العالم ، وعند ظهور المحرك المقاتل . وكان الجنرال « ايتيين » رسول الدبابات وأول مفتش لسلاحها ، . وقد تخيل منذ عام ١٩١٧ ، ان يُنشأ منها عدد كبير لقطع المسافات البعيدة على ان تتقدم اولئك الذين يرافقون المشاة . وذلك هو الاصل في الاسلحة الآليـة الضخمة التي اخذت تظهر من المصانع بوزن ٦٠ طناً ، منذ نهاية عام ١٩١٨ . ولكن الهدنة اوقفت صنعها وحصرت النظرية في صيغة « عمل المجموع » تتمة لصيغة « المواكبة » . وكان الانجليز الذين اظهروا انهم السابقون حين ادرجوا « الرويال طنك كوربس » في عمل مكثف عميق عام ١٩١٧ في « كامبري » ، قـد استمروا في العمل على تحقيق المفهوم الحربي الرامي الى انشاء قطعات مدرّعة تتمتع باستقلال ذاتي في القتال وهي الفكرة التي روّج لها الجنرال « فوللر » والمستر « ليدل هارت » . وكانت القيادة في فرنسا تشتمل عـام ١٩٣٣ ، في معسكر « سويب » على عناصر ثقيلة ، وضعت تحت التجربة نواة فرقة خفيفة للأمن والاكتشاف .

وثمة آخرون كانوا أوسع نظراً ، فقد لفت الجنرال « فون زيكت » الانتباه في كتابه « أفكار جندي » الذي ظهر عام ١٩٢٩ ، الى مـا يمكن ان يتمتع به جيش متميز - وهو يعني « الرايخز فيهر » المؤلف من ١٠٠،٠٠٠ رجل ، يقومون بالخدمة على مدى طويل - ومـا يحرز

بالنسبة الى كتل غير متماسكة — وفي ذهنه جيوش الفرنسيين — . وكان الجنرال الايطالي « دوهيه » يقرّر فيما اجرى من حسابات ، ان القصف الجوي وحده يستطيع بما يحدثُ من تدمير في مراكز الصناعة والحياة المدنية ، ان يكون العامل الحاسم في الحرب ، وان سلاح الطيران هو ما يصح اعتماده وإيلاؤه الجهد الأوفى والأكبر . وكانت « خطة الحد الأعلى » التي ايدها « بول بونكور » في جنيف عام ۱۹۳۲ ، تقترح إيلاء عصبة الأمم قوة عسكرية محترفة ويكون تحت تصرفها جميع ما لدى اوروبا من دبابات وطائرات ، وهي تتولى مهمة الأمن الجماعي . وكانت خطتي ان تنشىء من هـذه المشروعات المجزأة ، ولكنها المتلاقية ، كلا متماسكاً ، ولكن لحساب فرنسا .

أثار كتابي اول الامر اهتماماً ، ولكن لم يتأثر به احد . لقد بدا « نحو الجيش المحترف » كتاباً يحرّك أفكاراً لا تعني سوى الحاكمين من عسكريين ومدنيين وهم يتصرّفون بها على هواهم ، وما دام قد بدا كذلك ، فإن احداً لم يجد فيه سوى نظرية طريفة ، ولم يخطر ببال احد ان تنظيمنا العسكري قابل للتعديل ! اذا أخذ بما ورد في كتابي . ولو كان لديّ الانطباع ان هناك ما يدعو حقيقة الى العجلة في تطبيقه ، لكان في امكاني ان الحّ على الأخذ بوجهة النظر التي عرضتها في اوساط الاختصاصيين ، غير اني حسبت ان حججي ، يساعدها التطور العام ، ستشق طريقها . ولكن هتلر ، من جانبه ، لم يكن ينتظر .

كان منه ان قطع العلاقات مع عصبة الأمم ، منـذ شهر تشرين الاول (اكتوبر) عـام ۱۹۳۳ . وتخوّل لنفسه حرية العمل في شأن التسلح . وشهد عاما ۱۹۳٤ و ۱۹۳٥ الرايخ يبذل جهداً هائلاً في التصنيع والتجنيد . وكان العهد « الوطني — الاشتراكي » يعلن مشيئته على رؤوس الاشهاد في تحطيم معاهـدة فرساي بفتح المجال الحيوي .

وكانت هذه السياسة تقتضي جهازاً عسكرياً هجومياً والأكيـد ان هتلر كان يعد العدة لنهضة جماهيرية كثيفة ، فقد انشأ ، بعد تسنمه السلطة بقليل ، مصلحة العمل ، ثم اتبعها بمصلحة التجنيد ، إلا انه كان في حاجة ، عدا ذلك ، الى اداة تدخل ليقطع العقـدة الغوردية في « مايانس » ، وفيينا ، وبراغ ، وفرصوفيا ، ولتكون الحربة الجرمانية ، وقد زُودت برأس حـاد ، قادرة على النفـاذ بطعنة واحـدة ، الى قلب فرنسا .

وكان المطلعون ، من جهة اخرى ، لا يجهلون ان الفوهرر ينوي ان يطبع الجيش الالماني الجديد بطابعه ، وانـه كان يولي الضباط الذين تجمّعوا ، من قبل ، حول الجنرال « فون زيكيت » ، اذناً صاغية ، امثال كايتل ، وروندشتات ، وغودريان من انصار المناورة ، والسرعة ، والطريقة المدروسة في المباغتة ، وبهـذا ، كانوا يتجهون نحو القوات الآلية . وانه اخيراً أراد ، وقد تبنّى نظريات « غورنغ » ، طيراناً يرتبط عمله رأساً ، بالقتال الذي يدور في البر . وعلمت في وقت لاحق ، ولكن قريب ، انـه هو نفسه حُمِل على قراءة كتابي الذي اهتم به مستشاروه . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) من عـام ١٩٣٤ ، ترامى الى علمنا ان الرايخ انشأ الفرق الثلاث الاول : البانتسير ، وكان قد صدر ، في تلك الفترة ، كتاب وضعه العقيد (الكولونيل) « نهرنغ » ، من اركان حرب الجيش الالمـاني ، يبين فيه انـه سيكون لدى الرايخ وحدات مماثلة كل المماثلة تلك التي اقترحتُ انشاءها لفرقنا المدرعـة في المستقبل . وفي آذار عام ١٩٣٥ ، اعلن غورنغ ان الرايخ مـاض في التجهّز بقوة جوية مسلحة ، وان هذه القوة ستضم ، عـدا عن كثير من طائرات المطاردة ، عدداً من قاذفات القنابل ، وسلاحاً هجومياً في الجو . وعلى الرغم من ان هـذه التدابير كانت على جانب كبير من

الخرق الفاضح للمعاهدات ، فقد اقتصر العالم الحر من معارضته اياها ، بالاحتجاج الافلاطوني لدى عصبة الأمم .

لم يكن في وسعي ان أطيق مشاهدة عدو الغد يدرّع بوسائل الغلبة ، بينا فرنسا تقيم منهـــا على حرمان . ومع ذلك ، فما من صوت ذي سلطة ارتفع يطالب بعمل ما هو ضروري وسط ذلك السبات العميق ، وكانت الأمة كلها تغط فيـه . كان المأزق من الحرج بحيث لم يبد لي معه ان التحفظ مسموح لي به بعد ، اية كانت اهميتي من الضآلة ، وصيق من الخمول . كانت تبعة الدفاع الوطني ملقاة على عاتق السلطات العامة ، فعزمت على ان أثير النقاش امامها .

وكان ان تحالفت ، قبل كل شيء ، مع اندريه بيرونو ، رئيس تحرير « صدى باريس » ، ثم مدير « الايبوك » (العصر) ، فأخذ على عاتقه اطلاع الرأي العام على مشروع الجيش الآلي ، وان يلاحق السلطة بلا هوادة عن طريق صحيفة كبرى . ونشر اندريه بيرونو ، وقـــد ربط معركته بالاحداث الجارية ، أربعين مقـــالاً ذات غور عميق ، جعلت الموضوع شائعاً ومعروفاً . وراح معاوني الصديق يبين في صحيفته ، لدى كل مرة تسترعي بها الحوادث الانتباه للدفاع الوطني ، ضرورة إنشاء الهيئة العسكرية المختصة . ومذ كان الناس على علم بأن المانيا تولي آليات الهجوم والاستغلال ، جهدها الجوهري في التسلح ، فقد راح بيرونو يطلق صرخات الانذار والاستنفار التي كان يخنقها عدم الاكتراث السائد .

وكان قد اثبت لدى عشرين مناسبة ان كثافة القوات الالمانية المدرعة تستطيع ، بمساندة الطيران ، ان تدكّ بغتة دفاعنا ، وتلقي في صفوف شعبنا ذعراً لا يملك ان يتغلب عليه .

وفيما كان اندريه بيرونو يؤدي عمله المثمر ، راح نفر من الصحافيين

والنقاد يطرحون القضية ، على الأقل ، امثال ريمي رور والجنرال باراتيه « الطان » وجان ماري بورجه ، والجنرالان « دي كيدياك ودوفال في « الجورنال دي ديبا » واميل بوري وشارل جيرون في « الاوردر » واندريه ليكونت في « الاوب » والعقيد اميل ماير ، ولوسيان ناشان ، وجان اوبرتان ، في مجلات شتى الخ ... ومع ذلك ، فقد كانت جملة المحصول من الوقائع جد كثيفة ، بحيث لا يمكن البدء بتقطيعها على يد المقالات الصحفية . وكان علينا ان نجمل القضية ملحة بحيث تحمل السلطات السياسية في البلاد على تدارك القضية .

وبدا لي السيد بول رينو جديراً كل الجدارة بإداء هذه المهمة ، فقد كان ذكاؤه من علو المستوى بحيث يتفهم الاسباب الكامنة وراءها ، وألمعيته من الدقة بحيث تحدوه على ادراك اهميتها ، وشجاعته من الوفرة بحيث يساندها ، وكان السيد رينو ، على بعد صيته وشهرته ، يعطي الانطباع عن شخصيته انه رجل ذو مستقبل عظيم . رأيته ، وأقنعته ، ومنذ ذلك الحين رحت أعمل معه .

وفي ١٥ آذار (مارس) عام ١٩٣٥ القى من على منبر مجلس النواب خطاباً مؤثراً ، بليغاً ، بيّن فيه لماذا وكيف ينبغي ان يتم تنظيمنا العسكري بجيش آلي ممتاز . وبعد ذلك بقليل ، قدّم ، وكانت الحكومة تطلب الاقتراع لسنتين ، مشروع قانون يرمي الى « انشاء جسم عسكري مختص ، على الفور ، مؤلف من ست فرق ميدان ، وفرقة خفيفة ، واحتياطي عام ، ومصالح يشرف عليها عسكريون يخدمون بالتعاقد ، على ان يمارس ذلك الجسم عمله فعلياً في ١٥ نيسان (ابريل) من عام ١٩٤٠ ، على أبعد تقدير » . وظل السيد بول رينو ثابتاً في موقفه ذاك طيلة ثلاث سنوات ، ظل يؤكده في عدة خطب هزت الهيئة البرلمانية في اعماقها ، ثم في كتاب جعل عنوانه « المشكلة العسكرية الفرنسية » ،

كان في ومضات آنية ، ولم يتخذ شكل حكم صريح ضدي . وكان من هذا القبيل ما حدث مثلاً في قصر « الاليزه » عند نهاية جلسة عقدها مجلس الدفاع الأعلى – وكنت سكرتيره – واذا بالجنرال موران يبادرني بحدة : « وداعاً يا ديغول ! حيثما اكن لن يكون لك مقعد ! » وكان يصرخ في وجه زائريه ، في مكتبه ، حين يتحدثون اليه عني . وهو يقول « اتخذ لنفسه عصا قلم : بيرونو ، وحاكيا : بول رينو . سأرسله الى كورسيكا ! » غير ان الجنرال موران ارتفع بروحه ، رغم زمجرة الصاعقة على لسانه ، ولم ينفذ وعيده . وبعد ذلك بقليل ، تبنى السيد « فابري » الذي حل محله في وزارة الدفاع ، والجنرال غاملان الذي جاء عقباً للجنرال فيغان في رئاسة الاركان العامة مع احتفاظه برئاسة اركان الجيش – تبنى هذان السياسة السلبية نفسها التي أخذ بها سلفاهما ، تجاه المشروع ، واتخذا تجاهي الموقف نفسه المتضايق المضايق .

بيد ان المسؤولين في قرارة سرائرهم لم يتسامحوا باظهار الحساسية الخفية التي كانوا يستشعرون بها ازاء حججي ، وهم يؤيدون « الحالة الراهنة » . لقد كانوا ، من جهة اخرى ، على جانب كبير من التنبه يدفعهم الى الامعان في إظهار ايمانهم الشديد بصحة اعتراضاتهم الخاصة . وما كانوا ، حين يصرحون ان افكاري التي انشرها عن امكانات القوة الآلية ، متطرفة ، اقلّ شعوراً بالقلق ازاء القوة التي عمد « الرايخ » الى صنعها . وحين كانوا يزعمون ان في إمكان الوحدات العسكرية الكبرى الدفاعية العادية ان تنوب عن فرق الصدام السبع التي اقترحت انشاءها ، وكانوا يطلقون على تلك الوحدات وصف « المموترة » لان في المستطاع نقلها على الشاحنات ، انما كانوا يعرفون ، اكثر من اي انسان آخر ، ان امرهم ذاك ، ينطوي بكل بساطة ، على لعب بالكلمات . وحين كانوا يزعمون ان في تبني الهيئة الحربية المختصة ،

تصديعاً لجيشنا وجعله شطرين ، انمـــا كانوا يتظاهرون بالجهل ، لانهم يعلمون علم اليقين ان خدمة السنتين التي اقترع عليها وتالت الموافقة منذ ظهر كتابي ، تسمح عند الحاجة ، بادخال نسبة معينة من الجنـــود النظاميين في هيئة النخبة ، وان ثمة بحرية ، وطيراناً ، وجيش مستعمرات ، وجيشاً لأفريقيا ، ودركاً ، وحرساً متحركاً . وكل هذه ذات اختصاص ، لا يغير تماسك المجموع . وان ما يوحّد مختلف القوات الوطنية اخيراً ، ليست وحدة العتاد المادي وهيئاتها الادارية ، وانما يوحدها هذا الواقع ، الا وهو انها تخدم وطناً بذاته واحداً ، في ظل قوانين واحدة ، حول علم واحد بذاته .

كنت اذن انظر بأسى وأسف الى هؤلاء الرجال البارزين ، وهم يجعلون من أنفسهم أبواق امان تذيع ما تسمع ، سيراً مع ضرب من ولاء مقلوب ، لا مرشدين يلحون في الارشاد . ومع ذلك كنت أشعر ، وراء اقتناعهم الظاهر ، انهم يحنّون الى الآفاق الـتي تنفتح أمامهم . وذلك اول حادث اعترض سبيلي في سلسلة طويلة من الحوادث حيث لقيت قسماً من النخبة الفرنسية ، حكمت على كل واحد من الاهداف التي انسقت الى متابعتها ، بالاخفاق ، ولكنها كانت في قرارة نفسها ، في وحشة من شعورها بالعجز والتجائها الى الجهر به ، توافقني ، مـن خلال ملاماتها ، وهي تبدي لي أسفها لما بدر منها تجاهي .

كان القدر يتابع مجراه . وهتلر أصبح الآن على علم بما يصح ان يتخذ من مواقف تجاهنا ، فراح يفتتح سلسلة ضربات القوة . وكان عام ١٩٣٥ قد خلق ، بمناسبة استفتاء السار ، جواً مفعماً بالتهديد لدرجة تخلت معها الحكومة الفرنسية عن خوض المعركة قبل ان يبدأ العراك . وكان من جراء ذلك بالتالي ، ان انجذب اهل السار ، وقـد خالجهم الهول مع التهويل ، الى الجانب الجرماني المتفجر ، واقـترع سوادهم

فعلاً في مقدمة ، وضعها لكتاب الجنرال « شوفينو » ، ذي العنوان : « اما يزال الغزو ممكناً ؟ » ، وفيهـــا يعلن اعتقاده ان الدبابات والطائرات لم تبدل معطيات الحرب ، وان العنصر الرئيسي في الأمن الفرنسي ، انما يكمن في الجبهة المستمرة التي تعززها التحصينات . ونشرت « الفيغارو » بتوقيع جان ريفيير سلسلة مقالات مُرضية ، مطمئنـة : « الدبابات ليست مما لا يغلب ؛ ضعف الدبابات ، عندما يضلّ الساسة ، الخ » ... وفي « ميركور دي فرانس » نشر جنرال (بثلاث نجوم) مقالاً يطرح به مبدأ « الموترة » نفسه ارضاً ، ويصرح قائلاً : « على الالمان بطبيعة الحال ، وهم هجوميون ، ان يكون لديهم فرق بانتسير ، ولكن فرنسا المسالمة ، المدافعة ، لا تستطيع ان تكون الا ضد الموترة » .

وثمة انتقادات لجأت إلى استخدام التهكم ، اذ كتبت احدى المجلات الادبية الكبرى : « ان المرء ليضيق ذرعاً في تقييم الأفكار التي تقارب حالة الهذيان ، مع الاحتفاظ بالتهذيب المنشود . ولنقل ببساطة إن السيد ديغول كان قد سبقه الأب اوبو ، لعدد من سنوات خلت ، وهذا كان هو ايضاً من رجال التكنيك الكبـار ، بمـا لديه من افكار حديثة ، اذ قال : « بما اننا سنعود من بولونيا ، فاننا نتخيل ، على يد علمنا في الفيزياء ، آلة هوائية لنقل الجيش برمته » .

واذا كان الجمود لدى فئة المحافظين بدا معادياً في الاساس ، فان فئة الحركيين لم تظهر استعداداً احسن من تلك ؛ فقد اعرب ليون بلوم في جريدة « البوبولير » من عدد تشرين الثـاني - كانون الاول ١٩٣٤ ، دون مداراة ، عن الكراهية والقلق الذين اثارتها في نفسه خطتي ، فقد انتصب هو ايضاً ، ضد الهيئة الحربية المختصة ، في عـــدة مقالات : « جنود محترفون وجيش محترف » و « نحو الجيش المحترف ؟ » ،

« فليسقط الجيش المحترف » ! وما كان قط ليفعل ذلك ، وهو يدعو الى مصلحة الدفاع الوطني ، وإنما باسم مثالية فكرية (ايديولوجيا) ينعتها انها ديموقراطية وجمهورية ، وقد اراد ان يرى على نحو تقليدي ، فيما هو عسكري ، تهديداً للنظام . كان ليون بلوم اذن يُلقي حكم التحريم على هيئة من المحترفين الحربيين ، يضع الجمهورية ، في تشكيلها ، وروحها ، وأسلحتها ، حسب اعتقاده ، في خطر .

وهكذا اقتنعت السلطات الرسمية في العدول عن كل تغيير ، يدعمها في ذلك اليمين واليسار . ورُفض مشروع السيد بول رينو من قبل لجنة الجيش في مجلس النواب ، والتقرير الذي قدمه السيد « سيناك » حول هـذا الموضوع ، وصيغ بالتعاون المباشر مع هيئـة اركان الجيش ، يختتم ملاحظاته ان الاصلاح المقترح : « لا جدوى فيه ، ولا هو مرغوب ، وان المنطق والتاريخ يقفان ضده » . ورد الجنرال « موران » من على منبر الندوة البرلمانية ، وكان وزير الحربية ، على الخطباء المؤيدين لمشروع الاصلاح وانشاء هيئة مناورة ، قائلاً : « اننا وقد بذلنا ذلك المقدار من الجهد في بناء سد محصن ، هل لنا ان نترك مجالاً بعد للاعتقاد اننا سنكون على جانب من الجنون يسوقنا الى تجـاوز ذلك السد لنندفع وراء مغامرة لا ادري ما هي ؟ » . وأضاف : « ان هذا الذي اقوله لكم ، انما هو رأي الحكومة التي تعرف ، في شخصي على الأقل ، خطة الحرب معرفة تامة » .

كان هذا الكلام الذي يقرر مصير الهيئة المختصة الحربية ، قـد أخطر الواعين الطيبين من اهل اوروبا ، في الوقت نفسه ، ان فرنسا لن تقوم بأي مشروع ، مهما حدث سوى تجهيز خط ماجينو .

وكما كان منتظراً ، امتد الشجب الوزاري ، الى شخصي ، غير انـه

وفي مقالات صحفية شديدة اللهجة ومقابلات صحفية ، وأخيراً في محادثات حول الموضوع مع ساسة وعسكريين ذوي أهمية . وهكذا اتخذ صفة رجل دولة مجدد وحازم ، قمين بأن يمارس السلطة في الأوقات العصيبة .

ومذ كنت اعتقد ان من الخير ان تعزف الاغنية نفسها على مختلف ملاعب هذه الحلبة ، فقد رحت ابذل جهدي في ادخال رجال آخرين ممن يمارسون الحياة العامة . وما كان من السيد ليكور غرانميزون ، وقد افتُتن بما في الجيش المحترف من تجاوب مع تقاليدنا ، الا ان يجعل من نفسه رسول الفكرة ، بنبل وإقدام . وتقبّل ثلاثة من نواب اليسار وهم : فيليب سير ، ومارسيل ديا ، وليو لاغرانج – ممن تناسب مواهبهم لإبراز الجانب الثوري من ذلك التجديد – تقبّلوا دخول الميدان . فعل الاول منهم ذلك ، واقعاً ، بطريقة جد لامعة لدرجة اخذ معها صفة الخطيب المفوّه ، وبعد قليل من الزمن ، دخل الحكم . والثاني ، وكنت اعتمد بصورة خاصة على مواهبه ، انجذب الى طريق معارض ، بعد سقوطه في انتخابات عام ١٩٣٦ . والثالث منعه الحزب الذي هو احد اعضائه ، من توكيد معتقداته . ولكن ثمة رجالاً من ذوي القيم امثال بول بونكور في المجلس النيابي ، والرئيس ميللران في مجلس الشيوخ ، اسرّوا اليّ انهم يقفون بدورهم الى جانب الاصلاح المنشود .

غير ان المنظمات الرسمية ، مع ذلك ، ومؤيديها من ذوي النفوذ ، ابدوا تعلقاً بالنظام القائم اكثر من اعترافهم بالضرورات الاكيدة وقبول التغيير ، واكتفوا بتحوير الصيغة وتعديل الكيفيات . وقد قاموا بذلك ، لسوء الحظ ، على نحو بلغ من البت والجزم درجة قطعوا معها على انفسهم طريق التوبة من بعد ، فقد اجتهدوا ، وهم يقاومون فكرة

الجيش الآلي ، في تشويهها ، واستخدموا انفسهم ، لنقض التطور التقني ، والتشكيك فيه ، وتظاهروا ، خطة منهم في مقاومة الاحداث ، انهم يجهلونها . وتحقق لدي في تلك المناسبة ، ان مجابهة الافكار ، في اللحظة التي تجعل بها الضلالات المعتادة ، والرجال ذوي المناصب العالية ، موضع شك وتساؤل ، تتلبس بلباس المنازعات اللاهوتية ، وتمثل دورها ، وهو الدور الذي لا يتسامح ابداً .

لقد كان من الجنرال ديبني ، القائد الماجد ، اثناء الحرب الكبرى ، والذي وضع قوانين التنظيم العسكري عام ١٩٢٧ بوصفه رئيساً للأركان العامة ، كان منه ان شجب المشروع بصراحة . وقد عرض وجهة نظره بطريقة هي التسلط ، في « مجلة العالمين » مبيناً ان كل نزاع اوروبي ، انما يحسم آخر الأمر ، على حدودنا الشمالية – الشرقية ، وان المشكلة كلها ان نثبّت اقدامنا ونوطد مركزنا على تلك الحدود . فهو لا يرى اذن ما يدعو الى تغيير القوانين وتطبيقها ، في شيء ، ويلح على تقوية الجهاز الذي انبثق منها وحسب . وتدخّل الجنرال فيغان بدوره في الموضوع ، في « مجلة العالمين » نفسها ، واذا به يسلم ، مبدئياً ، ان فكرتي تقسم الجيش الى شطرين ، ويصرخ محتجاً : « لن يكون جيشنا جيشين ، مهما كان الثمن » ! اما الدور الذي حددته للهيئة المختصة ، فانه لا ينكر فائدته ، ولكنه يؤكد ان في الامكان ان تؤديه عناصر عسكرية سبق ايجادها . وقد اوضح ذلك قائلاً : « ان لدينا احتياطياً آلياً ، موتراً ومعداً للتسيير السلي . فما من حاجة الى ايجاد شيء جديد ، فكل شيء موجود » . وكان الجنرال فيغان ان تحدث الى الجمهور في مدينة « ليل » ، في ٤ تموز (يوليو) ١٩٣٩ ، فأعلن ايضاً انه لا ينقصنا ، في رأيه ، شيء .

وحسب الماريشال « بيتان » ان عليه ان يخوض الميدان ، وخاصه

بجملته ، مـــع الرايخ الثالث . وانتقل موسوليني من جانبه ، متحدياً عقوبات جنيف ، بفضل التأييد الذي لقيه من وزارة « لافال » وتسامح حكومة « بلدوين » ، الى غزو الحبشة . وفجأة اجتاز الجيش الالماني في ٧ آذار (مارس) ١٩٣٦ نهر الراين .

كانت معاهدة فرساي تمنـع جنود « الرايخ » من عبـور أراضي الضفة اليسرى التي جعلتها معاهدة لوكارنو ، مضافاً الى ذلك ، منطقة محايدة . وكان في مستطاعنا من ناحية حقوقية خالصة ، ان نعيـــد احتلالها ، ما دامت المانيا قد تنكرت لتوقيعها . ولو كانت الهيئـة الحربية المختصة قائمة في الوجود ، ولو في جزء منها ، بما لديهـــا من اسلحة آلية سريعة ، ورجال يشرفون على تنظيمها ، مستعدين للزحف ساعة تقتضي الزحف ، لكانت قوة الأشياء الطبيعية ، حملتهـــا دفعة واحدة ، الى الراين . وبما ان حلفاءنا البولونيين ، والتشيك والبلجيكيين ، كانوا على استعداد لتأييدنا ، والانكليز منضمين سلفاً الينا ، لكان هتلر قد تراجع بكل تأكيد . اذ كان فعلاً يومذاك ، في بداية تسلحه ، ولما يزل اضعف من ان يواجه نزاعاً شاملاً . غير ان هزيمة كهذه ، توقعها به فرنسا في تلك الحقبة توشك ان تكون ذات نتائج مدمرة له ، في بلاده نفسها ، ولكان في اقدامه على مثل تلك اللعبة ، قابلاً لأن يخسر ، بضربة واحدة ، كل شيء .

لقد ربح كل شيء . ذلك لأن تنظيمنا ، وطبيعة وسائلنا ، وروح دفاعنا الوطني نفسها ، كانت تجنح بالسلطة نحو الجمود الذي تنزع اليه نزعة شديدة ، وتمنعنا من السير . وما دمنا غير مستعدين الا للاحتفاظ بحدودنا ، وكنا نمانع انفسنا في اجتياز تلك الحدود اية كانت الحال ، لم يكن لأحد ان ينتظر رداً من فرنسا . وكان الفوهرر متأكداً من ذلك ، والعالم كله لمس ذلك لمس اليد . وبدلاً من ان يجد الرايخ نفسه

مكرَهاً على سحب جنوده المغامرين ، راح يركزهم دون ان يطلق طلقة نار واحدة على اراضي الضفة اليسرى كلها من « رينانيا » ، المتصلة مباشرة بفرنسا وبلجيكا . وكان في مستطاع السيد « فلاندان » وزير الشؤون الخارجية في ذلك الحين ، وهو مثخن الروح ، ان يذهب الى لندن ، ليتبين نيات انكلترا . وكان في مستطاع السيد « سارو » ، رئيس مجلس الوزراء ، ان يصرح ان حكومة باريس « لا تقبل ان تكون ستراسبورغ على مرمى المدفع الالماني » . وكان في مستطاع الدبلوماسية الفرنسية ان تحصل من عصبة الامم على لوم مبدئيٍّ لهتلر . وما كانت هذه الاشياء سوى ايماءات وكلمات في وجه الأمر الواقع .

غير ان الانفعال الذي أثاره الحادث في الرأي العام ، كان ، في حسّي ، سليماً . وكان في وسع السلطات العامة ان تفيد منه في سد ثغرات قاتلة . فعلى الرغم من انهاك الناس آنذاك في الانتخابات ، والازمة الاجتماعية التي تلتها في فرنسا ، فانهم كانوا جميعاً ، على وفاق حول تقوية دفاع البلاد . ولو كان الجهد قد انصرف الى انشاء الاداة التي تنقصنا ، لكان جوهر السلطة قد سَلِم . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فان الاعتمادات العسكرية الضخمة التي فتحت عام ١٩٣٦ ، استخدمت في إتمام الجهاز القائم ، لا في تبديله .

غير انه خُيِّل لديّ ، مع ذلك بعض الأمل . كان يبدو لي في قرارة هاتيك البلبلة الكبرى التي كانت تغمر حياة الأمة آنذاك ، وكانت السياسة اطارها في مزيج انتخابي وبرلماني يطلقون عليه اسم « الجبهة الوطنية » . كان يبدو لي ان ثمة عنصراً نفسياً يتيح تحطيم الروح السلبي السائد ، اذ لم يكن امراً غير معقول ان تعمد الجمهورية الفرنسية برمتها ، ودفعة واحدة ، الى تغيير بنيتها الاجتماعية واصلاح قوتها العسكرية ، حيال ما تشهد من انتصار الاشتراكية ــ الوطنية في برلين ، وسيادة الفاشستية في روما ، ودنو الكتائبية من الظفر في مدريد . وفي شهر تشرين الاول

(اوكتوبر) ارسل ليون بلوم رئيس الوزراء يدعوني لمقابلته . وحدث ان لقاءنا تمّ بعد ظهر اليوم نفسه الذي اعلن به ملك بلجيكا إنهــاء التحالف مع فرنسا وانكلترا ، وبرّر اعلانه ذاك زاعماً ان هذا الحلف لن يحميه اذا هاجمت المانيــا بلاده ، وصرح قائلاً : « الواقع اننا سنكون وحدنا في المعمعة ، اية كانت الحال ، بالنظر الى امكانات القوى الآلية الحديثة » .

اكد لي « ليون بلوم » بحرارة ، الاهتمام الذي يوليــه افكاري ، فقلت له : « ولكنك مع ذلك ، حاربتها » ، فأجابني : « ان المرء ليغيّر الزاوية التي ينظر منها حين يصبح رئيساً للحكومة » . وتحدثنــا اولاً عما يمكن ان يحدث فيما لو زحف هتلر ، كما كان متوقعــاً ، على فيينا ، أو على براغ او على فرصوفيا ، فأبديت هذه الملاحظة : « الأمر جد بسيط ، نستنفر حسب الظروف الطارئة ، ما تيسر من جاهز او نعبىء جيوشنا الاحتياطية ، وعنــد ذاك ننظر من شرفات أعمالنا ، ونشهد سادرين ، استعباد اوروبا » . وصرخ ليون بلوم : « ماذا ؟ أتريد ان نوجّه حملة ُتغير من النمسا ، وبوهيميا ، وبولونيا ؟ » فقلت : لا ! ولكن اذا تقدم الجيش الالماني زاحفــاً على « الدانوب » او « الايلب » ، فلِمَ لا نذهب نحن الى الراين ؟ وفيما هو ينحــدر الى « الفيستول » لِمَ لا ندخل نحن منطقة « الرور » ؟ وخلاصة الامر ان مجرد اقتدارنا على القيام بهــذه الردود ، يحول بلا شك ، دون هــذه الاعتداءات . ولكن جهازنا الراهن يمنعنــا من التحرك . بينما القطع المدرعة ، تحملنا على التصميم والمضاء . أليس صحيحاً ان حكومة مــا تجــد بعض الفرج والراحة اذ تشعر انها موجّهة سلفاً ؟ » . وكان ان وافق رئيس الوزراء على ذلك بطيبــة خــاطر ، ولكن صرح قائلاً : « الأكيد انه سيكون من المؤسف ان يفرق اصدقاؤنا ، مؤقتــاً ، في

اوروبا الوسطى والشرقية . ومع ذلك ، فان شيئاً لن يُفعل مع هتلر ، ما دام لا يوجه ضرباته الينا . وكيف له ان ينال منا ؟ انت توافق ان جهازنا الدفاعي متفوق وان كان لا يصلح للهجوم » .

بينتُ ان ليس في الامر شيء من ذلك ابـــداً . ولاحظت ، وأنا اذكّره بتصريحات الملك البلجيكي « ليوبولد » الثالث التي نشرتها صحف الصباح ، ان افتقاد نخبة آلية ، وضعنا في مرتبة دنيا بالنسبة للالمان ، وخسرنا بسببه محالفة البلجيك ، فلم يجادل رئيس الحكومـــة في ذلك ، رغم انـــه كان يحسب ان موقف « بروكسيل » لا يعود الى اسباب استراتيجية وحسب .

وقال : « ان جبهتنا الدفاعية ، على كل حـــال ، ومواقفنا المحصنة تحمي اراضينا » . فأجبته : « لا شيء اقل تأكداً من ذلك ، ففي عام ١٩١٨ لم يكن ثمة من جبهة لا تخرق . ومع هذا ، اي تقدم احرزت الدبابات والطائرات منذ ذلك الزمن ؟ وغداً يصبح العمل المركّز الذي يؤديه عدد كاف من السلاح الآلي ، قابلاً لأن يدك اي حاجز دفاعي ، في اي قطاع يختاره المهاجم ومتى فتح الالمان ثغرة واحدة ، يغـــدو في امكانهم ان يندفعوا ، بعيداً وراء خطوطنا ، ككتلة مدرعـــة سريعة يساندها جيشهم الجوي . فاذا كان لدينا مقدار ما لديهم من اسلحة آلية وطائرات ، امكن تعويض كل شيء ، وإلا خسرنا كل شيء ! » .

وصرح لي رئيس الوزراء ان الحكومة رصدت ، بموافقة البرلمـــان ، اضافة على الموازنة العـــادية ، اعتماداً لنفقات كبرى خُصصت للدفـــاع الوطني ، وان قسماً كبيراً من الاعتمادات مخصص للدبابات وسلاح الطيران ، فلفتُّ انتباهه الى ذلك الواقع ، وهو ان الطائرات المنوي صنعها ، انما ستكون كلها تقريباً مخصصة للصد لا للهجوم . اما الدبابات ، فالمراد ان

يصنع منهـا ، في ثـمة اعشارها طراز « رينو » و « هوتشكيس » ١٩٣٥ ، وهي حديثة في نوعها لكنها بطيئة ، وثقيلة ومسلحة بمدافع صغيرة ، قصيرة ، صنعت لمواكبة المشاة في القتال ، وما هي للتشكل في شيء ، مجموعاً مستقلاً من وحدات كبرى . ثم ان احداً لا يفكر فيها ، ويظل تنظيمنا العسكري اذن على ما كان عليه . وأبديت هذه الملاحظة : « اننا في الطريق الى انشاء قدر مـا نستطيع من سلاح آلي ، وإنفاق المـال اللازم لجيش آلي ، ثم لن يكون لدينا هـذا الجيش » . فلاحظ الرئيس : « ان استخدام الاعتمادات المرصدة لوزارة الحربية ، من شأن السيد « دالادييه » ، والجنرال « غاملان » فأجبته : « لا شك في ذلك . واسمح لي ، مع هـذا ، ان افكر في ان الدفاع الوطني يقع على عاتق الحكومة » .

كان جرس الهاتف قد دق ، خلال حديثنا ، عشر مرات ، وفي كل مرة ينصرف ليون بلوم الى مسائل برلمانية وادارية جد طفيفة . وفيما أنا استأذن بالذهاب ، وهو منهمك في الرد على الهاتف ، اشار إشارة المتعب الضجر ، وهو يقول : « لاحظ مـا اذا كان من الهين على رئيس الحكومة ان يتابع الخطة التي رسمها ، في الوقت الذي لا يستطيع به ان يتابع الفكرة الواحدة مدة خمس دقائق » .

وعلمت من بعد ان رئيس الوزارة لن يزعزع اعمدة الهيكل ، رغم تحسسه العميق بالحديث الذي جرى بيننا ، وان الخطة الموضوعة من قبل ، ستنفذ كما هي . وراح يبدو لي ، منذ ذلك الحين ، ان فرصتنا في توازن القوى ، وفي الوقت المناسب ، مع قوة « الرايخ » الجديدة ، مشرفة على الضياع . وكنت في الواقـع ، مقتنعاً ، ان طبع هتلر ، وعقيدته ، وسنّه ، والاندفاعة نفسها التي زود بها الشعب الالماني ، لن تسمح له بالانتظار . اصبحت الأمور تجري الآن بسرعة وكان على

حكام فرنسا ، كي تلحق الركب وتعوض عن تأخرهـــا ، ان يريدوا لها ذلك .

وفي اول أيار (مايو) ١٩٣٧ ، قامت فرقة بانتسير كاملة باستعراض في شوارع برلين ، يواكبها في الجو مئات من الطائرات . وكان انطباع المشاهدين ، وعلى رأسهم السيد « فرنسوا بونسيه » سفير فرنسا ، وملحقينا العسكريين خاصة ، ان هذه قوة لا يملك ان يقف شيء في طريقهـا ، سوى قوة مماثلة . ولكن تقاريرهم لم تحمل حكومة باريس ، على تبديل الاستعدادات التي اتخذتها . وفي ١١ آذار (مارس) ١٩٣٨ ، حقـق هتلر الانشلوس[1]، فقد اطلق على فيينا فرقة آلية ، كان مجرد مظهرها وسيلة الى اكتساب الرأي العام . ودخل معها في مساء ذلك اليوم نفسه العاصمة النمساوية دخول الظافر . وبدلاً من توعية الفرنسيين ازاء ذلك الجبروت ، راح بعضهم يطمئن الجمهور الفرنسي بالتصوير الساخر للعطل الذي طرأ على بعض الدبابات الالمانية خلال ذلك الزحف المقتسر ، وما وما كان لأحد ان يعتبر ، فضلاً عن ذلك ، بدروس الحرب الأهليـة الاسبانية ، حيث كانت الدبابات الايطالية ، وطائرات الهجوم الالمانية ، على ضآلة عددها ، تلعب الدور الرئيسي في كل ميدان خاضته .

ثم كان من الفوهرر ان قضى ، خـــلال ايلول (سبتمبر) ، على تشيكوسلوفاكيا ، بتواطؤ مع لندن ، وباريس من بعد . وخطب قبل ثلاثة ايام من مونيخ في قصر الرياضة في برلين ، فوضع النقاط على الحروف ، وسط أهازيج الفرح وهتافات الحماسة ، صارخاً : « الآن أستطيع ان اعترف علانية بما كنتم كلكم تعرفون . لقد حققنا تسلحاً لم يسبق للعالم قط ان شهد ما يماثله » . وفي ١٥ آذار (مارس) انتزع من الرئيس

---

(١) الانشلوس : وحدة النمسا مع المانيا . (المترجم)

« هاشا » الاستقالة النهائية ، ودخل براغ في اليوم نفسه ، وفي مطلع ايلول ، انهال على بولونيا ، وكانت فرنسا خلال هذه الفصول المتلاحقة من المأساة الواحدة ذاتها ، تقوم بدور الضحية التي تنتظر دورها .

وكنت من جانبي اشهد هذه الحوادث غير مفاجأ بها ، ولكن لا من غير ألم ، فبعد ان شاركت ، عام ١٩٣٧ في اعمـــال « مركز الدروس العسكرية العليا » ألقيت الامر بقيادة فوج الدبابات رقم ٥٠٧ في مدينة متز . وكانت واجباتي كعقيد (كولونيل) وابتعادي عن باريس ، تحرمني من التسهيلات والاتصالات الضرورية لمساعـــدة فكرتي الكبرى وكسب المؤيدين لها . وكان السيد « بول رينو » قد دخل ، من جهة ثانية ، حكومة « دالادييه » في ربيع ١٩٣٨ ، وزيراً للعدل ، ثم للمال . وكان تركيز توازننا المالي والنقدي ، عدا التضامن الوزاري الذي يربطه بغيره ، يشكل مهمة يستغرق اداؤها كل وقته . غـير ان العناد الذي اظهرته السلطة ، في الابقاء على جهاز عسكري جامد على الاخص بينما كانت الحيوية العسكرية الالمانية تبسط ظلها على اوروبا ، وعمه النظام الذي كان يتابع بهلوانياته الخرقاء تجاه « رايخ » متأهب للوثوب علينا ، وبلاهة المغفلين الذين كانوا يصفقون لما جرى في « مونيخ » — كل ذلك لم يكن في الحقيقة ، سوى نتائج لتخل عميق عن حمل التبعات الوطنية . ولم يكن في وسعي ، ازاء هذا ، ان اعمل شيئاً . ومع ذلك ، نشرت وانا شاعر بالعاصفة تدنو ، « فرنسا وجيشها » ، وفيه بيّنت كيف ان روح البلاد ومصيرها ينعكسان من قرن لقرن عـــلى الدوام ، في مرآة جيشها . وكان ذلك تحذيراً نهائياً ، وجهته من مقامي المتواضع الى الوطن ، عشية الكارثة .

وحين رضيت الحكومة الفرنسية في ايلول ١٩٣٩ ، على غرار الوزارة الانكليزية ، دخول النزاع الذي بدأ في بولونيا ، لم يكن لدي ادنى

شك انها فعلت ذلك ، وهي واهمة ان القتال لن يكون جدياً ، وعميقاً رغم اعلان حالة الحرب . وقد شهدت ، من غير شعور بالدهشة ، وانا قائد الدبابات في الجيش الخامس ، في الألزاس ، قواتنا المعبأة تخلد الى السكينة والركود ، بينما تُصعَق بولونيا خلال اسبوعين ، على يد فرق البانتسير والاسلحة الجوية . صحيح ان التدخل السوفياتي عجّل في سحق البولونيين ، ولكن كان في موقف ستالين الذي انحاز الى جانب هتلر فجأة ، وكأن قضيتها واحدة مشتركة ، ما يشير الى اقتناعه ان الفرنسيين لن يحركوا ساكناً ، وان أيدي « الرايخ » على هذا النحو ، مطلقة ، وان من الأفضل اقتسام الفريسة مع هتلر ، على ان تكون له وحده . وبينما كانت قوات العدو مشغولة برمتها تقريباً ، في منطقة « الفيستول » لم نكن نحن نعمل شيئاً ، ما عـــدا بعض التظاهرات في الانتقال الى الراين . لم نعمل شيئاً لوضع ايطاليا خارج المعمعة في تخييرها بين الغزو الفرنسي والتخلي عن تعهداتها في الحياد . واخيراً لم نعمل شيئاً لتحقيق الاتصال فوراً مع بلجيكا وبلوغ « لياج » وقناة ألبير .

وشاءت المدرسة الحاكمة ، بالاضافة الى ذلك ، ان ترى في هــــذا الركود ، استراتيجية مثمرة ، اذ راح الحكام ورئيس الوزراء في المقدمة ، يؤيدهم عدد من الوجهاء ، يجهدون في الاذاعــة والصحف ، ان يبينوا محاسن الجمود وفوائده ، ويقولون : اننا لنحتفظ عن طريقه دون خسائر ، بوحدة اراضينا . وجاءني السيد « بريسون » مدير جريــدة « الفيغارو » زائراً حين كنت في « فانغنبورغ » يسألني رأيي ، وحين سمع أسفي لسلبية قواتنا ، صاح متعجباً : « الا ترى اننا كسبنا في الماضي والحاضر معركة بيضاء في المارن ؟ » . ومررت اثناء كانون الثاني (يناير) بباريس ، وفيما كنت اتناول العشاء على مائدة بول رينو في شارع الريفولي ، لقيت هناك السيد ليون بلوم ، فقال هذا يخاطبني :

« ما هي تكهناتك ؟ » فأجبته : « المشكلة هي ان نعرف ما اذا كان الالمان يتجهون في هجومهم ، خلال الربيع المقبل ، نحو الغرب للاستيلاء على باريس ، ام نحو الشرق ليبلغوا موسكو » . ودهش ليون بلوم وقال : « أتفتكر في ذلك ؟ الالمان يهاجمون الشرق ؟ ولكن لمَ يذهبون ليتيهوا في مجاهل الاراضي الروسية ؟ الهجوم غرباً ؟ لكن ماذا يستطيعون ان يفعـــلوا ضد خط ماجينو ؟ » . وجاءني الرئيس « ليبران » زائراً يتفقد الجيش الخامس ، فعرضت له دباباتي ، وقـــال لي بلهجة ود : « افكارك معلومة عندي . ولكن يبدو لي ان الوقت اصبح جد متأخر على العدو ليطبقها » .

كنا نحن المتأخرين ، وقد بذلت في ٢٦ كانون الثاني (يناير) مع ذلك ، آخر جهد في هذا السبيل ، اذ وجهت الى ثمانين شخصية بارزة في الحكومة ، والقيادة ، والسياسة مذكرة اردت منها إقناعهم ان العدو سيبادر الهجوم بقوة آلية برية وجوية جد قويّة . وان في امكانــــه ، انطلاقاً من هذا الواقع ، ان يخرق جبهتنا في كل لحظـــة ، واننا نحن لافتقادنا عناصر معادلة ، نتعرض تعرضاً جلياً ، للاضمحلال امامه ، وان الواجب يقضي ، على الفور ، ايجاد الاداة المنشودة ، وان من الملحّ العاجل ، ونحن نغذّ السير في صنع الاسلحة الآلية الضرورية ان نجمع احتياطيّ الوحدات الراهنة او التي هي في طريق التشكيل ، وفي مستطاعها ان تنضم اليها عند الضرورة ، في جسم احتياطي آلي واحد .

واختتمت مذكرتي : « ينبغي ان لا يقع الشعب الفرنسي ، اياً كان الثمن ، فريسة الوهم السائد ، وهو ان الجمود العسكري الراهن ينسجم وطبيعة الحرب الجارية . العكس هو الصحيح ، فالمحرك يمنـــح وسائل التدمير الحديثة قوة ، وسرعة ، ومجال تأثير واسعاً ، بحيث ان النزاع القائم لا بد ان يتسم ، عاجلاً او آجـــلاً ، بحركات ، ومفاجآت ،

وانفجارات ، وتعقبات تتجاوز باتساعها وسرعتها اشد احداث الماضي هولاً وويلاً ... يجب ان لا ننخدع عن ذلك ! النزاع الذي بدأ يمكن ان يكون الاوسع ، والأعقد ، والأعنف من بين جميع النزاعات التي مرت بهـا الأرض . والأزمة السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والاخلاقية التي انبثق عنها تبلغ من العمق والشمول درجة تقضي معها لا محالة الى انقلاب كامل في مواقف الشعوب وبنيان الدول . وواقع الحال ، ان انسجام الاشياء الغامض يمد هذه الثورة بأداة عسكرية - جيش الآلات - متناسباً بالضبط ، مع أبعادها الجبارة . وما يزال امام فرنسا متسع كبير من الوقت لتستخلص النتيجة ! » .

لم تحدث مذكرتي هزة تذكر . بيد ان الافكار المبثوثة فيها والبراهين المعروضة انتهت الى إحداث بعض التأثير . وفي نهاية عام ١٩٣٩ ، كان لدينا فرقتان آليتان خفيفتان ، وعمد الى تشكيل ثالثة . ولكن هذه الفرق لم تكن سوى وحدات استكشاف كان في الامكان ان تقدم فوائد جلّى في كشف المناورات التي يقوم بها جحفل مدرع ، ولكن فائدتها تصبح ضئيلة ما دام ذلك الجحفل غير موجـود . وقرر مجلس الحرب الأعلى ، في ٢ كانون الأول (دسمبر) ١٩٣٨ ، بطلب ملح من الجنرال « بيّوت » ايجاد فرقتين مدرّعتين : الاولى تشكلت في مطلع ١٩٤٠ ، وكان من المفروض ان تشكل الثانية في آذار (مارس) من العام نفسه . وهناك دبابات من وزن ٣٠ طناً طراز « ب » وجدت نماذجها الاولى قبل خمسة عشر عاماً ، وشرع مؤخراً في صنع ثلاثمائة منها ، لتسليح تينك الفرقتين . ولكن كلا منهما كانت أبعد ما تكون عن تحقيق القوة التي اقترحتُ احداثها ، اية كانت مزيّة اسلحتها الآلية ، فقد اردتُ ان ان تشتمل على ٥٠٠ دبابة ، ولم يكن لهذه سوى ١٢٠ ، وكتيبة واحدة من المشاة تُنقل في شاحنات ، وكنت اريدها ذات سبع كتائب في

عربات ثقل أرضية . وكان لها جناحان من المدفعية ، ورأيي ان تكون ذات سبعة أجنحة مجهزة بمدافع سمتية ولن يكون لها جناح استكشاف ، ووجهة نظري انها في حاجة اليها . ولم اكن اخيراً ، أتصور استخدام الوحدات الآلية الا في شكل جحفل يتمتع باستقلال ذاتي ، منظم على هذا الاساس ، وذي قيادة منبثقة عن ذلك الاساس ايضاً . ولكن الذي جرى كان عكس ما اردت ، اذ لم تكن المسألة سوى صهر الفرق المدرعة في مختلف هيئات الجيش من الطراز القديم ، او إذابتها بتعبير آخر ، في الجهاز العام .

وكان التردد في التغيير الذي ينم عن خور في العزائم ويظهر على الصعيد العسكري ، يتجلى واضحاً في المجال السياسي ، فان ذلك النوع من التفاؤل الثرثار الذي بعثت عليه اول الامر هذه الحرب السخيفة ، وغذته الاوساط الحاكمة ، اخذ يدخل في طور المحاق ، اذ كان من شأن التعبئة لملايين الرجال وقصر الصناعة على انتاج الاسلحة ، والالتزام بنفقات ضخمة ، أن زودت الامة بذخيرة لتفجرات وعي خطيرة كان مفعولها قد ظهر من قبل في سياسات التنبيه للخطر وحمل الناس على توقيه . وما كان ثمة شيء ، من جهة اخرى ، ينم عن تضاؤل تدريجي في القوى لدى العدو ، وهو التضاؤل الذي كان بعضهم ينتظره نتيجة الحصار المضروب عليه . وما لم تعد السدة علانية لسياسة حربية غير المتبعة ، هذه السياسة التي لا يملك احد وسائلها ، فان كل واحد كان يوجه ما يشعر به من ضيق وفراغ وصبر ، ضد السياسة المتبعة . وكان النظام عاجزاً ، جرياً منه على عاداته ، عن اتخاذ التدابير التي تؤول الى تأمين الخلاص ، فأخذ في مراوغة نفسه وخداع الرأي العام ، وفتح ازمة وزارية ، اذ خذل المجلس في ٢١ آذار (مارس) وزارة دالادييه ، وفي ٢٣ منه شكل بول رينو الحكومة .

ودعيت الى باريس من قبل رئيس الوزارة الجديد ، فوضعت اجابة لطلبه ، بياناً موجزاً ، واضحاً ، فتبناه كما وضعه بحرفيته ، لإلقائه في البرلمان. وبينما كنت هدف الدسائس التي تضج في الكواليس ، دعيت لحضور جلسة البيان الوزاري في قصر بوربون .

كانت جلسة راعبة . وما كان لأحد ان يسمع ، خلال المناقشات ، بعد إلقاء بيان الحكومة من قبل رئيسها امام مجلس عابس مرتاب في نفسه ، سوى أبواق للفئات او الشخصيات الذين قدّروا انهم طعنوا في كرامتهم ، عند تشكيل الوزارة . وما كانت الاحاديث عن الخطر الذي يهدد الوطن ، وضرورة الجهد الوطني ، وتعاضد العالم الحر ، سوى مظهر انيق تردان به المزاعم والضغائن . وكان ليون بلوم الوحيد الذي لم يعرض عليه ، منصب في الوزارة ، وتكلم ، مع ذلك ، بتسام وترفّع . وبفضله استطاع بول رينو ، ان يكسب معركة الثقة ، وإن كانت لم تحرز الا ما بقيها السقوط لأنها نالتها بصوت واحد . وقد قال لي من بعد السيد هريو ، رئيس المجلس : « أنا لا أزال غير متأكد كل التأكيد ، انها نالتها » .

وقبل ان اعود الى مركزي في فالنسبورغ ، بقيت بضعة ايام الى جانب رئيس الوزارة في وزارة الخارجية (الكيه دورسي) . وكان في تلك الايام ما يكفي لأشاهد الى اي درجة بلغ ذلك العهد من الانحلال الخلقي . لقد كانت فكرة وقف الحرب قد اكتسبت انصاراً ومؤيدين نافذين في جميع الاحزاب ، في الصحافة ، في الادارة ، في دوائر المال والأعمال ، في النقابات . وكان المطلعون يؤكدون ان ذلك هو رأي المارشال بيتان السفير في مدريد ، والمفروض فيه ان يعرف ، عن طريق الاسبان ، ان الالمان يرضون طوعاً بتسوية ما . وكانت الشائعة تتردد على الألسنة في كل مكان ، تقول : « اذا سقط رينو ، فان « لافال »

سيتولى السلطة ومعه الى جانبه بيتان . وكان المارشال ، في الواقع ، قادراً على حمل القيادة على قبول الهدنة » . وكانت آلاف النسخ من المناشير ، تتسرب الى الجماهير ، حاملة في ثناياها ، على ثلاث صفحات ، صورة المارشال بوصفـــه اولاً رئيساً ظافراً في الحرب الكبرى ، مع العبارات : « بالأمس جندي عظيم ... » ثم : « اليوم سفير عظيم ... » وأخيراً باعتباره شخصية جبارة ، غير واضحة : « وغداً ؟ ... » .

يجب ان نقول : ان بعض الاوساط كانت تريد ان ترى العدو في ستالين اكثر مما تراه في هتلر ، وان اهتمامهـا كان منصرفاً الى وسائل ضرب روسيا ، اما ببذل العون لفنلندا ، وإما بقصف « باكو » ، وإما بإنزال جنود في استامبول ، اكثر ممـا هي منصرفـة الى الطريقة التي تتخلص بها من الرايخ . وكثيرون هم الذين كانوا يظهرون علانيـة الاعجاب الذي يشعرون به تجاه موسوليني .

وكان بعضهم يعمل ، حتى في قلب الحكومـة ، على حمل فرنسا ان تشتري رضا الدوتشي بالتخلي له عن جيبوتي ، وتشاد ، وإيلائـــه جزءاً من السلطة المشتركة في الوصاية على تونس . اما الشيوعيون فقد انحازوا الى القضية الوطنية انحيازاً منعماً بالضجة طيلة الحقبة التي وقفت بها برلين ضد موسكو ، وراحوا يعلنون الحرب « الرأسمالية » في اللحظة التي اتفق بها مولوتوف وريبنتروب . وأما الجماهير فانها كانت تتأرجح بين الشك والحيرة ، وهي المضللة ، الشاعرة ان مـــا من شيء ولا من شخص على رأس الدولة يستطيع السيطرة على الاحداث ، وكان من الواضح ان محنة خطيرة تبعث في البلاد موجة من الوجوم والذعر ، على قاب قوس او ادنى ، وانها توشك ان تجتاح كل شيء !

وحاول السيد بول رينو في هـذا الجو السقيم المضني ان يركـز

سلطته . وكان ذلك يزداد صعوبة بمقدار ما يتفاقم خلافه مع السيد دالادييه الذي كان في الحكم قبله ، وظل معه وزيراً للدفاع والحربية . ولم يكن في الامكان تبديل هذا الموقف العجيب لأن الحزب الراديكالي الذي تدين له الوزارة ببقائها في الحكم ، كان يتطلب ان يظل رئيسه فيها ، منتظراً ان يعود الى رئاستها ، لدى اول مناسبة . وكان بول رينو من جهة اخرى ، يحاول في سعيه وراء توسيع اكثريته الكسيحة ، ان يستميل المعتدلين ويلاشي تحفظاتهم تجاهه ، وكانت عملية دقيقة لأن جزءاً غير يسير من اليمين كان يتمنى مسالمة هتلر والتفاهم مع موسوليني . وهكذا ، وجد رئيس الوزراء نفسه مسوقاً الى استدعاء السيد « بول بودوان » وتعيينه اميناً مساعداً للدولة ، وهو المعروف بنشاطه الزاخر في تلك الاوساط ، ثم ايلائه امانة اللجنة الحربية التي انشأها .

والحقيقة هي ان السيد بول رينو كان قد فكر في ان يعهد اليّ بهذا المنصب ، فان لجنة الحرب التي كانت تؤمّن سير النزاع وتضم لهذا الغرض ، اهم الوزراء كما تضم رؤساء القيادة في الجيش ، والبحرية ، والجو ، كان في وسعها ان تلعب دوراً رئيسياً . وكانت مهمة امينها إعداد مذكراتها ، وحضور جلساتها ، وتدوين قراراتها ومتابعة تنفيذهـــا ، فكانت تبعاً لذلك ، كثيرة هي الاشياء التي تتوقف على الطريقة التي يمارَس بها اداء المهمة . ولكن اذا كان السيد بول رينو يتمنى فيما بدا ، ان اتولاها انا ، فان السيد دالادييه لم يشأ اعطاء موافقته ، فقد اجاب الرسول الذي بعث به اليه رئيس الوزراء ، في هذا الشأن : « اذا جاء ديغول الى هنا ، فني اترك هذا المكتب ، وأنزل الدرج وأتلفن للسيد بول رينو ان يضعه مكاني » .

لم يكن السيد دالادييه ينطوي ، في شيء ، على كراهية لشخصي . وكان قد اقام الدليل ، من قبل ، على ذلك في ان اتخذ بنفسه كوزير ،

قراراً بوضع اسمي على جدول الترقية الذي كانت تحاول ان تقصيني عنه الدسائس . ولكن السيد دالاديه اقر التظام العسكري القائم ، وهو الذي كان يحمل ، منذ عدة سنوات تبعة وزارة الدفاع . لقد تسمر في المواقف التي سبق ان اتخذها ، اكثر من اي وقت مضى ، مذ شعر ان الاحداث ستحسم الامور بين يوم وآخر ، وقدّر سلفاً نتائج تحكيمها ، وارتأى على اي حال ، أن تغيير التنظيم امسى جدّ متأخر . ولكن كان ابلائي امانة اللجنة الحربية على الرغم من معارضة وزير الدفاع الوطني امراً مستحيلاً . وعدت ادراجي الى الجبهة .

وكان عليّ قبل العودة ان اقابل الجنرال غاملان ، وهو الذي استدعاني الى مقره في قصر « فانسين » . وهناك لقيته في إطار يشبه إطار الدير ، محاطاً بقليل من الضباط ، يعمل ويتأمل دون ان يتدخل في شؤون المصلحة الجارية . وقد ترك الجنرال جورج يقود الجبهة الشمالية – الشرقية ، وذلك ما يمكن الاطمئنان لسيره ما دامت الجبهة هادئة . ولكن الأمر يغدو ، بلا ريب ، مقلقلاً ولا سبيل الى ضبطه اذا بدأ القتال . وكان الجنرال جورج مقيماً في « لا فرته – سو – جوار » مع فريق من اركان الحرب ، بينا تقوم مكاتب اخرى بأعمالهـــا في مونتري بادارة الجنرال دومنك الركن . والواقع ان عضو القيادة العليا كان مقسماً بين ثلاث قطعات ، وكانت الصورة التي انطبعت في ذهني عن الجنرال غاملان المعتزل في صومعته من فانسين ، صورة عالم يمازج في مختبره ، بين ردود الفعل الاستراتيجية .

كان اول ما اخبرني انه يريد رفع عدد الفرق المدرعة من اثنتين الى اربع ، واعلمني بقراره توليتي قيادة الرابعة ، تلك التي تتشكل ابتداء من ١٥ ايار . وايا كان الشعور الذي بعثه ذلك الخبر في نفسي من الوجهة العامة ، فإن تخلفنا في السلاح الآلي يظل داء غير قابل للشفاء .

وقد شعرت باعتزاز كبير في ان أدعى كمقيد ، الى قيادة فرقة .
وحين قلت ذلك للجنرال غاملان اجابني ببساطة : « انا افهم اغتباطك .
اما قلقك فلا اعتقد ان له مبرراً » .

وحدثني الجنراليسم ، حينذاك ، عن الموقف كما كان يراه . وقال لي ، وهو يكشف خريطة رسم عليها عتاد العدو وعتادنا ، انه يترقّب هجوم الالمان قريباً ، وهذا الهجوم ، حسب تكهناته ، سيكون موجّهاً في الدرجة الاولى الى هولندا وبلجيكا ثم ينصبّ نحو « البا دو كاليه » ليفصلنا عن الانكليز . وكانت هناك علامات شتى تحمله على التفكير ان العدو سيقوم قبل كل شيء ، بعملية تغطية او تشتيت نحو البلدان الاسكندنافية . ولم يكن في ذاته يبدو واثقاً بترتيباته الخاصة وقيمة قواته فحسب ، وانما كان مرتاحاً اليها ايضاً ، فارغ الصبر يود ان يضعها على محك التجربة ! وقد اقتنعت وانا استمع اليه ، انه لفرط ما رعى في نفسه منهجاً عسكرياً معيناً ، وعني بتطبيقه في حياته العملية ، جعل منه عقيدة لا تتزعزع . وخالجني الشعور ايضاً انه ، وهو الذي اتخذ من « جوفر » قدوة وكان في اوائل الحرب الكبرى معاونه المباشر ومُلهمه ، بعض الشيء ، أصبح على اقتناع ان الجوهري في مستواه ، انما هو ان يستقر عزمه مرة واحدة والى الابد ، على المضي في خطة محددة ، ثم لا يترك لنفسه مجالاً لان تحيد عنها من بعد ، مهما تحوّل التيار ؛ وما كان هو ذاته ذو الفهم البالغ ، وروح الدقة والسيطرة على النفس ، ليشك في شيء قط ، ان الظفر مقدّر له آخر الامر ، في المعركة القريبة .

وكان ان غادرت هذا الرئيس الكبير وانا احمل شعور الاحترام له ، ولكن كان يخالجني ايضاً شعور بالانقباض . غادرته وهو على استعداد في صومعته ليأخذ على عاتقه ، بصورة مفاجئة ، في الحال ، تبعة ضخمة ، لاعباً بالكل للكل على مائدة كنت أحسبها رديئة .

وبعد خمسة أسابيع انقضّت الصاعقة ، ففي العاشر من ايار (مايو) افتتح العدو هجومه الكبير ، بعد ان كان قد وضع يده على الدانمارك ، ثم على النروج كلها تقريباً . وروعي في ذلك الهجوم ان يكون من الفه الى يائه مسيّراً بالقوات الآلية والطيران وكثافة الجند ، وفق ما تقتضيه الحركة ، من غير ان تكون هناك حاجة الى توغّل في القتال ، اذ انقض على الغرب « هوث » و « كلايست » في حشدين من عشر فرق مدرّعة وستّ مموترة . واخترقت سبع من فرق البانسير هذه ، الآردين . وبلغت « الموز » في ثلاثة ايام . وفي ١٤ ايار ، عبرته الى « دينان » و « جيفيه » و « مونترمه » ، و « سيدان » ، بينما كانت تساندها اربع وحدات مموترة كبرى وتغطيها ، وكان سلاح الهجوم الجوي يواكبها بلا انقطاع ، وقاذفات القنابل الالمانية تشل مواصلاتنا ، وهي تضرب خلف جبهتنا سكك الحديد وملتقيات الطرق .

وفي ١٨ ايار ، كانت تلك الفرق السبع متجمعة حول سان – كنتان ، متأهبة للتوغل إما نحو باريس ، وإما نحو دنكرك ، وقد قطعت خط ماجينو ، وبددت جهازنا ، ولاشت احد جيوشنا .

وفي هذه الاثناء ، كانت الفرق الثلاث الاخرى ، يرافقها فرقتان مموترتان ، تقوم بعملها في « البلدان الواطئة » و « الفلاندر » ، حيث استخدم الحلفاء جيوش كل من هولندا وبلجيكا وبريطانيا ، وجيشين فرنسيين ، واستطاعت – فرق العدو الخمس المذكورة – أن تلقي في ذلك المجموع من الجيوش البالغ عدده ٨٠٠٠٠٠ مقاتل ، بلبلة لم تتمكن أن تخلص منها بعد ابداً ، حتى ليمكن القول ، ان ختْم القدر طُبِع ، وانتهى ما كان مقدراً ، خلال اسبوع . وراح الجيش والدولة ، وفرنسا تتدحرج كلها الآن ، حسب ايقاع بالغ العنف ، على المنحدر المحتوم الذي ساقنا اليه منذ زمن طويل ، ضلال لا حدّ له .

وكان هناك ، مع ذلك ، ٣٠٠٠ دبابة فرنسية حديثة و ٨٠٠ مصفحة. ولم يكن لدى الالمان اكثر من هذا. ولكن اعتدتنا هذه كانت ، حسب ما خطط سابقاً ، موزعة على قطاعات الجبهة. الا انها لم تكن قط ، مصنوعة ولا مسلحة ، في معظمها ، لتشترك في مناورة كثيفة. وحتى الوحدات الآلية الكبرى القليلة التي ترتفع الى مستوى المعركة خاضتها منفصلة ، فقد اضطرت الفرق الثلاث الخفيفة الاستكشافية التي خاضت ميدان لياج و « بريدا » ، الى الانكفاء على وجه السرعة ، وأعيد آنذاك استعمالها للحفاظ على احدى الجبهات. والفرقة الاولى المدرعة ، دمجت في جسم احد الجيوش ، واطلقت وحدها في الهجوم المعاكس ، في ١٦ ايار ، الى الغرب من نامور ، وما لبثت ان طوقت ودمرت. وفي اليوم نفسه ، نقلت الفرقة الثانية في سكة الحديد الى هرسون ، واذا بجنودها يتوارون بالتوالي ، وتبتلعهم الفوضى ، والاضطراب الشامل. وفي عشية ذلك اليوم تصدعت في الجنوب من « سيدان » الفرقة الثالثة التي تشكلت حديثاً ، واصبحت مزقاً فور دخولها المعركة مع أفواج فرقة من المشاة ، في هجوم معاكس خائب. ولو ان هذه الوحدات الآلية جمعت من قبل ، على ما فيها من ضعف ، لكانت قد وجهت للعدو ضربات مروعة. ولكنها ، وقد عزل بعضها عن بعض ، تحولت الى مزق بعد ستة ايام من سيرها لمنازلة الحشود الالمانية المدرعة. وما كنت قط لاجد من جانبي ، وانا اتبيّن الحقيقة عبر نُتف الاخبار التي تصلني ، ما يحملني في شيء ، على الشعور باني كنت مخطئاً.

ولكن المعركة تستل الجندي ، وان كانت خاسرة افدح الخسران ، من نفسه. وقد ملكت عليّ بدوري ، جملة حواسي. فقد تلقيت في ١١ ايار الامر بتولي قيادة الفرقة المدرعة الرابعة ، التي لم يكن لها وجود بعد ، ولكن عناصرها ، وقد اقبلت من نقاط جد متباعدة ،

وضعت شيئاً فشيئاً ، تحت تصرفي . واستدعيت في ١٥ ايار من « فيزينه » ، حيث كان مركزي ، الى مقر القيادة العامة لأتلقى مهمتي .

كان رئيس الاركان العام هو الذي اوضحها لي ، وكانت خطيرة . وقد قال لي الجنرال دومنك : « تريد القيادة انشاء جبهة دفاعية على « الايسن » و « الايليت » ، لتقطع على العدو طريقه الى باريس . وسينتشر فيها الجيش الرابع بقيادة الجنرال توشون ، المشكّل من وحدات استنفرت في الشرق . وعليك ان تكسب الوقت الضروري للتمركز في موقعك مع فرقتك ، العاملة وحدها امام منطقة « لاون » . وسيتكفل لك الجنرال جورج القائد الأعلى للجبهة الشمالية – الشرقية بتقديم الوسائل التي تستخدمها ثم انك مرتبط به وحده ، وبصورة مباشرة . والمقدم (الكومندان) شومل هو الذي يؤمّن الارتباط » .

واستقبلني الجنرال جورج هادئاً ، ودوداً ، ولكن مرهقاً فيما تراه العين منه . وأكد لي ما ينتظره مني ، وأضاف : « هيا يا ديغول ها قد واتتك فرصة العمل ، وأنت الذي كان يحمل ، منذ زمن طويل ، افكاراً يطبقها العدو » . وأخذت القطعات ، على الاثر ، تتجه نحو « لاون » ، في حدود ما يمكن ، على ان تكون تلك العناصر مما يخصني . وقد لحظت ان الاركان العامة تؤدي مهامها على افضل ما تستطيع ، وهي التي رزحت تحت مشاكل لا حصر لها ، ووضعتها امامها شؤون المواصلات والتنقلات التي كان يعاني منها الجميع تحت وطأة المفاجأة والانقلاب اللذين انتشرا في كل مكان ، خلال تلك الايام العصيبة . ولكن الشعور السائد ان الامل بالنصر تواري ، وان النابض تحطم .

وتسللت حتى بلغت « لاون » وتركزت في برويير ، الى الجنوب من شرق المدينة وطوّفت في الجوار . والواقع من امر القوات الفرنسية ،

انه لم يكن في تلك المنطقة سوى بضعة عناصر مشتتة تابعة لفرقة الفرسان الثالثة ، وحفنة من الرجال تحتفظ بقلعة لاون ، والكتيبة الرابعة المستقلة من المدفعية ، وقد عُهد اليها باستخدام ادوات كيماوية في الحالات الطارئة ، وكانت قد نُسيت هناك مصادفة . وكان ان ألحقت تلك الكتيبة بي ، وهي التي تتشكل من رجال ذوي بسالة وليس في ايديهم من اسلحة سوى بندقيات قصيرة ، فوضعتها على طول قناة « سيسون » ، لصيانة الأمن . وفي مساء ذلك اليوم نفسه ، طفق عسكر العدو الحربي يحتك بنا .

وفي ١٦ (ايار) قمت بجولة استطلاع وجمع معلومات ، ترافقني نواة من اركاني الحربية ، وكان الانطباع الذي تناهى اليّ من تلك الجولة ان قوات المانية ضخمة خرقت الآردين عن طريق « روكروا » و « ميزيير » ، ثم لم ترحف نحو الجنوب ، بل نحو الغرب ، لتكسب موقع سان ـ كنتان ، وهي تغطي ميسرتها بجانح نقل الى جنوب السير *Serre* . وكانت تتدفق ، على جميع الطرق ، مواكب يرثى لها من اللاجئين القادمين من الشمال . وقد رأيت في هؤلاء عدداً من العسكريين العزّل ممن ينتمون الى القوات التي بددتها فرق البانتسير المهاجمة خلال الايام القليلة الماضية . وكان من قطعات العدو الآلية ، حين ألقت القبض عليهم اثناء فرارهم ، ان وجهت اليهم الامر بإلقاء بنادقهم والسير نحو الجنوب كي لا يعرقلوا الطرق ، وهم يصرخون في وجوههم : « ليس لدينا الوقت لأن نجعل منكم اسرى » !

وتملكني آنذاك شعور بغضب جانح لا حد له ، ازاء ذلك المشهد لشعب تائه ضائع ، في تلك الهزيمة العسكرية ، ولدى سماع هاتيك الوقاحة المزرية بنا على لسان العدو . آه انها لحماقة كبرى ! لقد بدأت الحرب على نحو من السوء لا نهاية له . يجب اذن ان تستمر . وهناك ،

مجال فسيح في العالم ، لهذا الاستمرار . واذا انا بقيت على قيد الحياة ، فسأقاتل حيث يجب ان أقاتل ، وقدر مـــا يجب ان اقاتل ، الى ان يندحر العدو ، وتغسل اللطخة عن وجه الأمة . وكان كل مـــا قدرت على عمله من بعد ، انما صممتُ عليه في ذلك اليوم .

واستهلالاً لهذه الخطة ، سأمضي غداً صباحاً في الهجوم ، اية كانت القوات التي تصلني ، وسأحاول وأنا اتقـدم نحو الشمال الشرقي عشرين كيلومتراً ان ابلغ عند « السير » ، مونوكورنيه ، ملتقى الطرق المفضية الى سان – كنتان ، ولاون ، ورنس . وبهذا اقطع على العـــدو الطريق الاولى ، فلا يستطيع بعـد ان يستعملها في زحفه نحو الغرب ، وأسد الطريقين الاخريين اللتين تقودانه رأساً من جهة ثانية ، الى جبهة الجيش السادس المهلهلة . وتلقيت في فجر ١٧ ايار ثلاثـة افواج من الدبابات : واحدة من طراز « ب » (الفوج السادس والاربعون) ، تؤازرها سرية من طراز « د ٢ » وتنتمي الى نصف اللواء السادس ، والفوجـــان الآخران من طراز رينو ٣٥ (الفوج الثاني ، والرابع والعشرين) يشكـّلان نصف اللواء الثامن . ودفعتها الى الامـــام ساعة بزوغ النور ، فراحت تكب جنود العدو على وجوههم وهم الذين بلغوا في زحفهم مونوكورنيه من ارض المنطقة ، وظلت تقاتل حتى المساء في ارباضها وداخلها ، قاضية على عـدد من اعشاش المقاومة ، تهاجم القوافل الالمانيـــة التي تحاول المرور ، بالمدافع . ولكن العدو كان محصناً تحصيناً قوياً في منطقة « السير » . وما كان لدباباتنا التي لا يساندها شيء ان تقوى على اجتيازها .

ووصل خلال النهـار فوج القناصة الرابع ، ومـــا كاد ينزل حتى استخدمته على مقربة من شيفر ، في القضاء على طليعة عدوة تركت دباباتنا تمر ، وكشفت عن نفسها من بعد . وقد تم ذلك على عجل ، ولكن المدفعية الالمانية اخذت تطلق نيرانها علينا من شمال « السير » ،

وكانت مدفعيتنا ابعد من ان تنالها . ومضى النصف الثاني لذلك النهار كله ، وطائرات الشتوكا تنقضّ من الجو وتعود بلا انقطاع ، تقصف على نحو عمودي دباباتنا وشاحناتنا . وما كان لدينا شيء نرد بـــه عليها . وكان اخيراً من القطعات الآلية الالمانية ، ان عمدت الى مناوشة مؤخراتنا بشكل راح يتفاقم مع ازدياد عددها ، وأصبح علينا ، ونحن احداث صغار ، ضائعون على بعد ثلاثين كيلومتراً امام « الأيسن » ، ان نضع حداً لموقف كان مغامرة ، في أقل تقدير .

وأقبل الليل ، فوضعت للاحتكاك بالعدو ، فوج الاستطلاع (المدرع العاشر) الذي التحق بي ، واسترجعت الدبابات والقنـاصة نحو شيفر . وكان على ارض المعركة عدة مئات من القتلى الالمان ، وعدد من شاحنات العدو المحروقة . وأسرنا ١٣٠ رجلاً ، ولم تبلغ خسارتنا المائتين . وكان اللاجئون على الطرق ، في المؤخرة ، قـد كفوا عن الفرار ، حتى ان بعضهم ، رجع واسترد طريقه ، اذ سرت الاشاعة قوية في قلوبهم ، ان الجنود الفرنسيين تقدّموا .

اصبح الآن من واجبنا ان ننشط للعمل لا في الشمال الشرقي ، بل في شمال لاون ، لأن قوات عدوّة كبيرة اقبلت من « مارل » متجهة نحو الغرب ، على فير ، وهي تسير مع مجرى نهر « السير » . وأخذت الاجنحة الالمانيـة ، تنتشر في الوقت نفسه ، في الجنوب ، وأوشكت ان تبلغ الايليت . وأفادت الفرقـة المدرعة الرابعـــة من ليلة ١٨ — ١٩ ايار للتمركز في منافذ لاون الشمالية . وتلقيت امدادات اثناء ذلك : الفرقة المدرعة الثالثة المؤلفة من كوكبتي دبابات من طراز « صوموا » ، وفوج المدفعية ٣٢٢ ذات الثلثين من عيار ٧٥ . يضاف الى ذلك ان الجنرال « بيليه » ، قائد فرقة الفرسان الثالثة الخفيفـة ، وعـدني ان تساندني مدافعه المعدّة للعمل على مستوى ارتفاع لاون .

صحيح انه لم يكن لدي من اصل الـ ١٥٠ دبابـــة الموضوعة تحت تصرفي الآن ، سوى ثلاثين من طراز « ب » ومسلحة بعيار ٧٥ ، ونحو من اربعين طراز « د ٢ » ، او من شارة صوموا مع مدافع صغيرة عيار ٤٧ ، وان الباقي : رينو ٣٥ ، مما ليس لهـا سوى قطع قصيرة ٣٧ التي لا يتعدى مفعولها في الحد الاقصى ٦٠٠ متر . وصحيح انه فيما يتعلق بالصوموا ، يتألف كل جهاز من رئيس دبابة لم يسبق له قط ان اطلق مدفعاً ، وسائق لم يمارس السوق اكثر من اربع ساعات . وصحيح ان الفرقة تشتمل على فوج مشاة واحـــد ، ينتقل في سيارات ركاب كبيرة ، من جهة اخرى ، فكان بسبب من ذلك ، شديد الحساسية خلال تنقلاته . وصحيح ان المدفعية تكونت حديثـــاً من اقتطاعات اخذت من عديد المستودعات ، وان كثيراً من الضباط يتعرفون الى جنودهم في ميدان المعركة لأول مرة . وصحيح انه ليس لدينا شبكة بث للاعلام ، وانني لا استطيع توجيه الاوامر الا على يد راكبي الدراجات النارية ، الى ذوي الرتب السفلى او بالذهاب خاصة لمقابلتهم . وصحيح ان جميع الوحدات ينقصها كثير من وسائل النقل ، والصيانة ، والتموين التي ينبغي ، في الحالة العادية ، ان تحرزها . وكان ينبثق مع ذلك ، من هذا المجموع المرتجل ، انطباع حمية متقدة ، شاملة . فلنتابع السير ! لم تنضب الموارد .

وفي فجر التاسع عشر ، الى الامام ! سيقت دبابات الفرقة نحو اهداف متوالية ، للزحف على كريسي ، ومورتيه ، وبويّي . وكان عليهـا ان تبلغ الجسور ، وتقطع على العدو طريق لافير . وكانت المدفعية ترافقها ، وعلى ميمنتها فيلق الاستطلاع وفوج القناصة يؤمنـــان التغطية على نهر بارانتون ، وسرية استكشاف وُجهت نحو مارل . ومر الصباح بخير . ووصلنا الى « السير » ، بعد ان ألحقنا الهزيمة بعناصر معادية شتى ، كانت

تتسلل الى المنطقة ، وأرغمناها على الفرار . ولكن العدو كان متمركزاً في شمال النهر وفي قبضته القوية منافذ الطرق فكان يدمر من دباباتنـــا تلك التي تحاول الاقتراب منها ، ومدفعيته الثقيلة تخوض الميدان . وكنا في واقع الحـــال ، على احتكاك مع وحدات المانيـــة كبيرة تتدفق نحو سان — كنتان . وكان يلزمنا ، لعبور النهر ودفع دباباتنا اكثر فأكثر الى الامام ، حشود من المشاة ، ومدفعية اقوى ، لم تكن لدينا ، وما كنت خلال تلك الساعات العصيبة ، لأتمكن من الاقتناع عن تخيل مـــا يستطيع فعله الجيش الآلي الذي كنت اعلم به منـــذ زمن طويل . فلو انه كان هناك ، في ذلك اليوم ، لنفذ بغتة الى « غيز » ، ووقف تقدم فرق البانتسير على نحو مفاجيء ، وألقى البلبلة الكبرى في مؤخراتها ، ولأصبحت مجموعـــة جيوش الشمال في سعة من الالتحام مع جيوش الوسط والشرق .

ولكنه لم يكن ثمـة في شمال لاون سوى وسائل هزيلة ، سقيمة ، فالالمان اذن هم الذين يعبرون السير . وقد اخذوا في عبوره منذ العشية في مونوكورنيه ، حيث اخلينا الساحة . ومنذ الظهر ، وهم يعبرونه في مارل ، وكانوا يهاجمون ميمنتنا على نهر بارانتون ومؤخراتنا في شامبري بعدد عديد من المصفحات ، ومدافع المحركات ، ومدافع الهاون المنقولة بالسيارات ، والمشاة المجهزين بأسلحة آلية . وهـــا هي الآن طائرات الشتوكا ! ستظل حتى الليل تقصفنا وهي المخوفة الراعبة لمركبات النقل التي لا تستطيع ان تخرج من الطرق ، ثم لقِطع المدفعيـــة المكشوفة . وكان الجنرال جورج قـــد ارسل بأمرني ، في مستهل النصف الثـــاني من ذلك النهار ، ان لا اتابع القتال ، اذ تم نزول الجيش السادس ، وعلى فرقتي ان تستخدم ، بلا انقطاع ، في اداء مهمات أخرى . وقررت ان اؤخر العدو بعد يوماً واحداً ، وأنا اعيد تجميع الفرقة حول « فورج » ،

وتكون مستعدة في الليل للهجوم على جناحه ، اذا هو اراد الاندفاع من لاون على رنس ، او سواسون ، وذلك بعبور الايسن فقط في اليوم التالي .

ونفذت الحركة بانتظام ، وان كان العدو يحاول ، في كل مكان ، ان نشتبك معه . وما كان قتال العصابات ، اثناء الليل ، لينقطع في مراكز التخييم . وفي ٢٠ ايار ، اتجهت الفرقة المدرعة نحو « فيسم » و « براين » ، اي بالضبط وسط الالمان الذين يحتشدون في تلك المنطقة ، ويحتلون العديد من نقاط الارتكاز ويهاجمون أرتالنا بصفحات كثيرة العدد ايضاً . وكان ان بلغنا الايسن دون تعرض لخطر جسيم ، بفضل الدبابات التي كانت تمهد لنا الطرق وما يجاورها . الا ان فيلق الاستطلاع المدرع ـ وكان يحمل الرقم ١٠ ـ الذي كان يشكل حرس المؤخرة مع فوج الدبابات لم يستطع ان يتخلص الا بعد لأي ، واضطرت قطارات الفرقة على هضبة كراون ، حين هوجمت بعنف ، الى ترك بضع شاحنات تحترق في موضعها .

وبينما كانت الفرقة الرابعة المدرعة ، تقوم بعملها في منطقة « اللاونية » ، كانت الحوادث في الشمال تجري بالسرعة التي تتسق مع زحف فرق البانتسير . وكانت القيادة الالمانية تدفع بقواتها الآلية نحو دنكرك ، وهي التي قررت تصفية الجيوش الحليفة في الشمال ، قبل ان تفرغ من جيوش الوسط والشرق . ثم عادت تلك القوات الى الهجوم ، انطلاقاً من سان ـ كنتان في رتلين : الاول ذهب رأساً الى الهدف عن طريق كمبراي ودُواي ، والآخر انسل على طول الساحل ماراً بإيتابل ومدينة بولونيا . واستولت في تلك الاثناء ، فرقتا بانتسير ، على اميان ، وأبفيل ، وفيها ركزتا جنوب السوم ، رؤوس جسور تستخدم فيما بعد . اما من جانب الحلفاء ، فقد توارى الجيش الهولندي مساء

٢٠ ايار ، وتراجع الجيش البلجيكي نحو الغرب ، ووجد الجيشان : البريطاني ، والفرنسي الاول نفسيهما منقطعين عن فرنسا .

لا ريب ان القيادة الفرنسية حاولت اعـــادة الاتصال بين شطري قواتها بحمل مجموعة جيوش الوسط انطلاقاً من اميان نحو آرّاس . ذلك مـا حدده وأمر بـه الجنرال غاملان في ١٩ ايار . وكان من الجنرال فيغان الذي حل محله في ٢٠ ايار وذهب في اليوم التالي الى بلجيكا ، ان اخذ الفكرة على عاتقه . وكانت هذه الخطة نظرياً ، منطقية . ولكن تنفيذها كان يتطلب من القيادة نفسها ان تكون ايضاً على جانب كبير من الأمل في النصر والعزم على الانتصار . وواقع الحـال ان انهيـار نظام العقائد والتنظيم برمته الذي تعلق به رؤساؤنا ، حرمهم الهمة والحافز . فقد استحوذ عليهم ضرب من الاقتناع الذاتي المعنوي جعلهم فجـأة في ريب من كل شيء ، ومن انفسهم ، خاصة . ومنذ ذلك الحين طفقت القوى الخارجية الانهزاميـــة تتكشف ، ثم لم تلبث ان اسفرت عن وجهها ، فملك البلجيك واجه الاستسلام ، واللورد غورت العودة بسفنه من غير قتال ، والجنرال فيغان الهدنة .

وفيما كانت القيادة تنحل تحت وطأة النكبة ، زحفت الفرقة الرابعة المدرعة نحو الغرب . وكانت المسألة أول الامر ، ان تعبر « السوم » لتمسك بناصية الهجوم المنوي القيام به في اتجاه الشمال . ولكن الفكرة أهملت . ثم اتجهت النية نحو استخدامها مع قوات اخرى لصد الالمان الذين عبروا السوم في آميان . غير انه حيل دون اشتراكها في تلك المحاولة ، بعـد ان أخذ منها احد افواجها من الدبابات لذلك الغرض ؛ واخيراً تلقى آمر الفرقة ليـلة ٢٦ – ٢٧ ايار ، وكان قد عُين اول البارحة جنرالاً – من الجنرال روبير ألتمايه ، آمر الجيش العاشر الذي تتجمع فيه القوات المنقولة على وجه السرعة الى السوم الاسفل – تلقى الامر ان يسير ، دون ابطاء ،

في اتجاه أبفيل ، ويهاجم العدو الذي اقام ، في جنوب المدينة ، رأس جسر توطد فيه .

كانت الفرقة ، في تلك اللحظة ، متمركزة حول غرانفيلليه ، وهي التي بدأت مسيرتها في ٢٢ ايار مارة بفيسم ، سواسون ، فيلله ـ كوتريه ، كومبيان ، مونديديه ، وبوفه ، وقطعت في خمسة ايام ١٨٠ كيلومتراً . ويمكن القول : انها منذ ولدت في حقول مونكورنيه لم تنقطع عن القتال او الزحف ، مما اثر في حالة الدبابات ، وتُرك منهـا نحو من ثلاثين على الطرق . ولكن وصلت الينا مقابل ذلك ، خلال مسيرتنا ، امدادات نفيسة : فوج دبابات من طراز « ب » (الفوج ٤٧) ، وفوج من طراز « د ٢ » (الفوج ١٩) مجهز بقاذفـات من وزن ٢٠ طناً ، وكان عليّ ، لسوء الحظ ، ان افصلها امام آبيان ، وفيلق الدراغون (التنين) السابع المحمول ، وسرية مدفعية من عيار ١٠٥ ، وبطارية دفاع ضد الطائرات ، وخمس بطاريات من ٤٧ مصفحة مضادة للطائرات . وكانت جميع هذه الوحدات ، باستثناء الفيلق « د ٢ » ، مرتجلة ، ولكنها أخذت بجـو الحماسة المهيمن على الفرقة ، لحظة وصولها ، ووضع تحت تصرفي اخـيراً ، للقيام بالعملية التي وُكلت إليّ ، فيلق المشاة الثاني والعشرين ، ومدفعية الفرقة الثانية للفرسان . فكان المجموع ١٤٠ دبابة صالحة للعمل ، وستة أفواج مشاة يساندها ست سريات مدفعية ، وتلك هي القوات التي ستقوم بالحملة في جبهة الجنوب على رأس الجسر .

قررت الهجوم في مساء اليوم نفسه ، وذلك لان الطائرات الالمانية لا تنفك ترصد الفرقة ، وليس ثمة فرصة للحصول على بعض النتائـج من المباغتة الا بالاسراع في الحركة الواثبة . وكان الالمان ، في الواقـع ، ينتظروننا بقدم ثابتة ، فهم منذ اسبوع يوطدون مراكزهم في مواجهـة الجنوب على النحو الآتي : « هوبي » في الغرب ، « براي ليه ماروي » على

« السوم » في الشرق ، وبين هاتين القريتين غابات ليمو وبايول . وكانوا قد نظموا الى الوراء مواقع بيانذاي ، فيلله ، هوشنفيل ، ماروي ، واخيراً جبل كوبر الذي يشرف ، من ضفة السوم نفسها ، على ابفيل وجسورها ، ويستخدمونه ملاذاً اخيراً لدفاعهم . كانت هذه الخطوط الثلاثة المتوالية اهدافاً حددتها حملة الفرقة التي اقودها .

وشرعت تلك الفرقة النزال في الساعة الثامنة عشر : نصف اللواء السادس بدبابات ثقيلة مع فوج القناصة الرابع ، هجم على هوبي ، ونصف اللواء الثامن بالدبابات الخفيفة مع الفوج الثاني والعشرين ، على غابات ليمو وبايول ، والفوج المدرع الثالث بدباباته المتوسطة مع فوج الدراغون السابع على براي . وكانت المدفعية تساند الوسط ، في المنزلة الأولى . وحين خيم الظلام ، سقط الهدف الاول في ايدينا ، واستسلم في هوبي كل من بقي حياً من الفوج الالماني الذي كان يحتلها . واستولينا قرب ليمو على عدة بطاريات مضادة الدبابات ، وعثرنا على حطـــام الاسلحة الآلية ، التابعة للواء الآلي الانكليزي التي دمرت قبل بضعة ايام .

واستأنفنا السير قبل الفجر . وكان على الميسرة ان تستولي عـــلى موايينفيل وبيانذاي ، وكانت مهمة القلب الاستيلاء على هوشنفيل وفيلله . ومهمة الميمنة ، على « ماروي » . ومذ كان عمل العربات « ب » « مسمار » الحملة ، وهي المائلة من الغرب نحو الشرق ، فكانت مهمة تلك الدبابات تقص كالمقراض ، مؤخرة الخط الالماني . والهدف النهائي الذي يسعى الجميع اليه ، انما كان جبل كوبير . وكان نهراً قاسياً ، اذ تشبث العدو بمواقعه حين وصلت اليه النجدات ، وراحت مدفعيته الثقيلة المتمركزة على ضفة السوم اليمنى ، تقصفنا بضراوة . وكذلك كان شأن بطاريات اخرى تطلق قذائفها من جبل كوبير .

وفي المساء بلغنا الهدف ، ولكن جبل كوبير وحده ظل يقاوم . وهناك على أرض المعركة عدد كبير من قتلى الجانبين . وقد أصاب العطب كثيراً من دباباتنا ، ولم يبق منها سوى مائة تستطيع ان تتابع السير . بيد ان هناك جواً من الانتصار يخيم على الميدان . اصبح كل راحد منا يرفع رأسه عالياً ، وعلى ثغور الجرحى ابتسامة . والمدافع تطلق القذائف جذلى . الالمان تراجعوا أمامنا في معركة مرتّبة .

كتب الماجور يرنغ تاريخ الفرقة الالمانية « بلوم » التي كانت تسيطر على رأس الجسر ، بعد بضعة اسابيع من المعركة ، وجعل عنوان كتابه ذاك « أبفيل » ، وكان مما ورد فيه العبارات الآتية :

« ما الذي جرى ، بجملته ، في ٢٨ ايار ؟

« كان ان هاجمنا العدو بقوات آلية شديدة ومصفحة . وقاتلت وحداتنا المضادة للدبابات ببطولة ، ولكن مفعول ضرباتها تضاءل الى حد كبير ازاء القوات المدرعة . وكان العدو قد توصل الى التوغل بدباباته حتى بلغ ما بين هوبي وكومون ، وسحق دفاعنا المضاد للدبابات ، وتخلّى المشاة عن المواقع التي اكتسبوها ...

« وبينما كانت انباء الذعر تنهال على اركان الفرقة ، لم يبق من وسيلة للاتصال بأي من الأفواج العاملة على الخط ، بسبب من نار المدفعية الفرنسية المتواصلة ، انتقل الجنرال آمر الفرقة بنفسه الى الامام ... فلقي الجيش منهزماً ، فجمعه واعاده الى النظام وقاده الى مواقع الدفاع المعدّة على بعد بضعة كيلومترات ، وراء الخطوط الاولى ...

« غير ان رعباً عميقاً خالج الجنود من الدبابات ... الخسائر فادحة ... ليس ثمة من احد لم يفقد رفاقاً اعزاء على قلبه ... » .

ومع ذلك ، وصلت النجدات الى الالمان . واستطاعوا ، خلال ليلة ٢٧ – ٢٨ ان يُنهضوا بوحداتهم جميعها في الميدان . والجثث والاسرى تمدنا بالادلة على ذلك . وفي ليلة ٢٨ – ٢٩ تحققت وثبة اخرى جديدة ، فها هي مجموعة من القوات لم ينلها تعب ولا ارهاق ، ولا خاضت القتال ، تتوجه لمنازلتنا في اليوم الثالث ، كما هو الشأن في اليوم الثاني . اما نحن فلم يصلنا شيء . وما كان يلزمنا سوى القليل ، مع ذلك ، لتحقيق النصر النهائي . لا بأس بما هو اسوأ ! سنهاجم في ٢٩ ايار ، على ما نحن عليه مرة ثانية ايضاً .

كانت الحملة على كوبير في ذلك اليوم ، وقد انصرف معظم جهدنا الى سفوحه الغربية . وكان على دباباتنا الاخيرة من طراز « ب » ، ان تنطلق من موايتفيل وبيانفاي ، شأنها شأن « الصوموا » التي كان عليها ان تنتقل من الميمنة الى الميسرة . وقد خسر فوج القناصة اكثر من النصف كما فقد فيلق الاستطلاع ثلثيه ، ومن المقرر ان يتبعها فوج دراغون ، وستنطلق من فيلليه ما بقي من سرية الرينو والسرية ٢٢ التابعة لجيش الاستعمار . وقد وجه الجنرال البريطانية ، إنجاداً لنا ، امراً الى فرقة الفرسان الخامسة ، الخفيفة ، الممتدة على طول نهر السوم ، تحت رأس الجسر ، ان تدفع ميمنتها على كامبرون . الا انها لا تستطيع التقدم ، فطلب الى سلاح الجو مساندتها في قصف المنافذ المؤدية الى أبفيل ولكن الطائرات كانت في مكان آخر . وفي الساعة ١٧ بادرنا العدو بالهجوم ، وبلغنا منحدرات الجبل ، ولكن الذروة ظلت بيده . وحين هبط الليل ، قام الالمان تساندهم مدفعية قوية بهجوم معاكس على قريتي موايتفيل وبيانفاي دون ان يوفقوا الى الاستيلاء عليهما .

وأقبلت في الثلاثين من ايار الفرقة الاسكتلندية ٥١ يقودها الجنرال فورتون ، وكانت قد وصلت حديثاً الى فرنسا ، وكلها زهو ومرح ،

اقبلت لنجدة الفرقة الرابعة المدرعة . وهذه كانت قد جددت تجمعها على مقربة من «بوفيه». وكان معي العقداء: سودر، سيموتان، فرنسوا للدبابات، دي هام لفيلق الاستطلاع، برتران للقناصة، لوتاكون لجنود المستعمرات، دي لونغمار للدراغون، شودسول وآنسلم للمدفعية، وشوميل لرئاسة الاركان . هؤلاء هم الذين يقومون بموازنة العمليات الحربية . ولم نستطع تصفية رأس جسر أبفيل برمته، وان كنا قد دمرنا ثلاثة ارباعه . وكما هو الآن لا يستطيع العدو ان ينفذ منه بالقوة، ولا ان يعيد احتلاله، على الاقل . كانت خسائرنا فادحة، ومع ذلك اقل من خسائر العدو . ورجعنا نقتاد ٥٠٠ اسير اضيفوا الى اسرى مونكورنيه، وكمية كبيرة من الاسلحة والعتاد .

اي ارض تُرى - يا للحسرة ... فتحت، او يمكن ان تفتح، غير هذه الرقعة ذات الكيلومترات الاربعة عشر، خلال معركة فرنسا؟ واذا انت وضعت سلاح الطيران الذي سقط في خطوطنا، على حدة، ترى كم يكون عدد الالمان الذين يقمون في اسرنا ؟ ولو حل محل فرقة فقيرة، ضعيفة، غير تامة، مرتجلة، معزولة، هيئة عسكرية من نخبة مدرعة كانت بعض عناصرها قائمة، من جهة اخرى، وان مشتتة مشوهة، اية نتائج كانت قد اعطت اثناء هذه الايام الاخيرة من ايار؟ ولو ان الدولة كانت قد ادت دورها، ووجهت يوم كان لديها الوقت، جهازها العسكري نحو الانشاء الايجابي لا السلبية، ولو انهم بالتالي اعدّوا عدة النزال والمقارعة التي كنت اقترح اغلب الاحيان ايجادها، على السلطة والقيادة، لكان اذ ذاك لدى قواتنا المسلحة فرصة الظفر، ولدى فرنسا فرصة لاستعادة عافيتها الروحية .

ولكن المعركة كانت، في ٣٠ ايار، ضمنا خاسرة، اذ استسلم قبل العشية السابقة ملك البلجيك وجيشه . وفي دنكرك اخذ الجيش البريطاني

يثب الى سفنه عائـداً ، فاراً . وما بقي من القوات الفرنسية في الشمال يحاول المحاولة البريطانية نفسها ، وكان انسحاباً أكرهت عليه ، يحمل في في ثناياه الكارثة . وقبل برهة وجيزة منه ، شرع العدو في تهيئة الطور الثاني من هجومه الى الجنوب ، ضد خصم فقد ثلث قواته ولم يبق لديه اكثر من اي وقت مضى ، وسائل للرد على القوات الالمانية .

مـا كنت ، وانا في مثواي المنعزل في بيكاردي ، لأصوغ أوهاما ، ولكني اردت الاحتفاظ بالامل . واذا كان الموقف مما لا يمكن تقويمه ، بعد كل حساب ، في الوطن الأم ، فان الواجب يقضي القيـام بذلك التقويم ، في مكان آخر . الامبراطورية ماثلة هناك ، تقدم الملاذ . والاسطول ماثل ايضاً يمكنه تغطية الموقف . والشعب ماثل كذلك ، ولا بد له ، على اي حال ، من مكابدة الغزو ، ولكن الجمهورية تستطيـع ان تبعثه على المقاومة ، وهـذه فرصة رائعة لتوحيده . والعالم كله ماثل هناك ، وهو قابل لان يزودنا باسلحة جديدة ، ثم بعون قوي من بعد . غير ان هناك الى ذلك سؤالاً يهيمن على كل شيء : هل تحسن السلطات العامة ، مهما حدث ، ان تضع الدولة في نجوة من الهلاك ، وتصون الاستقلال ، وتنقذ المستقبل ؟ ام انها ستسلم الأمور كلها لويلات الانهيار ؟

اني لاتنبأ ، من هذه الوجهة – بلا عناء – ان كثيراً مـن الأمور تتعلق على الموقف الذي تتخذه القيادة ، فلترفض هذه ان تنزل العلم ما دامت ، حسب القانون العسكري « لم تستنفد جميع الوسائل التي يقتضيها الواجب والشرف » ، ولتأخذ قولاً واحداً ، في آخر ملاذ ، بالحل الأفريقي الذي يمكن ان يتحول في اللجة المغرقة ، الى خشبة انقاذ للدولة . واذا هي – اي القيادة – سلكت عكس ذلك ، واهملت نفسها ، فانهـا تدفع للاستسلام ، سلطة متهافتة ، ويالها من حجة تستند اليها في إلقاء فرنسا الى الحضيض !

كانت هـــذه التأملات تغمم ذهني وانا ذاهب في اليوم الاول من حزيران ، لتلبية الدعوة التي وجهها إليّ الجنرال فيغان ، القائد الاعلى ، وقد استقبلني في قصر مونتري . وابدى كمادته هاتيك الموهبة في الوضوح ، وهذه البساطة في اللهجة ، اللتين يتميز بهما . وكان منه ، اول ما كان ، ان هنأني في شأن أبفيل ووجه إليّ من الحمد والثناء الشيء الكثير . ثم سألني رأيي فيما يصح ان نفعله بالالف والمائتي دبابة الحديثة التي لا زالت قيد تصرفنا .

أشرت على القائد الاعلى ان تجمع هـــذه الدبابات في فئتين كبرى وصغرى : الاولى شمال باريس ، والاخرى جنوب رانس ، وما تبقى من الفرق المدرعة يزودها بالنواة . واقترحت اسم الجنرال « ديلستران » مفتش الدبابات لقيادة الاولى ، وتُضم الى هاتين الفئتين بالتتالي ، فرقتان او ثلاث من المشاة ، مجهزة بوسائل نقل ، ولها مدفعية مضاعفة . وبهذا يكون لدينا وسيلة عرقلة كبرى ، نستخدم مفعولها في صد هذا الجناح او ذاك من جحافل الألمان الآلية حين يندفعون في اتجاه من اتجاهات زحفهم ، بعد ان يدكوا جبهتنا ، ويجدون انفسهم اذ ذاك على نحو يقل او يكثر ، متلـّمين عرضاً ، ممدّدين عمقاً . واخذ الجنرال فيغان علماً باقتراحاتي ، وراح بعدها يحدثني عن المعركة ، قائلاً : « سأكون مهاجماً ، في ٦ حزيران (يونيو) عـــلى جبهتين : السوم والايسن . وسيثقل ذراعي من الفرق الالمانية ضعف ما لدينا نحن . وهذا يعني ان مجالات الأمل مسدودة . واذا سارت الأمور على نحو اقل سرعة مما نحسب ، وكان في استطاعتي ان اعيد العافية ، خلال الوقت المنشود ، الى القوات الفرنسية الناجية من دنكرك ، وكان لدي من الاسلحة ما تحتاج اليه لاقدمه لها ، واذا عاد الجيش البريطاني يشارك في القتال ، بعد تجهيزه ، من جديد ، ورضي سلاح الجو الملكي ان يخوض المعركة خوضاً عميقـــاً في ميادين القارة

الاوروبية ، يظل لنا حينذاك فرصة للظفر » . واضاف القائد الأعلى ، وهو يهز رأسه : « والا ! . . »

اصبحت على بيّنة من الموقف كله . وشعرت بثقله يضغط على روحي ، فغادرت الجنرال فيغان .

لقد وقعت على كاهله ، دفعة واحدة ، مهمة ساحقة لم يكن ، زيادة في الطين بلة ، مؤهلاً للنهوض بها . وحين تولى القيادة العليا ، في ٢٠ ايار ، جاءت ولايته تلك ، بلا ريب ، متأخرة جد التأخر ، لكسب معركة فرنسا . ويمكن الافتكار ان الجنرال فيغان ادرك ذلك بدهشة وفجأة . ومذ كان قد عاش سنيّه كلها ، ولم يواجه قط الامكانات الواقعية للقوى الآلية ، فقد اذهله المفعول الهائل المباغت الذي اظهرته وسائل العدو ، وجعلته لا يفيق من الوجوم . وكان يلزمه ، كي يغادر الهول الجائح ، ان يتجدد ، ان يحطم بين عشية وضحاها ، تلك المفاهيم ، والرتابة ، وطرق العمل التي عتقت وامست غير صالحة للتطبيق ، ان ينتزع استراتيجيته من الاطار الضيق الذي حصرها فيه الوطن الأم ، ان يرد سنان الردى الى العدو الذي اطلقه ويضع في حساب ميدانه ، الفضاء الواسع ، والموارد الكبرى والسرعة العظمى ، ويضم الى ذلك الميدان الاراضي النائية ، والاحلاف ، والبحار . وما كان الرجلَ الذي يقدم على مثل تلك الاعمال . لقد كانت سنّه ، ولا شك ، تعترض ذلك ، كما كانت المسالك التي يسلكها ذهنه تحول دونه ، ولكن هذه الحيلولة كانت تتمثل ، على الاخص ، في مزاجه .

لقد كان فيغان ، في حقيقة امره ، وبطبيعته مرؤوساً لامعاً ، ولا يصح ان يكون رئيساً متبوعاً . وبهذا المعنى ، وُفق الى خدمة « فوش » على نحو يستثير الاعجاب . وكان عام ١٩٢٠ قد حل « بلسودسكي » على

تبني خطة انقذت بولونيا . وكان منه ان قـدم لمصالح الجيش الحيوية خدمات قيمة ، اداها بذكاء وشجاعة الى عدة وزراء وتحت سلطانهم ، يوم كان رئيساً لأركان الحرب العامة . ولكن اذا كانت الكفاءات المنشودة لخدمة الاركان ، وتلك التي تقتضيها القيادة لا تتنافى ابـداً فيا بينها ، فإنّ ذلك لا يفيد خلطها معاً . ذلك بأن يعمل المرء على حسابه ، ولا يريد لعمله طابعاً سوى طابعه ويحابه القدرَ وحده ، وان يكون ذا ولع حار ، صارم ، متفرد ، يتسم به الرئيس ، فهذا كله مما لم يكن منه فيغان هناك ، ولا نزّاعاً اليه ، ولا معداً له . بيد انه ، وان كان له من ذلك نتاج نزعاته الخاصة او محصلة تلاقي الظروف والاحوال ، لم يمارس قط خلال اعماله كلها ، اية قيادة . فما من فيلق ، ولا لواء ، ولا فرقـة ، ولا جسم عسكري ، ولا جيش ، شهدته يوماً من الايام ، على رأسها . وكان اختياره ليأخذ على عاتقه اكبر مخاطرة عرفها تاريخنا العسكري ، لا لان الذين اختاروه كانوا يعرفون انه كفؤ لذلك بل بحجة « انه كان علماً » . كان اختياره خطأً ـ عادياً في سياستنا ـ يدعى : السهولة .

وكان الواجب يقضي ، على الأقل ، منذ تبين ان الجنرال فيغان ليس الرجل اللائق للمكان اللائق ، ان يترك منصبه ، اما بأن يطلب اعفاءه ، واما بأن تتخذ الحكومة رسمياً قرار اعفائه . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن . ومنذ ذلك الحين ، راح الجنراليسيم ، وهو الذي اقحم في تيار تخلى عن السيطرة عليه ، يبحث عن مخرج في مستواه ، اعني : الاستسلام . ولكن عمد ، وهو لا ينوي حمل التبعة فيه ، الى جر السلطات المدنية اليه . ولقي في عمله هذا توافقاً مع المارشال الذي كان ينشد الحل نفسه ، وان لاسباب مختلفة . ووقع اختيار العهد آنذاك ، وكان بلا ايمان ولا همة ، على اسوأ حالات التخلي . وكان على فرنسا ان تدفع الثمن ، لا هدنة عسكرية مدمّرة وحسب ، وانما استعباد الدولة ايضاً . وبمقدار ما يصح

ان الخلاص لا يكون الا بالعظمة ، فان ذلك هو شأنه ايضاً في وجه الاخطار العظيمة .

وعلمت في ٥ حزيران ان العدو استأنف الهجوم . وذهبت في ذلك اليوم الى الجنرال « فرير » آمر الجيش السابع ، اطلب اليه اوامره ، وكان في المنطقة التي تقيم بها فرقتي . وفيما كانت تقارير الاستنجاد او الاستغاثة تفيض حول مكتبه ، وكانت التحفظات والشكوك تتراءى خلف المظاهر وتخرق برودة الدم المسلكية ، قال لي ذلك الجندي الطيب : « نحن مرضى . الاشاعة سرت انك ستصبح وزيراً . وذاك دواء جاء متأخراً ليأتي بالشفاء . آه ، لنستنقذ الشرف على الأقل » !

السقوط

كان من أمر السيد بول رينو ، حين عدّل وزارته ليلة ٥ – ٦ حزيران ، ان اشركني فيها كأمين مساعد للدولة في الدفاع الوطني . وقد انهى اليّ نبأ ذلك ، في الصباح الجنرال ديلستران ، مفتش الدبابات حين سمعه من المذياع . وبعد لحظات ، تلقيت برقية رسمية تؤكده لي ، فودعت فرقتي ، وذهبت الى باريس .

وحين وصلت الى شارع سان – دومينيك [1] ، قابلت رئيس الوزراء ، وكان كعادته ، مطمئناً ، مفعماً بالحيوية ، ذا مضاء ، مستعداً للاصغاء ، لا يتردد في الحكم والتقرير . وراح يشرح لي السبب الذي حمله ، قبل بضعة ايام ، على التفكير في اشراك المارشال بيتان ، في حكومته ، مع ان كلينا لا يشك في انه الستار الذي كان يختبىء وراءه اولئك الراغبون في الهدنة . وقال لي بول رينو ، مستعملاً العبارة الشائعة : « من الافضل ان يظل داخلاً ، على ان يكون خارجاً » .

اجبته : « اخشى ان تضطر الى تغيير رأيك . وهذه الخشية تزداد بمقدار ما تجري الحوادث الآن بسرعة ، وتوشك الانهزامية ان تغمر كل شيء ، فان اختلال التوازن بين قواتنا وقوات الالمان ، خطير لدرجة

---

(١) مقر رئاسة الحكومة في باريس . (المترجم)

لم يبق لنا معها ادنى حظ للغلبة في الوطن الأم ، حتى ولا في استعادة التوازن ، الا بمعجزة . ثم ان القيادة لا تملك ، وقد اصعقتها المفاجأة ، ان تتماسك بعد ابداً . وأخيراً ، انت تعرف اكثر من اي شخص آخر ، اي جو من الاهمال يهيمن على الحكومة . وسيكون لدى المارشال والذين يدفعونه ، من الآن فصاعداً ، مجال رحب يسرحون فيه ويمرحون . واذا كنا قد خسرنا ، مع ذلك ، حرب الـ ٤٠ ، فان في مستطاعنا ان نكسب حرباً غيرها . يجب ان نقرر القتال ، اطول ما يمكن ان يطول ، ونعمل على استمراره في الامبراطورية ، دون ان نتخلى عنه على ارض اوروبا . وذلك يتضمن انتهاج سياسة تنسجم معه ، من نقل الوسائل الى افريقيا الشمالية ، واختيار رؤساء اكفاء لإدارة العمليات الحربية ، والاحتفاظ بعلاقات وثيقة مع الانكليز ، اية كانت السخائم التي يمكن ان ننطوي عليها تجاههم . واني لأقترح عليك تكليفي اتخاذ التدابير التي تنتج عن ذلك » .

وافق السيد بول رينو على اقتراحي وأضاف : « اطلب اليك ان تذهب الى لندن في اقرب وقت ، فقد ألقيت في روع الحكومة البريطانية ، خلال المحادثات التي قمت بها في ٢٦ و ٣١ ايار ، اننا لا نستبعد احتمال اجراء هدنة ، ولكن المراد الآن ، عكس الأمس ، وهو ان نقنع الانكليز اننا سنثبت في الميدان ، مهما حدث ، حتى فيما وراء البحار ، اذا اقتضى الأمر . عليك ان تقابل السيد تشرشل ، وتقول له : ان تعديل وزارتي وحضورك فيها على مقربة مني ، هما علامتا عزيمتنا هذه » .

وكان عليّ ، عدا هذه الخطوة ذات الصبغة العامة ، ان اعمل في لندن ، بدوري ، على بذل محاولة جديدة تهدف الى جعل السلاح الملكي

الجوي – طائرات المطاردة خاصة – مستمراً في المساهمة بالعمليات الحربية في فرنسا . كان عليّ اخيراً ، ان اطالب ، كما فعل قبلي رئيس الوزراء ، بإعطائي معلومات دقيقة عن المهلة التي تريدها الوحدات البريطانية الناجية من نكبة دنكرك ، لاستعادة تسلحها ، واعادتها الى القارة الاوروبية . وكان جواب هذين السؤالين يشتمل على عناصر تقنية ، في وسع رئاسة الاركان العامة ان توفرها لي ، ولكنه يشتمل ايضاً على مقررات يعود اتخاذها الى السيد ونستون تشرشل بوصفه وزيراً للدفاع .

وبينما كانت هيئات الارتباط ترتّب المحادثات التي سأجريها في العاصمة البريطانية ، قمت بإتصال ، في ٨ حزيران ، مع الجنرال فيغان في قصر مونتري ، فوجدت القائد الأعلى هادئاً ، مسيطراً على نفسه . ولكن بضع ثوان من الحديث معه ، كانت كافية لأفهم انه كان مستسلماً للهزيمة ، وعازماً على إلقاء السلاح . وهاك حوارنا كما جرى بنصه تقريباً ، وقد ظل هذا النص – وكيف انسى ! – منقوشاً في ذهني ، لا يبارحه . قال لي القائد الأعلى :

« ألا ترى اني كنت على صواب ، حين اخبرتك لأيام خلت ، ان الالمان سيهاجمون السوم في ٦ حزيران . وقد هاجموه فعلاً ، وهم الآن يعبرون ذلك النهر ، ولا اقوى على منعهم من عبوره .

– فليكن ! عبروا السوم . وبعد ذلك ؟

– بعد ذلك ؟ السين والمارن .

– نعم . وبعد ذلك ؟

– بعد ذلك ؟ ينتهي الامر .

– وكيف ؟ ينتهي ؟ والعالم ؟ والامبراطورية ؟

وانفجر الجنرال فيغان بضحكة يائسة :

– الامبراطورية ؟ امور صبيانية ؟ اما العالم ، فأنا حين أغلب هنا ، لن تنتظر انكلترا ثمانية ايام لتفاوض « الرايخ » . وأضاف القائد الأعلى وهو يحدق في عيني : « آه لو كنت واثقاً ان الالمان يتركون لي القوات الضرورية لحفظ الأمن ... »

كانت المناقشة عميقة ، فغادرت الجنرال فيغان بعد ان بيّنت له ان طريقته في النظر الى الامور تقف على النقيض من نيات الحكومة ، وأن هذه لن تتخلى عن القتال ، حتى لو انجلت المعارك عن كوارث ، فلم يبد اية ملاحظة جديدة ، وأظهر لطفاً متناهياً حين استأذنته بالانصراف .

وتحدثت ، بعض الوقت ، قبل ان اسلك الطريق الى باريس ، مع ضباط من مختلف الأركان العامة ، كنت اعرفهم ، وقد قدموا ذلك الصباح ، بناء على تقرير تلقوه من الجنرال فيغان . وقد اكدوا لي الانطباع ان القيادة ، في أعلى مستوياتها ، ترى المعركة انتهت بالخسران ، وانها وهي ، تتحلل ، على نحو آلي ، من تبعاتها وصفاتها ، يواجه كل فرد منها في سره ، ويتمنى علانية ، ان تنتهي معركة فرنسا ، كيفما اتفق ، وفي اقرب وقت ممكن . ولكي تتجه الاذهان والقلوب نحو استمرار الحرب في الامبراطورية ، اصبح تدخل الحكومة الحاسم امراً تقتضيه الضرورة على التو .

وصرحت بذلك فور عودتي للسيد بول رينو وناشدته ان يسحب القيادة من الجنرال فيغان الذي تخلى عن الغلبة . فأجابني رئيس الوزراء :

– هذا مستحيل الآن . ولكن علينا ان نفكر في من يخلفه . ماذا ترى ؟

– لا ارى الآن ، فيما يتعلق بخلفه ، سوى هنتزيجر . انه كفؤ له في

رأيي ، لأن يرتفع الى مستوى استراتيجية عالمية ، وإن كان لا يحرز كل شيء في جانبه ».

وافق المسيو بول رينو مبدئياً ، على اقتراحي ، ولكنـه لم يشأ ان يضعه لفوره ، موضع التنفيذ .

غير اني وقد عزمت على طرح المسألة من جديـد وفي اقصر مهلة ، شرعت في وضع خطة لنقل كل ما لدينا من وسائل الى افريقيا الشمالية ، ورحت اشبعها درساً وإحكاماً . وكانت رئاسة اركان الجيش قد شرعت من قبل ، مع الارتباط بقوات البحر والجو ، في اعـداد الجلاء الى ما وراء المتوسط ، ونقل كل العناصر التي لم تنخرط بعد في القتال . والمراد من تلك العناصر ، على نحو خاص ، صفّان من الجنود الجـدد كانا يتـدربان في مستودعات الغرب والجنوب ، وفلول الوحدات الآلية التي نجت من كارثة الشمال ، ويبلغ مجموعها برمتـه ٥٠٠،٠٠٠ رجل من ذوي الدربة . ويمكن ، بالتالي ، نقل بقايا جيوشنا المتدفقة ، خلال تراجعها ، على الشطآن ، والافادة من العناصر المحاربة فيها . وكيفما دار الأمر ، فان ما تبقى من سلاح الطيران قادر على اجتيـاز البحر ، ومن افواج المطاردة ، وافراد القواعـد الجوية ، ومستودعات اجهزة الاسطول ، وأسطولنا نفسه على الأخص اخيراً ، كل هذه مما يمكنه ان ينضم الى افريقيا . وكانت البحرية ، التي القيت عليها مهمة القيام بتلك النقليات ، تقدر حمولة السفن الشاحنة التي تحتاج اليها بـ ٥٠٠،٠٠٠ طن ، على ان تضاف الى السفن الفرنسية الموضوعة من قبل تحت تصرفهـا . وكان علينا ان نتجه الى انكلترا ، في طلب تلك المعونة .

وفي الصباح الباكر من ٩ حزيران ، اقلتني الطائرة الى لندن ، وكان يصحبني مرافقي العسكري « جوفروا دو كورسيل » و « رولان دو

مارجري ، رئيس الغرفة الدبلوماسية لرئيس الوزراء . كان ذلك يوم احد . وكانت عاصمة الانكليز تظهر لرائيها بمظهر الهدوء ، واللامبالاة تقريباً . فالشوارع والحدائق تغص بالمتجولين الآمنين ، ومداخل السينما تكتظ بالوافدين اليها صفوفاً طويلة ، والسيارات كثيرة ، وحجاب الاندية عند مداخل الفنادق على حالهم من اناقة الهندام ، وكأنهم ينتمون الى عالم آخر غير عالم الحرب الذي كان قائماً . غير ان الصحف كانت ، ولا ريب ، تجعل واقع الموقف يتراءى ، على الرغم من الاخبار المزوّقة والحكايات الصبيانية التي تملأ اعمدتها بالتفاؤل الجامل ، شأنها شأن صحف باريس . ولا ريب كذلك ان اللافتات التي تُقرأ ، والملاجىء التي تحفر ، والاقنعة التي تلبس كانت تسترعي الانتباه للأخطار الكبرى المحتملة . ولكن الشيء الذي يقفز الى الذهن خلف تلك المشاهد ان جمهرة الناس لم تكن تدرك خطورة الاحداث الجارية في فرنسا ، نظراً للسرعة الهائلة التي كانت تتوالى بها . وكان من الملاحظ ، على كل حال ان بحر المانش في شعور الانكليز ، لا يزال عريضاً .

استقبلني المستر تشرشل في داوننغ ستريت . كانت هذه اول مرة احتك فيها به . والانطباع الذي تركه في حسي جعلني أتثبت في اعتقادي ان بريطانيا العظمى لن تنثني بكل تأكيد ، ما دام يقودها مثل هذا المصارع . لقد بدا لي المستر تشرشل انه يقف راسخ القدم على مستوى اشق المهمات ، شرط ان تكون المهمة الشاقة نفسها جليلة ايضاً ، فان صلابة أحكامه ، وثقافته الواسعة ، ومعرفته بمعظم الموضوعات والبلدان ، والرجال الذين تتعلق بهم الامور ، وولعه اخيراً بمشكلات الحرب الخاصة ، ميزات تفصح عن نفسها لديه بيسر وسهولة . وكان بطبعه ، فوق ذلك كله ، مخلوقاً ليعمل ، ليخاطر ، ليقوم بالدور المناسب صراحة ، ومن غير تردد . لقد وجدته ، بقول مختصر ، متربعاً

في مكانه الصحيح كمرشد ورئيس . تلك هي انطباعاتي الاولى عنه .

ثم لم يكن من الاحداث التي تلت ، الا ان أكدت تلك الانطباعات ، وكشفت لي زيادة على ذلك ، بلاغة المستر تشرشل الخاصة ، وبراعتـه في الافـادة منها . لقـد كان الدفق الشعري ، المؤثر الذي ينهمر في افكاره ، وحججه ، وعواطفه ، يتيح له هيمنة لا تعدو الصواب في شيء تقريباً ، على الجو الدراماتي الذي يأخذ بمجامـع الحواس ويملك الانفاس لدى العالم المسكين ، ايا كان المستمعون : جمهرة ، او جمعية ، او مجلساً ، او متحدثاً منفرداً يصغي اليه امام الميكرو او المائدة ، او خلف المكتب . وكان كسياسي محنك ، يتمتع بهـذه الموهبة الملائكية او الشيطانية في تحريك الكوامن في طينة الانكليز الثقيلة المتخثرة ، بنسبة ما يثير انتباه الاجانب ويدهشهم . وما كان ثمة من شيء يعوزه حتى السخرية التي كان يستخدمها تابلاً من التوابل في اشاراته وخواطره ، تارة بطيبة ونعومة وطوراً عند الغضب ، وكل ذلك يشعرك الى أي درجة كان يسيطر على اللعبة المخوفة التي انخرط بها .

وكان من شأن المصادفات القاسية الأليمة التي حدثت بيننا عدة مرات ، بسبب من احتكاك طبيعينا ، وتعارض في بعض المصالح لكل من بلدينا ، والاساءات التي اقترفتها انكلترا تجاه فرنسا الجريح — كان من شأن ذلك كله ان أثر في موقفي من الوزير البريطاني الاول ، دون ان يؤثر ابداً في حكمي عليه . لقد تراءى لي ونستون تشرشل من الف المأساة الى يائها ، على انه بطل مأثرة كبرى ، والفنان الاكبر لتاريخ كبير .

عرضتُ للبريطاني الاول في ذلـك اليوم الامور التي كلفني رئيس الوزارة الفرنسي عرضها حول عزم حكومتنا على متابعة القتال ، حتى ولو اقتضى ذلك ان يجري في اراضي الامبراطورية . واظهر المستر تشرشل

ارتياحه الشديد لهذا القرار . ولكن هل هو يُتابَع فعلاً ؟ لقد تركني افتكر انه غير مقتنع بذلك . وكان ، على كل حال ، لا يؤمن بامكان اعادة القوة العسكرية لفرنسا بعـد ، على ارض الوطن الام ، واظهر لي ذلك في ان رفض رفضاً قاطعاً مدّ يد المعونة بطيرانه على مدى واسع .

كان سلاح الجو الملكي قد امتنع عن بذل عونه في المعركة على نحو متواصل ، منذ تراجع الجيش الانكليزي في دنكرك ، ثم ان اسراب الطائرات البريطانية كانت تجـمـد نفسها بعيدة عن الميدان ، وهي التي احتفظت بقواعدها في بريطانيا العظمى ، فلا تقام اداء عمل فعال ، باستثناء سرب من طائرات المطاردة ظل يتبع سلاحنا الجوي . وحين ألححت في طلب جزء على الاقل من الطيران الانكليزي المعاون ، لينتقل الى اراضي الجنوب من نهر اللوار ، كان جواب المستر تشرشل سلبـاً صريحاً في سلبيته . اما قوات البر ، فقد وعد بارسال فرقة كندية الى نورماندي كانت قد وصلت من بلادها ، والاحتفاظ بالفرقة ٥١ الاسكتلندية ، وبقايا اللواء الآلي الذي كان يقاتل معنا . ولكن صرح انه لا يستطيع ان يعيّن التاريخ حتى على وجه التقريب ، الذي يتوجه به جنود الحملة الذين نجوا من الهلاك في بلجيكا — او تركوا عتادهم — ولا متى يصبحون قادرين على العودة الى الميدان .

هكذا ، اصبح الاتحاد الاستراتيجي متفككاً اذن ، بين لندن وباريس وكان حلول محنة بالقارة الاوروبية كافياً لحمل بريطانيا على الاستغراق في دفاعها الخاص . وفي ذلك نجاح الخطة الجرمانية التي ظل شليفن يوحي بها من وراء القبر ، والتي افضت اخيراً الى فصل القوات الفرنسية عن القوات الانكليزية ، ثم الى ايجاد الشقاق دفعـة واحدة ، بين فرنسا وانكلترا ، بعد الهزائم الالمانية عامي ١٩١٤ و ١٩١٨ . وكان في غاية اليسر ان نتصور الاستنتاجات التي امكن الانهزاميـة ان تخلص اليها ،

ومضت تفيد منها ، في ديارنا .

واتصلت ، عدا هذه المحادثة مع المستر تشرشل ، في اليوم نفسه ، بالمستر ايدن وزير الحربيـــة ، والمستر ألكسندر اميرال البحرية الاول ، والسير ارشيبولد سنكلر وزير الجـو ، والجنرال السير جون دِل رئيس اركان الحرب الامبراطوري . وتداولت ، من جهة ثانية ، مع المسيو كوربان سفيرنا ، والمسيو مونيه ، رئيس ، لجنـة التنسيق الفرنسية – البريطانيـة لشراء المعدات ، ومع رؤساء بعثاتنا : العسكرية والبحرية والجوية . وكان واضحاً انه اذا كان الهدوء يخيم على الجمهور في لندن ، فان التخوف من النكبة والشك في صلابة السلطات العامة الفرنسية ، كانا يهيمنان عـلى اذهان الواعين . وفي المساء ، أعادتني الطائرة ، بعسر ، الى بورجه ، التي قصفتها الطائرات قبل وصولي اليها بقليل .

واستدعاني المسيو بول رينو الى منزله اثنـاء ليل ٩ – ١٠ حزيران (يونيو) اذ كان قد تلقى معلومات خطيرة . العدو بلغ نهر السين في سفح باريس . وكان كل ما في الافق يشير من جهة اخرى ، الى ان القوات الالمانية المصفحة تهم بين ساعة وأخرى ، بالانتقـال الى الهجوم في شامبانيا . فالعاصمة اذن مهددة مباشرة من الغرب والشرق والشمال . وأفاد المسيو فرنسوا بونسيه من روما اخيراً ، انـه ينتظر في كل لحظة ان يتلقى من الحكومة الايطاليـة اعلان الحرب . ولم يكن لدي تجـاه هذه الانباء السيئة سوى اقتراح واحد : تبني خطة الجهـد الأكبر ، والذهاب في اسرع ما يمكن الى افريقيا واعتناق فكرة حرب التحالف بجميع نتائجها .

ورحت افكر خلال الساعات المتوفرة لديّ من ذلك النهـار والليل التي قضيتهـا في شارع سان – دومينيك ، فلم اعثر الا على ما يزيدني

اقتناعاً ، وليس ما يمكن عمله بعد سوى ذلك . كانت الامور تجري بسرعة لا يملك احد معها وقفها عند حد ، وكان كل ما نواجهه يتخذ على الفور سمة اللاواقع . وكان الناس يرجعون الى سوابق الحرب الكبرى الاولى ١٤ - ١٨ ، وهي مما لا ينطبق في شيء ابداً ، على هذه . وكان يتظاهر النـاس بالتفكير ان ثمة بعدُ جبهـــةً ، وقيادة ناشطة ، وشعباً مستعداً للتضحية . وتلك ما كانت سوى احلام وذكريات . والواقع ان آلة السلطة كانت تدور في بلبلة لا دواء لهـا ، وسط امة منهـارة ، واجمة ، تسير وراء جيش بلا ايمان ولا امل .

ومـا من شيء جعلني اشعر بذلـــك وألمسه سوى تلك الزيارات البروتوكولية الخاطفة التي قمت بهـا لأبرز شخصيات الجمهورية : الرئيس لوبران اولاً الذي قدّمت له في الوقت نفسه مع اعضاء الوزارة الجديدة ، ثم رئيسي المجلسين ، وأخيراً اعضاء الحكومة . والكل اظهروا الهدوء ورباطة الجأش ، ولكن كان واضحاً انهم ليسوا سوى اشباح في الاطار المزخرف الذي وضعهم به العُرف . هناك إعصار كان يتقلب في حومته مجلس الوزراء ، والتعليمات التي تطلق الى تحت ، والتقارير التي يتلقاها من هم فوق ، والتصريحات العـامة ، ومواكب الضباط ، والموظفين ، والدبلوماسيين ، والبرلمانيين ، والصحافيين الذين كان عليهم ان يعرضوا شيئاً او يسألوا عن شيء ، كل اولئك يوحون بالانطباع ان تمثيلية اشباح مضيئة يجري تمثيلها في الظلام وليس لها هدف ولا مدى . لم يكن فوق الاسس ، ولا في الاطار الذي يجد الناس انفسهم به ملزمين ، اي مخرج ، سوى الاستسلام . كان الواجب يقضي - ان لم يذعن له الانسان وهذا ما فعله بعضهم من قبل ، وما كانوا الاقلين - تغيير الاطار والاسس ، مهما غلا الثمن . وتقويم الوضع المعروف بـ « وثبة المارن » كان ممكناً ، ولكن فوق البحر المتوسط .

كان العاشر من حزيران (يونيو) يوم احتضار . وكان على الحكومة ان تترك باريس في المساء . وتراجع الجبهة راح يتسارع . وايطاليا اعلنت الحرب ، ومنذ ذلك الحين فرض الانهيار نفسه على جميع الاذهان . ولكن المأساة في قمة الدولة كانت تجري كما لو لو انها حلم . لقد خيّل للناس ، في بعض اللحظات ان ضرباً من السخرية المخوفة كان يضفي غلوّاً موجعاً على سقوط فرنسا ، وهي تتدحرج من عليـاء التاريخ الى أعمق أعماق الهاوية .

وهكذا قدم في الصباح المسيو غاريغليا ، سفير ايطاليا ، الى شارع سان - دومينيك ، في زيارة جدّ عجيبة . وكان في استقباله بودوان الذي نقل حديثه ، على النحو الآتي : « سترون ان اعلان الحرب يوضح اخيراً العلاقات بين بلدينا ! فهو يخلق حـالة تنجلي آخر الأمر ، عن خير كبير ... » .

وبعـد قليل ، دخلت مكتب المسيو بول رينو ، فوجدت عنـده المستر و . ُبليت سفير الولايات المتحدة ، فظننت انه حمل لرئيس الوزراء بعض التشجيع ، من واشنطن ، لمجابهة المستقبل . ولكن لا ! تبيّن انه جاء يودّعه . غير ان السفير بقي في باريس ، وفي نيته ان يتدخل عند المناسبة ، لمصلحة العاصمة . ومهما كان الداعي الحميد الذي ألهم المستر ُبليت ان يقيم بعد الوداع ، فان أيّام الجُلّى اقبلت ، ولم يكن خلالهـا من سفير لأميركا بجانب الحكومة الفرنسية . ومـا كان حضور المستر د. بيدل ، المكلف بالعلاقات مع الحكومات اللاجئة ، أية كانت الميزات التي يتمتع بهـا ذلك الدبلوماسي الفائق ، لينزع من نفوس مسؤولينـا الانطباع ان الولايات المتحدة لن تولي فرنسا من الاعزاز بعـدُ ، اكثر من ذلك .

وفيما كان المسيو بول رينو يعدّ ، على وجه السرعة ، بياناً يلقيه من

المذابح ، ويستشيرني في شأنه ، وصل الجنرال فيغان الى شارع سان ـ دومينيك . وما كاد نبـــأ وصوله يذاع ، حتى دخل مكتب رئيس الوزراء الذي ابدى بعض الدهشة لقدومـــه ، فردّ القائد الأعلى انـــه استُدعيَ الى مجلس الوزراء ، وقال بول رينو ، على الفور : « ليس من قِبَلي » وأضفت : « ولا من قِبَلي » فتابع فيغان : « هناك اذن سوء تفاهم . ولكن الخطأ مفيد ، فان عليّ ان اضع بياناً مهماً » ، وجلس وراح يشرح الموقف كما يراه . وكانت النتيجة التي خلص اليها تشفّ عما وراءها . علينا دون ابطاء ان نطلب الهدنة . وقال ، وهو يضع ورقة على الطاولة : « لقد بلغت الامور النقطـة التي ينبغي عندها ان تتركز المسؤوليات . ولذلك ، كتبت رأيي ، وجئت اضع هـــذه المذكرة بين ايديكم » .

وعلى الرغم من ان رئيس الوزراء كان منهمكاً في اعداد البيان الذي سيلقيه في اقصر مهلة ، وكان قد اعلن عنه ، فقد خاض مع الجنراليسيم في مناقشة رأيه ولكن هذا اصرّ . المعركة في الوطن الأم خاسرة . يجب ان نستسلم . فقلت ، لدى أحدى اللحظات : « ولكن ثمة مجالات اخرى للنظر » . فقال فيغان بلهجه ساخرة .

« ألديك ما تقترحه » ؟

أجبته : « ليس للحكومة ان تقـدم مقترحات ، وإنمـــا لديها أوامر تصدرها . واحسب انها ستصدرها » .

وأنهى المسيو بول رينو النقاش بطرد القائد الأعلى ، وغادرنا هذا والجوّ مثقل ، ملبّد .

كانت الساعات الاخيرة من بقـاء الحكومة في العاصمة ، مليئـــة بالاستعدادات التي يقتضيها مثل ذلك الرحيل . والحقيقة ان اشياء كثيرة كانت قد أعدّت سيراً مع خطة انسحاب وضعتها امانة الدفاع العامة .

ولكن بقي كل ما لم يكن منتظراً . لقد وضعنا وصول الالمان المرتقب الى اسوار باريس ، حيال مشكلات قاسية . وكنت شخصياً ، منـــذ تسلمت مهام منصبي ، قد وضعت خطة مقاومة لحماية العاصمة ، وطلبت الى رئيس الوزراء ووزير الدفاع والحربية ان يعيّنا لها ، بوحي من هذه النية ، حاكماً شديد المراس ، حازمـاً . واقترحت الجنرال دي لاتر ، الذي تميز على رأس فرقة في معارك جرت حول ريتيل . ولكن سرعان ما اعلن القائد الأعلى باريس « مدينة مفتوحة » ، ووافق مجلس الوزراء . وكان علينا اثناء ذلك ، ان ننظم بغتة إجلاء ركام من الاشياء وجمهرة من النـــاس ، وانهمكت في ذلك حتى المساء ، بينما كانت الحقائب والصناديق تشد وتحزم في كل مكان ، وينزل اللغط من أعلى الى أدنى البنـاية ، وهو ضجيج الزائرين في آخر لحظة ، والذين يدقّون اجراس الهاتف دقاً يائساً .

وعند منتصف الليل ، استقللت مع بول رينو سيارة واحدة . كان السير بطيئاً على طريق مزدحمة . ولدى الفجر كنـا في اورليانـ ، ودخلنا المحافظة حيث اتصلنا بمقر القيادة القائم في بريار . وبعد قليل ، هتف الجنرال فيغان يطلب الكلام مع رئيس الوزارة . ومـا كاد هذا يأخذ السمّاعة حتى دهش للخبر ان المستر تشرشل سيصل بعد الظهر . وكان القائد الأعلى قد اتصل به عن طريق المخابرات العسكرية ، ورجاه بإلحاح ان يأتي الى بريار .

وأضاف الجنرال فيغان قائلاً : « يجب ، في الواقع ، ان يكون المستر تشرشل على علم مباشر بحقيقة ما يدور في الجبهة » .

قلت لرئيس الحكومـة : « ثم مـــاذا ؟ هل ترضى ان يَستدعي الجنرال سيم هكذا من تلقاء نفسه ، رئيس الوزارة البريطانية ؟ ألا ترى ان الجنرال فيغان لا يتابع خطة عمليات حربية ، وإنما يتابع خطة

سياسية ، وأن هذه ليست خطتك ؟ هل تترك الحكومة باريس وظيفته لمدة طويلة بعد ؟ » .

أجاب بول رينو : « انت على صواب . يجب وقف هذه الحال . كنا قد تحدثنا عن الجنرال هنتزيجر كخلف ممكن لفيغان ، فلنذهب فوراً لمقابلة هنتزيجر » .

ومذ كانت السيارات متقدمة علينا ، قال لي رئيس الوزارة : « رأيت من الأفضل ، بعد التفكير ان تذهب وحدك الى هنتزيجر . أما أنا ، فان عليّ ان اعدّ المحادثات ، في هذه الساعة ، مع تشرشل والانكليز . وستجدني في بريار » .

ولقيت الجنرال هنتزيجر في مركز قيادته ، في « أرسي سور اوب » ، حيث يقود مجموعة جيوش الجبهة الوسطى . وفي اللحظة نفسها ، هوجمت تلك المجموعة وفُتحت ثغرة في صفوفها على جبهة شامبانيا من قبل القوات المصفحة التي يقودها غودريان ودهشت ، مع ذلك ، لهدوء اعصاب هنتزيجر . ثم اطلعني على سوء موقفه ، وأطلعته على جملة الشؤون الدائرة وقلت له في الختام : « الحكومة ترى جيداً ان معركة فرنسا خاسرة ضمناً ، ولكنها تريد متابعة الحرب في الانتقال الى افريقيا مع جميع الوسائل الممكن نقلها . وهذا يتضمن تغييراً تاماً في الاستراتيجية والتنظيم . والجنراليسيم الحالي ليس الرجل الذي يمكن ان يقوم بمثل هذا التغيير . أتراك تكون انت هذا الرجل ؟

اجاب بكل بساطة : « نعم ! »

– ستتلقّى عما قريب اذن تعليمات الحكومة .

وعدت الى بريار عن طريق روميي ّ و « سنس » لاتصل بمختلف قيادات الوحدات الكبرى . وكانت تتكشف لي في كل مكان علامات الفوضى والذعر . وفي كل مكان ، كانت تتدفق الى الجنوب عناصر عسكرية ،

مختلطة مع اللاجئين . وكان عليّ ان اتوقف قرب « ميري » لازدحام شديد في الطريق . واربدّ الافق بضباب عجيب ـ خلط كثير من الناس بينه وبين بساط غاز ـ راح يزيد في قلق الفئات العسكرية ، حتى اصبحت اشبه شيء بقطيع لا راعي له .

وفي مقرّ بريار الكبير ، نقلت لبول رينو جواب هنتزيجر . ولكني لحظت جيداً ان تبديل فيغان فوراً لم يكن موضع اهتمام رئيس الوزراء ، وانه عاد فتأثر من جديد فكرة متابعة الحرب مع جنراليسيم يريد ان يسلك طريق السلم . ولدى مروري في الرواق ، حييت المارشال بيتان الذي لم اشاهده منذ عام ١٩٣٨ . وقال لي : « انت جنرال ! لا اهنئك على ذلك . مـــا قيمة الرتب في الهزيمة ؟ » ـ « ولكنك انت يا سيدي المارشال ، تلقيت اثناء انسحاب عام ١٩١٤ نجماتك الأولى . وبعد بضعة ايام ، كانت المارن » . فهمهم بيتان : « لا نسبة بين الموقفين » . كان على صواب في هـــذه النقطة . ووصل الوزير البريطاني الاول ، ودخل المؤتمرون للبحث .

تجابهت خلال تلك الجلسة مجابهة مكشوفة ، المفاهيمُ والاهواءُ التي ستهيمن على الطور الجديد من اطوار الحرب ، وكل ما استُخدم حتى ذلك الزمن قاعدة للعمل والمواقف ، اصبح في خـبر كان ؛ فتضامن الانكليز وفرنسا ، وقوة الجيش الفرنسي وسلطة الحكومة ، وولاء القيادة ، كل ذلك لم يعد حاصلاً ، ولا مكتسباً . وراح كل واحد من الفرقاء يتصرف لا كشريك في عمل يُيسّر بالمشاركة ، بل كرجل يتجه بعـد الآن في اتجاهه الخاص ، ويلعب لحسابه الخاص .

أظهر الجنرال فيغان ان همّه ، من جانبه ، ينصرف الى تصفية المعركة الدائرة بأسرع وقت ، وبسط امام المؤتمر ، وهو يستعين بشهادات الجنرالين : جورج وبيـون ، لوحةً موقف عسكري لا رجاء فيه . وراح القائـد

الاعلى ، وهو الذي كان بالاضافة الى ذلك ، رئيس الأركان العامة من ١٩٣٠ حتى ١٩٣٥ ، يعرض اسباب اندحار الجيوش الخاضعة لاوامره بلهجة وقور ، وان عدوانية ، لهجة امرىء يأخذ بثاراته ، من غير ان يتحمل تبعتها . وكانت النتيجة التي خلص اليها انه يجب انهاء المحنة لان الجهاز العسكري يمكن ان ينهار فجأة ، وينفتح الباب على مصراعيه امام الفوضى والثورة .

وتدخل المارشال يزيد التشاؤم قوة ، فقال له المستر تشرشل ، وهو يريد ان يلطف الجوّ ، بلهجة تغمرها روح الدعابة :

« لننظر ! الا تتذكر يا سيدي المارشال معركة آميان في آذار (مارس) ١٩١٨ حين كانت الامور تسير على نحو جدّ سيء ، وزرتك يومئذ في مقرك العام ، وشرحت لي خطتك . ثم استردت الجبهة عافيتها ، بعد بضعة ايام » .

فأجابه المارشال ، بفظاظة :

« — نعم ، استردت الجبهة عافيتها . كنتم انتم الانكليز مُغرَّقين . ولكني انا ارسلت اليكم اربعين فرقة انتشلتكم . واليوم نحن الذين تبدّدنا مزقاً . اين هي فِرقكم الاربعون ؟ » .

واظهر رئيس الوزارة الفرنسية ، وهو يكرر في الوقت ذاته ان فرنسا لن تنسحب من المعركة ، ويحث الانكليز على إنجادنا بأكبر كمية من طائراتهم الحربية — أظهر انه على الرغم من كل شيء لن ينفصل عن بيتان وفيغان ، كما لو كان يأمل ان يراهما يوماً ما ينضويان الى سياسته . وبدا المستر تشرشل ثابتاً لا يتزعزع ، مفعماً بالهمة والمضاء ، متخذاً إزاء الفرنسيين في الشدائد التي اصابتهم ، موقف التحفظ الودي ، وقد تأثر ، وربما بشيء من الارتياح الخفي الغامض ، حيال ما يتراءى امامه من رؤيا هائلة ورائعة لانكلترا وقد تُركت وحيدة في جزيرتها ،

وان عليه بنفسه ان يقودها في الجهد نحو الخلاص . اما انا فقد رحت ، وانا افكر في العاقبة ، اتأمل ما تنطوي عليه هذه المؤثرات السوداء من لغو ومجاملة ، ما دامت لا تهدف الى الحل الوحيد القيّم : التركيز فيما وراء البحار .

وانصرف المؤتمرون الى تناول العشاء على مائدة واحدة ، بعد ثلاث ساعات من مناقشات لم تسفر عن شيء . وكنت الى جانب تشرشل ، فكان من اثر حديثي معه ان قويت ثقتي بعزيمته . وهو نفسه حفظ من ذلك الحديث ان ديغول ، رغم انعدام وسائله ، لا يقل عنه مضاء وعزيمة .

وظهر الاميرال دارلان بعد الوليمة ، وهو الذي لم يحضر المؤتمر ، واقبل على السيد بول رينو ، دافعاً امامه الجنرال فويمّان ، رئيس اركان الجو العامة . وكانت الغاية من تصرفه ذاك ، تبعث على التفكير الجادّ . فان عملية حربية يقوم بها الاسطول والطيران القاصف معاً ، أعدّت ضد جنوى . ويجب ان يباشر بتنفيذها ، حسب الخطة الموضوعة ، اثناء تلك الليلة . ولكن دارلان ، وقد أخطِرَ بالأمر ، يريـــد ان يصدر امراً معاكساً ، متذرعاً الى ذلك بمخاوف الجنرال فويمّان الذي يخشى ردّ الفعل الايطالي ضدّ مستودعات البنزين في « بير » . ومع ذلك ، فان الاميرال دارلان يطلب موافقة الحكومة . فقال لي السيد بول رينو : « ماذا ترى في هذا الشأن ؟ فأجبته : « المعقول اكثر من اي شيء آخر ، في الحالة التي نحن فيها ، ان لا نداري شيئاً ، على العكس من كل تخوف . يجب تنفيذ العملية المعدّة » .

غير ان الغلبة كانت لدارلان ، والأمر المعاكس صدر . ولكن جنوى قُصفت ، مع ذلك ، من بعد ، ولكن على يد قطعة بحرية ضعيفة ، وكان قصفها متأخراً ثلاثة ايام عما كان مقرراً . وادركت من خلال هـــذا الحادث ان دارلان كان هو ايضاً يلعب لعبته الخاصة .

ورحت خلال النهار من ١٢ ، وكنت مقيماً في قصر « بوفيه » ، ملك السيد « لو بروفو دي لونيه » ، اعمل مع الجنرال كولسون في خطة الانتقال الى افريقيا الشمالية . وكان من امر الحوادث التي شهدتها البارحة والعزلة التي تركت فيها الآن وحدي ، ان جعلتني اتوجس خيفة ، والحق يقال ، من ان تكون روح الاهمال والتخلي قد كسبت رقعة جد واسعة ، وان لا تطبّق الخطـة التي اضعها أبداً ، ومع ذلك ، كنت مصمماً على اداء كل ما في وسعي ان اعمله ، لتأخذ بها الحكومة لحسابها ، وتفرضها على القيـادة .

ومذ أنهيت الجوهريّ منها ، ذهبت الى شيساي ، حيث كان يقيم السيد بول رينو ، فاذا بي اصل متأخراً . وكان رئيس الوزارة قد خرج من جلسة مجلس الوزراء الذي انعقـد في كانجي ، ولم أدعَ اليه ، ثم وصل حوالي الساعة ١١ ليلاً ، يرافقه بودوان . وفيما هما يتناولان العشاء مع بطانتهما ، جلست قرب المائدة وطرحت مسألة افريقيا الشمالية بوضوح وصراحة . ولكن اللذين اخاطبهما لم يريدا الكلام الا في مشكلة كانت ملحة من جهة ، ولهـا صلة بموضوعي من جهة ، وقد التأم مجلس الوزراء للبحث فيها الا وهي : الى اين تمضي الحكومة ؟ والواقع ان الالمان يبلغون نهر اللوار عما قريب ، بعد ان عبروا السين . وكان هناك سؤال : بوردو أم كمبر ؟ وتبع ذلك ، حول المائدة ، نقاش جعله التعب واضطراب الاعصاب مبلبلاً وصاخباً . فـلم يُتخذ اي قرار صريح وانسحب السيد بول رينو ، على ان الاقيه في الصباح .

كنت بطبيعة الحال ، أفضل كمبر ، لا لاني واهم حول امكان الصمود في بريتانيا ، بل لاني قدرت انـه اذا كان على الحكومة ان تنسحب منها ، فلن يكون امامها ، عاجلاً ام آجلاً ، الا ان تسلك طريق البحر . وذلك لان على الالمـان ان يحتلوا بالضرورة شبه الجزيرة ، ليعملوا ضدّ

الانكليز ، فلا يمكن ان يكون في بريتانيا « منطقة حرة » . ومتى اجبر الوزراء ، كان عليهم ، حسب التصور الحقيقي ، ان يتجهوا نحو افريقيا ، اما رأساً ، واما بعد وقفة في انكلترا . وكانت كبير ، على اي حال ، المرحلة نحو القرارات الحازمة الناشطة . ثم ان السيد بول رينو ، تحدث إليّ ، منذ دخلت الحكومة ، عن مشروع « الملاذ البريتوني » ، وانضويت الى رأيه . وعلى العكس مما زعم المعارضون ، امثال بيتان ، وفيغان ، وبودوان — اية كانت مزاعمهم — في شأن الدوافع التي أملت عليهم المعارضة ، فان سياستهم التي تهدف الى الاستسلام كانت الدافع الحقيقي ، وليس الفن العسكري .

وفي صباح ١٣ الباكر ذهبتُ الى شيساي ، وبعد نقاش طويل ، وعلى الرغم من حججي ، قرر رئيس الوزارة نقل السلطات العامة الى بوردو ، زاعماً ان هذا هو الرأي الذي ابداه الوزراء عشية البارحة . وما كان ذلك الزعم إلا ليزيدني تشبثاً بتوقيع امر على الأقل ، موجّه الى القائد الأعلى باتخاذ الترتيبات والاستعدادات اللازمة للانتقال الى افريقيا . كانت هذه هي نية السيد بول رينو الاخيرة . وكنت اعلم ذلك . ولكن الدسائس والتأثيرات المعاكسة التي تردُ عليه بلا انقطاع ، كانت ملحّة ومضجرة لدرجة كنت ارى معها ، ساعة فساعة ، ذلك الأمل الاسمى وهو يتوارى .

ومع ذلك ، فقد وقّع رئيس الوزراء ، في ذلك اليوم ، حوالي الظهر ، رسالة موجهة الى الجنرال فيغان ، يبيّن له فيها ما تنتظره الحكومة منه ، بعد اليوم . اولاً : « ان يثبت اطول مدة ممكنة في « الماسيف سنترال » و « بريتانيا » . ثم : « اذا نحن اخفقنا ... ان نركز الكفاح وننظمه في الامبراطورية ونفيد من حرية البحار » . كانت هذه الرسالة علامة نية خلاص مخلصة ، بكل تأكيد ، ولكنها لم تكن ،

حسب رأيي ، الأمر الجازم الذي كانت الظروف تفرضه . غير انها لم تكد توقّع حتى وضعت موضع الشك والتساؤل في الكواليس ، ثم لم ترسل اخيراً الا في اليوم التالي .

وفي صباح ذلك اليوم نفسه (١٣ حزيران) قدِمَ الى شيساي السيد جانينيه ، رئيس مجلس الشيوخ والسيد هريو رئيس مجلس النواب ، فكان من الاول ان اجال عزيمة ثابتة وسط الاضطراب ، ودعا الى الاقتداء بكليمنصو ، وهو الذي كان في المواقف العظيمة من عامي ١٩١٧ و ١٩١٨ معاونه المباشر ، والحميم في الحكومة . وبدا الثاني بشوشاً ، فصيحاً وهو يعبّر ببلاغة عن المشاعر العديدة التي تخالجه ، وكلاهما اظهرا تأييدهما لرئيس الوزارة ، ومعارضتهما للاستسلام ، واستعدادهما للانتقال الى مدينة الجزائر مع السلطات العامة . وتراءى لي ، زيادة عما كان من قبل ، ان في استطاعة السيد بول رينو ان يظنّ ، اية كانت مؤامرات التخلي التي تُحاك حوله ، سيد الموقف شرط ان لا يتنازل عن شيء .

وكنت في بوفيه بعد ظهر ذلك اليوم حين استدعاني هاتفياً السيد دي مارجيري ، رئيس الغرفة الدبلوماسية لدى السيد بول رينو ، وقال لي : « سينعقد خلال لحظات ، اجتماع في محافظة « تور » بين رئيس الوزراء والمستر و. تشرشل الذي وصل الآن مع عدة من وزرائه . احيطكم علماً سريعاً بذلك كما أعلمت ، وأريدك ان تحضر ، وإن كنت لم تدع الى الاجتماع فان بودوان يعمل عمله ، ولديّ انطباع سيء عما يدور » . تلك هي مخابرة السيد دي مارجري .

وانحدرت نحو تور ، وأنا شاعر كل الشعور بما هو مقلق في ذلك الاجتماع الفجائي الذي لم ير رئيس الوزراء ان يكلمني في شأنه ، وقد قضيت معه عدة ساعات . وكانت دار المحافظة في تور وأروقتها تعج

بجماعة من البرلمانيين ، والموظفين ، والصحافيين الذين هرعوا لتسقط الانباء ، وكانوا يؤلفون كورساً صاخباً لمأساة تقترب من خاتمتها . ودخلت مكتب السيو بول رينو ، فوجدته محاطاً بمارجيري وبودوان . كان الاجتماع قد عُلق . ولكن السيد تشرشل وزملاءه رجعوا في اللحظة ذاتها . وبيّن لي السيد مارجيري على وجه السرعة ان الوزراء البريطانيين الذين تحلقوا في الحديقة ، سيقدّمون جوابهم عن السؤال الذي طرحه الفرنسيون : « هل توافق انكلترا ان تطلب فرنسا الى العدو ، رغم اتفاق ٢٨ مارس (آذار) ١٩٤٠ الذي يمنع كل وقف منفصل لاطلاق النار ، ما هي اشتراطاته عليها وحدها ، لعقد هدنة ؟ » .

وجلس المستر تشرشل . واتخذ كل من اللورد هاليفاكس ، واللورد بيفربروك ، والسير ألكسندر كادوغان مكانه . وكذلك فعل الجنرال سبيرز الذي كان يرافقهم . ومرت برهة من صمت ساحق . ثم اخذ الوزير الاول مبادرة الكلام بالفرنسية وبلهجة متعادلة وكئيبة ، وطفق يعرب عن عطفه ، وعطف حكومته وشعبه على مصير الأمة الفرنسية ، وهو يضع رأسه بيديه والسيجار في فمه ، وقال : « اننا لنرى جيداً ما آلت اليه فرنسا ، ونفهم انكم تشعرون بالمأزق الذي ارتطمتم به . صداقتنا لكم تظل على نقائها . كونوا ، في جميع الاحوال ، على ثقة ان انكلترا لن تنسحب من العراك . سنقاتل حتى النهاية ، ما همّنا كيف ، ولا يهمنا اين ، حتى وإن تركتمونا وحدنا » .

وحين تناول مواجهة عقد الهدنة بين الفرنسيين والألمان ، وهو الموضوع الذي كنت احسب انه سيغيظه ، اعرب عكس ما اترقب ، عن تفهّم رقيق عطوف . ولكنه اظهر ، حين انتقل فجأة الى موضوع الاسطول ، دقة وضبطاً للأمور جد محكمين . واليقين الذي لا يرقى اليه ادنى ظل من شك ، هو ان الحكومة الانكليزية كانت تتخوّف من تسليم

الاسطول الفرنسي للالمان ، الى درجة طأطأت معها رأسها بينما كان لديها الوقت للمساومة على تخليها عن اتفاق ٢٨ آذار لقاء ضمانات تتعلق بمصير سفننا . وتلك هي ، في الواقع ، النتيجة التي انبثقت عن ذلك الاجتماع الرهيب . وقبل ان يغادر المستر تشرشل القاعة ، سأل بإلحاح ما اذا كانت فرنسا تسلّم انكلترا ، اذا هي وقفت القتال ، الطيارين الالمان الاربعمائة الذين وقعوا في الأسر ، قبل وقفه . وكان ان تلقى وعداً بذلك .

ثم انتقل البريطانيون يتقدمهم السيد بول رينو ، الى الغرفة المجاورة حيث كان ينتظرهم رئيسا مجلسي الشيوخ والنواب ، وعدد من الوزراء . وهناك كانت اللهجة جد مختلفة ، فان السادة جانينيه ، وهريو ، ولويس ماران ، امتنعوا عن الكلام في اي موضوع ، سوى متابعة الحرب . وذهبت الى السيد بول رينو ، وسألته بشيء من الحدّة : « هل يمكن ان نتصور ان فرنسا تطلب الهدنة ؟ » فقال لي : « من المؤكد لا ! ولكن يجب ان نؤثّر في الانكليز تأثيراً نحصل به منهم على تعاون أوسع » . وما كان في مستطاعي ، يقيناً ، ان ارى لهذا الجواب قيمة . وبعد ان افترق الجميع وسط اللغط في دار المحافظة ، عدت الى « بوفيه » مغموماً ، مرهقاً ، بينما راح رئيس الوزراء يبرق للرئيس روزفلت يناشده التدخل ، ويعلمه ان كل شيء يصبح خاسراً بالنسبة الينا اذا هو لم يتدخل . وفي المساء ، صرح السيد بول رينو في المذياع : « اذا كان لا بد من معجزة لانقاذ فرنسا ، فانا اؤمن بالمعجزة » .

وبدا لي ان كل ما ذكر وقيل يصبح عما قريب واقعاً . والشأن في ذلك ، شأن مكان محاصَر يقترب من الاستسلام طالما ان الحاكم يتحدث عنه ، وكذلك هي حال فرنسا وهي تعدو وراء الهدنة ، ما دام رئيس حكومتها يواجه الهدنة رسمياً . وسيصبح بقائي في الحكومة ، مهما كان

مركزي بها ثانوياً ، امراً مستحيلاً . وفيما كنت أهم بارسال كتاب استقالتي اثناء الليل ، ارسل جورج ماندل في اللحظة ذاتهـــا بايعاز من رئيس ديواني جان لوران ، يطلب ان اذهب لمقابلته .

وأدخلني اندره ديتيلم على وزير الداخلية . وتحدث اليّ ماندل بلهجة من الجدّ والعزم تأثرت بها ، فقد كان مقتنعاً مثلي تماماً ، ان استقلال فرنسا وشرفها لا يمكن ان يُستنقذا الا بمتابعة الحرب . ولكنه اوصاني ، بداع من هذه الضرورة القومية نفسها ، ان اظل حيث كنت ، في منصبي ، وقال : « من يدري ما اذا كنا لا نوفق آخر الأمر الى ان تذهب الحكومة الى الجزائر ؟ » . وروى لي ما جرى في مجلس الوزراء بعد ذهاب الانكليز ، حيث تغلب الحزم ، وذلك هو قوله ، رغم الموقف الذي وقفه فيغان ليمثله فيه . واخبرني انه في اللحظة ذاتها ، دخلت عناصر الالمان الاولى باريس . ثم صور المستقبل كما تخيلته ، واضاف : « لسنا ، على اية حال ، الا في بداية الحرب العالمية . وسيكون عليك واجبات كبرى لتؤديها ايها الجنرال ! ولكن مع هذه الميزة ، وهي انك بيننا جميعاً ، رجل سليم . ولا تفكر الا فيما يجب عمله من أجل فرنسا ، واحسب ان منصبك الراهن يمكن ، عند الاقتضاء ، ان يسهّل لك الامور . » ومن واجبي ان اقول ان هذه الحجة اقنعتني ان أنتظر قبل ان أستقيل . وربما كان الفضل يعود الى ذلك ، في رسوخ ما امكنني عمله مادياً من بعد .

وفي ١٤ حزيران : انسحاب الحكومة ! قمت بتوديع مضيفيّ « لوبرفو دي لونيه » وذويه ، فهؤلاء لن يرحلوا ، وهم محاطون بكل من لا يدعى الى التعبئة او قابل لان يدعى اليها من ذويهم ، وكان عليهم ان ينتظروا في منازلهم معارك الانسحاب ، ثم وصول الغزاة . ولدى نهاية أصيل ذلك اليوم ، بلغت بوردو بعد سفر مرهق على طريق تعج بمواكب اللاجئين ، وذهبت الى المنطقة العسكرية حيث تقررت أقامة السيد بول رينو .

وكان عمدة المدينة ونائبها السيد ماركيه هناك ، وكان منه ان قـدّم لي بواكير خواطره المثبطة التي يستمد لالقائها في روع رئيس الوزارة .

وحين وصل هذا ، قلت له : « منذ ثلاثة ايام وانا افكر في السرعة التي ننحدر بها نحو الاستسلام . لقد منحتك عوني المتواضع ، وانما كان ذلك للمضي في الحرب . وانا أمانع في الاذعان لهدنة ، واذا انت بقيت هنا ، فستغرقك الهزيمة . يجب ان ننتقل الى الجزائر بأسرع ما يمكن . أتوافق ، عازماً ، بلا او نعم ؟ — وكان جواب السيد رينو « نعم » فعدت الى الكلام : « يجب في هـذه الحالة ان اذهب بنفسي توا الى لندن لأرتب معونة الانكليز لنا في شؤون النقل . وسأذهبُ غداً . اين القاك ؟ » فأجاب رئيس الوزراء : « تلاقيني في عاصمة الجزائر » .

كان الاتفاق على ان اسافر في الليل ، وأمرَ اولاً بمقاطعة بريتانيا لأرى ما يمكن نقله منها بحراً . وطلب إليّ السيد بول رينو اخيراً ان ادعو دارلان ليكون بجانبه في صباح اليوم التالي ، وقال لي انه يريد محادثته في شأن الأسطول .

كان دارلان في طريقه الى غيربتولد . اتصلت به عشية ذلك اليوم وعينت له موعد الزيارة . فردّ عليّ صوت فظّ : « أذهب الى بوردو ، غداً ؟ لا ادري ما الذي يستطيع ان يعمله فيها رئيس الوزارة . ولكني انا الذي يصدر الأوامر ، وليس لدي من الوقت ما اضيعه » . واخيراً اذعن . غير ان اللهجة التي تكلم بها دارلان كشفت عن محبآتٍ محزنة . وبعـد دقائق من ذلك ، رحت اتدبر تطوّر بعض الاذهان خلال حديث قصير مع جان بيارنيغاري وزير الدولة الذي كان قد ظهر حتى ذلك الوقت من أنصار الكفاح حتى النهاية ، وقد جاءني وانا اتناول طعام العشاء ، على عجل ، في فندق « سبلانديد » برفقة جوفروا دي كورسيل ، وقـــال : « لا قيمة لشيء في نظري ، وانا المحارب القديم ، إلا ان أطيع رؤسائي :

بيتان وفيغان » . فأجبته : « قد يأتيك يوم من الايام ترى فيه ان سلامة الدولة ، يجب ان تتغلب في حس الوزير على جميع العواطف » . وذهبت بصمت ، أحيي الماريشال بيتان الذي كان يتناول عشاءه في القاعة نفسها ، فصافحني دون ان ينبس بكلمة . وكان ذلك آخر لقاء لي معه .

اي تيار كان يجرفه ، ونحو اي مصير محتوم ! لقد كانت سيرة هذا الرجل الاستثنائي جهداً طويلاً من الكبت ، فهو اعز من ان يدس ، واقوى من ان يتفه ، واطمح من ان يكون وصوليا ، فعاش في عزلته يغذي بنفسه هوى السيطرة ، هذا الهوى الذي اشتد من خلال شعوره بقيمته الخاصة ، والمراقيل الطارئة ، والازدراء الذي ينطوي عليه تجاه الآخرين . وكان المجد العسكري فيما غبر من ايام ، قـــد أغدق عليه ألطافه المريرة . ولكنه لم يغمره ، لانه أحبه وهو وحيد . وها هي الاحداث تقدم فجأة لمواهبه وكبريائه ، وهو في اقصى خريف الحياة ، الفرصة التي طالما انتظرها ، ليتفتح ويتألق الى غير حد ، ولكن لهـــا شرطاً مع ذلك ، وهو ان يرتضي الكارثة مجناً لرفعته ، ويزدان بها مجده .

يجب القول ان المارشال كان يحسب المعركة ، كيف دار بها الامر ، خاسرة . فهذا الجندي العتيق الذي ارتدى طقمه العسكري غداة ١٨٧٠ ، كان ينزع فقط الى اعتبار الصراع حرباً فرنسية — المانية جديدة . ونحن الذين غُلبنا في الأولى ، كنا الغالبين في الثانية ، اي حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، مع حلفاء لنا ولا شك ، ولكن دور هؤلاء كان ثانوياً ، وقد خسرنا الآن الثالثة . وذلك من القسوة بمكان ، ولكن لا بد منه . فبعد « سيدان » وسقوط باريس لم يبق الا ان نخلص ، ونعاهد ونسحق اذا اقتضى الأمر ، ثورة « الكومون » ، على نحو ما فعل « تيير » في الظروف نفسها من قبل . فالصفة العالمية للنزاع ، وامكانات بلدان ما وراء البحار ، والنتائج العقائدية لانتصار هتلر ، كل هذه في رأي المارشال العجوز لا

يكاد يوليها شيئاً من الاهتمام ، وما هي من الامور التي تعوّد اعتبارها .

وانا مقتنع ، رغم كل شيء ، ان المارشال بيتان ما كان ليرضى ، في أوقات أخَر ، ان يرتدي الارجوان في التخلي عن أمته . وانا موقن ، على كل حال ، انه لو ظل اياه نفسه ، لكان قد اتخـــذ طريق الحرب سبيلاً في اللحظة التي يتمكن بها من رؤية الخداعه ، ولأدرَكَ ان النصر ما زال ممكناً ، وانه سيكون لفرنسا نصيبها منه . ولكن السنين الطوال ، يا للحسرة ! كانت قد قرضت خلف الطيلسان ، طبعَه ، واسلمته الشيخوخة لمناورات اناس برعوا في التستر بعباءته الجليـــل . الشيخوخة ضرب من الانهيار . ولكي لا يوفرنا القدر في شيء ، جعـل شيخوخة المارشال وانهيار فرنسا شيئاً واحداً .

وذلك ما كنت افكر فيه ، وأنا انحـدر في الليل نحو بريتانيا ، وشحذت عزيمتي في الوقت نفسه ، على متابعـة الحرب ايّاً كان المصير الذي تسوقني اليه . ولدى وصولي الى « رين » في صباح ١٥ حزيران (يونيو) قابلت الجنرال رنيه ألتمايه الذي كان يقود مختلف العناصر المحاربة في شرق مانيّين ، والجنرال غيتري آمر المنطقة العسكرية ، ومحافظ « ايل وفيلين » ، وكان الثلاثة يقومون ، كل في مجاله ، بأفضل ما يمكن القيام بـــه . وجهـدت في تنسيق جهودهم ووسائلهم للدفـاع عن المنطقة ، ثم بلغت « برست » ، وأنا اتجاوز قوافل انكليزية ذاهبة اليها لتبحر منها . ودرست في المحـــافظه البحرية مع الاميرال تروب و « الاميرال - الغرب » دي لابورد امكانات البحرية في نقل الجنود من موانيء بريتانيا ، وحاجاتها . وبعد الظهر صعدت الفسافـة المضادة « ميلان » التي اقلتني الى بلايموث برفقة بعثة من الكيماويين يقودها الجنرال لوموان ، وكان السيد راؤل دوتري ، وزير التسلح قـــد ارسلها لتضع « الماء الثقيل » بمأمن في انكلترا . وكانت الدارعة « ريشليو » قـد أدّت لي تحيـة الشرف ،

عند مغادرتي مرفأ « بريست » ، وقد أقلعت بزينتها الى دكار . ومن بلايموث ذهبت الى لندن فبلغتُها فجر السادس عشر من حزيران .

وبعد دقائق من وصولي ، دخل السيدان كوربان ومونيه ، وأنا في غرفة الفندق « هايد بارك » اغتسل من وعثاء السفر ، وكان اول ما اخبرنيه السفير ان مختلف الزيارات التي ينبغي لي القيام بها الى الانكليز إنما هي للبحث في شأن النقليات تم ترتيبها لذلك الصباح . وكان من المتفق عليه عدا ذلك ، انه ما لم تتقدم فرنسا بطلب هدنة من المانيا ، سيلتقي السيد تشرشل والسيد بول رينو في كونكارنو صباح اليوم الثاني ، ليوجها امراً مشتركاً بتبحير الجنود والعتاد . ثم انتقل محاوراي الى موضوع آخر .

قالا : « نحن نعلم ان روح الاستسلام في بوردو تتقدم بسرعة . ثم ان الحكومة الفرنسية كانت قد اكدت برقياً ، اثناء قدومك الى هنا ، طلبها الشفويّ في ١٣ الجاري الى السيد و. تشرشل من قبل السيد بول رينو ، الرامي الى إعفاء فرنسا من اتفاق ٢٨ آذار . وليس لدينا معلومات بعد عن الجواب الذي يعدّه الانكليز ، ويفرض ان يرسلوه في هذا الصباح . ولكننا نحسب انهم سيوافقون لقاء ضمانات تتعلق بالاسطول . نحن نقترب اذن من اللحظات الاخيرة . وبما ان مجلس الوزراء سينعقد هذا النهار في بوردو فان مقرراته ، ستكون حسب اصدق الاحتمال ، نهائية جازمة » .

وأضاف السيدان كوربان ومونيه : « لقد بدا لنا ان ضرباً من مفاجأة مسرحية تلقي في الموقف الراهن عنصراً جديداً كل الجدّة ، يكون من شأنها ان تغيّر الحالة الذهنية السائدة ، وتشد على كل حال ، السيد بول رينو في عزمه على سلوك الطريق الى الجزائر ، وقد اعددنا مع السير روبرت فانسيتارت ، الامين الدائم للفورين اوفيس (وزارة

الخارجية البريطانية) مشروعاً يبدو خطيراً ، وهو ان نطرح الاقتراح باتحاد فرنسا وانجلترا ، على ان يذاع علانية من جانب حكومة لندن وحكومة بوردو ، وفيه يقرر البلدان صهر سلطاتها العامة والمشاركة في مواردها وخسائرها ، او هو الارتباط الكامل ، بقول مختصر ، بين مصيري كل منها ، فان من الممكن ، ازاء مثل هذه الخطوة اذ يخطوها البلدان في مثل هذه الظروف ، ان يعمد وزراؤنا الى توسيع آفاقهم ومجالات عملهم ، او ان يخالفوا على الأقل ، دعاة التخلي عن الحرب . ولكن لا يزال أمام مشروعنا ، ان تتبناه الحكومة البريطانية . وأنت وحدك تستطيع ان تحصل على ذلك من المستر تشرشل . ومن المنتظر ان تتناول هذه الساعة طعام الفطور معه . وستكون هذه الفرصة الكبرى ، اذا انت وافقت على الفكرة » .

ودرست النص الذي قدّم لي ، فبدا لي ، في الحال ، ان ما فيه من معنى جليل يمنع ، في جميع الاحوال ، تحقيقه العاجل . وكان اول ما يتبادر الى الذهن فيه ان من غير المستطاع صهر فرنسا وانكلترا ، وان مبدئياً ، عن طريق تبادل المذكرات ، بجميع انظمتها ، ومصالحها ، وامبراطوريتيها ، على افتراض ذلك مرغوباً فيه . وحتى النقاط القابلة ، في المشروع ، للتسوية بطريقة عملية - كالمشاركة مثلاً في الاضرار - تتطلب مفاوضات معقدة . ولكنّ في العرض الذي تتقدم به الحكومة البريطانية لحكومتنا ، مظهر تضامن يمكن ان يكتسب معنى واقعياً . وقد افتكرت على الأخص ، كما افتكر السيدان كوربان ومونيه ، ان من طبيعة المشروع ان يشجع السيد بول رينو في الازمة الاخيرة التي ارتطم بها ، ويمدّه تجاه وزرائه بالصلابة . ولذا رضيت ان استخدم صلتي بالمستر تشرشل لحمله على اخذ المشروع لحسابه .

كانت صبيحة ذلك اليوم مثقلة . بدأت بتسوية ارسال الدارعة

« باستور » التي كانت تقل زهاء ألف مدفع من عيار ٧٥ ، وآلاف الرشاشات وحصصاً من ذخائر أتت من الولايات المتحدة . وقد أفاد تقرير بعثتنا العسكرية ان السفينة حادت عن طريقها الى بوردو ، وهي في عرض البحر ، بناء على امر منسّي ، واتجهت نحو ميناء بريطاني . وكان الواجب يقضي نظراً لسير الحوادث ، ان نحول دون وقوع هذه الحمولة التي لا تقدر آنذاك بثمن ، في ايدي العدو . والواقع ان المدافع والرشاشات المحمولة على ظهر « باستور » افادت في اعــادة تسليح البريطانيين الذين فقدوا في دنكرك ، جميع اعتدتهم تقريباً .

أما قضية النقل ، فقد وجدتُ لدى الانكليز اهتماماً صادقاً بتقوية وسائلنا لتبحير عناصرنا وحماية قوافلنا البحرية . ورُكّبت آلية التنفيذ على يد الاميرالية بالارتباط مع بعثتنا البحرية التي كان يقودها الاميرال « اودندال » . ولكن كان الاعتقاد السائد في لندن ان احداً لا يؤمن بوثبة تحققها فرنسا الرسمية . وقد أرتني الاتصالات التي قمت بها ان التدابير التي اتخذها حلفاؤنا في مختلف المجالات ، انما اتخذت تحسباً لتخلينا الوشيك عن الكفاح . وكان مصير بحريتنا يلاحق قبل كل شيء ، اذهان الجميع . وكان كل فرنسيّ اثناء هاتيك الساعات المأسوية ، يشعر بثقل الاستفهام الأخرس او الناطق الذي يوجهه اليه جميع الانكليز الذين يلتقيهم : « ما الذي سيحل بأسطولكم ؟ » .

وكان ذلك ايضاً في ذهن الوزير البريطاني الاول ، حين ذهبت مع السيدين كوربان ومونيه لتناول الفطور معه في « كارلتون كلوب » وقد قلت له : « لن يسلّم الاسطول الفرنسي طوعاً ، مهما حدث ، فان بيتــان نفسه لا يرضى بتسليمه . ثم ان الاسطول إقطاعة دارلان . والاقطاعي لا يسلّم قطاعه . ولكن لكي نكون على ثقة من ان العدو لن يستطيع ابداً ان يضع أيديه على سُفننا ، يجب إن نظلّ في حرب

معه . ومذ كانت هذه هي الحال ، فان من واجبي ان اصرّح لك ان موقفك في « تور » كان مفاجأة كدّرتني ، اذ بدوت وكأنك تجعل من تحالفنا شيئاً ليس ذا بال . وإذعانك انما يخدم اولئك الذين يميلون عندنا ، الى الاستسلام ، فهم يقولون : « ألا ترون جيداً اننا مكرهون على ذلك . الانكليز انفسهم يوافقوننا » لا ! ان ما يجب ان تعملوه لتشجيعنا مغاير كل المغايرة لما قمتم به في الازمة الرهيبة التي نعانيها » .

وبدا السيد تشرشل مزعزعاً . ثم اختلى برهة بالماجور مورتون رئيس ديوانه ، وحسبت انه اتخذ الى اقصى حد الاستعدادات الضرورية لتغيير قرار كان قد رسمه . ولربما كانت تلك الخلوة السبب في ذلك الحادث ، وهو ان سفير انكلترا في بوردو جاء ليسحب من يد السيد بول رينو مذكرة بعد نصف ساعة من تسليمها وفيها توافق الحكومة البريطانية مبدئياً على ان تطلب فرنسا الى المانيا الشروط لهدنة محتملة .

وحين عاد تحدثت اليه عن مشروع اتحاد الشعبين ، فقال لي : « كلمني اللورد هاليفاكس في هذا الشأن ، ولكنه موضوع جليل » فأجبته : « نعم ! وتحقيقه ايضاً يحتاج ضمناً الى كثير من الوقت ، ولكن الاعلان يمكن ان يكون توّاً . ولا يصح في الحالة الراهنة التي وصلت اليها الأمور ان تهملوا شيئاً مما فيه تأييد لفرنسا وتوطيد لتحالفنا » . وبعد مناقشة قصيرة اخذ الوزير الاول برأيي . ودعا فوراً مجلس الوزراء لجلسة طارئة ، وذهبنا معاً الى داوننغ ستريت ليرئس الاجتماع ، وكنت رفيقه . وبينما كان الوزراء يتذاكرون ، جلست في مكتب مجاور لقاعة المجلس مع سفير فرنسا . واتصلت في هذه الاثناء ، بالسيد بول رينو هاتفياً اعلمه اني آمل ان اوجّه اليه قبل نهاية بعد الظهر ، وبالاتفاق مع الحكومة الانكليزية ، مخابرة جد مهمة ، فأجابني انه يؤجل موعد جلسة الوزراء ، نتيجة لذلك الى الساعة ١٧ ، وأضاف :

« ولكنني لا استطيع ان اؤجل اكثر من ذلك » .

دامت جلسة الوزارة البريطانية ساعتين ، كان يخرج خلالها بين وقت وآخر هذا الوزير او ذاك لاستيضاح نقطة منّا نحن الفرنسيين . وفجأة دخل الجميع ، وتشرشل على رأسهم وصاحوا : « موافقين » ! والواقع ، كان النص الذي اتوا بـــه ، النص نفسه الذي اقترحناه ، باستثناء بعـض التفاصيل . وهتفت حالاً للسيد بول رينو ، وأمليت عليـــه الوثيقة ، فقـال رئيس الوزارة : « هذا شيء مهم جداً ، سأفيد منه في الجلسة التي اعقدهـــا هذه الساعة » . وأسررت اليه بكلمـات اودعتها كل ما قدرت عليه من تشجيع . وتناول السيد تشرشل السماعة ، وصاح : « آلو ! رينو ! ديغـول على صواب . يمكن ان يكون لبياننا نتائج كبيرة . يجب الصمود ! » . ثم قال ، بعد ان استمع للجـــواب : غداً ! إذن في كونكارنو » .

واستأذنت الوزير الأول ، فأعارني طائرة لأعود فوراً الى بوردو ، واتفقنا ان تظل تحت تصرفي تحسباً للحوادث التي قد تحملني على الرجوع الى لندن . وكان على السيد تشرشل نفسه ان يذهب في القطار ليبحر على ظهر مدمرة الى كونكارنو . وفي الساعة ٢١،٣٠ هبطت في بوردو ، وكان العقيد همبر ، واوبرتان من موظفي ديواني ، ينتظرانني في المطار ، فأخبراني ان رئيس الوزارة قدم استقالته ، وان الرئيس لوبران كلّف المارشال بيتان بتشكيل الحكومة . كان ذلك هو الاستسلام الأكيد . واتخذت قراري حالاً . سأسافر صباحاً باكراً .

ذهبت اقابل السيد بول رينو ، فوجدته خلواً من كل وهم حول ما تجره ولاية المارشال ، كما وانه يشعر بالراحة ، من جهة اخرى ، كمن ألقي عن ظهره حمل لا يطاق . وتكوّن لدي عنه الانطباع انه رجل بلـــغ آخر حدود الأمل . والذين كانوا شهود المحنة وحدهم يعرفون اي بـلاء

كانت السلطة اثناء تلك الحقبة الهائلة ، فقد كان رئيس الوزارة يشعر ان التبعة كلها في مصير فرنسا ملقاة على عاتقه ، بالاضافة الى انه كان يقضي النهار بلا استراحة ، والليل بلا نوم . وذلك لان الرئيس وحيد دوماً تجاه القدر السيء ، وهو الذي كانت تصيبه رأساً التقلبات التي اتسمت بها مراحل سقوطنا : اختراق الالمان دفاعنا في سيدان ، كارثة دنكرك ، هجر باريس ، وانهيار في بوردو . وهو ، مع ذلك ، لم يتول رئاسة الحكومة الا عشية الويلات التي نزلت بنا ، دون ادنى مهلة ليقف في وجهها . وبعد ان كان قد اقترح ، منذ زمن طويل ، السياسة العسكرية التي كان لها ان تجنبنا تلك الويلات . اما العاصفة فقد جابهها بصلابة لا تلين ، وما كان قط اثناء تلك الايام المأسوية ليفقد سيطرته على نفسه . وما شاهده احد قط وهو غاضب ، او حانق ، او ضارع يشكو لقد كان مشهداً مأسوياً يقدمه ذلك الرجل – القيمة الكبرى ، اذ تسحقه الأحداث الجامحة ظلماً وعدواناً . . .

لقد كان السيد بول رينو ذا شخصية تستجيب ، في قراراتها ، لاحوال ، كان في امكانه معها ان يُسيّر الحرب في ظل نظام ما للدولة ، وعلى قاعدة من المعطيات التقليدية الخاصة . ولكن كل شيء كان في مهب الرياح ، فقد كان رئيس الحكومة يشهد من حوله انهيار النظام ، وتهرب الشعب ، وانسحاب الحلفاء ، وتخاذل ابرز الزعماء واشهرهم . ولم يعد مراس السلطة نفسه ، منذ ذلك اليوم الذي تركت به الحكومة العاصمة ، سوى ضرب من الاحتضار ، يجري على طول الطريق ، وفي تخلع المصالح وآداب الحكم والضمائر . وفي مثل هذه الظروف ، كان ذكاء السيد بول رينو ، وشجاعته ، وسلطان منصبه ، تدور كلها ، كما يقال ، في فراغ ، اذ لم يبق له من هيمنة على الاحداث التي انطلقت من عقالها .

كان ينبغي لتشديد القبضة على ازمّة الامور ، ان ينتزع نفسه من الزوبعة ، ويعبر الى افريقيا ، وانطلاقاً منها يتناول كل شيء من جديد . وقد رأى السيد بول رينو ذلــك ، بيد ان العمل بمقتضاه يتضمن تدابير متطرفة : تغيير القيادة العليا ، طرد المارشال واقصاء نصف الوزراء ، تحطيم بعض التأثيرات وذوي النفوذ ، والاذعان لاحتلال الوطن الأم برمته ، والتفلت ، بقول مختصر ، ازاء موقف لم يسبق له مثيل ، من الاطار العادي وطريقة العمــل المتبعة ، مهما كلّف الأمر ، وعظمت المخاطرة .

ولم يخطر ببال السيد بول رينو ان من واجبه ان يأخذ على عاتقه المضيّ في اجراءات بهذه المنزلة من الخروج على العرف السائد والحسابات المعتادة ، وانما حاول ان يبلغ الهدف من طريق المناورات . ومن هنا تحدّر هذا الواقع خاصة ، وهو انه اضطر الى درس محتمل لشروط العدو على ان تمنحه انكلترا موافقتها . ولا شك في ان فهمه للأمور افضى به الى الحكم بأن أولئك الذين يدفعون على عقد هدنة لا بد ان يتراجعوا حين يعرفون شروطها ، وحينذاك تجري عملية تجمع القيم كلها عفواً ، في سبيل الحرب والخلاص . ولكن المأساة كانت مغرقة في القسوة اغراقاً لا يمكن معه التأليف بين العناصر والاوضاع المتنافرة ، اذ لم يكن ثمة سوى طرفين لا ثالث لهما : اما الحرب من غير مداورة ، او التسليم في الحال . ومذ كان خطأ السيد بول رينو انه لم ينصرف بكل قواه الى الاولى ، فقد تخلّى عن مكانه لبيتان الذي تبنى الطرف الثاني تبنياً تاماً .

يجب القول ان العهد لم يقدّم ادنى عون ، في اللحظة الحاسمة الكبرى ، لرئيس آخر حكومة من حكومات الجمهورية الثالثة . ومن المؤكد ان كثيراً من ذوي المكانة كانوا يأبون الاستسلام ، ولكن السلطات العامة ،

وقد أصعقتها الكارثة ، الى شعورها بأنها مسؤولة عنها ، لم تقم البتة باي رد فعل . وبينما كانت تنضرج المشكلة التي يتوقف عليها الحاضر كله والمستقبل كله بالنسبة لفرنسا ، لم يكن البرلمان ينعقد ، والحكومة اظهرت انها لا تملك ان تأخذ على عاتقها ككل عضوي حلا حاسما ، ورئيس الجمهورية امتنع عن رفع صوته حتى في قلب مجلس الوزراء ، للتعبير عن مصلحة البلاد العليا . والخلاصة ان هذاك الاضمحلال في الدولة كان هو القائم في قرار المأساة الوطنية . لقد تراءى العهد ، على وميض الصاعقة في عجزه الرهيب ، انه منقطع انقطاعا تاما عن دفاع فرنسا ، وشرفها ، واستقلالها .

وفي هزيع متأخر من الليل ، ذهبت الى الفندق الذي كان يقيم فيــه السير رونالد كامبل سفير انكلترا ، وأعلمته بنيتي في السفر الى لندن . وصرح الجنرال سبيرز الذي قدم واشترك في الحديث انه سيرافقني ، فأرسلت اطلع السيد بول رينو ، وكان من هــذا ان حوّل الي من الاعتمادات السرية مبلغ ١٠٠٠٠٠ فرنك . ورجوت السيد ده مارجيري ان يرسل دون ابطاء الى قرينتي واولادي المقيمين في « كارانتك » ، جوازات السفر اللازمة للانتقال الى انكلترا . وكان آخر مــا يمكن ان يعملوه بالضبط ، ان يبحروا في اول سفينة تغادر بريست . وفي الساعة التاسعة من صباح ١٧ حزيران ، صعدت مــع الجنرال سبيرز والليوتنان دي كورسيل ، الطائرة البريطانية التي اقلتني البارحة ، وتم سفرنا دون ادنى حادث يذكر .

طرنا فوق « لا روشيل » و« رشفور » . وكان في هذين المرفأين سفن قذفتها الطائرات الالمانية ، فكانت تتصاعد منها الحرائق ، ومررنا فوق « بمبون » ، حيث كانت تقيم والدتي وهي جد مريضة . وكانت الغابة عمود دخان ، لما

يحترق بها من مستودعات الذخائر . ووصلنا الى لندن في مستهل بعد الظهر ، وكنا قد توقفنا قليلاً في جرسي . وفيما انا في الفندق استمع لكورسيل وهو يتلفن للسفارة والبعثات ولا يجد من يجيبه بغير التحفظ والحذر ، تراءيت لنفسي وحيداً مجرّداً من كل شيء ، نظير امرىء على حافة اوقيانوس يزعم انه سيقطعه سبحاً .

فرنسا الحرة

متابعة الحرب ؟ نعم ! مؤكداً ! ولكن في سبيل اي هدف ، وضمن اي حدود ؟ كثيرون هم الذين ابوا ان تكون تلك المتابعة ، منذ وافقوا عليها ، شيئاً سوى تعـــاون بين قبضة من الفرنسيين يُمنح للامبراطورية البريطانية التي ظلت واقفة ، في الميدان . وأنا لم اواجه قط المحاولة ، لحظة من اللحظات ، على ذلك الصعيد . كان المراد خدمته وانقاذه في نظري ، انما هو الأمة والدولة .

كنت في واقع الأمر افكر انه فراغ نهائي من الشرف والوحـــدة والاستقلال ، اذا كان لا بد ان يقر في الاذهان هذا المعنى ، وهو ان فرنسا وحدها استسلمت في هذه الحرب العالمية ؛ وانها بقيت مقيمة على استسلامها ذاك ، لأنها في مثل هذه الحالة ، تصبح مشمئزة من نفسهـا ، وتبعث الآخرين على الاشمئزاز منها ، ومثل هذا الاشمئزاز المزدوج يسمّ روحها وحياتها طيلة اجيال مديدة ، اية كانت النتيجـة التي يفضي اليها النزاع القائم ، لا سيما اذا قرّ في الاذهان ان البلاد غلبت مؤكداً على امرها ، وانها تخلصت يوماً ما من الغزاة على يـد الاجانب ، وأقامت تحت نير الاستعباد . وأمـا فيما يتعلق بالحاضر مباشرة ، فبـاسم اي شيء نقود بعض ابنائها الى ميدان ليس ميدانه ؟ وما الفائدة من تزويد قوات دولة اخرى بقوات مساعدة ؟ لا ! كان الواجب يقضي ، كي يستحق الجهدُ

البذلَ والتعب ، ان يفضي ذلك الجهد الى مراس الحرب من جديد ، لا من قِبل بعض الفرنسيين فحسب ، وانما من قِبل فرنسا .

وكان ذلك يشتمل على : عودة جيوشنا الى الظهور في ميادين القتال ، استئناف روح المحاربة العدائية فوق اراضينا جميعها ، مساهمة البلاد نفسها في جهود محاربيها ، اعتراف الدول الأجنبية ان فرنسا كدولة استمرت في القتال ، نقل السيادة ، بقول مختصر ، خارج النكبة والنزعة الى الانتظار ، الى جانب الحرب ، وفي يوم من الايام ، الى جانب النصر .

وكان ما أعرفه عن الرجال والأشياء يحول دون انخداعي عن العوائق التي يجب التغلب عليها . ستكون هناك قوة العدو التي لا يحطمها سوى انهاك متواصل طويل ، والتي ستلاقي العون من الجهاز الرسمي الفرنسي في معارضة نهوض فرنسا الحربي . وهنـــاك المصاعب المعنوية والمادية التي يشتمل عليهـــا قسراً صراع طويل ، صامد في نظر اولئك الذين يقومون به كرهان ، ومن غير وسائل . وهناك ركام من الاعتراضات ، والتشهيرات ، والافتراءات تضعهـا في طريق المحاربين زمر المشككين والجبناء المتخوفين لتغطية سلبيتهم . وهناك المخططات التي يقال انهـــا « متوازيات » وهي في الواقع مخاصِمة ومعارضة ، ولن تتورع عن إثارة النعرات بين الفرنسيين ، واحياء ولعهم بالمنازعات الذي تستخدمه سياسة الحلفاء ومصالحهم حسب العادة ، للتصرف بهم على هواهم . وهنـاك من جانب اولئك الذين يهدفون الى التخريب ، ارادة التضليل ، تضليل المقاومة الوطنية والسير بها في سبل الفوضى الثورية التي تنبثق منها دكتاتوريتهم . وهناك اخيراً نزعة الدول الكبرى الى الافادة من اضعافنا لنيل مكاسب اكبر ، على حساب فرنسا .

أما انا ، وكنت ازعم القدرة على تسلق مثل ذلك المنحـدر ، فاني لم اكن ، في مستهل الانطلاق شيئاً يذكر . ولم يكن في جانبي ظل

لقوة ولا لتنظيم ، ولا كان لي في فرنسا مستجيب ولا اية وجاهة . وفي بلاد الاجانب لم يكن لي رصيد ولا مبرر . غير ان هـذا الجرّد نفسه هو الذي رسم لي خطة سلوكي . وأنا انما استطعت ان اجد السلطة ، فلأني اعتنقت قضية الخلاص الوطني ، بلا مواربة ولا مداراة . وإنما اصبح في امكاني تجميع الموافقات ، من قبل الفرنسيين وفي صفوفهم ، والحماسات واكتساب الاحترام والاعتبار من قبل الاجانب ، فلأني اخـذت اعمل كبطل للأمة لا تلين له قناة . والأناس الذين استشعروا الاهانة ، على مدى المأساة ، من هذه الصلابة لم يشاؤوا ان يروا ، وأنا اقاوم ضغوطاً متناقضة لا تحصى ، ان اقلّ انثناء ، بالنسبة لي ، يجر الى الانهيار . كان من واجبي ، بقول مختصر ، مـذ كنت على تلك الحال من العزلة وضيق الامكانات ، ثم لأنني كنت عليها بالضبط ، ان اظفر ببلوغ القمم ، ثم لا أنزل منها بعد ابداً .

كان اول ما ينبغي عمله ان ارفع راية المقاومة ، وأنشر ألوانها . والمذياع كفيل بذلك . وعرضت نيّاتي للسيد ونستون تشرشل ، منـذ اصيل السابع عشر من حزيران (يونيو) . وما الذي كان في امكاني عمله دون معونته ، وأنا الغريق على شطآن انكلترا ؟ وكان منه ان منحني عونه في الحال ، ووضع اذاعة البي. بي. سي. تحت تصرفي . واتفقنا على الشروع في استخدامها ، حين تطلب حكومة « بيتان » الهدنة . وعلمنا عشية ذلك اليوم نفسه ، انها تقدمت بطلبها . وفي اليوم التالي ، في الساعة ١٨ ، تلوت وراء المذياع البيان الذي يعرفه الجميع . وبمقدار ما كانت تنطلق الكلمات الهادرة ، كنت اشعر في سريرتي بانتهاء طور من حياة ، هي الحياة التي قضيتها في إطار فرنسة مكينة ذات جيش موحّد متماسك . دخلت المغامرة وأنا في التاسعة والاربعين ، شأني شأن رجل ألقى به القدر وحيداً وتركه نسيج وحده .

غير انه كان عليّ وأنا اخطو خطواتي الاولى في هـذا المسلك الذي لا سابقة له ، ان اقدّم الدليل على ان ما من سلطة اكفأ مني تريد ان تتقدم لإعادة فرنسا وامبراطوريتها الى ميدان الكفاح . وكان في الامكان التصور ، عكس كل احتمال ظاهر ، ان حكومة بوردو ستختار الحرب في النهاية ، ما دامت الهدنة لم تدخل حيّز التنفيذ . وكان الواجب يقضي مداراة الفرصة ، بالغاً مـا بلغت من الضآلة ، لاغتنامها . ولذلك ، أبرقت الى بوردو منذ حطت اقدامي في لندن ، بعـد ظهر ١٧ ، ان تقدمني كمندوب عنها في العاصمة الانكليزية لمتابعة المفاوضات التي بدأتها عشية البارحة في شأن العتاد القـادم من الولايات المتحدة ، وأسرى الالمان ، والنقليات الى افريقيا .

وكان الجواب برقية تلحّ عليّ بالعودة دون إبطاء . وفي ٢٠ حزيران وجهت رسالة الى فيغان الذي اتخذ في الاستسلام لقباً مدهشاً هو « وزير الدفاع الوطني » ناشدته فيها ان يكون على رأس المقـاومة ، وأكدت له طاعتي التامة ، اذا هو فعل ذلك ، ولكن هذه الرسالة أرجعت اليّ ، بعد بضعة اسابيع ، من قِبل المرسلة اليه ، مع نبذة منه اقل ما يمكن القول فيها انهـا تشير الى سوء طويته . وفي ٣٠ حزيران ، اخطرتني « سفارة فرنسا » بالأمر ان أعتبر نفسي سجيناً في سجن سان ـ ميشال في « تولوز » ، لأحاكم امام المجلس الحربي . وكان هذا المجلس قد اصدر عليّ حكماً مبدئياً بالسجن مـدة اربع سنوات ، ثم بالاعدام بنـاء على دعوى استئناف من « الوزير » .

وأدرت وجهي نحو سلطات مـا وراء البحار ، وقـد أسقطت من حسابي موقف بوردو ذاك ـ وما ادرك ما السبب ! فمنـذ اقبل ١٩ حزيران ابرقت للجنرال « نوغيس » القائد الأعلى في افريقيا الشمالية والمقيم العام في المغرب ، اضع نفسي رهن اوامره في حالة رفضه الهدنة . وفي

المساء تحدثت في المذياع وناشدت « افريقيا كلوزيل ، وبوجو ، وليوتي ، ونوغيس ان ترفض شروط العدو » . وفي ٢٤ حزيران ، كررت ندائي ببرقية الى نوغيس ، وتوجهت كذلك بخطاب الى الجنرال ميتلهاوزر ، القائد الأعلى ، والسيد «بيو» المندوب السامي في الشرق ، كما توجهت بخطاب الى الجنرال كاترو حاكم الهند الصينية العام ، اشير على هذه السلطات العليا بتشكيل منظمة للدفاع عن الامبراطورية وأبين لها ان في مستطاعي تأمين اتصالاتها فوراً مع لندن . وعلمت في ٢٧ حزيران بخطبة ذات لهجة محاربة بعض الشيء ، ألقاها السيد « بيروتون » ، المقيم العام في تونس ، فناشدته بدوره ان يكون عضواً في « لجنة الدفاع » وجددت عروضي للجنرال ميتلهاوزر والسيد « بيو » . وفي اليوم ذاته حجزتُ مصادفة أمكنة لي ولضباطي في سفينة شحن فرنسية كانت تتأهب للذهاب الى المغرب .

اما الاجوبة ، .. اتلق منها سوى رسالة من الأميرال دي كاربانتيه ، آمر البحرية في المشرق .. اخبرني ان السيد بيو والجنرال ميتلهاوزر ابرقا الى الجنرال نوغيس بالمعنى نفسه الذي توجهت به اليه . وجاءني عدا عن ذلك ، احد ابناء الجنرال ... ، ببرقية وجهها اليه والده ، يشجعه فيها على القتال ، ويكلفه ان يُعر ... عن موافقته وتعاطفه معي . ولكن الانكليز الذين اوفدوا ، في ا... نفسه ، السيد دوف كوبر عضو الوزارة الى افريقيا الشمالية ، مع الجنرال ... ، يعرضون على الجنرال نوغيس عون قواتهم ، رأوا وفدهم يعود الى لندن ... دون ان يلقى حتى من يستقبله . ثم كان اخيراً ان طُرد الجنرال ديـ... حنين ... الارتباط العسكري البريطاني في افريقيا الشمالية ، من عاصمة الجزائر .

ومع ذلك كانت اول حركة قام بها نوغيس ، ان رفع العلم . ومن المعلوم انه كان لدى اطلاعه على شروط الالمان في ٢٥ حزيران (يونيو) .

قد ابرق الى بوردو يعلمها انه على استعداد لمتابعة الحرب . وكان قد دعا الجنرال فيغان الى « اعادة النظر في اوامره المتعلقة بتنفيذ الهدنة » واحتج انه « لا يستطيع تنفيذها الا وعرق الخجل يتصبب من جبينه اذا كان لتلك الاوامر ان تبقى كما هي » ، مستخدماً في ذلك عبارة كنت انا قد استخدمتها قبل ستة ايام في المذياع ، مذكراً بـ « ذعر بوردو » الذي لا يسمح للحكومة « ان تقدر امكانات افريقيا الشمالية في المقاومة تقديراً موضوعياً » . ومن الواضح انه اذا كان نوغيس قد اختار سبيل المقاومة ، فان الامبراطورية برمتها ستتبع خطاه عليها. غير انه علم عاجلاً من بعد ، انه هو نفسه ، وسائر المقيمين ، والحاكمين ، والقادة اذعنوا جميعاً لانذارات بيتان وفيغان وقبلوا الهدنة . واصر اثنان فقط على إبداء سخطهما ـ هما الجنرال كاترو حاكم الهند الصينية العام ، والجنرال « لو جانتيوم » قائد قوات الساحل الصومالي . وكلاهما عزلا وعين مكانهما من يقوم بأعمالهما ، دون ان يجدا في مرؤوسيهما من يعمل شيئاً يذكر لمساندتها .

غير ان هذا الضرب من الانحلال ا، معظم « الولاة » (بروكونسول)
كان يتسق ، في الوطن الأم ،` نهيار سياسي شامل . وكانت الصحف
التي تصلنا من بوردو ، من فيشي ، تبسط قبول الساسة بالوضع
الجديد ، كما تبسط الاحزاب ، والتجمعات والسلطات ، والمؤسسات .
وكان من الوطنية ، وقد انعقدت في ٩ و ١٠ تموز ، ان خولت
وبين جميع الصلاحيات ، دون ان تناقش هذا الامر تقريباً . والحقيقة
ان ٨٠ عضواً من الحضور اقترعوا بشجاعة ضد ذلك التنازل ، والذين
بحروا من البرلمانيين على ظهر « مسيليا » قاصدين افريقيا الشمالية ، اثبتوا
بذلك ، من جهة اخرى ، انه لا يجوز ، في نظرهم ، ان تكف
الامبراطورية عن الكفاح . والواقع ، مع ذلك ، هو ان ما من رجل

كان يمارس الحياة العامة ، رفع صوته في إدانة الهدنة .

وإذا كان انهيار فرنسا ، بعد كل حساب ، اغرق العالم في الوجوم ، واذا كانت الجماهير في طول الارض وعرضها ، تشاهد قلقة جازعة ذلك الضياء الكبير يتهاوى ويخبو ، واذا كانت مثل هـــذه القصيدة لشارل مورغان او مثل ذلك المقال لفرنسوا مورياك يستلّ الدموع الحرار الغزار من المحاجر ، فان الدول ، دول الارض ذاتها ، لم تلبث ان قبلت بالأمر الواقع . ولا ريب ان حكومات البلدان التي كانت في حرب مع دول المحور استدعت ممثليها في فرنسا ، سواء فعلت ذلك عفوياً ، كما جرى مع السيد رونالد كمبل او الجنرال فانيه ، او كان عن طلب من الالمان . ولكن ظل في لندن ، مع ذلك ، قنصل يقيم في بناية السفارة الفرنسية ، وعلى اتصال بالوطن الأم ، بينما السيد ديبوي قنصل كندا العام ، مكث بجانب المارشال ، واتحاد جنوب افريقيا ترك ممثله . وكان ابرز ما يشاهده المرء في فيشي تجمع كل من السيد بوغومولوف سفير الاتحاد السوفياتي ، ثم الاميرال ليهي سفير الولايات المتحدة ، حـــول المونسنيور فاليريو فاليري القاصد الرسولي موفد البابا ، وكان سلكاً دبلوماسياً وقوراً ، بل كان هناك ما تفتر به حماسة الشخصيات الذين كانوا ينجذبون طوعـــاً ، في حركة عفوية اولى ، نحو صليب اللورين .

وهكذا ، كان التعاون الواسع بـين الخوف والمصلحة واليأس ، في صفوف الفرنسيين كما في صفوف الامم الاخرى ، يبعث حول فرنسا جواً من التخلّي الشامل الكلي . واذا كان قد ظل هناك عدد من الاوفياء والامناء لماضيها ، واذا كانت قد اجريت عدة حسابات تعلقت بما يمكن ان يُستلّ مما بقي في يديها من اطمار ، فان احداً من الرجال ذوي الصفة في العالم ، لم يتصرف كما لو كان يؤمن بعد باستقلالها ، وكرامتها ، وعظمتها . واما ان تظل بعد النكبة مستعبدة ، مخزية ، مهانة ، فان

كل ما كان يقام له وزن على وجه البسيطة ، حسب ذلك امراً مفروغاً منه . وبدت لي رسالتي ، دفعة واحدة ، امام ذلك الفراغ الرهيب من التخلي الشامل ، واضحة ومخيفة . في تلك اللحظة ، وهي اسوأ ما في تاريخ فرنسا ، كان علي ان احمل بذاتي فرنسا كلها .

ولكن ليس هناك من فرنسا بلا سيف ، فكان تشكيل قوة محاربة اهم من كل شيء ، مقدّماً على كل شيء ، فأخذت ، في الحال ، اعمل في ذلك السبيل . وكانت هناك بعض العناصر العسكرية في انكلترا ، وهي وحدات الفرقة الخفيفة الألبية التي أعيدت الى بريطانيا في منتصف حزيران واجرت اليها مع آخر القوات البريطانية ، بعد ان خاضت خوضاً لامعاً معركة النروج ، بقيادة الجنرال « بيتووار » . ثم كانت هناك سفن البحرية الحربية -- بمجموع حمولتها زهاء ١٠٠٠٠٠ طن -- ولاجئو شربورغ ، وبريست ، ولوريان ، ومعهم عدا اجهزتهم ، كثير من المنفردين والمساعدين ، ويبلغ مجموعهم ١٠٠٠٠٠ بحار على الأقل . وكان هناك ايضاً عدة آلاف من الجنود الجرحى سابقاً في بلجيكا الذين استشفوا في بريطانيا . وكانت البعثات العسكرية الفرنسية قد نظمت قيادة هذه العناصر كلها وادارتها بطريقة تحفظ معها طاعتها لفيشي ، وتعدّها للرجوع الى الوطن .

وكان مجرد الاحتكاك بهذه القطعات المشتتة ، المتنوعة ، ينطوي في نظري ، على مصاعب كبرى ، ولم يكن تحت تصرفي ، باديء ذي بدء سوى عدد ضئيل من الضباط ، كلهم مرؤوسون تقريباً ، تلهبهم عزيمة ماضية ، ولكن عاجزون عن اقتحام سلسلة الرتب قسراً . وكل ما كان في وسعهم ان يعملوه ، وقد عملوه ، انما هو الدعاية بجانب ذوي الرتب والرجال الذين التقوهم ، فكان الاقبال ضئيلاً . وبعد ثمانية ايام من الاستنفار الذي وجهته في ١٨ حزيران ، لم يرتفع عدد المتطوعين الذين عسكروا في قاعة « اولمبيا » ، التي أعارنا الانكليز اياها ، الا الى بضع مئات .

يجب القول ان السلطات البريطانية لم تعزز جهودنـا ، الا في النزر الضئيل . ومـمـا لا ريب فيه ان منشوراً وزّع بايعاز منهم ، يخطر العسكريين الفرنسيين انهم مخيرون بين العودة الى الوطن والالتحاق بالجنرال ديغول ، والخدمة في قوات صاحب الجلالة . ولا ريب كذلك ان التعليمات التي اعطاها تشرشل ، وتدخلات سبيرز المكلّف من قِبل الوزير الأول بتأمين الارتباط بين فرنسا الحرة والمصالح الانكليزية ، توصلت في بعض الحالات ، الى التغلب على الجمود او المعارضة . ولا ريب ان الصحافة ، والاذاعة ، وكثيراً من المحافل ، وافراداً لا يحصى عددهم ، تلقوا حركتنا بحرارة ، ودعوا الناس اليها . ولكن القيادة البريطانية التي كانت تنتظر بين يوم وآخر الهجوم الالماني ، وربما الغزو ، وجدت نفسها في غاية الانهماك باتخاذ اعداداتها الخاصة ، لدرجة لم يتح لها ان تنشغل بمهمة جد ثانوية في نظرها . ثم انها كانت تميل ، بحكم العادة والسهولة ، الى الاخـذ بالنظام العادي ، اي نحو فيشي وبعثاتها . واخيراً لم تكن تنظر بغير حذر الى هؤلاء الحلفاء بالأمس الذين اذلتهم النكبة ، واصبحوا ساخطين على انفسهم ، وعلى الآخرين ، وغدت تثقلهم الثارات التي يحملونها ، ماذا يعملون اذا تدفقت حشود العدو ؟ أليس الاحكم ان نعيد إنزالهم على سواحلهم في اسرع ما يمكن ؟ وما اهمية بضعة افواج بلا أطر ولا عتاد ولا اركان حرب ، يزعم الجنرال ديغول القدرة على تجميعها ؟

وفي ٢٩ حزيران ذهبتُ الى « ترانتهام بارك » حيث تخيم فرقة جبلية خفيفة . وكان الجنرال نفسه قائد الفرقة يريد العودة الى فرنسا ، وان كان عاقد العزم على العودة الى الميدان ، خلال بضعة ايام ، وهذا ما قام به من بعد فعلاً ، وأداه على نحو مجيد . ولكنه كان قد اتخذ استعداداته بحيث اتمكن من رؤية كل جسم عسكري وهو يتجمع . وهكذا اتيح لي ان ألحق بقواتي قسماً كبيراً من فوجين تابعين لنصف اللواء الثالث عشر

من اللفيف الاجنبي مع رئيسهم المقدم ماغران – فيرنيريه المدعو مونكلار ومعاونه النقيب كونيغ ، ومائتين من قناصة الألب ، وثلثي سرية من الدبابات ، وبعض عناصر المدفعية ، والهندسة ، والمواصلات ، وعدة ضباط من اركان الحرب والمصالح ، فيهم المقدم دي كونشار ، والنقيبان ديفافران وتيسّيه . وكان من امر وزارة الحربية البريطانية ، بعد مغادرتي المخيّم ان أرسلت العقيدين البريطانيين دي تشير وولیامز ، وجمعا بدورهما الجنود ليقولا لهم بالحرف الواحد : « ان لكم ملء الحرية للخدمة تحت اوامر الجنرال ديغول . ولكن يجب علينا ان نلفت انظاركم كرجال يكلمون رجالاً ، الى انكم اذا انتم قررتم ذلك ، ستكونون عصاة لحكومتكم ».

ورغبت في اليوم التالي ان ازور معسكري « اينتري » و« هايدوك » ، حيث كان يتجمع عدة آلاف من البحارة الفرنسيين . وما كدت أصل حتى صرح لي الاميرال الانكليزي آمر ليفربول انه يعارض في مقابلتي الجنود لان ذلك يمكن ان يلحق الضرر بسير النظام . وكان علي ان اغادر المكان دون ان انبس ببنت شفة . وكنت اسعد حالاً في « هارو بارك » ، بعد بضعة ايام ، فإن تياراً من التطوع ، راح رغم كل شيء ، ينتظم صفوف بحارتنا ، وراح بعض الضباط من ذوي العزم الذين التحقوا بي في الحال ، يبذلون جهودهم ، وكلهم اخلاص ، في هذا السبيل ، امثال رائدي البحار دارجنليو ، وفيترل ، وموليك ، وجوردين . وكان ضباط ونوتية ثلاث سفن حربية صغيرة قد اعلنوا في الحال التحاقهم : الغواصة « روبي » (المقدم كابانيه) التي كانت تمخر سواحل النروج ، والغواصة « نارفال » (المقدم دروغو) التي تركت صفاقس لحظـــة سمعت ندائي ، والتحقت بمالطة ، ولكنها أغرقت من بعد ، وهي تؤدي عملها في المتوسط ، وقارب الصيد النساف « بريزيدان – هوندوس » (المقدم ديشاتر) . وكان وصول نائب الاميرال موزيليه ، الذي جعلته طباعه وأحداث عمله هدفاً لمدارة

كثير من عناصر البحرية ، ولكن ذكاءه وبراعته وخبرته تقدم فوائد قيمة في تلك الحقبة الحافلة بالمغامرات – كان وصوله فرصة أتاحت لي اعطاء مركز وبجيب تقني لنواة قواتنا البحرية . وفي هذه الاثناء تجمع بضع عشرات من الطيارين الذين كنت في صدد مقابلتهم في معسكر سانت – أتام ، حول النقباء دي رانكور ، واستيه دي فيلات ، وبيكور – فوش ، في انتظار المقدم بيجو ليتولى قيادتهم .

ومع ذلك ، كان المتطوعون المنفردون يصلون يومياً الى انكلترا ، قادمين ، على العموم ، من فرنسا تحملهم السفن الاخيرة التي اعتادت السفر المنتظم بين البلدين ، او هاربين على مراكب صغيرة تمكنوا من التقاطها ، او ممن توصلوا بعد عناء كبير الى التفلت من الشرطة في اسبانيا التي كانت تحجز الفارين في معسكر ميراندا . وهناك طيارون تسللوا بطائراتهم من حراس فيشي ، ووفقوا الى مغادرة افريقيا الشمالية والحط في جبل طارق . وهناك بحارو تجارة قذفتهم مصادفات الإبحار وأحياناً هروب سفينة – مثل « كابو اولو » التي يقودها فويلمان – خارج الموانىء الفرنسية ، راحوا يطالبون بمركز لهم في الكفاح . وثمة فرنسيون كانوا يعيشون في الخارج قدموا يطلبون عملاً . وكنت قد جمعت في « وايت سيتي » ٢٠٠٠ جريح من دنكرك ، قضوا دور النقاهة في مستشفيات انكلترا ، وحصلت منهم على ٢٠٠ تعهد . وكان هناك فوج من جيش المستعمرات في قبرص ، منفصل عن جيش المشرق انضم طوعاً الينا مع رئيسه المقدم لوروت . وفي الايام الأخيرة من حزيران اقترب من ساحل كورنواي اسطول صيد صغير يقتاد للجنرال ديغول جميع الرجال الاصحاء في جزيرة دي سين . وراح التحاق هؤلاء الاحداث المفعمين بالحماسة يزداد يوماً بعد يوم ، وكثير منهم قاموا بمآثر تذكر ، ليتمكنوا من الانضمام الى صفوفنا ، مما شد من عزيمتنا . وكان على طاولتي اكداس من الرسائل وردت من جميع انحاء

العالم تحمل إليّ من قِبل افراد او زُمر طلبات تطوع مؤثرة . وكان ان اجارح ضباطي ، وضباط سبيرز ، عجائب من الاصرار والبراعة ، لتأمين انتقال أولئك المتطوعين .

ولكن ما لبث هذا التيار ان وقف بغتة ، على اثر حادث مؤسف ، فقد نشرت الصحف واذاع المذياع في ٤ تموز (يوليو) ان اسطول المتوسط البريطاني ، هاجم البارحة ، الاسطول الفرنسي في مرسى الكبير ، وترامى الينا في الوقت نفسه ان الانكليز احتلوا فجأة السفن الحربية الفرنسية اللاجئة الى موانىء بريطانيا العظمى ، وانهم أنزلوا بحارتها بالقوة وحجزوهم – وذلك لم يجر دون حوادث دامية – كما حجزوا اخيراً الأركان والعملة . وانتشر اخيراً في ١٠ نبأ نسف المدرعة « ريشليو » من قبل طائرات انكليزية ، وهي راسية في ميناء دكار . وكانت بلاغات لندن الرسمية والجرائد العامة تجنح ، في عرض هذه السلسلة من الاعتداءات ، الى اعتبارها ضرباً من انتصار بحري . وكان من الواضح انه بالنسبة للحكومة البريطانية وامبراليتها . كان القلق من الخطر ، ورواسب منافسة بحرية قديمة ، والضغائن المتراكمة منذ بداية معركة فرنسا ، والتي بلغت أوجها مع الهدنة التي عقدتها فيشي – كل ذلك انفجر في واحدة من تلك النزوات المظلمة التي تحطم بها غريزةُ هذا الشعب المكبوت ، جميع الحواجز احياناً .

وما كان قط محتملاً بحال من الأحوال ، ان يبادر الأسطول الفرنسي البريطانيّ من تلقاء ذاته بالعدوان . وقد كنت على الدوام اؤكد ذلك للحكومة الانكليزية وامبراليتها ، منذ حطت اقدامي في لندن . ثم كان من المؤكد ، في جانب آخر ، ان دارلان لن يذهب من تلقاء نفسه ويتخلى عن إقطاعه الخاص للألمان ، وهي البحرية ، ما دام يتولى امرها ، بصرف النظر عن جميع الدوافع الأكيدة التي تقتضيها المصلحة الوطنية . واذا كان دارلان ومرؤوسوه ، قد تخلّوا ، في قراراتهم ، عن أداء الدور الرائع

الذي قدمته لهم الاحداث ، واعتبار انفسهم الملاذ الاخير لفرنسا ، مذ بقي الاسطول سليماً ، على العكس من الجيش ، فذلك لأنهم كانوا على يقين من الاحتفاظ بسفنهم . وكان اللورد لويد وزير المستعمرات الانكليزي ، والاميرال السير َددْلي باوند ، اللورد الاول للبحرية قد ذهبا الى بوردو في ١٨ حزيران ، ونالا من دارلان وعد شرف ان سفننا لن تسلم للألمان . وكان بيتان وبودوان من جانبهما قد تعهدا رسمياً بذلك . واخيراً لم تكن نصوص الهدنة لتشتمل على اي بند يضع به الالمان ايديهم مباشرة على الاسطول الفرنسي ، عكس ما اذاعته وكالات الانباء الانكليزية والاميركية ، في بداية الأمر .

ولكن يجب الاقرار انه كان لانكلترا ان تتوجس خيفة من ان يتوصل العدو يوماً ما الى التصرف بأسطولنا ، تجاه استسلام حكام بوردو واحتمالات َخوَرهم في المستقبل . ومع هذا الاحتمال ، يصبح خطر الموت يتهدد انكلترا . وعلى الرغم من الألم والغضب اللذين كانا يغمران قلوب رفاقي وقلبي من جراء مأساة المرسى الكبير ، وطرائق الانكليز ، ومظهر المباهاة والافتخار الذي ظهروا به ، حكمتُ بأن خلاص فرنسا فوق كل شيء ، وحتى فوق مصير سفننا ، وان الواجب يقضي دائماً متابعة الكفاح .

وقد أوضحتُ ذلك بصراحة ، في المذياع يوم ٨ تموز (يوليو) ، فان الحكومة البريطانية كانت من الحذق بحيث وضعت ، بناء على تقرير تلقته من وزيرها الإعلام السيد كوف كوبر ، مذياع البي . بي . سي . تحت تصرفي ، وتقبلت صراحتي ، على ما فيها من اشياء تؤلم الانكليز .

بيد ان ذلك افضى الى خيبة أمل مريرة ، اذ تأثر به فوراً إقبال المتطوعين على التجنيد . وكثير منهم بين عسكريين ومدنيين ، كانوا يعدون العدة للالتحاق بنا ، نكصوا على اعقابهم . ثم ان الموقف الذي

اتخذته تجاهنا السلطات في الامبراطورية الفرنسية والعناصر البحرية والعسكرية التي كانت تحرسها ، تحوّل معظم الأحيان ، من التردد الى السخط . ولم تتوان فيشي ، بطبيعة الحال ، عن استغلال الحادث الى اقصى حد . وأوشكت نتائجه ان تكون في غاية الخطورة من جهة انضمام الاراضي الافريقية .

ومع ذلك ، استأنفنا العمل في مهمتنا ، وجازفتُ في ١٣ حزيران بأن أعلنت : « ايها الفرنسيون كونوا على علم انه لا يزال لديكم جيش يقاتل » . وفي ١٤ تموز ، مررت بالهوايتهول[1] وسط جمهور ملكه التأثر ، لاستعراض مفارزنا الاولى ، وأمضي على رأسها بعد ذلك لوضع باقة مثلثة الألوان عند تمثال المارشال فوش . وفي ٢١ تموز ، حصلت على موافقة عدة من طيارينا المشاركة في قصف منطقة الرور ، ونشرت ان الفرنسيين الاحرار عادوا الى القتال . وفي هذه الاثناء تبنت جميع العناصر التي التحقت بنا ، الفكرة التي عرضها دارجنليو ، وهي اتخاذ صليب اللورين شعاراً . وفي ٢٤ آب جاء الملك جورج السادس في زيارة لجيشنا الصغير . وكان هذا يحمل من يشاهده على الاقرار بأن « قطعة السيف » ستُسقى بقوة . ولكن يا لله ، ما كان اقصرها !

وفي نهاية تموز ، بلغ مجموع جنودنا او كاد ٧٠٠٠ مقاتل . كان ذلك كل ما امكننا تجنيده في بريطانيا العظمى بالذات . والعناصر العسكرية الفرنسية التي لم تنضم الينا ، اصبحت الآن في وطنها . وقد استطعنا بعد عناء كبير ان نسترد الاسلحة والاعتدة التي كانت لديها ، وقد استولى عليها الانكليز او غيرهم من الحلفاء . اما السفن فانه لم يكن في وسعنا سوى تسليح بعضها ، وكان مما يحز في النفس ان نرى الباقي منها يبحر في ظل علم اجنبي . واخذت وحداتنا الاولى تتشكل شيئاً فشيئاً ، وتموّن بوسائل شتى متنافرة ، ولكنها تتألف من أناس ذوي عزيمة .

---

(١) مقر رئاسة الوزارة في لندن . (المترجم)

هؤلاء كانوا ، في الواقع ، من ذلك النوع القوي الذي يصح ان ينتمي اليه محاربو المقاومة الفرنسية انّى وجدوا ، فقد كان لديهم ولع بالخطر والمغامرة يغلو حتى يتحول الى فن يحب لذاته ، وازدراء للنائمين واللامبالين ، ونزعة الى السويداء ، ومن ثمة ، الى المنازعات في الفترات التي لا يطل بها شبح لخطر ، حتى اذا جاء وقت العمل أخلت مكانها لتماسك شديد متقد وكبرياء قومية جعلها الويل الذي حل بالوطن ، والاحتكاك بالحلفاء الميسورين احسن اليسر ، حادة في منتهى الحدة . وفوق ذلك كله ، ثقة مطلقة بقوة تعاضدم الخاص وسيمة حيلتهم . وتلك هي السمات النفسية لهاتيك النخبة التي انطلقت من لاشيء ، وكان مقدراً لها ان تكبر شيئاً فشيئاً الى درجة جرت بها الأمة كلها وراءها ، والامبراطورية برمتها .

وفيما كنا نحاول ان نصنع لأنفسنا بعض القوات ، فرضت علينا الضرورة ان ننظم علاقتنا مع الحكومة البريطانية . وكانت هذه ، من جهة اخرى ، على استعداد لذلك ، لا تعلقاً منها ابداً بالدقة الشرعية ، بل رغبة منها في ان تركز عملياً ، على ارض جلالته ، حقوق هؤلاء الاشخاص « الدمثين » والتزاماتهم ، الذين كانوا هم الفرنسيين المحاربين وان كانوا متأكدين بشكل قابل للتحمل .

وكنتُ قد تحدثت الى السيد تشرشل منذ اللحظة الاولى عن نيتي في الايعاز ، اذا أمكن ، بتشكيل « لجنة وطنية » لادارة مجهودنا الحربي . وكان من الحكومة البريطانية ان نشرت ، عوناً لنا على ذلك ، في ٢٣ حزيران ، تصريحين : الاول ينكر على حكومة بوردو صفة الاستقلال ، والثاني يأخذ علماً بمشروع تشكيل لجنة وطنية فرنسية ، ويظهر سلفاً نية الاعتراف بها والتعامل معها في كل شأن يتعلق بمتابعة الحرب . وفي ٢٣ حزيران اذاعت الحكومة البريطانية بياناً يشيد بالعزم على المقاومة الذي أبدته عدة سلطات عليا في الامبراطورية الفرنسية ، ويعرض عليها العون

والتعاضد . ومذ ان احداً لم يتقدم الى حكومة لندن ويأخذ المبادرة سوى الجنرال ديغول وحده ، فان تلك الحكومة تعترف به علانية « رئيساً للفرنسيين الاحرار » .

شرعتُ بهذه الصفة اذن ، في إجراء المحادثات اللازمة مع الوزير الاول و « الفورين اوفيس » ، وكانت نقطة الانطلاق مذكرة أوصلتها بنفسي الى السيد تشرشل واللورد هاليفاكس . وكانت النتيجة اتفاق ٧ آب (اغسطس) ١٩٤٠ . وكانت هنالك عدة شروط كنت انشدّد في شأنها ويهمني امرها ، سبباً في مباحثات دقيقة بين المتفاوضين : السيد سترانغ ، مندوب حلفائنا ، والاستاذ رنيه كاسّان مندوبنا .

تشدّدت في ان تضمن بريطانيا العظمى عودة حدود الوطن الأم وتخوم الامبراطورية الفرنسية الى ما كانت عليه ، وانا أواجه الافتراض ان تسوق تقلبات الحرب انكلترا الى صلح تسوية من جهة ، ويعتبر من جهة اخرى ان البريطانيين يمكن ان يغريهم عرضاً ، الاستيلاء على هذه او تلك المنطقة من ممتلكاتنا وراء البحار . واخيراً ، قبل الانكليز بتسجيل هذا الوعد وهو « الاعادة التامة لاستقلال فرنسا وعظمتها » ، ولكن من غير تعهد يتعلق بحدود اراضينا .

وعلى الرغم من اقتناعي بأن بدء العمليات العسكرية المشتركة في البر والبحر والجو ، رؤساء انكليز ، نظراً لنسبة وسائلنا الى وسائلهم ، فقد احتفظت في جميع الحالات بـ « القيادة العليا » للقوات الفرنسية ، ولم اقبل لها سوى « التوجيهات العامة من قبل القيادة البريطانية » . وهكذا وكزت صفتها القومية الخالصة . ثم اني بينت بنوع خاص -- وذلك لم يحصل بغير اعتراض من قبل البريطانيين -- ان المتطوعين « لن يحملوا السلاح ضد فرنسا » بحال من الأحوال . وذلك لم يكن يعني انه لا يجوز لهم ابداً محاربة فرنسيين . كان الواجب يقتضي ، وا أسفاه ! توقع العكس ،

فإن فيشي ، على ما كانت عليه ، لم تكن فرنسا في شيء . ولكن ذلك الشرط كان يرمي الى ضمان العمل العسكري الحليف الذي اختلط بـه عملنا ، ففي اللحظة التي يصطدم بها وقوات فرنسا الرسمية ، لا يجـوز استخدامه ضد فرنسا الحقيقية ، ولا لايقاع الضرر بتراثها ولا بمصالحها .

واذا كان الانفاق على قوات فرنسا الحرة ، ممـا يجب ان تتولاه الحكومة البريطانية مؤقتاً ، حسب الاتفاق ، بسبب من انعدام كل مورد لدينا في الاساس ، فقد حرصت في ان تنص صيغة الاتفاق على ان الإنفاق يكون سلفاً ، والدفع يكون يوماً ما مؤمناً ، بعد ان تحسم المـواد والخدمات التي نقوم بها نحن مقابل ذلك . وقد جرى الدفع الكامل فعلاً ، حتى اثناء سير القتال ، على نحو لم يبق معه مجهودنا الحربي قط عـلى حساب انكلترا .

واخيراً رغم الحاجة الماسة الى الحمولة البحرية التي كانت همّ البريطانيين الأكبر — وهو همّ جدّ مشروع — سلمنا لهم بعد عناء بإنشاء « رابطة دائمة » بين مصالحهم ومصالحنا تنظيماً لـ « استعمال سفن التجارة الفرنسية وبحارتها » .

وقد وقعنا ، تشرشل وانا ، هذه الوثيقة معاً في وزارة المال البريطانية .

كان لاتفاق ٧ آب اهمية عظمى بالنسبة لفرنسا الحرة لا لانه أقالها في الحال من الورطة المادية وحسب ، بل لهذا السبب ايضاً ، وهو ان السلطات البريطانية غدت ولديها قاعدة رسمية في علاقاتها بنا ، لا تتردد بعد في تسهيل امورنا . ثم ان العالم برمته عرف ، على الأخص ، ان بداية تضامن فرنسي — انكليزي تركزت رغم كل شيء . وما لبثت نتائجها ان أخذت تظهر في بعض اراضي الامبراطورية ، وفي الجاليات الفرنسية التي تقيم خارج بلادها . ولكن دولاً اخرى ايضاً ، وقـد شهدت بريطانيا العظمى تعمد الى بداية اعتراف ، مشت بضع خطوات

في ذلك السبيل نفسه . وكانت تلك هي حال الحكومات اللاجئة في انكلترا ، اول الأمر ، وهذه ضئيلة القوى ولا شك ، غير ان تمثيلها ونفوذها الدوليين ما زالا قائمين .

ذلك بأن كل واحدة من أمم اوروبا التي اجتاحتها جيوش هتلر حملت دولتها الاستقلال والسيادة معها الى سواحل حرة . وكذلك كان شأن الامم التي احتلت المانيا او ايطاليا اراضيها من بعد . وما من حكومة رضيت قط ان تحمل نير الغزاة سوى – واحسرتاه ! – تلك التي كانت تقول عن نفسها إنها حكومة فرنسا وكان لها مع ذلك ، امبراطورية واسعة تحت تصرفها ، تحرسها قوات كبيرة واسطول يعتبر من اوائل الاساطيل في العالم .

وكلما تكاثرت نكبات حزيران ، كانت بريطانيا العظمى تشهد فوق ترابها ملوك كل من النروج ، وهولندا ، واللوكسمبورغ ، ووزراء هذه الدول ، ثم رئيس الجمهورية البولونية ووزراؤها ، وبعد فترة قصيرة ، الوزارة البلجيكية . وشرع التشيكوسلوفاكيون في تنظيم انفسهم . وطفق ملك ألبانيا في اجراء بعض الاتصالات . وكانت انكلترا تقدّم الضيافة لهذه الدول اللاجئة بوحي من كرم ومصلحة معا ، اذ بقي لها ، بالغاً ما بلغت من الجرّد ، بعض الشيء . وكثيرون منهم كانوا يحملون الذهب وأرصدة النقد النادر . وكان للهولنديين اندونيسيا واسطول لا يستهان به ، وللبلجيكيين الكونغو ، وللبولونيين جيش صغير ، وللنروجيين سفن تجارة عديدة ، وللتشيكيين – او للرئيس بينش على وجه أصح – شبكات استخبارات في وسط اوروبا وشرقها ، وصلات ناشطة مع الأميركان . يضاف الى ذلك ان انكلترا لم تكن غير آبهة لازدياد نفوذها وظهورها على انها السور المنيع الرفيع للعالم القديم في حالة الضياع .

كانت فرنسا الحرة التي لا تملك شيئاً ، تجربة شائقة ، في نظر

اولئك المنفيين . ولكنها كانت تجتذب ، على الاخص ، اكثرهم قلقاً ، واشدهم بؤساً ، كالبولونيين والتشيكيين . كنا في نظرهم ، نحن الذين بقينا أمناء لتقاليد فرنسا ، نمثل لهم بذلك وحده ، املاً وقطب انجذاب . وكان من سيكورسكي وبينش خاصة ، على ما في حياتها من ظلمة وسط الدسائس والملابسات الحساسة التي تزيد ويلات بلديهما ايلاماً وتعقيداً ، ان انشأ معي صلات دائمة مستمرة . وربما لم أشعر قط من قبل ما كانت عليه رسالة فرنسا الى العالم ، افضل مما شعرت به في اعماق تلك الهوة .

وبينما كنا نجهد في ان نؤمّن لفرنسا بداية هيبة دولية ، حاولت ان يكون لها نواة سلطة وادارة منظمة . وكان مما يبعث على السخرية ان ادعو « حكومة » تلك المنظمة الابتدائية التي ألفتها حولي ، ولم يكن يعرفني احد تقريباً ، ولا كنت املك شيئاً ابداً . غير اني اردت ان اداور امكانية ظهور جديد للسلطات العامة في الحرب ، اذا سنحت الفرصة لمثل هذا العمل ، اذ كنت مقتنعاً ان فيشي ستنتقل من عثرة الى عثرة حتى تبلغ الحضيض في انحطاطها اخيراً ، وكنت قد أعلنت عدم شرعية عهد قام بموالاته للعدو وخدمة اغراضه . وحرصت ايضاً منتهى الحرص ، على ان لا ابني شيئاً وان بالنص ، يمكن ان يسيء ، عند الاقتضاء ، الى اعادة تجميع الدولة . ولم أوعز بشيء الى اولي الامر في الامبراطورية ، سوى توحيد الكلمة في سبيل الدفاع عنها ، حتى اذا لمس الناس عدم كفاءتهم قررت ان أشكل بنفسي « لجنة وطنية » بسيطة ، في اللحظة التي يغدو بها ذلك ممكناً .

وكان يلزمني ايضاً ان يتقدم لمعونتي شخصيات بارزة من أولي الكفاءة . وقد حسب بعض المتفائلين ، في الايام الاولى ، اننا قد نجد تلك الشخصيات ساعة نشاء . وكانت الانباء تترى ، من ساعة لساعة ، ان فلاناً من رجال السياسة المعروفين ، وفلاناً من الجنرالات الشهيرين ، وفلاناً العالم

الاكاديمي الجليل ، انتقل الى لشبونة او أبحر الى ليفربول ، ولكن سرعان ما يتلو اعلان النبأ تكذيبه . وفي لندن نفسها لم ينضو الفرنسيون البارزون الى فرنسا الحرة ، الا في النذر النادر من الذين كانوا يقيمون فيها ، إما أداء لخدمة وإمـــا عرضاً . وكثير منهم طلبوا ترحيلهم . وبعضهم ظل في مكانه يصطنع الولاء لفيشي . امـا اولئك الذين وقفوا ضد الاستسلام فقـد راح فريق منهم ينظم منفاه لحسابه الخـــاص في انكلترا او في الولايات المتحدة ، والفريق الآخر اخـذ في خدمة الحكومة البريطانية او الحكومة الاميركية ، وقليلة كانت « الكفاءات » التي انضوت الى رايتي .

لقد قال لي السيد كوربان مثلاً ، وكان سفير فرنسا : « انت على صواب ! وأنا الذي كرّست القسم الأكبر من حيـاتي وخدماتي لقضية التحالف الفرنسي – البريطاني اتخذت موقفاً صريحاً في ان قدمت استقالتي غداة ندائك . ولكني انا موظف قديم ، أعيش وأعمل منذ اربعين سنة ضمن هذا الاطار المعتاد ، والانشقاق عنه شيء جد كثير بالنسبة لي » .

وكتب اليّ السيد جان مونيّه : « انت مخطيء في تشكيل منظمة يمكن ان تتراءى في فرنسا على انها أنشئت تحت حماية انكلترا ... وأنا اشاركك العزم كلياً على منع فرنسا من التخلّي عن النضال ... ولكن جهد الانبعاث لا يمكن ان ينطلق من لندن » .

وكان السيد رنيه مساير يشيّع قائلاً : « يجب ان اعود الى فرنسا حتى لا ينفصل مصيري عن مصير اخواني في الدين الذين يتعرضون بها للاضطهاد » .

وكان السيد « بريه » يؤكد لي : « انا اوافقك . وانني من جهتي سأبذل كل مـا في وسعي لإعانة فرنسا على النهوض سواء في الوطن الأم او في الامبراطورية » .

وصرّح لي السادة : اندريه مورروا ، وهنري بونيه ، ودي كبريللس : « نحن ذاهبون الى اميركا ، ومن هناك ، مع ذلك ، نستطيع ان نكون انفع مَن نكون لك » .

وأخبرني السيد رولان دي مارجيري : « عيّنت قنصلاً عامـــاً في شنغهاي ، سأمر بلندن ، لا لألتحق بك ، بل لأنتقل الى الصين . وفيها سأخدم ، كما تفعل انت هنا ، مصالح فرنسا » .

وناشدني السيد « بيير كوت » ، وهو الذي أذهلته الأحداث ، عكس ما عرض السيد دي مارجيري ، ان انتدبه لأية مهمة ، « ولو تكنيس الدرج » . بيد انه كان جليل الشأن لدرجة بدا معها ذلك امراً مستحيلاً .

وعلى الجملة ، كان ذلك الامتناع العام تقريباً الذي أبدته الشخصيات الفرنسية ، اية كانت البواعث عليه ، لا يرفع بكل تأكيـــد ، رصيد الحركة التي قمت بهـا ، وكان علي ان اؤجل تشكيل لجنتي الى مـــا بعد . وكلما قل عدد الأعيان الذين يأتون ، قل عدد الذين يرغبون في الاقدام .

غير ان البعض منهم ، وقفوا مع ذلك ، الى جانبي في الحـــال ، وأضفوا على المهمات التي اضطلعوا بهـا فجأة ، حمية ونشاطاً ، صمدت السفينة بفضلها في البحر ، وسيطرت عليه رغم كل شيء . كان الاستاذ كاسّان معاوني – وما انفس عونه ! – في جميع الأعمال والوثائق التي رَكز عليها ، انطلاقاً من لاشيء ، بنياننا الداخلي والخـارجي . وكان على « انطوان » ان يتولى ادارة الخدمات المدنية الأولى ، وهي مهمة في منتهى العقوق خلال ذلك الدور من الارتجـال . وكان لابي ، وأسكارا ، ثم هاكان – وهذا الأخير هلك في البحر مع زوجتـــه ، وهو يؤدي واجبه ، بعـد قليل من تسلمه – يؤمّنون العلاقات مع مكاتب الفورين اوفيس ، ومكاتب الحكومات الأوروبيـة في المنفى ، ويقومون عـدا

ذلك ، بالاتصال بالفرنسيين المقيمين في الخارج الذين كنت قد طلبت معونتهم . وتولى شؤون ماليتنا الضئيلة « بليفن » و « دونيس » ، وراحوا يعدّان الاحوال التي تستطيع ان تعيش بها الجاليات المنضمة . وكان « شومان » صوت فرنسا الحرة في المذياع ، و « ماسّيب » يجرد الصحافة ويلقي اليها بالمعلومات التي تخصنا ، و « بنجن » ينظم مع حلفائنا استخدام السفن وتجارة التجارة الفرنسية .

ومن الناحية العسكرية الصرف ، نظم موزيليه ، يساعده دارجنليو ، ماغران – فيرنيريه يساعده كونيغ ، بيجو يساعده رانكور ، نظموا على التوالي الوحدات الاولى البحرية والبرية والجوية ، ووكل الى « موران » امر التسلح ، وألّف تيسّيه ، وديوافران ، وهيتيه دي بوالامبير اركان حربي . وقام جوفروا دي كورسيل الى جانبي ، بوظيفة رئيس ديوان ، ومرافق عسكري وترجمان ، وفي اغلب الأحيان مستشار طبيب كفؤ . اولئك هم اعضاء « الحاشية » الذين كانت تشجبهم دعاوة العدو على انهم لـمّة من الخونة ، والمرتزقة ، والمغامرين . ولكنهم ، وقد رفعهم عِظمُ المهمة ، تساندوا حولي في السرّاء والضرّاء .

وكان الجنرال سبيرز صلة الوصل بيننا وبين المصالح البريطانية التي لم نكن يومذاك في غنى عن معونتها . وكان يؤدي مهمته هذه بصلابة ومهارة ، يقتضيني الواجب أن أقول إنها أفادتنا في تلك البدايات القاسية ، فائدة جوهرية . وما كان هو نفسه ليلاقي مع ذلك ، من الجانب الانكليزي ادنى تسهيل ، فان التزمت في الانتظام الاداري ، والتقيد بتسلسل الرتب ، كانا يتلقيان بحذر هذا الشخص الذي ينتمي الى فئات عديدة ومتنوعة ، دون ان يتصنف في أي منها ، اذ كان عضواً في البرلمان ، وضابطاً ، ورجل اعمال ، ودبلوماسياً ، وكاتباً ، في آن واحد . ولكنه كان من جانبه ، يستخدم ذكاءه في الامور ، ويُفيد من

الخوف الذي تبعث عليه نكاته اللاذعـة ، واللطف الساحر اخيراً الذي يحسن اظهاره عند المناسبة ، لبلبلة الروتين . وكان مضافاً الى ذلك ، يحمل تجاه فرنسا التي يعرفها بمقدار مـــا يستطيع اجنبي ان يعرفها ، ضرباً من حب قلق ، نزّاع الى السيطرة .

وفي الوقت الذي كان به كثيرون يأخذون محاولتي على انها مغامرة تضايقهم ، ادرك سبيرز في الحال طبيعتها ومداها . وقد تحمّل بحماسة ، مهمته لدى فرنسا الحرة ورئيسها . بيد انه كان ، وان اراد خدمتها ، غيران منها اكثر من رغبته في الخدمة . واذا كان يوافق على استقلالها تجاه الآخرين جميعهم ، فقد كان يستشعر بألم ذلك الاستقلال حين ينتصب واقفاً امامــه . ولذلك ، تحتم على الجنرال سبيرز ان يصدف ذات يوم عن حركتنا ، ويأخـذ في محاربتها رغم كل مـــا فعله ، في المنطلق لمساندتنا . ألم يكن يشعر ، في حمى معارضتــه ، بالأسف لعجزه عن قيادتها ، والأسى لتخليه عنها ؟

ولكن فرنسا الحرة لم تكن لتلاقي بعد ، عند ولادتها ، ذلك النوع من الخصومات التي يبعث عليها النجاح . كانت تتقلب مضطربة وحسب ، في الارزاء التي هي نصيب الضعفـاء . وكنا نعمل ، رفـاقي وأنا ، في « سنت استيفنز هاوس » ، على « جسر » التاميز ، في مسكن مؤثث ببضع طاولات وكراس . ووضعت الادارة الانكليزية تحت تصرفنـا ، في ما تلا من ايام ، بناية في « كارلتون غاردنز » اكثر راحة ، جعلنا بها مقرّنا الرئيسي . وهناك راحت تنهال علينا ، يوماً بعد يوم ، موجات الاخفاق ، ولكن هناك ايضاً طفق سيل التشجيع يتدفق علينا ويرفعنا فوق انفسنا .

ذلك ان شهادات التأييد أخذت تترى من فرنسا ، وكان البسطاء من الناس يبعثون إلينا رسائل ومخابرات عبر أبرع الطرق ، وبالتواطوء

أحياناً مع المراقبين ، كهذه الصورة الفوتوغرافية التي أخذت من على ساحة النجمة « الايتوال » في ١٤ حزيران لدى وصول الالمان ، وهي تظهر جمعاً من النساء والرجال المفجوعين حول ضريح الجندي المجهول ، وقد أرسلت بتاريخ ١٩ حزيران ، وعليها هذه الكلمات : « سمعناك يا ديغول ! الآن نحن ننتظرك ! » . وهذه صورة قبر مغطّى بأكوام الزهر ، نثرها المارة فوقه ، هو قبر والدتي ، وقد ماتت في بمبون ، في ١٦ تموز ، وهي تقدّم آلامها قرباناً لله ، من أجل خلاص الوطن ، ورسالة ابنها .

هكذا ، كان في وسعنا ، أن نقيس رنين الصدى الذي لقيه في أعماق الشعب ، رفضنا الهزيمة . وكان لدينا الدليل ، في الوقت نفسه ، على أن المواطنين يستمعون الى مذياع لندن ، في أرجاء البلاد جميعها ، وبهذا كانت لدينا وسيلة حرب قوية . وكان الفرنسيون المقيمون في الخارج يعطون ، من جهة اخرى ، صدى الشعور القومي نفسه . وكثير منهم اتصلوا بي ، كما طلبت اليهم ، وتجمعوا لمساعدة فرنسا الحرة . وأخذ المبادرة في هذا الاتجاه : مالغليف وغيريث في لندن ، هودري وجاك دي سييّس في الولايات المتحدة ، سوستيل في المكسيك ، البارون دي بنوا في القاهرة ، غودار في طهران ، غيران في الارجنتين ، رانسدو في البرازيل ، بيرو في تشيلي ، جيرو جوف في استامبول ، فكتور في دلهي ، ليفاي في كلكوتا ، باربيه في طوكيو ، الخ ... وما لبثت أن تأكدت أن الشعب يعلّق ما بقيَ لديه من عزة وأمل على فرنسا الحرّة ، رغم ضغط سلطات فيشي ، وافتراءات دعايتها ، وميعان عدد كبير من الناس . وكان ذلك النداء الأسمى من قِبل الأمة ، يفرض عليّ أن ألزم نفسي بشيء ما ، وهذه الفكرة لم تبارح ذهني قط لحظة من اللحظات ، في كل ما كان يجب عليّ الشروع به وتحمله .

وكان التقدير والعطف ، يحيطان بالفرنسيين الأحرار في انكلترا نفسها . وأراد الملك اولاً أن يظهرهما لهم . وكان واحد من أعضاء اسرته قام نحوهم بمثل ما قام به ، وكان الوزراء والسلطات ، من جهة اخرى ، لا يتركون مناسبة تمرّ دون ان يغتنموها للإعراب عن مشاعرهم الطيبة ، بيد أن احداً لا يستطيع ان يتصوّر اللطف السخي الذي أبداه الشعب الانكليزي تجاهنا في كل مكان ، إذ راحت جميع ضروب الأعمال تنشأ لمساعدة متطوعينا . ولم يكن في الامكان تعداد الأناس الذين كانوا يقدمون الينا ، يضعون عملهم ووقتهم ومالهم تحت تصرفنا . وفي كل مرة ، كان يحدث لي أن اظهر في حفل عام ، أجد نفسي وسط تظاهرات من التأييد والتشجيع . وحين نشرت صحف لندن نبأ الحكم الذي أصدرته عليّ فيشي بالاعدام ومصادرة املاكي ، وُضع عدد من الحُلى في « كارلتون غاردنز » من قبل اناس تركوا اسماءهم مغفلة ، وأرسل عدد كبير من الأرامل المجهولات خواتم زواجهن ، بغية ان يسهم ذلك الذهب في مجهود الجنرال ديغول .

يجب القول إن جوا موّارا كان يغلّف انكلترا آنذاك . وكان الناس ينتظرون الهجوم الالماني بين لحظة وأخرى ، وإزاء هذا التوقع ، راح الخلق جميعهم يشدّون عزائمهم بصمود يضرب به المثل . لقد كان مشهداً يبعث على الاعجاب ، خاصةً اذ ترى فيه كل انكليزي يتصرّف كما لو كانت سلامة البلاد معلّقة على سلوكه الخاص . وكان هذا الشعور العام الشامل بالمسؤولية ، يبدو أكثر إثارة ، في حين ان الأمر كله كان معلّقاً ، في الواقع ، على الطيران .

فليتوصّل العدو ، فعلاً الى القبض على ازمّة الجوّ ، وبهذا تكون نهاية انكلترا ! الاسطول يُقصف من الجوّ ، واذا به لا يحول دون القوافل الجرمانيـة من عبور بحر الشمال . والجيش لا يكاد يرتفع بقوّته

عن اثنتي عشرة فرقة ، نزلت بها محنٌ شديدة في معركة فرنسا ، وجرّدت من السلاح ، لن يكون قادراً على صد الجنود عن النزول ، ثم لن يكون من الوحدات الالمانية الكبرى ، إلا ان تحتل بسهولة اراضي الجزيرة كلهـــا ، على الرغم من المقاومات المحلية التي نظّمها « الهوم غوارد » (الحرس الوطني) . ومن المؤكد ان الملك والحكومة يكونان قد رحلا في سعة من الوقت ، الى كندا . ولكن المطلعين ، كانوا يتهامسون بأسماء الساسة ، والأساقفة ، والأدباء ، ورجال الاعمال الذين يتفاهمون ، في مثل تلك الحالة المحتملة ، مع الالمان ، لتأمين ادارة البلاد ، تحت ظلّهم .

بيد ان هذه كانت تكهّنات لا تمسّ سواد الناس . فقد كان الانكليز بمجموعهم ، يستعدّون للقتال بلا هوادة ، وحتى النهـــاية . وكان كل مواطن ومواطنة ، يلجان شبكة التدابير الدفاعية . وكل ما كان من : بناء ملاجىء ، وتوزيع أسلحة ، وأدوات ، وعتاد ، وأشغال مصانع ، وحقول ، وخدمات ، وأوامر عسكرية ، وتقنين مؤن ، قد نُظّم على نحو لا زيادة فيه لمستزيد من حيث الحميـــة والانضباط . والوسائل وحدها ، كانت تعوز هذه البلاد ، التي اهملت ايضاً ، منذ زمن طويل ، أن تكون على اهبة . ولكن كل شيء كان يجري كما لو ان الانكليز أضمروا ان يعوّضوا بقوة التضحية ، عمّا كان ينقصهم . وحتى السخرية ، من جهة اخرى ، لم يفقدوها . فقد نشرت صحيفة صورة كاريكاتورية تمثل الجيش الالماني الهائل وقد بلغ بريطانيا العظمى ، ولكنــه توقّف على الطريق بدباباته ومدافعه وفيالقه وجنرالاته ، امام حاجز من خشب ، وقد رُفعت عليه لافتة كُتب فوقها : انـــه يجب دفع بنسة ليسمح بالمرور . ومذ كان القيّم على الحـاجز الخشبي وهو انكليزي عجوز لطيف ، ضئيل الهيكل ، ولكنه صلب ، لم يتلق من الالمان جميع البنسات الاجبارية ، فقد رفض رفع الحاجز رغم الغضب الذي اجتـاح

رتلاً من الغزاة المهول ، من أقصاه الى اقصاه .

واستُنفر ، في هذه الاثناء ، سلاح الجوّ الملكي على اراضيه ، فتأهب . وراح كثير من ابناء الشعب ممن يتشوقون الى الخلاص من ذلك التوتر الذي يكاد لا يطاق ، يتمنون علناً ان يجازف العدو بالهجوم . وكان السيد تشرشل ، وهو اول هؤلاء كلهم ، قد فرغ صبره في الانتظار . واني لا ازال اراه ، في وزارة المال ، في ذلك اليوم من آب ، يوجّه قبضته نحو السماء : « لن يقدموا اذن ! » فقلت له : « هل انت لهذه الدرجة تتعجل رؤية مدنكم تتدكدك ؟ ! » فقال لي : « إعلم ان قصف اوكسفورد ، وكانتربري ، وكوفنتري ، سيثير في الولايات المتحدة موجة من السخط عارمة لدرجة يدخلون معها الحرب ! » .

وأبديت على ذلك بعض الشك ، مذكراً ان البلاء الذي نزل بفرنسا قبل شهرين لم يخرج اميركا عن حيادها . فأجاب الوزير الاول مؤكداً : « انما كان ذلك ، لأن فرنسا انهارت ! سيأتي الاميركان عاجلاً أم آجلاً ، ولكن شرط ان لا نلين هنا . وذلك هو السبب الذي لا يجعلني افكر الا في طائرات المطاردة » . وأضاف : « انت ترى اني كنت على صواب حين رفضت تقديمها في نهاية معركة فرنسا ، فلو كانت الآن محطمة انتهى كل شيء بالخسران سواء لديكم كما لدينا » . قلت بدوري : « ولكن العكس هو الصحيح ، لو ان طائراتكم المطاردة تدخلت يومذاك لربما كانت قد انعشت التحالف ، وجرّت الجانب الفرنسي الى متابعة الحرب في المتوسط ، ولخفّ الخطر الذي يتهدد البريطانيين ، وازداد تحفز الاميركيين لخوض الميدان في اوروبا وافريقيا » . وانتهينا معاً بتواضع الى الاتفاق على الاستخلاص من الحوادث التي حطّمت الغرب ، هذه النتيجة التافهة ، ولكنها كانت نهائية : انكلترا بعد كل حساب جزيرة ، وفرنسا رأس بحري لقارة ، وأميركا عالم آخر .

افريقيا

كان لدى فرنسا الحرة في شهر آب (اغسطس) ، بعض الوسائل ، وبداية تنظيم ، وشيء من الشعبية ، وكان عليّ ان أفيد في الحال ، من ذلك كله .

ولئن كنت ، في مجالات اخرى ، هدفاً تهاجمه الارتباكات ، فانه لم يكن في ذهني اي شك فيما يختص بالعمل المباشر الذي اشرع بـه . لقد استطاع هتلر ان يربح الجولة الاولى في اوروبا . ولكن الجولة الثانية على وشك الابتداء ، وهذه على المستوى العالمي . ويمكن ان تسنح يوماً ما فرصة الحصول على تقرير المكان الذي يمكن ان تجري فيه ، اي على أرض القارة القديمة . وكان علينـا ، نحن الفرنسيين ، خلال فترة الانتظار ، ان نتابع الصراع في افريقيا . وكان في نيتي ان اسلك ، طبعاً ، الطريق التي حاولت عبثاً ، قبل اسابيع ان اجرّ الحكومـة والقيادة اليها ، ما دمت اضطلع الآن دفعة واحدة ، بما بقي من هذه وتلك ، في الحرب .

كان متاحاً لفرنسا ، في الواقع ، ان تستعيد بنـاء جيش وسيادة ، في مساحات افريقيا الشاسعة ، بانتظار دخول حلفاء جدد في الميدان الى جانب القدماء ، يقلب ميزان القوى . وافريقيا تقدم اذ ذاك ، قاعدة

انطلاق فائقة على أشباه الجزر : ايطاليا ، البلقان ، اسبانيا ، للعودة الى اوروبا ، وهي قاعدة حدث انها كانت فرنسية . يضاف الى ذلك انها لا بد ان توثق الروابط المشتركة بين الوطن الأم وأراضي ما وراء البحار ، اذا تم التحرر الوطني يوماً ما بفضل قوات الامبراطورية . واذا الحرب انتهت بدون ادنى محاولة تبذلها الامبراطورية لإنقاذ الوطن الأم ، افضى كل ما عملته فرنسا في افريقيا ، بلا ريب ، الى الخسران .

وكان متوقعاً ، من جهة أخرى ، ان ينقل الالمان القتال الى ما وراء المتوسط ، اما ليضغطوا به على اوروبا ، وإما ليفتحوا فيه مجالاً ، وإما ليساعدوا شركاءهم الطليان – واحتمالا الاسبان – ليزداد فيه مجالهم سعة . وكان القتال حتى فيه قد بدأ . والمحور يرمي الى بلوغ السويس ، فاذا نحن بقينا سلبيين في افريقيا تمكن اعداؤنا ، عاجلاً او آجلاً ، من وضع ايديهم على بعض ممتلكاتنا فيها ، بينما يضطر حلفاؤنا مع مجرى العمليات الحربية ، الى الاستيلاء على هذه او تلك من اراضينا اللازمة بالضرورة ، لاستراتيجيتهم .

كانت المشاركة في معركة افريقيا بقوات وأراض فرنسية ، تعني وكأن قطعة من فرنسا عادت تدخل الحرب من جديد ، كانت تعني الدفاع مباشرة عن ممتلكاتها ضد العدو . كانت تعني قدر المستطاع ، تحويل انكلترا ، وربما اميركا يوماً ما ، عن الفتنة التي تراودهما في الاستئثار لنفسيهما بكفاحها ، ولحسابها . وكانت تعني اخيراً ، انتزاع فرنسا الحرّة من المنفى ، ووضعها بسيادتها التامة على ارض الوطن .

ولكن من اين نقترب من افريقيا ؟ ما كان في مستطاعي ان انتظر شيئاً ايجابيا ، في الحال من مجموع افريقيا : الجزائر ، المغرب ، تونس . وقد ترامى اليّ بادىء ذي بدء ، والحق يقال ، عدد من رسائل التأييد ، وجهتها مجالس بلديات ، وجمعيات ، وحلقات ضباط ،

وفروع من رابطة المحاربين القدماء ، ولكن سرعان ما أعقب هذه الرسائل التخلّي في الوقت الذي اتسمت به العقوبات والرقابة ، وجاءت مأساة مرسى الكبير تخنق آخر انفاس المقاومة . وكان يلاحظ من جهة اخرى ، شيء من « التخفف الجبان » ، ان الهدنة تركت بلادهم خارج الاحتلال . وكانت السلطة الفرنسية فيها ، تبدو في ظلّ شكل عسكري حازم ، يطامن المستوطنين من غير ان يزعج المسلمين . وهناك اخيراً مظاهر شتى لما كانت تسميه فيشي « الثورة القومية » ، وفيها استجابة لنزعات الكثيرين : دعوة الاعيان ، احترام للادارة وإبرازها ، استعراضات للمحاربين القدماء ، اظهار اللاسامية . كان هناك تركّز في الانتظار ، بقول موجز ، مع استمرار في التفكير ، ان افريقيا الشمالية يمكن يوماً ما ، ان « تعمل شيئاً » . وما كان لأحد ان يعتمد ، في الداخل ، على قيام حركة تنشأ عفواً . أمّا ان اقبض فيه على السلطة بوساطة عمل يأتي من الخارج ، فهذا ما لم يكن في مستطاعي ، قطعاً ، ان افكر فيه .

كانت افريقيا السوداء ، تقدّم لنا امكانات مختلفة كل الاختلاف ، ففي الايام الأولى من قيام فرنسا الحرّة ، دلّت الرسائل التي وردتني ، والمظاهرات التي جرت في دكار ، وسان - لويس ، و « أواغادوغو » ، وأبيدجان ، وكوناكري ، ولومي ، ودوالا ، وبرازافيل ، وتاناناريف ، أن استمرار الحرب يبدو ، في نظر هذه البلدان الحديثة التي تسيطر عليها روح الانشاء ، امراً سائراً في طريقه ، من تلقاء ذاته . ولا ريب ان موقف الاذعان الذي اتخذه نوغيس اخيراً ، والانطباع السيء الذي احدثته قضية وهران ، وسلوك بواسّون الذي كان حاكماً عاماً لافريقيا الاستوائية بادىء ذي بدء ، ثم مندوباً سامياً في دكار ، وهو الذي ضيّع حماسة السكان بما ران عليه من التباس - كل ذلك خفف من

غليان افريقيا . ولكن النار ظلّت ، مع ذلك ، تحت الرمـــاد في معظم مستعمراتنا .

وإنما كانت مجالات الأمل تنفتح ، على الأخص ، في مجموع اراضينا الاستوائية . وكانت حركة المعارضة للهدنـة تشمل جميع الاوساط في الكاميرون خاصة . فقد أغاظ الاستسلام سكانَ هذا البلد الحيّ الناشط ، فرنسيين ، ومواطنين اصيلين على السواء ، وما كان الشك ليخالج احداً فيهـــا ، من جهـة اخرى ، ان انتصار هتلر سيعيد السيطرة الجرمانية التي كانت تخضع لها قبل الحرب العالمية الاولى . وكان الناس يتداولون ، وسط الهياج العام ، نشرات يعلن فيها بعض المستوطنين الالمان القدامى ممن انسحبوا سابقاً الى جزيرة فرناندوبو ، عودتهم القريبة الى مراكزهم واغراسهم . وكان ان تألفت لجنـــة عمل حول السيد موكلير ، مـــدير الاشغال العامة ، ومنحتني تأييدها . ولا ريب ان الحاكم العام برونو ، انمـا رفض الانحيـاز الى جانب مـــا ، وهو ذاهل تحت وطأة الوضع الجديد . ولكن كان في الامكان التصوّر ، ان تدخلاً حازمـاً يردُ من الخارج ، يؤدّي الى حلّ المشكلة .

وكانت الأحوال في تشاد ، تبدو افضل ايضاً ، فإن الحاكم فليكس ايبويه ، استجاب فوراً بالاتجاه نحو المقاومـة . وكان هـــذا الرجل ذو الفطنة والشجاعة ، هذا الاسود المتحمس لفرنسيته ، هـــذا الفيلسوف الانساني ، يمقت بكل كيانه إخضاع فرنسا ، وظفر العنصرية النازية . لقد اتخذ السيد ايبويه قراره مبدئياً ، منذ علم بنداءاتي الاولى ، متفقاً بذلك مع امينه العـام « لورانتي » . ومالت العناصر الفرنسية من السكان الى الجانب نفسه . وكانت حوافز الشجاعة لدى الكثيرين ، بعـد كل حساب ، هي حوافز العقل ايضاً . وكان العسكريون قـــد احتفظوا بالروح الحربية في مراكزهم ، لاحتكاكهم بليبيـا الايطاليـة ، وراحوا

يتطلعون الى النجدات التي يمكن ان يدعم بها دخول ديغول . وما كان الموظفون والتجار الفرنسيون ، شأن الزعمـــاء الافريقيين ، ليفكروا باطمئنان في ما تكون عليه حياة تشاد الاقتصادية ، اذا أغلقت بوجوههم فجأة ابواب سوقهم الطبيعية ، وهي نيجيريا البريطانية . وأطلعني ايبويه نفسه على هذا الوضع ، فأبرقت اليه في ١٦ تموز ، ووجّه اليّ الجواب ، في تقرير مفصّل يخبرني عن نيته بالانضمام علناً ، ويعرض اوضاع الدفاع وحياة الارض التي فوضت اليـه فرنسا امر حراستها ، ويطلب اخيراً ان أعمل ما كنت في صدد عمله ، وهو ان اسمح له بحمل تبعاته ، في ظلّ صليب اللورين .

وكان الموقف في الكونغو ، يتراءى اكثر غموضاً ، فقد اقام الحاكم العام بواسّون في برازافيل ، حتى منتصف تموز (يوليو) . ثم أقام من ثمّة في دكار ، وهو يحتفظ بحق الاشراف على مجموع البلدان الاستوائية . وكان قد ترك فيها الجنرال هوسّون خلفاً له ، وهـــذا جندي يستحق التقدير ، ولكنه كان سجين انضباط زائف ، فهو على الرغم من الكرب الذي غمرته به النكبة ، ظل عاجزاً عن ان يعتق نفسه من الولاء لفيشي . وكان الخروج في اوبانغي ، حيث انحاز كثير من العنـاصر الى المقاومة ، متوقفاً كلياً على موقف الكونغو . وعلى العكس كانت الغابون ، وهي مستعمرة تأخذ بالعرف السائد وتنزع تقليدياً الى التمييز عن غيرها من اراضي المنطقة ، فقد أقامت ، في بعض اوساطها ، على تحفظ غامض لا يسبر غوره .

قررت اول ما قررت ، وانا آخذ بعين الاعتبار الموقف في افريقيا السوداء الفرنسـية ، ان احـاول في افـل مهلة ممكنة ، ضم مجموع البلدان الاستوائية . وكنت احسب ان هذه العملية لا تستلزم اشتباكا عسكريا جدّيا ، باستثناء الغابون ، من غير شك . ثم اشرع ، اذا نجحـت

هذه الخطة الاولى ، في العمل في افريقيا الغربية ؛ بيد اني لا استطيع الشروع في هذه الرقعة الا بعد جهد طويل وحيازة وسائل مهمة .

كانت المشكلة في بدايـــة الامـر ، ان نقترب من فور – لامي ، ودوالا ، وبرازافيل دفعـة واحدة . ثم يجب ان تسير العملية فجأة ومن غير انقطاع ، وذلك لان فيشي التي تملك تحت تصرّفها سفنا وطائرات وقوات من دكار ، وتستطيع عنـد الحاجـــة أن تستنجد بقوات من المغرب ، فضــــلا عن الاسطول في طولون . كانت في سعة من جميع الوسائل لتتدخل بسرعـــة . وكان بيتان ودارلان قد ارسلا في الوقت ذاته ، الاميرال بلاتون ، للقيـــام بمهمة تفتيش في الغابون والكاميرون خلال تموز الجاري ، واكتسبا لفيشي بعض العناصر العسكرية والمدنية . كنت اذن استبق الامور ، وقـــد فهم اللورد لويد وزير المستعمرات الانكليزي الذي عرضت له مشروعي وأدرك اهميته ولا سيا فيما يتعلق بأمن نيجيريا ، وشاطىء الذهب ، وسيرا – ليون ، وغينيا ، وكلهـا تابعة لبريطانيا . فاصدر للحاكمين الانكليز التعليمات التي اردتها ، وفي اليوم المحدّد وضع تحت تصرفي طائرة لتنقل من لندن الى لاغوس فريق « المبعوثين » التابعين لي .

وكان المراد بأولئـــك المندوبـين ؛ بليفن ، وباران ، وهيتّيه دي بوالامبير ، ان يرتبوا مـع حكومة ايبويه شروط انضمام تشاد ، وان ينفذوا بالتعاون مع موكلير ولجنته « انقلاب » دوالا . وفي لحظة سفرهم استطعت أن اضيف مندوباً رابعا لفريقهم ، سيُظهر المستقبل مدى ما كان له من فعالية . وذلك هو النقيب دي هوتكلوك ، وكان قد وصل من فرنسا عن طريق اسبانيا ، معصوب الرأس على جرح اصابــــه في شمبانيا ولديه بقية من عناء . جاء وقدّم نفسه فعرفت قدره ووجهته على الفور في مهمة على خط الاستواء . ولم يكن لديــه سوى الوقت لاتخاذ

عدته ، وزودته بأمر البعثة التي سلمتها لفريقه ، وطار مع رفاقه باسم المقدّم لوكلير .

ولكن كان علينا في الوقت نفسه الذي نرفع به صليب اللورين فوق تشاد والكاميرون ان نضمّ الينـا ايضا المستعمرات الثلاث : الكونغو الاسفل ، والاوبانغي ، والغابون ، وذلك يعني في جوهره ، ان نستولي على برازافيل عاصمة افريقيا الاستوائية ، ومركز السلطة ورمزهـا . وهذا ما كلفت به العقيد دي لارمينا . كان هذا الضابط المتحمس يومذاك في القاهرة ، وهو الذي حاول من غير ان يوفق ، بوصفه رئيساً للأركان العامة في جيش الشرق ، أن يحمل رئيسه الجنرال ميتلهاوزر ، في آخر حزيران ، على اتخاذ قرار بمتابعة القتال ، ثم نظّم بنفسه رحيل العناصر التي تقبل الهدنة ، الى فلسطين . ولكن ميتلهاوزر توصّل الى حمل هذه العناصر على النكوص على اعقابها يساعده في ذلـك ، من جهة اخرى ، الجنرال ويفيل قائد القوات البريطانية الاعلى في الشرق ، الذي كان يخشى ان يكلفه ذلك الارتحـال الجماعي ، من المتاعب في جملة الحساب ، اكثر مما يعود عليه بفوائد . ولكن افراداً منها اصرّوا وتمكنوا من بلوغ المنطقة الانكليزية . وكان قـد صدر الامر باعتقال لارمينيا ، ولكنه نجا بدوره ، ومر بجيبوتي فأعان الجنرال ليجنتيوم في جهوده التي كان يبذلها عبثاً ، لابقاء الساحل الفرنسي من الصومال في الحرب ، ومن ثمة انسحب الى مصر .

وهنـاك تلقـّى الامر مني بالشخوص الى لندن ، وفي الطريق تلقى الامر بالذهاب الى ليوبولدفيل ، وفي الكونغو البلجيكي لقي تأييـداً خفيا ، ولكن حازما ، من قبل الحـاكم العـام ريكهان ، وتعاطف الرأي العام ، واخيراً معاضدة ناشطة من جانب الفرنسيين المقيمين في تلك البـلاد ، وهم الذين تكتلوا حـول الدكتور ستوب . وكان على

لارمينا ، سيرا مع تعليماتي ، ان يُعد مقره الخاص في برازافيل ويربط بين ضفتي الكونغو وينسّق العمل في مجموع البلدان الاستوائية .

وحين تم اعـــداد كل شيء اجتمـع في لاغوس كل من لارمينا ، وبليفن ، ولوكلير ، وبوالامبير ، ومعهم المقدم دورنانو الذي جـاء من تشاد عبر تعاريج كثيرة ، نظراً للظروف . وقدّم السير برنارد بورديون حاكم نيجيريا العام ، مؤازرته الناشطة الذكية ، كما هو شأنه على الدوام ، للفرنسيين الأحرار في تلك المنـــاسبة . وكان من المتفق عليه ان تنفذ تشاد عملية انضمامها اولا ، على ان تنفذ خطة دوالا في اليوم التالي ، وخطة برازافيل من بعدها .

وفي ٢٦ آب اعلن الحاكم ايبويه والعقيد مارشان قائد قوات المنطقة في فور ـ لامي ، ان تشاد انضمت ، امام الملأ ، الى الجنرال ديغول . وكان بليفن قــد وصل الى المكان عشية امس الاول بالطائرة ليطلق باسمي قيام الحادث . وقد اعلنته بذاتي من مذيـاع لندن واستشهدت بتشاد انها على ولائها للامبراطورية .

وفي ٢٧ وفـّق لوكلير وبوالامبير توفيقاً رائعـاً ، الى الاستيلاء على الكاميرون حسب الخطة المقررة مع انهـــما ذهبا اليها بوسائل ضئيلة . وكنت آمل اول الامر ان اتمكن من ايفاد مفرزة عسكرية اليها تسهّل الامور . وكنا ، في الواقع ، قد اكتشفنا في معسكر في انكلترا نحو الف من الرماة السود ارسلوا من شاطىء العاج اثناء معركـــة فرنسا لنجدة وحدات المستعمرات ، وقد وصلوا جدّ متأخرين وحطوا موقتاً في بريطانيا العظمى بانتظار ترحيلهم الى بلادهم . وكنت قد اتفقت مع البريطانيين ان تذهب المفرزة الى اكرا حيث يتولى إمرتهـــا المقدّم پاران . وكان في الامكان التصور ان عودة هؤلاء السود الى افريقيا لا يحمل فيشي على الاستغاثة . وحدث فعلاً ان انزلوا في شاطىء الذهب ،

ولكن مظهرهم كان من الروعة بمنزلة لم يتمالك معهـا الضباط الانكليز من دمجهم في قواتهم الخاصة . وهكذا لم يكن لدى لوكلير وبوالامبير اذن سوى قبضة من العسكريين وبضعة مستوطنين قدموا من « دوالا » ، لاجئين . ثم انهما في اللحظة التي غادرا بها فكتوريا ، تلقيا من الجنرال جيفارد ، القائد الأعلى البريطاني ، الذي اخذ فجـأة يتخوف من نتائج العملية ، امراً يمنع تنفيذها . ولكنهما تجاوزا هذا الأمر بموافقتي التامة ، اذ ابرقت اليهما ، ان يعملا ، مـا يريانه بنفسيهما . وذهبـــا على ظهر قارب الى « دوالا » ، وكان الفضل في ايصالهما لانكليز فكتوريا ، وما أبدوه من تفهم .

ووصل الجيش الصغير اثناء الليل . وهرع عدد من « الديغوليين » لدى اول اشارة الى الدكتور موزه ، فاستقبلوه بمـــا يليق ، وأصبح لوكلير ، وكأنما بقدرة ساحر ، عقيداً وحاكماً معاً ، فاحتل ببساطة قصر الحكومة ، وفي اليوم التالي ذهب بالقطار ، تواكبـه سريتان من حاميـة « دوالا » ، وبلغ « ياونده » ، حيث تقيم السلطات ، وتم فيهـا « انتقال » الصلاحيات من غير إراقة دماء .

وكذلك سار الأمر على احسنه في برازافيل ، ففي الساعة المحـددة من ٢٨ آب ، ذهب المقدم ديلانج الى قصر الحكومة ، على رأس فوجه ، ودعا الحاكم العام هوسّون الى التخلّي عن منصبـه ، فتخلى هـذا بلا مقاومة ، وإن اعلن احتجاجه . وقبلت الحامية الحـادث بفرح ، هي ومن معهـا من الموظفين ، والمستوطنين ، والسكان الأصليين الذين كانوا في اغلبيتهم الكبرى قد أعدّوا من قبل ، على يد الطبيب العـام سيسه ، والناظر « سوك » ، وعقيد المدفعية « سير » ، وعقيد الطيران كاريتيه . وتولى الجنرال لارمينا بإسمي في الحال ، وقد اجتاز نهر الكونغو ، صلاحيات المفوض السامي في افريقيـا الاستوائية الفرنسية مع السلطات المدنيـة

والعسكرية . ورجعت الباخرة التي أقلّته الى ليوبولدفيل ، وعلى ظهرها الجنرال هوسّون .

وأما الاوبانغي ، فان حاكم سان - مار وقف ينتظر مـــا يدور في برازافيل ، ولم يكد يطلع على حوادثها ، حتى ابرق مؤيداً ، غير ان آمر الجنود وبعضاً من العنـــاصر العسكرية حاصرت في ثكناتها وهدّدت بإطلاق النار على المدينة . ولكن لارمينا ذهب توّاً الى بانغي بالطائرة وأرجع هؤلاء الضالين ذوي النية الطيبـة الى حظيرة الواجب . بيد ان نفراً من الضباط أفردوا على حدة ، ووُجهوا حسب طلبهم الى افريقيا الغربية .

وهكذا ، ألحق معظم افريقيا الاستوائية - كاميرون بفرنسا الحرة ، من غير ان تراق قطرة دم واحدة ، وبقي الغابون وحده منفصلاً عن المجموع . ومع ذلك ، لم تكلف تلك المستعمرة الا قليلاً من العناء ، لتنضم ايضاً بدورها . ففي ٢٩ آب اخطر لارمينا حاكم « ليبرفيل » ماسّون بتغيّر السلطة ، فأبرق هذا اليّ معلناً تأييـــده ، كما اعلن في الوقت نفسه على الملأ ، التحاق المنطقة ، وأعلم قائد القوات بذلك .

ولكن سلطات فيشي في دكار ، ردّت بسرعة ، فإن آمر البحرية في ليبرفيل ، وكان لديه طائرة ، وغوّاصة ، وعدة سفن صغيرة ، عمد الى معارضة الحاكم بإيعاز من فيشي ، وأعلن عن قدوم اسطول حربي . وحينذاك ، غيّر السيد ماسّون موقفه وصرّح أن انضمام الغابون لفرنسا الحرة كان نتيجة سوء تفاهم . وكانت هناك « جوماء » تابعة للبحرية ، تروح وتجيء بين ليبرفيل ودكار ، تنقل الى افريقيا الغربية من الاعيان اولئك الذين « تورّطوا » ، وتعود الى الغـابون بالاشخـاص الموالين لفيشي . وانقلب الموقف . اصبح للعدوّ جيب يصعب علينا التخلص منه ، لأنه منفتح على البحر ، وهكذا يضر بمجموع الأراضي الاستوائية التي انشيء فيها ،

وقد اوفدت فيشي الى ليبرفيل ، كي تفيد منه ، جنرال السلاح الجوي تيتو *Têtu* بلقب حاكم افريقيا الاستوائية ، ومهمته تركيز سلطته في كل مكان منها . واقبلت في الوقت نفسه عدة قاذفات قنابـــل من طراز غلين – مارتان وحطت على مواقع الطيران ، واظهرها الجنرال تيتو على انها طليعة لما يتلوها عما قريب .

الا ان النتيجة مع ذلك ، كانت بوجه عام ، مؤاتية لنـــا . وقد استخلصت منها الامل ان الجزء الثاني من خطة ضم افريقيا السوداء يمكن ان يكون بدوره موفقاً .

الحقيقة ان هذا الطور الجديد بدا انه اشق بكثير ، فالسلطة القائمة في افريقيا الغربية كانت تجد نفسها متمركزة بقوة ، مضافاً الى انها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ، من جهة اخرى ، بأفريقيا الشمالية . والوسائل العسكرية فيها ظلت كبيرة . وكان موقع دكار مسلحاً تسليحاً جيـــداً ، مجهزاً بمنشآت وبطاريات حديثة ، مدعوماً بعدة أسراب طيران ، يُستخدم قاعدة لاسطول ، ولغواصات على الاخص ، وكذلك كان للمدرعة « ريشليو » التي لم يكن اركان بحارتها يحلمون الا بالثأر منذ عطبتها النسافات الانكليزية ، فهو يشكل مجموعة دفاعية وهجومية مخيفة . وكان الحاكم العام بواسون اخيراً ، رجلاً هماماً طموحه اكبر من حذقه ، وقد اختار ان يلعب دوره لحساب فيشي وقضيتها . واعطى الدليل على ذلك منذ وصل الى دكار ، في منتصف شهر تموز ، بزج « لوتو » الحافظ الرئيس لفولتا العليا في السجن ، وهذا كان قد اعلن انضمام تلك الارض لفرنسا الحرة .

لم يكن في امكاني اذن ، بوسائلنا الراهنة ، ان افكر في الاقتراب مباشرة من دكار . وكنت اعتقد ، في جانب آخر ، ان من الجوهري تجنب اشتباك واسع . وليس ذلك – وأأسفاه ! – لاني كنت واهماً ان في الامكان التوصل الى تحرير البـــلاد ، من غير ادنى إراقة للدم بين

الفرنسيين . ولكن معركة كبرى ، نكون نحن البادئين بها ، في مثل ذلك الظرف ، وعلى تلك الارض ، تقلل تقليلاً خطيراً من فرص توفيقنا ، اية كانت النتيجة التي تفضي اليها . ولا يُتاح فهم المجرى الذي كانت تجري فيه قضية دكار ما لم يُعرف انما هو هذا الاقتناع الذي كان يسيطر على ذهني آنذاك .

كانت خطتي الاصلية اذن استبعاد الهجوم المباشر . والمراد ان ننزل رتلاً من الاشداء الحازمين يتقدم نحو الهدف ، ويتحالف مع العناصر التي يلتقيها كلما تقدم ، ويضم الاراضي التي يجتازها . وهكذا امكن الامل ان تقترب قوات فرنسا الحرة من دكار براً ، وهي تزداد ، اذ تمتد ، قوة وعدداً . وكانت كوناكري هي الموقع الذي واجهت إنزال الجنود فيه ، ومنها يصبح في الامكان الزحف على عاصمة افريقيا الغربية ، باستخدام سكة الحديد ، وطريق متصلة . ولكن كان من الضروري ، لنمنع اسطول دكار من القضاء على الحملة ، ان تكون هذه مغطاة من جهة البحر . وكان عليّ ان اطلب من الاسطول الانكليزي ان يقوم بتلك التغطية .

وفاتحت السيد تشرشل بهذا المشروع في الايام الاخيرة من تموز ، فلم يجب في الحال بالايجاب ولكنه بعد فترة قصيرة ، دعاني لمقابلته . وفي ١٦ آب وجدته كعادته في تلك الغرفة الكبيرة من داوننغ ستريت التي تُستخدم ، وكان ذلك تقليداً سارياً ، مكتباً للوزير الاول وقاعدة اجتماع لحكومة جلالته ، في آن واحد . ثم بسط على الطاولة الكبرى التي تملأ القاعة خرائط اخذ امامها يروح ويجيء متحدثاً بحماسة .

قال لي : « علينا ان نؤمّن معاً دكار الى جانبنا . ان ذلك أمر رئيسي بالنسبة اليكم ، لأنه اذا وُفقت هذه العملية ، تجد لديكم وسائل فرنسية كبرى تفيد منها في الحرب . وذلك مهم جداً بالنسبة الينا ، لان امكان استخدام دكار كقاعدة ييسّر لنا كثيراً من الامور في

معركة الاطلسي القاسية . ويمكنني القول ايضاً اننا ، بعد المذاكرة مع الاميرالية ورؤساء الاركان ، على استعداد للمساهمة في الحملة . وإنّا لنواجه ان نكرّس لها اسطولاً عظيماً . ولكننا لا نستطيع ان نترك هذا الاسطول مدة طويلة على سواحل افريقيا . وضرورة استعادته أننا نحتاج اليه للاسهام في تغطية انكلترا ، والمشاركة كذلك في عملياتنا في المتوسط ، مما يقتضينا ان نقوم بالاشياء على وجه السرعة القصوى . وذلك هو السبب الذي يحملنا على رفض خطتك في الانزال بكوناكوي والتقدم البطيء عبر البراري والغابات ، لان هذا يرغمنا على الاحتفاظ ، عدة اشهر ، بسفننا في تلك الشطآن . لدي شيء آخر اقترحه عليك » .

واخذ السيد تشرشل ، عند ذلك برسم اللوحة الآتية ، وهو يلوّن بلاغته بالنبرات التي تحمل مختلف التصاوير وأكثرها تنوعاً : « تستيقظ دكار ذات صباح ، وهي حزينة ، غير واثقة من نفسها . ذلك بأن الشمس طلعت ، واذا بالأهالي يجدون البحر من بعيد يعجّ بالسفن . انه اسطول ضخم ! مائة سفينة حرب او شحن ! وتتقدم هذه ببطء وهي تخاطب بالراديو المدينة ، والبحرية ، والحامية ، موجهة اليها جميعها رسالات الصداقة . والبعض من السفن يرفع العلم المثلث الألوان والبعض يبحر تحت الالوان البريطانية ، والهولندية ، والبولونية ، والبلجيكية . ثم ينفصل عن هذا الأسطول الحليف مركب صغير مسالم يرفع راية البرلمانيين البيضاء ، ثم يدخل المرفأ ويُنزل موفدي الجنرال ديغول . هؤلاء يقادون الى الحاكم . والمراد إفهام هذا الرجل ان الاسطول الحليف ينسحب اذا هو ترك لكم ان تنزلوا ، ولا يبقى إلا ان ترتّبوا فيما بينكم ، انتم وهو ، شروط تعاونه . واذا اراد القتال ، اي عكس ما يُعرض عليه ، فانه يتعرض لهزيمة ماحقة » .

وراح السيد تشرشل ، وهو يتدفق عن اقتناع ، يومىء ويشير ويصف

مشاهد الحياة المقبلة كما كانت تنبجس ، كلما انبجست ، من هواه وخياله :
« وفي اثناء هذه المحادثة بين الحاكم وممثليكم ، تحلق بهدوء طائرات فرنسية حرة وبريطانية فوق المدينة وتلقي نشرات ود وصداقة ! ويناقش المدنيون والعسكريون بحرارة فيما بينهم الفوائد التي تعود عليهم بتدبير الامور معكم ، والاضرار التي يمكن ان تنشأ عن ذلك التدبير ، ومقابل ذلك تنشب معركة كبرى ضد أولئك الذين هم ، بعد كل حساب ، حلفاء فرنسا ، ويكون في عداد المناقشين عملاؤكم الذين يقومون بمهامّهم . ويشعر الحاكم ، اذا قاوم ، ان الارض تنخطف من تحت قدميه . وسترون انه سيتابع المفاوضات الى نهايتها المرضية . ولربما اراد ، خلال ذلك ، ان يطلق ، « حفاظاً للشرف » بضع طلقات مدفع ، ولا أبعد من ذلك . وفي المساء ، يتناول عشاءه معكم وهو يشرب نخب النصر النهائي » .

واخذت اجرّد فكرة المستر تشرشل من كل ما اضافت اليه بلاغته من زخارف خلابة ، فأدركت ، بعد التفكير ، انها تستند الى معطيات وطيدة . فما دام الانكليز لا يستطيعون الإستغناء لمدة طويلة ، عن وسائل بحرية مهمة في جوار خط الاستواء ، لم يبق لأصبح سيد دكار ، الا ان اواجه القيام بعملية مباشرة . بيد ان هذه العملية لا بد ان تشتمل قسراً على مزيج من الاقناع والتهويل ، ان لم تتخذ سمة هجوم نظامي . كنت أعتقد ، من جهة اخرى ، ان من المحتمل ان تحمل الامبرالية البريطانية في يوم او آخر ، مع فرنسيين احرار او بدونهم ، على حل مسألة دكار حيث تقوم قاعدة أطلسية كبرى ، وترسو المدرعة « ريشليو » ، وكلتاهما يحركان شهواتها وقلقها في آن واحد .

واستخلصت ان العملية يمكن ان تتخذ شكل تحالف ، اذا نحن اشتركنا بها ، وان أكرهت عليها فرنسا الحرة . واذا نحن فعلنا العكس ،

وامتنعنا عن المشاركة ، فان الانكليز لا بدّ ان يقوموا بها ، عاجلاً او آجلاً ، لحسابهم الخاص . وفي هذه الحالة ، يقاوم الموقع بضراوة مستخدماً مدافع الحصون ومدفعية « ريشليو » ، بينا قاذفات القنابل غلين ـ مارتن ، والمطاردات كورتيس ، والغواصات – وهذه جد خطرة على السفن التي لم تكن تحمل آنذاك ادنى وسيلة من وسائل الكشف – تضع كل اسطول نقل تحت رحمتها . وحين تضطر دكار نفسها اخيراً ، وقد سحقتها القنابل ، الى التسليم للبريطانيين بخرائبها وحُطامها ، فان ثمة ما يخشى ان تدفع فرنسا ثمن العملية من سيادتها هناك .

وعدت الى المستر تشرشل بعد فترة قصيرة ، لأخبره اني قبلت اقتراحه . وقمت بوضع خطة العمل مع الاميرال جون كننغهام الذي سيكون آمر الاسطول البريطاني ، وقد لقيت فيه خلال سير هذه القضية المؤلمة رفيقاً معاسراً بعض الاحيان ، ولكن بحاراً فائقاً ورجلاً هماماً . وكنت في الوقت نفسه أقوم باعداد الوسائل – الضعيفة جداً – التي كان في امكاننا نحن الفرنسيين ان نخوض بها تنفيذ الخطة ، وكانت ثلاث سفن استكشاف : « سافورنيان – دي – برازّا » ، و « كومندان – دوبوك » ، و « كومندان دومينه » ، وقاربي صيد مسلحين : « قايان » ، و « فيكنغ » . ثم كانت ايضاً فوج فيلق على ظهر سفينتي بريد هولنديتين : « بنلاند » ، و « وسترلاند » ، اذ لم يكن لدينا سفن بريد فرنسية ؛ وسرية من الجنود الجدد ، وسرية من حملة البنادق البحارين ، وهيئة سرية دبابات ، وهيئة بطارية مدفعية ، ونواة لكل مصلحة من مصالح الجيش : والمجموع زهاء ألفي رجل ؛ وكانت ايضاً طياري سربين ، واخيراً اربع سفن للشحن فرنسية : « اادير » ، و « كازامانس » ، و « فور – لامي » ، و « نيفادا » ، تحمل العتاد الثقيل : دبابات ، ومدافع ، وطائرات « ليزاندر » ، و « هوريكان » و « بلنهايم » في صناديق ، وعربات نقل من مختلف الانواع ، وكذلك مواد التموين .

أما البريطانيون فلم يكن أسطولهم ليشتمل على السفن التي تحدث عنها المستر تشرشل اول الأمر ، اذ كان يتألف اخيراً من مدرعتين من طراز عتيق : « برهام » و « ريزوليوشن » واربع سفن استكشاف ، وحاملة الطائرات « آرك رويال » وبضع مدمرات وناقلة بترول ؛ وكان عدا ذلك يحتوي على ثلاث سفن نقل تقل فوجين من مشاة البحرية يقودها آمر اللواء إروين ، وتقيد في مختلف الشؤون ، ومعها وسائل النزول الى البحر . ولم يبق ثمة من حديث بعد ، عن لواء بولوني كان قد أعلن من قبل انه سيشترك في المعركة . وبدا ان رؤساء الأركان العامة كانوا اقل اقتناعاً من الوزير الاول ، او من فرص النجاح في هذه المعركة ، فأعملوا المقراض في الوسائل التي كانت في الاصل مهيأة .

وقبل الانطلاق ببضعة ايام ، أثار الانكليز نقاشاً حاداً حول المصير الذي قد أقرره في حالة النجـــاح ، لكمية كبيرة من الذهب كانت في باماكو ، وهي كمية من ذلك المعدن الثمين اودعها مصرف فرنسا لحسابه ، وحساب مصرفي الدولة البلجيكية والدولة البولونية . وكان جزء من ودائع مصرف فرنسا ومدخراته قد نقل ، في الحقيقة ، الى السنغال اثناء الغزو الالمـاني ، بينما أودع الجزء الآخر في « الفدرال بنك » الاميركي ، وباقي الارصدة تحول الى المارتينيك . وكان ذهب باماكو موضع تحريات دقيقة تقوم بها مصالح الاستخبارات لدى مختلف الفرقاء المتحاربين ، من خلال الحصار ، والحدود ، ومراكز الحراسة .

كان البلجيك والبولونيون يرغبون رغبة جد مشروعة ان تترك لهم حصصهم ، وقد قدمت للسيد سباك كما للسيد زاليسكي ، التأكيـــدات المناسبة . ولكن البريطانيين الذين لم يكونوا ليطالبوا ، قطعاً ، بأي حق في ملكية ، على المجموع ، وانمـا كانوا يبتغون مع ذلك ، ان يتصرفوا بهذا الذهب كوسيلة ينظمون بها مباشرة ما يشترونه من اميركا ، زاعمين

انهم انما يتصرفون به في مصلحة التحالف . وكانت الولايات المتحدة لا تبيع ، في الواقع ، شيئاً لأحد ، خلال تلك الفترة ، ما لم يدفع نقداً . وعلى الرغم من إلحاح سبيرز ، وحتى من التهديد الذي أوحى لي به في تخلي الانكليز عن الحملة المتفق عليها ، فقد رفضت ذلك الادعاء . واخيراً تم التفاهم ، على نحو ما اقترحت منذ البداية ، ان الذهب الفرنسي في باماكو يستخدم وحده رهناً لقاء حصة انكلترا من المشتريات التي تشتريها اميركا لحساب فرنسا المحاربة .

وقبل ان نبحر ، جاء نبأ انضمام تشاد ، والكاميرون ، والكونغو ، والاوبانغي ، في الوقت الملائم ، ينعش آمالنا . فنحن حتى اذا لم نوفق الى وضع يدنا على دكار ، فقد اصبح في حسابنا ، بفضل النجدات التي يمكننا استمدادها ، امكانية انشاء قاعدة للعمل والسيادة لفرنسا المحاربة في وسط افريقيا .

وانطلقت الحملة من ليفربول في ٣١ آب (اغسطس) . وكنت انا بنفسي مع قسم من الوحدات الفرنسية وهيئة اركان حرب مصغرة ، على ظهر « وسترلاند » ، رافعاً العلم الفرنسي الى جانب الهولندي . وكان آمر ذلك المركب النقيب « بلاغاي » ، والضباط ، والبحارة قد اظهروا جميعاً ، شأن زملائهم في « بنلاند » انهم أمثلة يقتدى بها في التضحية الودية . وكان يرافقني سبيرز ، وهو الذي أوفده تشرشل بوصفه ضابط ارتباط ، ودبلوماسياً ، ومخبراً . وتركت قواتنا المشكلة في انكلترا تحت امرة موزيليه ، وفي ادارة انطوان نواة لتنظيم اداري ، وفي شخص ديوافران عنصر ارتباط واعلام مباشرين . وعدا هؤلاء ، كان الجنرال كاترو ، الذي اتجه من الهند الصينية ، منتظراً ان يصل قريباً ، وقد شرحت له في رسالة تسلّم اليه عند وصوله ، جملة مخططاتي ونياتي تجاهه . وكنت قد حسبت ، ان احتياطي الحكمة الذي اختزنه رفاقي يحول ، رغم غيابي

على ان لا يطول كثيراً ، دون المنازعـــات من الداخل والدسائس من الخارج ، فلا يتزعزع البنيان تزعزعاً عميقاً ، وهو الذي ما يزال سريع العطب ! ومع ذلك ، شعرت وانا على ظهر « وسترلاند » الذي ترك المرفأ إبان صفارة الانذار بقصف جوي ، مع فريقي الصغير كله وسفني الضئيلة ، شعرت وكأن ثقل الواجب يسحقني . ها هي سفينة فقيرة غريبة ، تجري في عرض البحر بلا مدافع والانوار كلها مطفأة ، اثناء الظلام الدامس ، فوق عباب ينتفخ به الاوقيانوس ، تحمل معها مصير فرنسا .

كانت فريتاون محطتنا الاولى . وكان علينا ، حسب الخطة المرسومة ، ان نعيد بها تجمعنا ، ونلتقط بها آخر المعلومات . ثم لم نصل اليها الا في ١٧ ايلول (سبتمبر) وسيرنا كان وئيداً يتبع سرعة سفننـــا الشاحنة ، ويقوم بانعطاف كبير يتجنب به طائرات الالمان وغواصاتهم ، في عرض الاطلسي . وفيما نحن نعبر الاوقيانوس وصلتنا معلومات من لندن باللاسلكي عن قوات فيشي ، وفيهـا خبر من شأنه ان يحملنا على إعادة النظر في حملتنا كلها ، ففي ١١ ايلول خرجت من طولون ثلاث طرادات كبيرة وحديثة هي : « جورج – ليغ » و « غلوار » و « مونكالم » ، وثلاث طرادات خفيفة هي : « أوداسيو » و « فانتاسك » و « مالان » ، وعبرت مضيق جبل طارق دون ان يوقفها الاسطول الانكليزي ، ثم قاربت من بعد الدار البيضــــاء وبلغت دكار . ولكن ما كدنا نلقي مراسينا في فريتاون حتى فوجئنا بنبأ خطير زادنا بلبلة على بلبلة ، وذلك ان الاسطول في دكار الذي اصبح اكثر قوة بالطرادة « بريموغيه » تجهز واتجه بسرعة نحو الجنوب . وقد حاذرت مدمرة بريطانية من بعيد انفصلت للمراقبة ، ان تحتك به .

لم استطع ان اشك في ان هذه القوة البحرية الكبرى انما تتسلل نحو افريقيا الاستوائية ، حيث كان مرفأ ليبرفيل منفتحاً امامها ، ويصبح من

اليسير عليها ان تستولي على « البوانت نوار » ودوالا ؛ فاذا لم تكف مثل هذه الضربة الصاعقة لقلب الموقف في الكونغو والكاميرون ، فان هذه السفن الجبارة تستطيع بسهولة تغطية نقل وانزال القوات الرادعة القادمة من دكار وكوناكري او ابيدجان . وقد تحققت صحة هذه الفرضية في الحال تقريباً حين اوقف الانكليز سفينة الشحن « بواتيه » ، وكانت قادمة من دكار ، متسللة نحو ليبرفيل ، وعمد ربانها الى خرقها بغية إغراقها . كان واضحاً ان فيشي شرعت في عملية واسعة ترمي منها الى التمركز في الاراضي التي انضمت الى فرنسا الحرة ، وان إرسال سبع طرادات الى خط الاستواء شيء لا يمكن تصور وقوعه من غير تراض تام مع الالمان ، ان لم يكن قد حدث بأمر منهم . وقد وافقني الاميرال كننغهام على ان الواجب يقضي في الحال ، وقف اسطول فيشي .

وكنا على وفاق في الرأي ان الدخلاء سيتلقون الايعـــاز بان يولّوا وجوههم شطر الدار البيضاء لا دكار ، وذلك اكيد ؛ فاذا لم يفعلوا ذلك ، شرع الاسطول الانكليزي في القتال . وقد فكرنا جيداً من جهة اخرى ، ان التهديد يكفي لجرّ هذه السفن الضالة نحو الشاطىء ، لانه اذا كانت سرعة السفن البريطانية أقل من سرعة تلك ، وذلك واضح ، فلن يكون في مستطاع البريطانية أن تعترض سفن فيشي . وقوة تلك وهي ضعف قوة هذه ، تؤمّن لها الأفضلية ، في اللحظة التي تضطر بها هذه الى الالتجاء لأي مرفأ استوائي لا تحميه أية بطـارية . ولا بد حينذاك للمعتدي ان يلقي سلاحه ويستسلم او ان يقاتل وسط ظروف سيئة . وكانت هنالك احتمالات ضئيلة ان يزج رئيس الحملة بنفسه في مثل هذا المأزق .

والذي حدث ان الطرادات الانكليزية التي شرعت في الاتصـــال بالاميرال « بورّاغيه » قائد الاسطول العاصف ، تمكنت من حمل هذا بسهولة ، على الانعطاف نحو الشاطىء حين علم رئيسه ، لدهشته التامة ، بوجود

أسطول فرنكو - انكليزي في الجوار . ولكن سفن فيشي استطاعت ان تلتحق سالمة غانمة ، بدكار ، متحدية كل تعقب . غير ان الطرادتين « غلوار » و « بريموغيه » وحدهما ، ابطأنا السير لعطل أصاب ادواتها ؛ وكان نقيب البارجة تيبري دارجنليو الذي أبحر على ظهر المدمرة ، « انغرفيلد » واتصل بهما مباشرة من قبلي ليقوم بالمفاوضة ، فأذعنتا للشروط وبلغتا الدار البيضاء ، بعد ان رفضتا ما عرضتُ عليهما ان تستصلحا في فريتاون .

وهكذا نجت افريقيا الفرنسية الحرة من خطر جد جسيم . وكان هذا الحادث وحده يبرر مائة مرة الحملة التي اغددناها . ثم ان تصرف الاسطول القادم من طولون ، في جانب آخر ، المبحر نحو خط الاستواء كما لو أننا لم نكن فيه ، وتخليه عن مهمته في اللحظة التي أدرك بها اننا نحن أنفسنا مثبتون فيه وجودنا ، يحمل على التفكير ان فيشي لم تكن متنبتة من قصدنا الخاص . ولكن كان علينا ، بعد ان هنأنا انفسنا على احباط خطة اعدائنا هكذا ، ان نقر على ان خطتنا كانت في حرج شديد . والواقع ان سلطات دكار اخذت بالحيطة والحذر منذ ذلك الزمن وتلقت نجدة من السفن المهمة . وعلمنا في الحال تقريباً ، عن طريق موظفينا في الاستخبارات ان رجالاً من مدفعية البحرية حلّوا محل مدفعيّي المستعمرات الذين سرى الشك في ولائهم ، ليتوفروا على خدمة البطاريات في جبهة البحر . لقد تراءت ، بقول مختصر ، فرص احتلالنا دكار ، بعد اليوم ، اقل بكثير مما كانت عليه .

وفي لندن ، قدّر المستر تشرشل والأميرالية ان من الأفضل في هذه الظروف ان لا يُشرع في شيء . وقد أبرقا الينا منذ ١٦ ايلول بذلك ، واقترحا ان يؤمّن الاسطول مواكبة سفننا فحسب ، حتى دوالا ومن ثمة ينتقل لمكان آخر . لا ندحة عن القول ان هذا التخلي بدا لي انه

اسوأ الحلول . والواقع اننا اذا نحن تركنا الاشياء على حالها في دكار ، لم يبق امام فيشي اتعيد الكرة على افريقيا الاستوائية ، الا ان تنتظر قفول السفن الانكليزية نحو الشمال ، اذ يصبح البحر امامها مفتوحاً ، وتتوغل طرادات بوراغيه من جديد نحو خط الاستواء . وهكذا يصبح محاربو صليب اللورين بمن فيهم الجنرال ديغول ، محصورين عاجلاً او آجلاً في تلك الاراضي النائية ، وحينذاك تقتصم ، حتى وان لم يزحوا ، معركة عقيمة ، يخوضونها ضد فرنسيين آخرين ، في البراري الشاسعة والغابات . وليس لهم في هذه الاحوال ، أي مجال لمحاربة الألماني ولا الايطالي . وما شككت قط ان هذه اذا كانت نيـــات العدو التي تستتر بطبيعة الحال وراء اشباح فيشي ، وهؤلاء ادوات عمل عن وعي او غير وعي . وتراءى لي ان من واجبنا في الظرف الذي وصلنا اليه آنـــذاك ، ان نحاول دخول دكار ، رغم كل شيء .

وعلي أن اقر بعد كل شيء ، أن المحالفات التي نلناها في افريقيــا افعمتني بأمل اصم ، ورسختنه الأخبار الطيبة التي كانت تترى علينا من جهة أخرى ، منذ انطلقنــا من لندن . وفي ٢ ايلول التحقت بفرنسا الحرة ، مؤسسات اوقيانيــــا الفرنسية ، في ظل الحكومة المؤقتة التي تولاها السادة : آهن ، ولاغارد ، ومارتان . وفي ٩ ايلول أعلن الحاكم بونفان أن مؤسسات الهند الفرنسية انحازت الى جانبي . وفي ١٤ ايلول ، توجهت الي الجمعية العمومية للمحاربين القدماء في سان – بيير وميكيلون ، بانحيازها الرسمي ، وأعقب ذلك ان عهدت الحكومة الانكليزية لحكومة كندا ، ان تؤيد حركتهم . وفي ٢٠ ايلول بلغ الحاكم « سوتو » ، بناء على أمر مني ، نوميا ، بعد أن كان قد ضم اليه بنفسه « هيبريد الجديدة » في ١٨ تموز . وفي نوميا سيطرت « لجنة ديغول » التي يرئسها ميشال فيرج ، على الموقف بمساندة الأهالي الحماسية ، مما اتاح لسوتو ان يتولى الحـكم . واخيراً تمكنتُ من حمل اسطول بوراغيه على تحويـــل وجهته لدى اول

أمر اصدرته اليه . من ترى يستطيع التأكيد اننــــا لن نلاقي في دكار حيث تنتظم اصرح العلامات العسكرية ، هذا الجو من القبول ؟ كان الواجب يقضي ان نحاول على كل حال .

وكان ردّ الفعل لدى الاميرال كننغهام يجري في هذا الاتجاه نفسه ، فأبرقنا الى لندن نطلب بإلحاح عاجل ، ان يُترك لنــــا امر المحاولة . وكان المستر تشرشل ، على مــــا روى لي من بعد ، مندهشاً ومفتوناً بذلك الإلحاح ، فقبل الطلب بطيبة خاطر ، وتقرر العمل .

وقبل ان نمضي في العمل ، كان عليّ ان احمل خطوة ثقيلة قام بها كننغهام ، اذ أراد أن اكون خاضعاً لأوامره ، مــع قواتي المتواضعة ، وهو يقدم لقاء ذلك ، ضيافته لي على ظهر مدرّعته « اميرال برهام » . وقد رفضت الطلب والدعوة ، بطبيعة الحال . وحدثت في ذلك المساء بضعة مشادّات كلامية على ظهر « وسترلاند » حيث جرت المشادّة . وفي اثناء الليل كتب لي الاميرال كلمة طافحة بالود ، يتخلى بهــــا عن طلباته . ورفعنا المرساة في ٢١ أيلول . وفي فجر ٢٣ ، كنا وسط ضباب جد كثيف ، امام دكار .

أوشك الضباب ان يوقــــع مهمتنا في خطر جسيم ، ولا سيما الأثر المعنوي الذي كان ينبغي ان يحدثه اسطولنا ، كما تصور تشرشل ، على الحامية والسكان اذ لم يجر شيء قط من هــــذا القبيل ، فإن أحداً لم يشهد شيئاً . ولكنه كان من المستحيل ، قطعــاً ، ان نؤجل العملية . وُضعت الخطة المرسومة موضع التنفيذ . وفي الساعة السادسة وجهت نداء بالراديو الى البحرية ، والجيش ، والأهــالي اعلمهم فيه بحضورنا ونياتنا الودية . وعقب ذلك في الحــــال طارت عن ظهر « الآرك رويال » طائرتان فرنسيتان صغيرتان « لوسيول » للسياحة ، غير مسلحتين ، وحطتا في مطار اواكام وانزلتا فيه ثلاثة ضباط : غايته ، سكامارونى ،

وسوفليه بعثة إخاء . وعلمت بسرعة ، في الواقع ، ان الطائرتين حطتا من غير صعوبة ، وان الاشارة « نجاح ! » انتشرت فوق ذلك الميدان !

وفجأة أخذت طلقات المدافع المضادة للطائرات تسمع في نقاط مختلفة . وراحت مدافع « ريشليو » ومدافع أخرى من الساحة تقاوم الطائرات الفرنسية الحرة والانكليزية التي شرعت في التحليق فوق المدينة وإلقاء نشرات الصداقة . وأيّا كان الجانب المحزن من تلك الطلقات المدفعية ، فقد بدا لي ، مع ذلك ، انها تنطوي على شيء من التردد ، وأصدرت كذلك الأمر الى السفينتين اللتين تقل البرلمانيين ان تدخلا المرفأ ، بينما سفن الاستكشاف الفرنسية الحرة ، ومثلها « وسترلاند » و « بنلاند » أخذت تقترب ، في الضباب ، حتى مدخل الميناء .

لم يكن ثمة أي رد فعل لأول وهلة . فإن ربان البارجة دارجنليو ، ورئيس الفوج غوتشو ، والرباثان بيكور – فوش وبيّران ، والملازم الثاني بورغيس ، ربطوا مراكبهم ونزلوا الى رصيف المرفأ ، وطلبوا قائده . وقدم هذا نفسه ، فتقدم منه دارجنليو وقال له انه يحمل رسالة من الجنرال ديغول الى الحاكم العام ، وان عليه ان يسلمها لصاحبها تسليم اليد . ولكن القائد صرح للمندوبين ، دون أن يخفي اضطرابه ، إن لديه الأمر بتوقيفهم . واظهر في الوقت نفسه النية بالمناداة على الحرس . ذلك بأنه شهد المبعوثين يعودون الى قواربهم ، وفيما أخذت هذه تبتعد ، أطلقت عليها نار المدافع الرشاشة . وجرح دارجنليو وبيران جراحاً خطرة ، ونقلا الى ظهر « وسترلاند » .

وعند ذاك ، بدأت بطاريات دكار في توجيه نيران متقطعة على السفن الانكليزية والفرنسية الحرة ، طوال عدة ساعات دون رد . وحولت « ريشليو » عن مكانها في الميناء لتتمكن من استعمال مدافعها على نحو افضل ، وبدأت تطلق بدورها . وحوالي الساعة الحادية عشرة كان

الطراد « كمبرلاند » قد أصيب إصابة خطرة ، فوجه الاميرال كننغهام بالراديو من موقعه ، هذه الرسالة : « انا لا اطلق عليكم ، فلم تطلقون عليّ ؟ » وكان الجواب : « انسحب على بعد ٢٠ ميلاً » . ورد الانكليز بدورهم ، حينذاك ، في أن اطلقوا بضع طلقات من المدافع الجانبية وكان الوقت يمر ، في تلك الاثناء ، دون ان يلحظ ، من هذا الجانب ولا من ذاك ، حماسة حقيقية للقتال ، فما من طائرة لفيشي حلّقت في الجو حتى منتصف ذلك النهار .

لم أستنتج من مجموع هذه الأمارات ان الموقع كان عازماً على مقاومة ضارية . أيحتمل أن تكون البحرية ، والحامية ، والحكومة ، تنتظر جميعها حادثاً ما يمكن أن تستخدمه ذريعة الى اجراء مصالحة ؟ كان أن وجّه الي الاميرال كننغهام ، حوالي الظهر ، برقية يشير فيها إلى أن ذلك هو شعوره الخاص أيضاً . ولا ريب انه لم يكن في المستطاع إقحام الاسطول على المرفأ . ولكن ألا يمكن انزال الفرنسيين الاحرار في نقطة قريبة من الموقع يحاولون بعدها أن يقتربوا من اليابسة ؟ كان هذا الحل قد وُجه مسبقاً . وبدا ميناء روفيسك الصغير القائم خارج منطقة العمل الحربي ومعظم المنشآت العسكرية ، ملائماً لعملية الانزال بشرط ان لا تلاقي هذه ، مع ذلك ، مقاومة صارمة حازمة . والواقع ، انه اذا امكن سفننا الاستكشافية ان تحاذي روفيسك ، فان سفن النقل لدينا لا تستطيع ذلك نظراً لضحالة المياه . يجب اذن ان ينزل الجنود بزوارق ، وهذا ما يحرمهم من اسلحتهم الثقيلة ويتطلب هدوءاً تاماً . ولما تلقيت في هذه الاثناء من كننغهام التأكيد انه يغطينا من جانب البحر ، ادرت كل شيء نحو روفيسك .

وحوالي الساعة ١٥ ، وصلنا وشرعنا في العمل والضباب يخيم دوماً . ودخلت الطرادة « كومندان دوبوك » المرفأ وكان على ظهرها فصيلة

من الرماة ، وأرسلت نحو اليابسة بضعة بحارين في زورق للقيام بعملية الربط . وهرعت على الشاطىء ، جمهرة من السكان الاصليين لاستقبال الدورية ، واذا بجنود فيشي المرابطين في الجوار ، يفتحون النار على سفينتنا الاستكشافية ، ويقتلون عدداً من الاشخاص ويجرحون آخرين . وكانت قبل لحظات قد حلّقت قاذفتان غلين – مارتن على ارتفاع منخفض فوق قواتنا الضئيلة كما لو ارادتا ان تبيّن لها انها تضعها تحت رحمتها . وهذا ما كان واقعاً فعلاً . وابرق الاميرال كننغهام اخيراً ان الطرادتين « جورج ليغ » و « مونكالم » خرجتا من مرفأ دكار ، وانهما في الضباب على بعد ميل منا ، وان السفن الانكليزية مشغولة في جهات اخرى ، لا تستطيع ان تغطينا منهما . الأكيد ان قضية الحملة خاسرة ! فليس الانزال وحده لم يكن ممكناً ، وانما يكفي ان تطلق طرادتا فيشي بضع طلقات من مدافعها ، لتصبح الحملة الفرنسية الحرة كلها في القاع ، فقررت ان اعود الى عرض البحر ، وهذا تمّ دون أي حادث جديد .

قضينا الليل في ترقّب ما يحدث . وفي الصباح التالي ، وكان الاسطول الانكليزي قد تلقى برقية من السيد تشرشل يدعوه الى دفع الحملة قدماً وبفعالية ، وجّه انذاراً الى سلطات « دكار » ، فكان جواب هذه ، انها لن تسلّم الموقع . وحينذاك ، مرّ النهار كله ، والبريطانيون يتبادلون اطلاق المدفعية عنيفاً ، وسط ضباب كان أكثف ما يكون ، مع بطاريات البر وسفن المرفأ . ولدى الاصيل ، ظهر جلياً ان اية نتيجة حاسمة لا يمكن ان تحصل .

وحين خيّم الظلام ، اقتربت « برهام » من « وسترلاند » ورجاني الاميرال كننغهام ان اذهب لمقابلته ومناقشته الموقف . كان الجوّ على ظهر المدرّعة الانكليزية حزيناً متوتراً نتيجة الاخفاق . ولكن الدهشة كانت هي الشعور السائد . فالبريطانيون وهم قوم عمليون ، لم يتوصّلوا

الى فهم هذه القضية وهي كيف ان السلطات في دكار، والبحرية، والجنود يبذلون مثل هذه الطاقة في مقاتلة مواطنيهم وحلفائهم، بينما تنزف فرنسا تحت جزمة الغزاة، ولماذا يفعلون ذلك. اما انا، فان ذلك لم يعد بعد ليدهشني، إذ كشف لي ما جرى، مرة واحدة والى الأبد، ان حكام فيشي لن يتورعوا ابداً عن ان يسيئوا استعمال الشجاعة والانتظام لدى أولئك الذين يخضعون لسلطانهم، ضد مصالح فرنسا.

وقد عرض الاميرال كننغهام الوضع كما رآه: «نظراً الى موقف الموقع، والاسطول الذي يسانده، لا اعتقد ان القصف يمكن ان يؤدي الى حل»، وأضاف الجنرال إروين آمر وحدات الانزال «انه كان مستعداً لوضع جنوده في البر لمهاجمة المنشآت، ولكن كان من الواجب ان يُفهم ان ذلك يعني مجازفة كبرى بكل سفينة وكل جندي». وكلاهما سألني ما تؤول اليه «حركة» فرنسا الحرة، فيما اذا وُضع حد للحملة.

قلت: «اننا لم نوجه حتى الآن، هجوماً مركّزاً على دكار. ومحاولة دخول الموقع بصورة وديّة اخفقت. والقصف لن يقرر شيئاً. ثم ان النزول بقوة عنيفة ومهاجمة المنشآت، يجر الى معركة نظامية أرغب من جهتي، في تجنبها، وأنتم اشرتم بأنفسكم ان نهايتها مريبة. علينا اذن، في الآن، ان نتخلى عن الاستيلاء على دكار. وأقترح على الاميرال كننغهام ان يعلن وقف اطلاق القصف تلبية لطلب الجنرال ديغول. ولكن الحصار، يجب ان يستمر كي لا نترك للسفن الراسية قرب دكار حرية العمل. ثم يكون لنا بعد ذلك، ان نقوم بإعداد محاولة جديدة، في ان نزحف على الموقع من البر، بعد إنزال في نقاط غير محمية، او ضعيفة الحماية، كسان - لويس مثلاً. وأية كانت الحال، ومهما حدث، فان فرنسا الحرّة ستستمر».

ووافق الاميرال والجنرال الانكليزيان على رأيي ، فيما يخص الآن مباشرة . وحين خيّم الظلام ، تركت « برهام » الى قارب يتراقص فوق الأمواج تاركاً رجال الاركان والبحارة ، وقد اصطفّوا امام سياج المدرّعة ، يؤدون لي تحية الشرف ، وهم حزانى .

غير ان حادثين وقعا اثنـــاء الليل ، حوّلا الاميرال كننغهام عن الرأي الذي كنا قد اتفقنا عليه ، إذ وردته اولاً برقية من المستر تشرشل تدعوه صراحة الى متابعة الخطة ، وفيهـا يظهر الوزير الاول مندهشاً وساخطاً للخيبـــة التي أفضت اليها القضية على ذلك النحو ؛ وزاد في سخطه ان بعض الاوساط في لندن ، وفي واشنطن على الأخص ، تأثرت بما سمعت من اذاعات فيشي وبرلين ، وأخذت تهتاج . وكان ان انقشع الضباب من جهة اخرى ، وبغتة بدا ان للقصف حظاً من النجاح . وكان ان استؤنف القتال عند الفجر ، دون ان يستشيرني احد ، هذه المرة ، وتبادل الانكليز والموقع طلقات المدافع . ولكن المدرّعة « ريزوليوشن » أوشكت ان تغرق حوالي المساء اذ نسفتها احدى الغواصات ، واستُنقذت على يـــد سفينة قاطرة . وأصيبت عدة سفن انكليزية اخرى اصابات خطرة . وأسقطت اربع طائرات من « الآرك رويال » . ومن الجانب الآخر اصيبت « ريشليو » وسفن حربية شتى اصابات بالغة . وأغرقت النسّافة المضادة « اوداسيو » والغوصتان : « برسيه » و « أجاكس » ، واستُنقذ بحارة هذه الاخيرة على يـــد مدمرة انكليزية . ولكن حصون الموقع استمرت في اطلاق النار ، وقرر الاميرال كننغهام وقف الهجمات . ولم يكن في مستطاعي الا ان اوافقه . وأقلعنا الى فريتاون .

مرّت في الايام التي تلت قاسية . وكان يخالجني معها شعور امرىء هزّ البيتَ الذي يسكنــه زلزال عنيف ، وراح يتلقى على رأسه سيل الحجارة الهاوية من السقف .

وثارت في لندن عاصفة من الغضب عليّ ، وفي واشنطن إعصار من التهكم . فالصحافة الاميركية ، وكثير من الجرائد الانكليزية راحت في الحال تعزو للجنرال ديغول اخفاق المحاولة . وراحت الاصداء تتردد : « انه هو الذي اخترع هذه المغامرة الرعناء ، وخدع البريطانيين بمعلومات خيالية ، عن الوضع في دكار . وألحّ بدونكيشوتيته ، ان يهاجم الموقع ، في الوقت الذي ارسل به دارلان نجدات جعلت كل نجاح مستحيلاً ... ثم ان طرّادات « طولون » لم تقدم الا نتيجة إفشاء الاسرار من قبل الفرنسيين الاحرار الذين كانوا قد اخطروا فيشي ... لقد وضح مرّة واحدة ، والى الأبـد ، انه لا يصح الاعتماد على اناس لا يمكنهم ان يحفظوا سراً » . وبعد قليل ، عومل المستر تشرشل المعاملة نفسها ، بلا مداراة من الصحافة ، إذ قيل عنه انه ترك نفسه تنقاد بخفّة . وجاءني سبيرز ، بسحنة كالحة ، وأطلعني على برقيـات استعلام ، تلقاها من مراسليه ، وهي تلوّح ، ان من المحتمل ان يتخلى ديغول عن كل نشاط وهو اليائس الذي خـذله انصاره ، وأسقط من حساب الانكليز ، بينما الحكومة البريطانية ستأخذ على عاتقها مع « كاترو » او « موزيليه » ، تجنيد الأعوان الفرنسيين ، على مستوى اكثر تواضعاً .

اما دعاوة فيشي فقد راحت تشيد بالظفر الذي أحرزته ، من غير تقيّد ولا تحسّب . وكانت بلاغات دكار توحي بالاعتقاد ان ثمّة انتصاراً بحرياً رائعاً . وراحت الصحف تنشر أعداداً لا تُحصى من برقيـات التهنئة الموجّهة الى الحاكم العام بواسّون ومحـاربي دكار الابطال ، وتعلق عليها في المنطقتين وتذيعها على موجات يُقال انها « فرنسية » . وأنا في غرفتي الضيقة ، القائمة في قعر مرفـأ يخنقـه الحر الشديد ، ادركت، في النهاية ، ما تكون عليه مظاهر الخوف لدى الاعداء الذين يثـأرون من شعورهم به في الماضي ، كما لدى الحلفاء الجازعين بغتة امام الصدمة .

ولاح لي مع ذلك ، على نحو جد سريع ، ان الفرنسيين الاحرار ظلّوا ، رغم إخفاقهم صامدين لا يتزعزعون ، اذ لم اجد واحداً من عناصر حملتنا جميعها الذين قمت بزيارتهم لحظة ألقينا المراسي ، يودّ ان يفارقني . بل ان العكس هو الصحيح ، فقد ثبّت اقدامهم جميعاً موقفُ فيشي العدائي . وهكذا رأينا كيف ان طائرة من دكار ، حوّمت فوق سفننا العائمة ، فاستُقبلت بظاهرة من الصفير الهائج ، ارتفع نحوها من كل صوب ، الأمر الذي ما كان ليحدث قبل اسبوع مثلاً . ووصلت اليّ بعد قليل برقيات حارة من لارمينا ولوكلير تعلمني ان الولاء الحازم لهما وحولهما ، لم يعد قط موضع تساؤل . ولم ترد من لندن اية علامة تشير الى تراخٍ في العزائم ، رغم السخط الحاد الذي تدفق على جنودنا . وكان لي من هذه الثقة لدى جميع الذين ارتبطوا بي ، عزاء كبير ، وحافز قويّ على الاستمرار . كانت أسس فرنسا الحرة اذن مكينة ، وطيدة . فلنمض ! كان علينا ان نتابع ! ومذ عاد سبيرز الى صحوه واطمأن ، استشهد بفكتور هوغو : « وفي الغد ، استولى آيمري على المدينة » .

يجب القول إن الحكومة نفسها في لندن ، عرفت كيف تتحامى المشاعر المريبة وان كانت هذه المشاعر ، هي التي انتعشت حية في تلك العاصمة . والسيد تشرشل لم يتنكر لي ، رغم كل ما انتابه من لوم وتقريع ، كما اني لم اتنكر له . ففي ٢٨ ايلول (سبتمبر) عرض الحوادث في مجلس العموم بموضوعية ترتفع الى مستوى ما يمكن ان ينتظر منه ، وصرّح ان « كل ما جرى ، لم يكن الا ليزيد حكومة جلالته ثقة على ثقتها بالجنرال ديغول » . صحيح ان الوزير الاول كان يعلم جيداً في ذلك الظرف ، وان لم يشأ ان يصرّح به ، كيف ان الاسطول الذي قدم من طولون استطاع ان يعبر مضيق جبل طارق . وهو نفسه الذي

سرد عليّ القصة ، حين رجعت الى انكلترا بعد شهرين من الحادث .

ذلك ان برقية وجهها من طنجة الى لندن ، وجبل طارق ، ضابطُ استخبارات فرنسي التحق سرّاً بفرنسا الحرّة ، هو النقيب لويزيـــه ، وأطلع بها السلطات على تحرك سفن فيشي . ولكن تلك البرقية وصلت في وقت كانت الطائرات الالمانية تقصف « الوايتهول » (مقر الحكومة البريطانية) ، وكل من فيـــه من الموظفين مختبىء في الملاجىء طوال ساعات ، مما ادّى بالتالي الى بلبلة طويلة في عمل الاركان العامة . وجاء حل رموز البرقية متأخراً لدرجة لم يستطع معها لورد البحار ان يُخطر أسطول جبل طارق في الوقت اللازم . وهناك ما هو اسوأ ! ذلك ان الملحق البحري لفيشي في مدريد اخطر هو بنفسه ، بكل سذاجة (؟) ، الملحق البريطاني ، وهكذا كان الاميرال قائد موقع جبل طارق ، قد أُخطر من مصدرين مختلفين ، ولم يُتخذ اي تدبير لوقف السفن الخطرة .

ومع ذلك ، فان الموقف العلني الصريح الذي وقفه الوزير الاول من « الديغوليين » اعان كثيراً على إخماد الهياج في البرلمـــان والصحف . وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد تركت قضية دكار في قلوب البريطانيين جرحاً لا يندمل ابداً ، وتركت في اذهان الاميركان هذه الفكرة ، وهي انه اذا كان عليهم يوماً ما ان يُنزلوا جنوداً في اراض تسيطر عليهـا فيشي ، فان عملهم يقتضيهم ان يكون دون فرنسيين احرار ، ودون انكليز !

وكان حلفاؤنا البريطانيون ، في جميع الأحوال ، عازمين على عـدم اعادة الكرة في الحال . وقد صرّح لي الاميرال كننغهام جليـاً ، ان الواجب يقضي بالتخلي عن ذلك الامر ، بأي شكل . وما كان هو نفسه ليستطيع أن يقوم بشيء بعد ، سوى مواكبتي حتى الكاميرون ، وقـد ضرب الحصار على دوالا . وفي ٨ تشرين الاول (اكتوبر) في اللحظة

التي كانت تهم بها السفن الفرنسية في خوض خليج « ووري » حيتها السفن الانكليزية ، وتوارت في عرض البحر .

وحين دخلت الطرادة « كومندان – دوبوك » التي أقلتني في تلك الرحلة ، مرفأ « دوالا » ، اجتاحت المدينة موجة عارمة من الحماسة . وكان لوكلير ينتظرني فيها . وذهبت بعد استعراض الجنود الى قصر الحكومة ، بينما كانت تنزل العناصر القادمة من انكلترا . وكان الموظفون والمستوطنون الفرنسيون ، والأعيان المحليون الذين اتصلت بهم يهللون في غمرة من الاغتباط الوطني . ومع ذلك ، فانهم لم ينسوا شيئاً من مشكلاتهم الخاصة ، وكان أهمها ، تصدير منتجات البلاد ، واستيراد الضروريات ، التي كانت تفتقدها . ولكن كانت هناك ، فوق الهموم والخلافات ، وحدة الفرنسيين الأحرار المعنوية ، سواء ممن انضووا في لندن ، او التحقوا بنا في افريقيا ، فتلك كانت تظهر لتوّها جلية سافرة .

هذه الوحدة في الطبيعة ، بين جميع الذين انضووا تحت صليب اللورين ، ستكون في الآتي من الأيام ، احد المعطيات الدائمة لخطة العمل . لقد أصبح في الامكان بعد اليوم التنبؤ على نحو أكيد ، بما يفكر فيه « الديغوليون » ، وكيف يتصرّفون مهما حدث ، وأنّى حدث . فان مشاعر الحماسة التي لقيتها هنا مثلاً ، سألقاها دوماً في جميع الظروف ، وكلما وقفت أمام الجماهير . ولا بد من القول ، انه سينشأ لديّ منها عبودية دائمة ، فانني إذ أجسّد لرفاقي ، مصير قضيتنا ، وللجمهور الفرنسي ، رمز أمله ، وللأجانب وجه فرنسة لا ترزح تحت الارزاء ، سأضطر الى توجيه سلوكي وفق ما يقتضيه هذا الأمر ، وفرض موقف على شخصي لا أستطيع بعد أن اغيّره . كان ذلك بالنسبة لي وصاية داخلية لا فكاك منها ، امارسها على نفسي ، ونيراً جدّ ثقيل في الوقت ذاته .

كان المراد في المرحلة الراهنة إحيــاء المجموعة الاستوائية الفرنسية وتعبئتهــا لتساهم في معركة افريقيا . وكان في نيتي ان اركز في تخوم تشاد وليبيا ، مسرح عمليات صحراوية ، منتظراً ان يتيح تطور الاحداث يوماً ما ، لرتل فرنسي ان يجتاح فزّان وينفذ منها الى المتوسط . ولكن الصحراء ومصاعب النقل والتموين الهائلة لم تكن تسمح ان يُكرّس لها ملاكات قتال محدودة واختصاصية . وأردت كذلك ، في الوقت نفسه ، ان أرسل الى الشرق حملة تلتحق فيه بالبريطانيين . وهدف الجميع الأبعد انما كان افريقيا الشمالية الفرنسية . ومع ذلك ، كان علينا قبل كل شيء تصفية الجيب المعادي في الغابون ، فـأصدرت يوم ١٢ تشرين الأول ، الأوامر اللازمة ، في دوالا .

وفيما كانت هذه العملية المؤلمة قيد الاعداد ، غادرت الــكاميرون لأزور البلدان الاخرى . وكانت تشاد هي التي زرتها اولاً بعد اقامة قصيرة في « ياونده » . وأوشك رئيس فرنسا الحرة والذين يرافقونه ان يهلكوا خلال هذه الرحلة ، وذلـك لأن طائرة « البوتيز ٥٤٠ » التي كانت تقلّنا نحو فور – لامي تعطل محركها ، وكان من الخوارق ان وجد قائدها سبيلاً الى الهبوط على ارض مستنقع من غير اضرار جسيمة .

لقيت في تشاد جوّاً حماسياً مؤثراً ، وكـان شعور كل فرد ان نور التاريخ اشرق ليحط فوق هذه الارض العامرة بالكآبة والألم . ولا ريب ان ما من شيء يمكن ان يُعمل بها الا بضرب من البطولة ليثقل مــا يبهظها من عبوديات المسافة ، والعزلة ، والمنــاخ ، ونقص الوسائل . ولكن كان يهيمن عليها ، عوضاً لها عن ذلك كله ، الجو البطوليّ الذي تنبت فيه الاعمال الجليلة .

استقبلني « ايبويه » في فور – لامي . وشعرت انه يمنحني نهائياً ولاءه وثقته ، ولمست في الوقت نفسه انه واسع الافق بحيث يستوعب المشروعات

الواسعة التي كنت أريد ان أشركه فيها ، وهو وان قدّم آراء تنبض بالحس السليم ، لم يعترض قط على المخاطر والجهود . ومع ذلك ، كان أقل ما يراد ان تشرع الحكومة في اعمال المواصلات الضخمة ، لتصبح تشاد في المستوى الذي تستطيع معه ان تتلقى من برازافيل ، ودوالا ، واللاغوس ، العتاد والتموين اللازمين لقوات الفرنسية الحرة ، وتنقلها حتى حدود ليبيا الايطالية ، لتسيير حرب فعّالة . كانت المسافة ٦٠٠٠ كيلومتر من الطرق التي ينبغي للبلاد ان تشقها او تصونها ، بوسائلها الخاصة . ويغدو من الضروري ، عدا ذلك ، تنمية اقتصاد البلاد لتتمكن من تقديم الغذاء للمحاربين والعمال ، وتصدير ما تنتج لتؤدي النفقات . وتلك مهمة تزداد صعوبة بمقدار ما يزداد عدد المستوطنين والموظفين الذين ستستنفدهم التعبئة .

وطرت مع العقيد مارشان قائد جيوش تشاد حتى « فايا » ومحطات الصحراء . وهناك لقيت جنوداً ذوي بأس وعزيمة ، ولكن فقرهم بالوسائل مدقع ، إذ لم يكن ثمة من عناصر متحركة ، سوى وحدات « المهاريين » وبعض الأفواج السيارة . وحين صرّحتُ للضباط انني أعتمد عليهم لاجتياح فزّان يوماً ما وبلوغ المتوسط ، رأيت الوجوم يرتسم على وجوههم ؛ فإن الغارات الألمانية والإيطالية ، التي لا يملكون دفعها كلما اقتضت الحال ، كانت تبدو لهم أكثر احتمالاً من الهجوم الفرنسي على المدى الواسع الذي رسمت لهم مجاله . غير أن ما من أحد بينهم أبدى ، من جهة أخرى ، علامة تردد في متابعة الحرب ، وكان صليب اللورين مرفوع اللواء ، في كل مكان .

وثمة الى الغرب ، مع ذلك ، في أراضي النيجر والواحات الصحراوية ، كان لأولئك الضباط رفاق ، يشبهونهم في وجودهم ومراكزهم ، اذ كانوا هم أيضاً يقيمون على تخوم ليبيا ، ولكن ليس فوقهم في سلم

الرتب ، رئيس واحد أوتي الجرأة على فك السحر ، وظلّوا مستعدّين لاطلاق النار على أي امرىء يدّعي جرّهم الى محاربة اعداء فرنسا ! ومـا من رزية معنوية من جميع الرزايا التي أنزلتهـا بي اخطاء فيشي الآثمة ، كانت توجعني أشدّ الوجع ، مثل هذا المشهد الذي ينمّ عن عقم ابله .

ولدى عودتي الى فور ـ لامي ، لقيت مقابل ذلك ، تشجيعاً بارز المعالم ، وجاءني به الجنرال كاترو ، وكـان المطلعون من ذوي النيات السيئة قد تصوّروا ، منذ وصوله الى لندن ، بعد ذهابي الى افريقيا ، أن الانكليز سيحاولون أن يتخذوا من هذا الجنرال في الجيش ، الذي تمرس بالمهامّ الكبرى ، ورقة رابحة يعتمدونهـا في اللعبة للتبديل ، بينما كان المتحذلقون من ذوي الأفق المحدود يتساءلون مـا اذا كان هو نفسه يرضى أن يكون مرؤوساً من قبل عميد لواء بسيط . وكان قد رأى تشرشل مراراً وتكراراً ، وراح كثير يلغطون حول موضوع تلك المحادثات التي ظهر منها جلياً أن الوزير الاول كان قد أوحى اليه أن يأخذ مكاني ، لا امتحاناً له ، ولا ريب ، ولكن أخذاً بالمبدأ المعروف : فرق تسد . وكان تشرشل قد أبرق لي فجأة ، قبل دكـار بأيام أنه أرسل كاترو الى القاهرة ليعمل في المشرق حيث كـان ثمة امل بنشوء فرصة مؤاتية . وكان أن رددت بوضوح على ما بدا لي ، ليس فكرة سيئة بالتأكيد ، بل مبـادرة تتطلب موافقتي ؛ وشرح الامر تشرشل يومذاك بعبارات مرضية ، وبيّن الجانب الملحّ منه

وها قد وصل كاترو فعلاً الى القاهرة . ورفعت كأسي ، وأنا إلى المائدة ، على شرف هذا الرئيس الكبير ، الذي ما زلت أحمل له على الدوام ، صداقة هي التوقير والاحترام ، فرد على نحو جدّ نبيل وجدّ بسيط انه يضع نفسه تحت إرادتي . وعرف ايبويه وسائر الحضور وهم

متأثرون ، أن ديغول في نظر كاترو ، اصبح بعد اليوم ، خارج سلم الرتب ، وأنه مكلف بأداء واجب لا سبيل إلى حصره في سلسلة المراتب . وما غاب عن بال أحد قط قيمة المثل الصالح الذي قدّم ، على ذلك النحو . وحين افترقت عن الجنرال كاترو قرب الطائرة التي عادت به الى القاهرة ، بعد أن حددت معه رسالته ، شعرت انه يعود أعظم قدراً .

وكانت الأمور بجملتها في برازافيل ، حيث وصلت في ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) تظهر للعين مقنعة بمقدار ما هي في دوالا وفور – لامي . ولكنها كانت تُرى متأنية رزينة . كان ذلك سوياً بالنسبة لـ « العاصمة » . فالادارة والاركان العامة ، والمصالح ، ومؤسسات الاعمال ، والبعثات كانت تتدبر المصاعب التي تواجهه البلدان الاستوائية – وهي افقر بلدان الامبراطورية – لتعيش خلال السنوات التي انفصلت بها عن الوطن الأم ، وتقوم بالمجهود الحربي . والقول الحق أن بعض منتجاتها : الزيت ، المطاط ، الخشب ، القطن ، القهوة ، الجلود ، مما كان يباع بيسر للبريطانيين والاميركيين . ولكن افتقاد المصانع ، والمنتجات المعدنية ، باستثناء قليل من الذهب ، لم يكن يتيح التوازن بين مجموع ما يصدّر ، وما ينبغي استيراده من الخارج .

وعينتُ بليفن اميناً عاماً ليؤازر لارمينا في ذلك المجال . وسيكون من شأن بليفن حين يباشر العمل ، أن يذهب الى لندن وواشنطن لينظم مواعيد الاستحقاق والمدفوعات . وبدا أن كفاءاته جد فعالة ، اذ تساندها سلطة لارمينا . فكلاهما كانا اداريين ، ومزارعين وتاجرين ، وعاملين في شؤون النقل ، كما كانا يريان أن ثمة جهداً كبيراً يجب أن يبذل ، وأن الهدف يستحق عناء البذل ، فافتتحا ذلك الدور من النشاط الزاخر الذي سيحوّل تحويلاً عميقاً حياة البلدان الاستوائية خلال الحرب الدائرة . وقد أتاحت لي المرحلتان اللتان قمت بهما في نهاية

تشرين الاول الى أوبانغي حيث استقبلني حاكم سان – مـار ، ثم الى « بوانت – نوار » وكان يديرها داغان – اتاحتا لي أن اعطي الانطباع الذي كان الجميع ينتظرونه .

وذهبت اخيراً في ٢٧ تشرين الاول الى ليوبولدفيـــل ، حيث لقيت استقبالاً حاراً من قبل السلطات والجيش والاهالي ، والفرنسيين من سكان الكونغو البلجيكي ، وكان الحاكم العام ريكمان ، المنقطع هو أيضاً عن وطنه ، ولكنه يريد أن تسهم بـــلاده في الحرب ، يميل بعاطفته الى فرنسا الحرة . وهذه كانت ، من جهة أخرى ، تحرس الكونغو البلجيكي ضد روح الاستسلام ، التي أوشكت أن تتسلط عليهـــا من الشمال . وكان على ريكمان أن يحافظ الى اقصى حد ، على علاقات وثيقة بجارته الفرنسية في الضفة الأخرى من نهر الكونغو . ويمكن القول إن ذلـك كان أيضاً شأن زميليها الانكليزيين : بورديّون في نيجيريا وهدلستون في السودان . وحلّ تضامن شخصي بين حكام لاغوس ، ودوالا وبرازافيل ، وليوبولدفيل ، والخرطوم محل المنافسات والدسائس التي كـــانت تضع الجيران ، فيما مضى ، ضد بعضهم البعض . وكان لذلك التضامن وزنه الكبير في المجهود الحربي وأمان أفريقيا .

كان كل شيء في هذه الأثناء قد أُعدّ لإنهاء قضية الغابون . وكان لارمينا قد اتخذ جميع الاستعدادات الاوليـــة قبل وصولي الى دوالا . وكانت بضعة عناصر جُمّعت تحت إمرة المقدّم باران ، على أرض الكونغو ، قد تقدّمت حتى بلغت لامبارينه على ضفاف الأوغوبه . ولكنها صدّت بمقاومة من قوات فيشي . وفي الوقت ذاته ، وجّه من الكاميرون النقيب ديو رتلا صغيراً قـــاده بنفسه ، وحاصر مراكز ميتزيك . وفي لامبارينه وميتزيك احتكّ « الديغوليون » والفيشيّون ، وتبادلوا إطلاق القذائف ، وحجج القوة . وحدث في بعض المرات أن حلّقت طائرة « غلين –

مارتان ، قادمة من ليبرفيل ، فوق قواتنا وألقت بضع قنابل وكثيراً من النشرات . وفي اليوم التـــالي ردّت على المعارضين طائرة من طراز « بلوخ ٢٠٠ » قدمت من برازافيل . وما كانت هذه المعارك البطيئة المملّة والأليمة لتفضي الى حل .

وكان أن قررتُ ، منذ وصلت ، أن أنتزع ليبرفيل مباشرة وأقف خطة العمل . وما كان من المنتظر ، لسوء الحظ ، أن يشكّ أحد في أن مقاومة خطيرة لا بد أن تعترض قواتنا ، فقد كان لدى الجنرال تاتو *Têtu* المتمركز في ليبرفيل أربعة افواج من المدفعية ، وأربع قاذفات قنابل حديثة ، وسفينة الاستكشاف « بوغنفيل » والغواصة « بونسيليه » . واستطاع ان يعبّىء عدداً من المستوطنين . والمهمة التي أمر بهـــا ، من جهة أخرى ، فرضت عليه أن يقاتل . وطلبتُ الى السيد تشرشل ، منعاً له من تلقي النجدات ، أن يخطر فيشي أن الأسطول سيصد إنجاده ، عند الاقتضاء . وجاء الاميرال كننغهام غداة وصول برفيتي لمقابلتي في دوالا . واتفقنا أن لا تساهم سفنه مباشرة في عملية ليبرفيل ، وانما يقف في عرض البحر لمنع أهالي دكار من إرسال طراداتهم مجدداً اليها ، اذا كانت لديهم نيّة المغامرة بذلك . وكنا نواجه القضية من جانبنا ، بقلب مُثقل ، وأعلنتُ وسط الموافقة العامة ، ان لا يشهّر احد بأحد في تلك المناسبة الاليمة ، فكان الجميع على وفاق في ذلك .

وفي ٢٧ تشرين الاول ، سقط موقع ميتزيك في أيدينـــا . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ، ألقت حامية لامبارينيه السلاح . وأقلعت في الحال ، البواخر التي تقل الرتل من « دوالا » الى ليبرفيل . كان لوكلير يقود الجميع ، وكونيغ كان على رأس القوات البرية : فوج نظامي ، وفوج مستعمرات مختلط : سنغاليّون ، ومستوطنون في الكاميرون . وكان الإنزال في رأس « مونداه » ليلة ٨ تشرين الثاني ، ونشبت معارك

حامية في ٩ منه على مشارف المدينة . وفي اليوم ذاته حلقت عدة طائرات « ليزاندر » ، يشرف عليها المقدّم دي مارمييه ، كنا قد استقدمناها بصناديق من انكلترا ، وركبت بعجل في دوالا ، وألقت عدة قنابل . وفي تلك اللحظة دخل دارجنليو على ظهر « سافورنيان — دي برازا » ، تتلوها « كومندان — دومينه » ، مرفأ البلدة حيث كانت ترسو « بوغنفيل » . وراحت هذه الطرادة ، على الرغم من رسالات المودّة التي وجهناها اليها مراراً وتكراراً ، تطلق علينا نيرانها . وكان رد « برازا » عليها أن اشعلت فيها النار . وفي هذه الاثناء ، حطّم الجيش ، على ارض المطار ، مقاومة عناصر فيشي . واستطاع دارجنليو ان يوصل الى الجنرال « تانو » رسالة يناشده فيها وقف القتال ، وانتهى استسلام المحاربين ، واحتل كونيغ ليبرفيل . واستلم « باران » ، الذي عينته حاكماً للغابون ، مركزه . وبلغ عدد قتلانا ويا للأسف ، نحواً من عشرين .

وكانت الغوّاصة « بونسيليه » ، قد غادرت عشية ذلك اليوم بور — جنتي ، ولقيت في عرض البحر احدى طرادات كننغهام ، فقذفتها بلغم . وردّت الطرّادة بقنبلة عليها ، فارتفعت الغواصة الى السطح ، وفيما اخذ الانكليز يجمعون بحارتها ، عمد ربّانها الى خرقها وغرق معها ، ببسالة .

بقي احتلال بور — جنتي . وهذا ما تمّ في ١٢ تشرين الثاني ، بعد مفاوضات طويلة ، ولكن من غير مقاومة أبداها الموقع . والضحية الوحيدة لهذه العملية الاخيرة كان الحاكم ماسّون ، الذي كان قد انضمّ في شهر آب الى الغابون ، ثم رجع عن رأيه . ذلك ان هذا المسكين اعتصم بالطرادة « برازا » ، وقد أيأسه ضلاله ونتائجه ، بعد سقوط ليبرفيل ، وأبحر الى بور — جنتي برفقة العقيد كروشو ، رئيس أركان

تاتو ، ليطلب الى المحافظ والحامية ، أن لا يخوضوا بدورهم معركة يقتل فيها الأخ أخاه . ولكن السيد ماسّون ، وقد أرهقته المحن العصيبة التي مرّ بها ، شنق نفسه في غرفته خلال العودة .

ذهبت الى ليبرفيل في ١٥ تشرين الثاني ، والى بور - جنتي في ١٦ . وكان الشعور السائد لدى الأهالي ، الارتياح لخروجهم من مأزق أبله . وزرتُ في المستشفى جرحى المعسكرين ، الذين كانوا يعالجون جنباً الى جنب . ثم عملت على أن تمثل امامي وحدات فيشي ، فانضوت بعض العناصر الى فرنسا الحرة ، ولكن معظمها كان قد أعطى رئيسه كلام الشرف ، أن « يقيم على الولاء للمارشال » ، وهؤلاء فضّلوا ان يظلّوا محتجزين . كانوا ينتظرون لاستئناف الخدمة ، دخول افريقيا الشمالية الحرب ، ومنذ ذلك الحين أدّوا كعدد كبير غيرهم ، واجبهم بأمانة وبسالة . أما الجنرال تاتو فقد وكل امر ضيافته لآباء « الروح القدس » ، ونُقل من بعد الى برازافيل . ومن ثمّة ، ذهب هو ايضاً ، عام ١٩٤٣ ، الى عاصمة الجزائر .

وانفجر مذياع دكار ، وفيشي ، وباريس ، بشتائم الغضب ، بعد أن كان قبل بضعة أسابيع ، يبالغ في صرخات الظفر . ووُجهت اليّ التهمة ، اني قصفت ليبرفيل ، وأحرقتها ، ونهبتها ، فضلاً عن رمي أعيانها بالرصاص ، ابتداء من الأسقف : المونسنيور تاردي . ولاح لي أن أهل فيشي ، كانوا يريدون من اختراع أمثال تلك الأكاذيب ، ان يغطوا عاراً ما ، إذ كانوا منذ وقعة دكار ، قد اعتقلوا الطيّارين الفرنسيين الأحرار الثلاثة الذين سقطوا عزّلاً على ارض « اواكام » ، ثم اعتقلوا ايضاً بوالامبير ، وبيسّانيه ، وكاوزا الذين ارسلتهم الى المدينة ومن طرق خفية ، مع الدكتور برونل ، لينشروا فيها الكلم الطيب . ولم يستطع ان يعود من أولئك ، « المبعوثين » سوى الدكتور برونل ،

الذي تمكن ، بعد الحوادث ، من العبور الى غامبيا البريطانية . وقد جعلتني التهم التي قذفت بها دكار ، افكر انهم ربما كانوا يريدون الثأر بالانتقام من الاسرى . وبمقدار ما اقترحت على بواسون في سرية تامة ، مبادلة هؤلاء بـ « تاتو » وضباطه ، راحت امواج دكار تذيع في الحال خطوتي تلك ، مرفقة بشديد الإهانات والتحديات . وعند ذاك ، أخطرت المندوب السامي لفيشي ، ان لديّ كثيراً من اصدقائه استطيع ان اردّ بإعدامهم على إعدام الفرنسيين الاحرار الذين وضعهم في المعتقل . وخفتت لهجة المذياع المعادي في اللحظة ذاتها

ثم ان هنالك علامات مختلفة كانت تبيّن مدى الاضطراب ، الذي تلقى الحوادثُ به حكام فيشي ، فان ذلك النوع الثرثار الدنيء ، الذي غمستهم به الهدنة ، طفق يتبدد على عجل . فالعدو لم يضع نهاية لانكلترا ، خلافاً لما أعلنوه من قبل تبريراً لاستسلامهم ؛ وانضواء عدة مستعمرات الى ديغول ، من جهة أخرى ، ثم وقعة دكار ، وأخيراً وقعة الغابون ، اظهرت أنه اذا كانت فرنسا الحرة تحسن استخدام المذياع ، فانها أيضاً شيء مغاير كل المغايرة لـ «قبضة» من المرتزقة المتجمعين حول الميكروفون . وفجأة ، أخذ الناس يتطلعون في فرنسا الى ملاذ فرنسي خالص ، بينما وجد الألمان أنفسهم مكرهين على التحسب للمصاعب المتفاقمة التي تسببها لهم المقاومة . وكنت في أعماق افريقيا ، المح الهزات التي كان هذا الوضع قد أحدثها في تصرفات جماعة فيشي .

كان العنف هو الرد الذي ظهروا به ، في اليوم الذي تلا وقعة دكار ، اذ انطلقت من المغرب طائرات ألقت القنابل على جبل طارق . ولكن جاءت بعدها محاولة تهدئة في الحال . ووردتني برقيات من السيدين تشرشل وايدن تطلعني على المحادثات التي افتتحت في أول اكتوبر ، في مدريد ، بين السفير السيد دي لابوم وزميله البريطاني السير صموئيل هور .

وكان المراد الحصول من الانكليز على السماح لسفن الشحن القادمة من افريقيا بالمرور الى فرنسا ، وقد اعطت المانيا الضمانات بأن لا تستولي عليها . وصرح السيد دي لابوم ، عدا ذلك ، من قبل بودوان انه « اذا قبض العدو على هذه السلع ، فان الحكومة تنقل الى افريقيا الشمالية » وتعود فرنسا الى الحرب بجانب المملكة المتحدة » .

حذرتُ الانكليز ، في الوقت ذاته الذي أخذت به علماً بالاضطراب الذي تمّ عنه مثل تلك التصريحات ، فانه مما لا يفهم أن الأناس الذين وضعوا الدولة بأيديهم تحت شرعة العدو ودانوا الذين أرادوا محاربته ، يمكن أن يصبحوا فجأة أبطال المقاومة ، لأن الغزاة يريدون وضع اليد على بعض السلع زيادة عما كانوا يستولون عليه في كل وقت . والواقع أنه سرعان ما تبدد كل وهم تحت ضغط الألمان ، رغم الجهود التي بذلتها حكومة لندن لتشجيع فيشي في ترددها الطيبة التي كانت تظهر عليها ، ورغم الرسائل الشخصية الموجهة الى المارشال من ملك انكلترا ورئيس الولايات المتحدة ، ورغم الاتصالات التي قام بها الانكليز مع فيغان الذي تمركز في عاصمة الجزائر ، ومع نوغيس المقيم دوماً في المغرب ، ففي ٢٤ تشرين الاول تم لقاء بيتان وهتلر في مونتوار ، وأعلن التعاون رسمياً بين فيشي والعدو . وأخيراً ، وضعت فيشي حداً لمفاوضات مدريد في الأيام الاولى من تشرين الثاني .

أصبحت لديّ بعد اليوم ، أسباب أكيدة تجعلني أتنكر ، نهائياً ، لحكام فيشي وتخولني الحق المشروع في أن أنشىء نفسي وكأنني المدبر لمصالح فرنسا ، وأن أمارس في الاراضي المحررة ، صلاحيات حكومة . وبهذه السلطة المؤقتة كمبدأ وكغاية قدّمتُ : الجمهورية بإعلان طاعتي وتبعتي تجاه الشعب السيد ، وتعهدي علانيةً بأن اقدم حسابات في اللحظة التي يسترد بها حريته . وحددت في أرض فرنسية ، في برازافيل ، يوم

٢٧ تشرين الاول ، هذا الوضع القومي والدولي ، في بيان ، وأمرين ، وتصريح عضوي ، يؤلف مجموعها ميثاق عملي الشخصي . وأعتقد أني لم أخلّ به حتى ذلك اليوم وهو ضمن المدة الذي وضعت به في ايدي الممثلين الوطنيين ، بعد خمس سنوات ، تلك السلطات التي مارستها . ثم اني أنشأت ، من جهـة اخرى ، مجلس دفاع الامبراطورية ، وكان القصد منه ان يعينني بآرائه ، والذي ادخلت فيه اولاً كاترو ، وموزيليه ، وكاسّان ، ولارمينـا ، وسيسه ، وسوتو ، ودارجنليو ، ولوكلير . وأخيراً ، وجّهت مذكرة يوم الخامس من تشرين الثـاني الى الحكومة البريطانية ، كانت قراراً نهائياً ، بالموقف الذي تتخذه فرنسا الحرة ، وتدعو حلفاءها الى اتخاذه ازاء حكومة فيشي وممثليها ، مثل فيغان او نوغيس ، الذين جهد نفر من المتفائلين ، القـاصري النظر في بثّ الاعتقاد انهم سينتقلون يوماً ما الى العمل ضد العدوّ .

واذا كانت خطتنا الافريقية بمجموعها ، لم تبلغ جميع الاهداف التي رمت اليها ، فقد وضعت على الاقل ، قاعدة مجهودنا الحربي على أسس وطيدة ، من الصحراء ، الى الكونغو ، ومن الاطلسي الى حوض النيل . وفي الأيام الاولى من تشرين الثاني ، وضعتُ القيادة التي تدير العمل في مكانها ، فكان ايبويه المعيّن حاكماً عاماً لافريقيا الاستوائية الفرنسية مقيماً في برازافيل ، ومعه مارشان بوصفه قائداً للجيوش . واستدعيّ « لابي » من لندن ، وأصبح حاكماً لتشاد ، ومحـافظ كورناري حاكماً للكاميرون ، حل محل لوكلير . وهـذا أرسل الى تشاد ليقود العمليات الصحراوية ، حيث تعرّف على نحو قاس ومؤثر الى الجد ، رغم الاعتراضات التي كانت تمليها عليه رغبته في متابعة ما بدأ بـه في دوالا . وأخيراً ، كان على لارمينا ، ان يقود هـذا المجموع كله ، مندوباً سامياً ذا سلطات مدنية وعسكرية .

وقبل أن أذهب إلى لندن ، أصدرت معه قراراً بخطة العمل خلال الأشهر القادمة . وكان القصد تركيز الغارات الموترة الأولى ، والجوية ضد « مرزوق » و « كفرا » من جهة ، وإرسال لواء مختلط الى اريتريا من جهة ، مع سرب من طائرات القصف التي تساهم في المعارك الناشبة ضد الايطاليين . وستكون هذه الحملة الأخيرة بداية التدخل الفرنسي في معركة الشرق الاوسط . ولكن كان يجب ايضاً تجنيد العناصر التي تذهب الى هناك ، ووضع ملاكاتها ، وتسليحها ، وتقوية هذه الطلائع مع الزمن في الصحراء ووادي النيل . ولا سبيل إلى تصور ما يقتضيه ذلك من جهود في مساحات وسط افريقيا الشاسعة ، والمناخ الاستوائي ، والتعبئة والتدريب ، والتجهيز ، والنقل ، لقوات كنا نريد أن تقف على اقدامها ، ونرسلها إلى تلك المناطق النائية . ولا سبيل إلى قياس معجزات النشاط التي سعى الجميع في تحقيقها .

وفي ١٧ تشرين الثاني ، تركت افريقيا الفرنسية الحرة إلى انكلترا ، عبر لاغوس ، فريتاون ، باثورست وجبل طارق . وفيما كانت الطائرة تقطع الأوقيانوس تحت مطر الخريف ، استدعيت في ذهني التعاريج المرهقة التي كان على الفرنسيين المحاربين أن يمروا بها بعد اليوم ، في هذه الحرب العجيبة ، ليتعقبوا الألماني والايطالي ، ورحت اقيس العراقيل الكبرى التي تسد عليهم الطرق والتي ينصبها امامهم — ويا للأسف — فرنسيون آخرون . غير أني تشجعت ، في الوقت نفسه ، حين فكرت في الحماسة التي تثيرها القضية الوطنية في اوساط اولئك الذين وجدوا انفسهم احراراً ليقوموا بنجدتها . فكرت فيما تنطوي عليه من إثارة لنخوتهم ، مغامرة تشمل أبعادها الارض كلها . وأية كانت قسوة الوقائع ، فإن في مستطاعي أن اسيطر عليها ، ما دام في امكاني ، كما يقول شاتوبريان : « أن أقتاد الفرنسيين فيها بالأحلام » .

لندن

كان الضباب في لندن يغلّف النفوس ، في مستهل هذا الشتاء . وجدت الانكليز حزانى متوترين . لا ريب أنهم كانوا يحسبون باعتزاز ، انهم ربحوا المعركة الجوية ، وأن أخطار الغزو بعدت كثيراً عنهم . ولكن بينما كانوا يرفعون أنقاضهم ، أخذت تنصب عليهم وعلى حلفائهم المساكين ، هموم أخر .

كانت حرب الغواصات حامية الوطيس . والشعب الانكليزي يشهد بقلق متزايد ، غـواصات الألمان وطائراتهم وغاثراتهم ، تعمل في تخريب سفنه التي يتعلق عليهـــا مجرى الحرب ، وحتى معدّل حصص المواد الغذائية . ولم يبق من شغل شاغـل للوزراء والمصالح ، سوى « حمولة السفن » . وأصبح مقدار الحمولة فكرة تلاحق الجميع ، وطاغية تهيمن على كل شيء . فحياة انكلترا وبجدها يتمرضان ، كل يوم ، للخطر في البحر .

وبدأت في الشرق العمليات الناشطة . وقـد أصبح المتوسط ، غداة انحراف فيشي ، غير قابل لعبور القوافل البريطانية البطيئة . وكان على القوات والعتاد التي ترسلها لندن إلى مصر أن يمرا برأس الرجاء الصالح ، تبعاً لطرق بحرية طويلة طول نصف الارض . وما كان يرسل من الهند أو استراليا وزيلاندة الجديدة ، لم يكن يصل إلا بعد قطع مسافات لا نهاية لها . ثم إن ركام المواد ، والتسلّح ، والتموين — ٦٠ مليون طن عام ١٩٤١ — التي كانت تستوردها انكلترا لصناعتها واسلحتها وسكانها ،

لم يكن في الامكان أن يأتيها إلا من أقاصي اميركا وافريقيا او آسيا . وذلك يقتضي حمولة غاية في الضخامة ، من الاطنان تبحر في طرق ملتوية ذات مسافات شاسعة تنتهي في مرفأين ضيقين : مرسي *Mersey* وكلايد ، وتقتضي وسائل مواكبة كبيرة .

كان قلق بريطانيا يزداد حدة وثقلاً كلما بدا أن ليس في الافق ، من أي جهة ، انفراج ينفتح عن آمال مسعدة . وعلى العكس مما كان يأمل كثير من الانكليز أن يؤدي قصف مدنهم وانتصار سلاح الجو الملكي إلى حمل اميركا على اتخاذ قرار بدخول الميدان ، فإن شيئاً من ذلك لم يحدث . ومن المؤكد أن الرأي العام في الولايات المتحدة كان يكره هتلر وموسوليني . ثم ان الرئيس روزفلت ، أخذ منذ اعيد انتخابه في ٥ تشرين الثاني ، من جهة أخرى ، يحث الخطى في دبلوماسيته وتصريحاته العامة ، وجهده نحو جر اميركا الى التدخل . ولكن الحياد ظل موقف واشنطن الرسمي ، وهو الذي يفرضه القانون ، في جانب آخر . ثم كان على الانكليز ، خلال ذلك الشتاء المظلم ، أن يدفعوا ثمن مشترياتهم من الولايات المتحدة بالذهب والنقد النادر . وكان حتى العون اللامباشر الذي توفره لهم براعة الرئيس البهلوانية ، موضع سخط دفين وتقطيب لا يبين في الكونغرس والصحافة . وخلاصة القول إن الانكليز كانوا يرون ساعتهم تقترب ، ولا يستطيعون بها تلقي ما يلزمهم للقتال ، لنقص في الوسائل ، وهم يقومون بدفعات تفرضها حاجاتهم .

ولم يظهر من جانب روسيا السوفياتية أدنى صدع في السوق التي كانت تربطها بالرايخ ، بل كان العكس ، فإن اتفاقاً تجارياً جرمانياً – روسيا عقد في شهر كانون الثاني (يناير) ، بعد رحلتين قام بهما مولوتوف إلى برلين ، وكان من شأنه أن أعان ألمانيا إعانة كبرى على

التموين . ووقعت اليابان ، من جهة أخرى ، في تشرين الأول ١٩٤٠ ، الميثاق الثلاثي معلنةً تضامنها التهديدي مع برلين وروما . وبدا في الوقت نفسه أن وحدة أوروبا في ظلّ الزعامة الألمانية قد تحققت . وفي تشرين الثاني انحازت المجر (هنغاريا) ورومانيا وسلوفاكيا إلى المحور . والتقى فرنكو مع هتلر في سان ـ سيباستيان ، ومع موسوليني في بورديغيرا . وأخيراً ، لم تكن فيشي من القدرة بمنزلة تملك معها الحفاظ على أسطورة الاستقلال التي منحتها إياه الهدنة ، فدخلت طور التعاون الفعلي مع الغزاة .

وإذا كان الأفق في الخارج مربداً ، فإن في الداخل أعباءً ثقالاً كانت ترهق الشعب البريطاني ، إذ كان من أمر التعبئة العامّة أن زجت عشرين مليوناً من الرجال والنساء في الجيوش ، والمصانع ، والحقول ، والمصالح العامة ، والدفاع المدني . وكان الاستهلاك للجميع جدّ محدود ودقيق ؛ وصرامة المحاكم الشديدة تفصل لتوها في كل حساب مع عملاء السوق السوداء . ثم إن غارات العدو الجوية لم تنقطع ، وإن كان لا يهدف بعدُ إلى نتائج حاسمة ، وراح يخلق الارتباك في الموانىء ، والصناعة ، وسكك الحديد ، ويسحق بغتة : كوفنتري ، ومدينة لندن ، وبورتسموث ، وسوذامبتون ، وليفربول ، وغلاسكو ، وسوانزيا ، وهل ، إلخ ... قابضاً على أنفاس السكان طيلة ليالٍ وليالٍ ، مرهقاً أعصاب هيئات الانقاذ والدفاع ، مكرهاً زمر الساكين على ترك أسرّتهم ليوغلوا في عتمة الأقبية والملاجىء ، فضلاً عن محطات المترو في لندن. كان الانكليز في ختام هذه السنة ١٩٤٠ ، يشعرون وقد حوصروا في جزيرتهم أنهم في أحلك نقطة من النفق .

لم يكن من شأن هذه الارزاء التي نزلت بالبريطانيين ، على كثرتها ، أن تُيسّر علاقاتنا بهم ، فهم ، وقد استغرقوا في مشاغلهم ، تبدو لهم

مشكلاتنا في غير وقتها ، وكانت نزعتهم إلى امتصاصنا ، عدا ذلك ، تقوى وتشتد بمقدار ما كنا نحقق شؤوننا . فقد كان من الأيسر عليهم ، في الواقع ، من الوجهة الادارية والسياسية ، أن يعاملوا الفرنسيين الأحرار كعناصر مندمجة بالقوات الانكليزية ومصالحها ، أكثر من اعتبارهم إياهم حلفاء ذوي مطامع ومطالب . ويضاف إلى ذلك خلال تلك الفترة التي أخذت بها الحرب تستقر ، وراح القحط يتفشى ، أن الاوساط الحاكمة في لندن ، لم تكن تميل كثيراً نحو التجديد ، ولا حتى نحو الحسم في الأمور ، فقد كان أركان الحرب والوزراء يمارسون بطبيعتهم ، في خضم المشكلات المستعصية ، نظام المسائل المعلقة وتنازع الصلاحيات ، بينما كانت الحكومة تلاقي العناء الشديد لتتفق على اتخاذ قرارات ، وهي تحت نيران النقد التي يسلطها عليها البرلمان والصحافة . لقد قال لي تشرشل ذات يوم : « هل تعرف ما هو التحالف . أجل ! الوزارة البريطانية نمط منه » .

ومع ذلك ، كانت حاجة فرنسا الحرة إلى كل شيء ، ملحة . كانت الضرورة التي لا مناص منها تقتضينا أن نحصل من الانكليز على ما لا غنى عنه ، ونحتفظ في الوقت نفسه تجاههم باستقلال حازم ، بعد ارتجالات الصيف والخريف ، وقبل البدء بالمشروعات الجديدة التي قررت السير بها في الربيع . وقد نشأ عن هذا الوضع كثير من المشادات .

وكانت طبيعة منظمتنا المتحركة ، المتعددة العناصر تبرر إلى حد ما ، حيطة البريطانيين بمقدار ما تيسر في الوقت ذاته تدخلاتهم . كان من المستحيل على فرنسا الحرة المجندة على عجل رجلا رجلا ، أن تجد توازنها الداخلي سريعاً ، فقد كانت كل واحدة من مؤسساتها في لندن : الجيش ، البحرية ، الطيران ، المالية ، الخارجية ، إدارة المستعمرات ، الإعلام ، الارتباطات مع فرنسا ، تتكون وتؤدي عملها برغبة كبرى

في الاتقان . ولكن الخبرة والتماسك كانا يعوزانها على نحو قاس مرير ، وعدا ذلـــك ، كانت روح المغامرة لدى بعض الشخصيات أو ببساطة ، إنعدام استعدادهم للإذعان إلى قواعد الخدمة العامة والتزاماتهـا ، يخلق هزات شديدة للجهاز ، ويطبعه بطابعه . هكذا حدث أثناء إقامتي في أفريقيا ، أن ترك أندره لابارث إدارتنـا ، واصطدم الأميرال موزيليه وذوي المصالح الأخرى . وجرت في « كارلتون غاردنز » مشادّات حادّة بين أشخاص ، ومآســـهزلية في المـكاتب ، افتُضح بها متطوّعونا ، وأقلقت حلفاءنا .

شرعتُ منذ عودتي في نهاية تشرين الثاني ، بوضع الأمور والأشخاص في مواضعها . ولكنني ما كدت أبدأ إعادة التنظيم هذه ، حتى وجدت نفسي أسيرَ خطأٍ فادحٍ أرتكبته الحكومة البريطـانية ، وكانت نفسها ضحية تضليل اقترفه رجال « الانتليجانس » .

والواقع أن حتّى الحصار التي شغلت انكلترا آنذاك ، جعلتها مرتعاً لأفراد الاستخبارات وأعضاء الأمن العـام ، و « الانتليجانس » الذي هو للانكليز ولعٌ بقدار مـــا هو خدمة ، لم يغفل بالطبع ، عن مدّ شباكه في اتجاه فرنسا الحرّة . وكان أن استخدم لذلـك أناساً ملهمين وآخرين أغبياء دفعة واحـــدة . وموجز القول ان الوزارة الانكليزية عمدت فجأة ، بإيعاز من عملاء غير مرغوب فيهم ، إلى إثخـان فرنسا الحرة ، بجراح أوشكت أن تكون ذات نتائج سيئة .

كنت مساء اليوم الأول من كانون الثاني في شروبشاير مـــع ذويّ وأقاربي ، وإذا بالسيد إيدن يطلبني بإلحـاح لمقابلته وعلى وجه السرعة في الفورين أوفيس (وزارة الخارجية البريطانية) ، حيث حلّ مؤخراً محلّ اللورد هاليفاكس الذي عين سفيراً في الولايات المتحدة . وفي صباح اليوم التالي ذهبت رأساً لمقابلته ، وأظهر وهو يستقبلني علامات انفعال

شديد ، وقـــال لي : « حدث ما يُرثى له ، فقد ثبت لدينا أنّ الأميرال موزيليه على علاقة سرية بفيشي ، وأنه حـاول أن ينقل إلى دارلان خطة الحملة على دكار في اللحظة التي كانت تُعَدّ بهـــا ، وأنه ينوي أن يسلّمه « سركوف » . ومذ أُعلم الوزير الأول أصدر أمراً باعتقال الأميرال . ووافق مجلس الوزراء البريطاني على ذلك . موزيليه إذن معتقل . ولا تخفي الاثر الذي ستحدثه هـــذه القصة المزعجة في نفسك ، كما أحدثته في أنفسنا ، ولكن كان من المستحيل علينا أن نتمهّل قبل العمل » .

وأظهر لي السيد إيدن ، عند ذاك ، الوثائق التي استند إليهـــا الاتهام . وكانت عبارة عن مذكرات مكتوبة بالآلة في أعلاهـا ومعها ختم قنصلية فرنسا في لندن ـ التي مـا زال يشغلها موظف من فيشي ـ وموقعة في الظاهر من الجـــنرال روزوي الذي كان رئيس البعثة الجوية سابقاً ، وأعيد مؤخراً إلى بلده . وهذه المذكرات تبين معلومات يقال إن الأميرال موزيليه زوّد بها روزوي . وعرف أن هذا كان قد نقلها إلى مفوضية دولة من جنوب أميركا في لندن ، ومن هنـــاك وصلت إلى فيشي . ولكن افراداً حـاذقين من « الانتلايجانس » قطعوا الطريق ، حسب رواية إيدن ، على الوثائق ، وأضاف : « كان من السلطات البريطانية ، ويا للأسف ! ، أن اقتنعت بصحة أصالتهـــا ، بعد تحقيق دقيق » .

شعرت في الحال ، وإن أذهلتني المفاجأة لأول وهلة ، أن « الكأس كان فعلاً ، حاراً » ، وأن الأمر لا يمكن أن يتعدّى كونه خطأً فادحاً ناشئاً عن مكيدة . وأعربت عن ذلـك بوضوح للمستر إيدن ، وقلت له إنني سأرى بنفسي ما يمكن أن يكون منها ، وإنني اسجل تحفظاتي كلها ، بانتظار الحقيقة ، على هذه القصة الخارقة .

لم يذهب بي الظن أثناء ذلك ، إلى التصور لأول وهلة ، أن القضية يمكن أن تكون ملفقة تحت ستار مصلحة بريطـــانية ، فعزوتها إلى فيشي . ألا يجوز أبداً أن يكون موالوهـــا قد فبركوا هذه القنبلة الموقوتة وتركوها في انكلترا ؟ وبعد ثمان وأربعين ساعة من الاستعلام والتفكير ذهبت إلى الوزير الانكليزي ، وصرحت له بما يلي : « الوثائق ُمريبة الى أبعد غايات الريب . سواء في سياقهـا ومصدرها المفترض . وفي جميع الأحوال ، هذه ليست أدلة . وما من شيء يبرّر الاعتقال المهين لنائب اميرال فرنسي . ثم إن هذا لم يُستجوب ، من جهة أخرى ، وانا شخصياً لا املك إمكانية مقابلته . كل ذلك مما لا يمكن تبريره . يجب الآن ، على الأقل ، ان يخرج الأميرال موزيليه من السجن ، وان يعامل بشرف إلى ان يلقى النور على هذه القصة المظلمة » .

لم يقبل المستر إيدن ، وإن بدا مرتبكـاً ، ان يقوم بما يرضيني ، زاعمـــاً جدية التحقيق الذي قامت به المصالح البريطانية . واكدت احتجاجي برسالة ، ثم بمذكرة . وقمت بزيارة للأميرال السير ددلي باوند اللورد الأول للبحـار ، واعدت إلى ذهنه الصفة الدولية للأميرالات ، ودعوته إلى التدخل في هذا النزاع المشين الذي زُجّ به احـد انداده . وظهرت على موقف السلطـــات البريطانية ، عقب خطواتي ، بعض الذبذبات . وهكذا ، حصلت ، كما كنت قد طلبت ، على مقـــابلة موزيليه في اسكوتلنديارد ، لا في زنزانة ، بل في مكتب من غير حرس ولا شاهد ، لأظهر للناس كلّهم ، واقول له : إنني رفضت التشهير الذي كان ضحية له . واخيراً كانت هناك إشارات شتى حملتني على التفكير بشخصين ادعيا اثناء إقامتي في افريقيـا بـ « مصلحة امننا » ، تلبّسـا بلباس فرنسي ، ولكنهما لفقا القصة بإلحاح من الانكليز ، فطلبت مثولهما بين يدي ، واقتنعت لمشهد ذعرهمـــا انّ الأمر بكل تأكيد ، « قصة انتليجانس » .

واستدعيت الجنرال سبيرز في ٨ كانون الثاني ، وبينت بصراحة يقيني المثبت ، وصرّحت له أنني أعطي الحكومة البريطانية مهلة اربع وعشرين ساعة لإطلاق سراح الأميرال والتعويض عليه ، وإلاّ فإن جميع العلاقات بين فرنسا الحرة وبريطانيا العظمى تقطع ، أية كانت النتائج لقطعها . وجاءني سبيرز في اليوم نفسه ، وهو مرتبك ، ليقول لي إن السلطة أقرت بالخطأ ، وإن « الوثائق » لم تكن إلا زوراً ، وأن المذنبين أقرّوا ، وأن موزيليه خرج من السجن . وزارني النائب العام في اليوم التالي ، وأخبرني أن الملاحقات القضائية أخذت تجري في مجراها ضدّ مدبري المكيدة ، وعلى الأخص ضد عدة ضباط بريطانيين ، ورجاني أن أعيّن من يتابع باسم فرنسا الحرة ، التحقيق والدعوى . وهذا ما فعلته . وبعد الظهر ، لقيت في داونتغ ستريت ، السيدين تشرشل وإيدن جد منزعجين واعربا لي عن اعتذار الحكومة البريطانية ووعدها بالتعويض على موزيليه عما وُجّه اليه من إهانة . ويجب ان اقول إن هذا الوعد أنجز ، وكان تغيّر موقف الانكليز والأميرال كما ظهر من بعد ، غاية في التمام حتى بدا متطرّفاً ، على نحو ما سنرى في المستقبل .

لا أخفي ان هذا الحادث الأليم كان ذا تأثير في فلسفتي بما يجب ، ولا ريب ، ان تكون عليه علاقاتنا مع الدولة البريطانية ، إذ ابرز ما كان على الدوام واهياً في موقفنا تجاه حلفائنا . غير ان نتائج الشرّ لم تكن ، في الواقع الراهن ، مع ذلك ، جميعها سيئة ، ولأن الانكليز رغبة منهم ولا شك ، في التعويض عن خطئهم ، اظهروا انهم اكثر استعداداً للبحث معنا في القضايا المعلقة .

هكذا وقّعتُ ، في ١٥ كانون الثاني ، مع المستر إيدن إتفاق « ولاية شرعية » على الفرنسيين الأحرار في الأراضي البريطانية ، ولا سيما بصلاحيات محاكمنا الخاصة التي تعمل « وفقاً للتشريع العسكري الوطني » .

واستطعنا من جهـــة اخرى ، ان نفتح مفاوضات تتعلق باتفـاق مالي واقتصادي ونقدي مـع الخزينة الانكليزية . وكلف كاسان ، وبليفن ، و « ديني » من قبلنا للقيام بهذه المفاوضات التي انتهت في ١٩ آذار (مارس) .

كانت المشكلات التي ينبغي ان نحلها بهذا الخصوص ، معقدة لدرجة تقتضي ان نخرج من نظام الوسائل التي تفرضها الظروف . وكيف لنـا ان ننعش البلدان المنضمة في افريقيا واوقيانيا ككل ، نحن الذين لا نزال بلا مصرف ، ولا نقد ، ولا مواصلات ، ولا ادوات بث ، ولا تمثيل تجاري معترف به في الخارج ؟ كيف نصون قوات فرنسا الحرة الموزعة في جميع انحاء العالم ؟ كيف لنا ان نحذف قيمة الاعتدة والخدمات التي كان يزودنا بها حلفاؤنا من تلك التي نزودهم بها ؟ لقد وضع في نصوص الاتفاق ان كل نظام ، أياً كان غرضه ، يجري تنفيذه في لندن بين الحكومة الانكليزية والجنرال ديغول ، ولا يُدبَّرُ ابداً مع السلطات المحلية الفرنسية حسب الظروف والمصادفات ، وكان معدل الصرف المتفـــق عليه ١٧٦ فرنكاً مقابل الليرة الواحدة ، اي ان هذا هو المعدل الذي كان ساري المفعول قبل الهدنة المعقودة مع فيشي .

وأخذاً بالسياسة نفسها ، أسسنا بعد ذلك بقليل « الصندوق المركزي لفرنسا الحرة » وكان على هذا الصندوق ان يقـوم بجميع المدفوعات : اجور ، رواتب ، مشتريات ، الخ ... وان يتلقى جميع المقبوضات : حصص اراضينا ، سلفات الخزينة البريطانية ، هبات فرنسيي الخارج ، الخ ... واصبـح من جهة اخرى ، المصرف الوحيد للاصدار التابـــع لفرنسا الحرة في كل مكان من العالم . وهكذا ، بينما كان الانضواء الى ديغول يربط معنوياً بين جميع عناصرنا ، اصبحت ادارة هـذه العناصر هي ايضاً ، متمركزة على نحو وطيد . ونشأت وحدة شملت مجموعـــة كانت مـع ذلك مرتجلة ومشتتة الى اقصى حد ، اذ لم يكن قط بيننا

إقطاعيات مالية واقتصادية ، ولا سياسية وعسكرية ، وامتنعت انكلترا في الوقت نفسه عن كل تدخل محلي بالوسائل المالية .

غير أننا كنا مع ذلك نفكر اكثر ما نفكر في الوطن الام ، ونحن نوطد قاعدتنا وراء البحار . ما نعمل بذلك الوطن ؟ وكيف ؟ وبماذا ؟ اذا لم يكن تحت تصرفنا ايـة وسيلة للعمل في فرنسا ، ولم نكن حتى لنرى من اي طرف نتناول المشكلة ، فإن ذلك ما كان ليحول ، على الاقل ، دون مخيلتنـا والتفكير في اوسع المشاريع ، آملين ان تشارك البلاد فيها مشاركة كثيفة شاملة . وما كنا لنتخيل اذن اقل من منظمة تتيح لنا دفعة واحدة ، إلقاء النور على عمليات الحلفاء بفضل معلوماتنا عن العدو ، وبعث مقاومة على ارض البلاد ، في جميع المجالات ، وتجهيز قوات تشترك ، حين يأتي الأوان ، في معركة التحرير خلف المؤخرات الالمانية ، واخيراً إعداد التجمع الوطني الذي يعيد الى البـلاد سيرها الطبيعي ، بعد الانتصار . واردنا كذلك ان تكون هذه المساهمة المتعددة الجوانب ، مزودة بفرنسيين مـن ذوي المجهود الحربي المشترك ، وان يكون هذا المجهود لمصلحة فرنسا ، لا موزعاً ابداً ، بين خدمات أديت مباشرة للحلفاء .

ولكن هذا الصعيد للعمل السري كان بالنسبة لنـا جميعاً ، شيئاً جديداً كل الجدة . فما من شيء قط ، كان قد أعد في فرنسا لمواجهة الموقف الذي وصلت اليه البلاد . وكنـا نعلم ان دوائر الاستخبارات الفرنسية كانت تتابـع بعض النشاط ، في فيشي . وكنا نعلم ان هيئة اركان الجيش كانت تحاول ان تسحب من لجان الهدنة بعض الاعتدة . وما كنـا نشك في ان عناصر عسكرية مختلفـة كانت تحاول اتخاذ الاستعدادات اخذاً منهـا بفرضية استئناف القتال . ولكن هذه الجهود المجزأة كانت تبذل خارج دائرتنـا ، لحساب عهد يتكون مبرر وجوده

على وجه الدقة ، من عدم استعمال تلك الجهود ، وان لا يكون لسلّم الرتب العسكرية ابداً اي مسعى او قبول ، بأقل اتصال مع فرنسا الحرة. وموجز القول إنه لم يكن في الوطن الأم شيء ما ، يمكن ان يستند اليه عملنا . كان الواجب يقضي ان نستلّ من العدم الخدمة التي تعمل في ذلك الميدان الرئيسي من ميادين العراك .

لم يكن حولي نقص في عدد المرشحين ، بكل تأكيد . فقد حدث ان كان ، بضرب من نبوءة غامضة للطبيعة ، عام ١٩٤٠ ، جزءٌ من الجيل الراشد ُوجّه من قبل نحو العمل السري . والواقع ان الشبيبة اظهرت ، في فترة ما بين الحربين ، ميلاً لقصص المكتب الثاني ، والخدمة السرية ، والشرطة ، فضلاً عن ميلها إلى الضربات المفاجئة والمؤامرات . وكانت الكتب ، والصحف ، والمسرح ، والسينما ، قد عنيت عناية واسعة بمغامرات الأبطال الخياليين ـ الخياليين كثيراً او قليلاً ـ الذين كانوا يجودون بالبطولات ، في الظل ، خدمة لبلادهم . وكان من شأن هذه النفسية ان تسهل تجنيد البعثات الخاصة . ولكنها كانت تنطوي ايضاً على خطر ، هو إدخال الرومنطيقية على تلك البعثات ، والخفة ، والتلصص احياناً ، مما يشكل عقبات كأداء . ولن يكون ثمة مجال تكثر فيه طلبات الاستخدام كهذا المجال ، ولكن على الرجال الذين يكلّفون فيه بالأعمال ان يقدموا الدليل على جديّة اكثر ، وجرأة اكبر في الوقت ذاته .

وقد وجد ، لحسن الحظ ، طيّبون من هؤلاء . وكان المقدم ديوافران ، الملقب بـ « باسي » ، رئيسهم . وما من شيء أعَدّ باسي لهذه المهمة التي لا سابقة لها . ولكن كان ذلك في نظري ، افضل . إذ لم يكد يعيّن ، من جهة اخرى ، حتى استولت عليه مهمته بضرب من الولع البارد كان من شأنه ان سدد خطاه في مسالك مظلمة حيث وجد نفسه

منخرطاً في كل ما كان حسناً وكل ما كان سيئاً . ولقد قبض باسي على دفة الزورق في عباب القلق الطامي ، والدسائس ، والوان الإخفاق ، خلال المأساة اليومية التي كانت هي العمل في فرنسا ، يؤازره مانويل ، ومن بعد فاللون ، وريبو ، وبيير بلوخ ، الخ ... واستطاع هو نفسه ان يقاوم القرف ويتحامى المباهاة ، وهما الابليسان الحديثان لمثل ذلك النوع من النشاط . وذلك هو السبب الكامن وراء احتفاظي بباسي في منصبه عبر الزعازع والاعاصير ، اية كانت التغييرات التي كانت تطرأ على « المكتب المركزي للاستخبارات والعمل » ، مع تراكم التجارب .

كان المطلب الاكثر إلحاحاً ، ان نركز في ارض الوطن نواة منظمة . وكان الجانب البريطاني يريد ان يرانا نرسل فقط عملاء مكلفين بأن يلتقطوا ، منفردين ، معلومات تتعلق بأغراض محددة ، على حساب العدو . تلك هي الطريقة المتبعة في الجاسوسية . غير أنا كنا ننوي عمل ما هو افضل من ذلك ، فما دام العمل في فرنسا سيأخذ في الانتشار وسط الناس تتدفق فيهم الارادات الطيبة ، كما نرى ، فإن ما كنا ننوي تكوينه ، هو الشبكات السرية . وهذه ترتبط فيما بينها بعناصر منتخبة ، وتخابرنا بوسائل متمركزة ، وتحصل على افضل النتائج . وكان الذين قاموا بالتجـــارب الاولى : ايتيين دورف ودوكلو ، نزلا على شاطىء المانش ؛ فوركو وفيل كوريل عبرا بإسبانيا ؛ روبير ومونتّييه قدما من تونس إلى مـالطة وأعيدا الى افريقيا الشمالية . وبعد هؤلاء ، بقليل ، بدأ ريمي بدوره ، هذه المهنة كعميل سري ، وبهـــا اظهر ضرباً من العبقريـــة

وحينذاك بدأ الصراع في ذلك الميدان الذي ظلّ حتى ذلك الزمن مجهولاً . ولكن بعد اشهر ، او هلال بعد هلال ، بتعبير اوضح ، لأن كثيراً من العمليـــات كانت تتوقف على كوكب الليـــل ، شرع

الـ .B.C.R.A (المكتب المركزي للاستخبارات والعمل) في نشاطه : تجنيد المحاربين للحرب الخفية ؛ اوامر تصدّر للبعثات ؛ تقارير للنشر والدرس ؛ نقليات على زوارق ، وغواصات ، وطائرات ؛ تسللات عبر البرتغال وإسبانيا ؛ نزول مظليين ؛ اتصالات مع ذوي النيات الطيبة في فرنسا ؛ ذهاب وإياب المفتشين وضباط الارتباط ؛ البث بمحطات راديو ، وانواع البريد ، والعلامات المتفق عليها ؛ الشغل مع المصالح الحليفة التي كانت تصوغ مطالب اركانها العامة ، وتزوّد بالعتاد ، وتسهّل ، حسب الحالات ، او تعقد الامور . واتسع العمل من بعد حتى شمل الفئات المسلحة في الاراضي وحركات المقاومة ذات النشاطات المتعددة . غير اننا لم نكن بعد قد وصلنا إلى ذلك ، خلال هذا الشتاء المظلم .

كان علينا ، ونحن ننتظر ، ان نمارس مع الانكليز « طراز معيشة » يسمح للـ .B.C.R.A (المكتب المركزي للاستخبارات والعمل) بأداء وظيفته على ان يظل وطنياً . وكان ذلك رهاناً حقيقياً . والاكيد ان البريطانيين كانوا يدركون مدى الفوائد التي يمكن ان تعود به عليهم المعونات التي يمدّهم بها الفرنسيون من ناحية الاستعلامات ـ وهي الناحية الوحيدة التي كانت تهمهم اولاً ـ . ولكن المعونات المباشرة هي ما كان يسعى وراءه الانكليز المختصون قبل كل شيء ؛ وابتدأت إذن في الحال ، منافسة حقيقية : كنا نحن ندعو الفرنسيين ان لا يندمجوا في خدمة المصالح الاجنبية اداء للواجب المعنوي والقانوني ، والانكليز يستخدمون وسائلهم في محاولة الحصول على عملاء ، ثم على شبكات لهم خاصة .

ما كان لفرنسي ان يصل الى انكلترا ، الا ويحدد له « الانتليجانس » غرفة في « الباتريوتيك سكول » ، هذا ان لم يكن شهراً ، ويدعوه الى الانخراط في الخدمات السرية البريطانية . ما كان يُخلّى ليلتحق بنا الا بعد سلسلة من الوان الضغط والاغراءات . واذا حدث ان اذعن

ُعزل عنا فلا نراه بعد ابداً . وكان الانكليز في فرنسا نفسها يستخدمون التباس الالفاظ لتجنيد مساعديهم ، ويشيعون هذه الاشاعة : « ديغول وبريطانيا العظمى هما شيء واحد » . اما الوسائل المادية التي تخضع بها كلياً على وجه التقريب ، لحلفائنا ، فاننا لم نكن نحصل عليها احياناً الا بعد مساومات مرهقة . ولا يخفى ما تسوق اليه هذه الطريقة في المعاملة من مماحكات . صحيح ان الانكليز كانوا ، اغلب الاحيان ، يلامسون الحد ، ولا يتجاوزونه ابداً . لقد كانوا في اللحظة التي يريدون بها التدخل يمدون اصابعهم ثم يرجعونها جزئياً على الاقل ، حين نقف عند حدودنا ، وعند ذاك ينفتح عهد من التعاون المثمر الى ان يأتي يوم تثور به فجأة عواصف جديدة .

ولكن ما كنا نحاول عمله ، في هذه الناحية كما في غيرها ، لا يمكن ان يكون ذا قيمة ، الا اذا اتبعنا الرأي العام الفرنسي ، فقد اكتشفت اي دور يمكن ان تلعبه الدعاوة على امواج الأثير في خطتنا الجديدة ، يوم ١٨ حزيران (يونيو) ، إذ تحدثت بالراديو لأول مرة في حياتي وتصورت بشيء من الدوار أولئك الذين يستمعون اني من نساء ورجال .

وكان فضل الانكليز ، وهو واحد من افضالهم الأخرى ، انهم ادركوا فوراً الاثر الذي يمكن ان يحدثه مذياع حر في نفوس الشعوب المغلوبة ، واستخدموه على اوسع مدى ، وعمدوا في الحال ، الى تنظيم دعاوتهم الفرنسية . ولكنهم كانوا في ذلك اثنين كما في كل شيء ، فهم وان ارادوا مخلصين تعزيز الصدى الوطني الذي لقيه ديغول وفرنسا الحرة ، رغبوا ايضاً في ان يفيدوا من هذا الصدى لانفسهم ويظلوا في الوقت نفسه ، سادة الموقف . اما نحن فكنا نرى ان لا نتكلم الا لقضيتنا . ولم اسلم قط من جهتي بأي إشراف على ما اقوله ، حتى ولا بأي رأي اجنبي حول ما اقوله لفرنسا ، وذلك مما لا حاجة الى بيانه .

وكان ان سوّيت وجهات النظر المختلفة هذه تسوية واقعية تتصرف وفقاً لهـــا فرنسا الحرة كل يوم بإذاعتين مدة كل منهما خمس دقائق ونشأت ، من جهة ثانية اللجنة الشهيرة « فرنسيون يتحدثون إلى فرنسيين » مستقلة عنا ، وكان يقوم بإدارتها السيد جاك دوشين ، رجل المسرح الذي استخدمته البي. بي. سي. وكان يشارك فيها عدة فرنسيين احرار مثل جان ماران وجان أوبرله ، بموافقتي . وكان من المتفق عليه ، في جانب آخر ، ان تكون اللجنة على اتصال وثيق بنا ، وهذا مـا جرى لمدة طويلة ، فعلاً . وعليّ ان اقول إن مواهب تلك الجمـــاعة وفعاليتها حتمت علينا ان تمنحها كل عون قدرنا عليه . وكذلك فعلنا ايضاً مع مجلة « فرنسا الحرة » التي يعود الفضل فيهـــا الى السيدين : لابارث وريمـون آرون . وتعاملنا بالطريقة نفسها مع « الوكالة الفرنسية المستقلة » وصحيفـــة « فرنسا » ، الاولى كان يديرها مابّو المعروف بـ « بوردان » والثانية السيد كومير بتأييد مباشر من وزير الإعلام البريطاني ولكن من غير ان يكونا مرتبطين بنا ، على حال من الاحوال .

كانت الامور تسير على هذا النحو ، ولا تخلو من بعـــض الحوادث الطفيفة طالما ظلت مصالح انكلترا وسياساتها متوازية مع فرنسا الحرة . وستنشأ فيما بعد أزمات لا تقف بهـــا معنا « فرنسيون يتحدثون الى فرنسيين » ، ولا « الوكالة الفرنسية المستقلة » ، ولا صحيفة « فرنسا » . صحيح انه كان لدينا في مذياع برازافيل على الدوام وسيلة لنشر ما كان يبدو لنا مفيداً . والواقع ان مذياعنا الافريقي المتواضع قام منذ البداية بوظيفته على نحو فعّال ، وقد استخدمته بنفسي مراراً . ولكن كنا نريد توسيعه وتكبيره ، وطُلبت المواد اللازمة لذلك من اميركا . وكان يلزمنا للحصول عليها ان نحبط في الولايات المتحدة الكثير من الدسائس والمزايدات ، لا أن نصبر طويلاً وندفع كثيراً من الدولارات ، فحسب .

وأخيراً ، نهضت الاذاعة الصغيرة وكانت بدايتها بطولة في الكونغو ، خلال ربيع ١٩٤٣ ، التي كانت اساساً للمحطة الكبرى لفرنسا المحاربة .

لا حاجة الى ذكر الأهمية التي كنا نعلقها على اذاعاتنا الموجزة من لندن ، فقد كان يدخل الاستوديو كل يوم ذاك الذي يتكلم باسمنا وهو مشبع كل الاشباع بتبعته . ومن المعلوم ان موريس شومان كان يقوم بذلك أغلب الأحيان . ومن المعلوم كذلك أية موهبة كانت ترفده . وكل ثمانية أيام تقريباً ، كنت أتكلم بنفسي ، ولدي الانطباع البليغ المؤثر أنني أؤدي للملايين من المستمعين الذين كانوا ينصتون إلي ، في حومة القلق عبر تشوشات رهيبة ، ضرباً من طقس كهنوتي . كنت أركّز خطاباتي على عناصر جدّ بسيطة : مجرى الحرب الذي كان يبيّن خطأ الاستسلام ؛ الكرامة الوطنية التي كانت تحرّك النفوس بعمق ، لدى الاحتكاك بالعدو ؛ والأمل بالنصر أخيراً ، وعظمة جديدة لـ « سيدتنا فرنسا » .

ومع ذلك ، كان علينا ان نلمس جيداً ان الرأي العام كان على سلبيته ، في المنطقتين ، أياً كان التأثير الذي تحدثه تلك الخطابات وما تلقاه من قبول . ولا ريب ان « راديو لندن » كان يُسمع في كل مكان بارتياح ، وفي اغلب الأحيان بحماسة . كان الحكم على مقابلة مونتوار جدّ صارم . وتظاهرة طلاب باريس ، وهم يحملون في موكب ، خلف لافتة كتب عليها : « دو غول *Deux Gaules* »[1] ، في ١١ تشرين الثاني ، الى قوس النصر ، والتي فرقها الفهرماخت بطلقات البنادق والرشاشات ، تعطي فكرة مؤثرة وتشد الهمّة . وبدا طرد لافال الموقت وكأنه اهتزازة

---

(١) *Gaule* : تعني بالفرنسية قضيب طويل لفرط الثمار و *Deux* اثنان . لفظها معاً يؤلف جناساً لفظياً يشير الى الجنرال ديغول . المترجم

رسمية لتقويم الاعوجاج . وفي اول كانون الثـاني ، ظل قسم كبير من السكان ، ولا سيما في المنطقة المحتلة ، قابعين في منازلهم تلبية لما طلبت اليهم ، وأخلوا الشوارع والساحات مدة ساعة : « ساعـة الأمل » . غير انه لم يكن ثمة أدنى علامة تحمل على التفكير ان عدداً كبيراً من الفرنسيين مصمّم على العمل ، فالعدو لم يكن يعاني في ديارنا اي خطر . أما فيشي فقليل هم الذين كانوا ينازعونها في سلطانها . والمارشال نفسه ظل يتمتع بشعبية فائقة . وقد وصل الينا فيلم عن زياراته للمدن الكبرى في الوسط والجنوب يعطي الدليل القاطع على ذلـك . وكانت الأغلبية العظمى تود ، في قرارتها ، ان ترى في بيتان داهية من الدهاة ، وأنه سيرفع السلاح في اليـوم الموعود . والرأي العام كان يحسب إذن أنـه وإياي على وفاق سرّي . والخلاصة النهائية انه لم يكن للدعاوة ، شأنها على الدوام ، سوى قيمة ضئيلة في حد ذاتهـا . كل شيء كان يتعلق على الأحداث .

كان الاهتمام ، في الظرف الراهن ، منصرفاً الى معركة افريقيـا . وقد اخذت فرنسا الحرة تظهر فيها . وكان ان رحت اتصل مباشرة ، منـذ ١٤ تموز ، بالجنرال ويفيل القائد البريطاني الاعـلى في « الشرق الاوسط » ليجمع في وحدات منظمة العناصر الفرنسية الـتي كانت في منطقة عمله ، ويرسلها إنجاداً للجنرال ليجنتيوم في جيبوتي ؛ ثم حـين تأكد ان ساحل الصومال الفرنسي أذعن للهدنة ، حصلت من ويفيل على الموافقة بأن يشترك فوج مشاة البحرية الذي التحق بقبرص في حزيران واكتمل بفرنسيين من مصر ، في اول هجوم يشنه الانكليز في برقة نحو طبرق ودرنة . وكثير من الوطنيين في فرنسا والخارج اهتزوا فرحاً حين عرفوا ان الفوج الباسل الذي يقوده المقدم « فوليو » تميز في معركة سيدي براني ، في ١١ كانون الاول (ديسمبر) . ولكن الامر المهم انما كان

الآن الإتيان بفرقة – خفيفة ويا للأسف ! – من افريقيا الاستوائية الى البحر الاحمر ، والموافقة على اشتراكها بهذه الصفة ، في العمليات الحربية .

غير ان القيادة البريطانية كانت تريد بذل الجهد كله في أريتريا والحبشة ، خلال الربيع ، بحيث تصفّي جيش الدوق داوست قبل الشروع بعمل آخر على شطآن المتوسط . كنت اريد ان يسهم اول فوج فرنسي في العمل ، أية كانت المسافات . وفي ١١ و ١٨ كانون الاول اعطيت لارمينا وكاترو التعليمات الضرورية . وكان المراد إشراك نصف اللواء من اللفيف الاجنبي ، وفوج سنغالي من تشاد ، وسرية من الرماة البحريين ، وسرية من الدبابات ، وبطارية مدفعية ، وعناصر مصالح ، والكل تحت إمرة العقيد مونكلار . وكانت هناك كوكبة من « الصباحيين » جاء بها المقدم جورديه من سوريا في حزيران (يونيو) ١٩٤٠ ، وبضعة طيارين قدم بعضهم من تونس مع النقيب دوديليه ، والبعض الآخر من رياق مع الملازمين كورنيز ودي ميمون ، وكانوا يحاربون الى جانب الانكليز . وكنت قد نظمت انزال الفيلق القادم الى بور سودان بالاتفاق مع الجنرال ويفيل ، وكان على الدبابات والمدفعية ان تتبع الفيلق والكوكبة المشار اليهما ، ولكن من طريق البحر . اما فوج تشاد ، فقد ذهب الى الخرطوم مقتفياً آثار الأقدام بكل بساطة ، مستخدماً شاحنات صغيرة محلية ، وقد وصل من غير عناء ، رغم نبوءات الشؤم التي تكهن له بها أفارقة 'محنكون . وخاض القتال منذ ٢٠ شباط (فبراير) بقيادة المقدم غارباي ، على مقربة من 'كبكُب واحرز نجاحاً مرموقاً . والتحقت من بعد اربعة افواج سنغالية بهذه العناصر الطليعية ، وشكلت معها وحدة قتال ذات قيمة . وكنا ننوي من جهة اخرى ارسال شرذمة قصف فرنسية مزودة بأجهزة « بلنهايم » استقدمناها من انكلترا الى الخرطوم . واتجهت اخيراً سفينتا الاستكشاف

« سافورنيان – دي – برازا » و « الكومندان دوبوك » نحـو البحر الاحمر .

ما كان أهمّ إسهام فرنسا في معركة الحبشة لو ان ساحل الصومال الفرنسي بحاميته ذات الـ ١٠٠٠٠ رجل الذين أحسن تسليحهم ، ومينائه جيبوتي ، نهاية سكة أديس – آبابا ، كان قد استأنف القتال ! وكنت احاول وانا احث خطى الجيوش المرسلة صوب الحبشة ، ان تنضوي تلك المستعمرة الفرنسية الى جانبنا . ذلك بأن جيبوتي خضعت لاوامر فيشي بعد ترددت في رفض الهدنة . ولكن الا يحتمـل ان نشوب معركة تدور رحاها ضد العدو في المنطقة نفسها ، وقـدوم فرنسيين المشاركة فيها ، كانا يؤدّيان الى تبديل في الموقف ؟ وفي هذه الحالة كان علينا ان ننزل جيوش فرنسا الحرة في جيبوتي لنُلحق بها الحامية ، وعنـد ذاك ، تأخذ المبادرة في الهجوم قوات فرنسية مهمة فعلاً ، وانطلاقاً من تلك النقطة ، تربط بجهودها بجهود البريطانيين . واذا كان العكس ، ولم يقبل الصومال الفرنسي ان يحالفنا ، فإن الحملة الفرنسية الحرة تقاتل منفردة ، الى جانب الانكليز .

وافق حلفاؤنا في لندن على هذا المنهاج ، فكلفتُ الجنرال ليجنتيوم ان يحـاول اقتياد قواته القديمة في جيبوتي الى القتـال ، وفي جميع الاحوال ، ان يقـود تلك التي أرسلت او تلك التي سترسل الى البحر الاحمر من افريقيا الاستوائيـة ، فذهب توّاً الى الخرطوم ، وحدّدتُ للجنرال كاترو والجنرال ويفيل الشروط التي ينبغي للجنرال ليجنتيوم ان يعمل فيها ، والقوات الـتي تأتمر بأوامره . ورجوت السيد تشرشل في الوقت نفسه ان يطامن من قلقه ازاء المبادرة الفرنسية الـتي قابلها اول الامر بوجه عابس ، وسحنة مظلمة .

وبينما كنا نحاول مؤازرة القوات البريطانية العاملة في الشرق ، فتحنا

على تخوم تشاد وليبيا جبهة فرنسية خالصة . وكان فتحهـا ، والحق يقال ، بوسائل جد ضعيفة ، وعلى مساحات واسعة ، ولكن كان في مستطاعنا هناك ان نستقلّ بأنفسنا ، وكنت أصرّ على ان يكون الموقف بمجموعه ، على ذلك النحو .

وكان لوكلير منذ وصل الى تشاد قد أعدّ بنشاط متنـاه العمليات الاولى المقررة في الصحراء ، تحت قيادة المندوب السامي دي لارمينـا الذي قدّم له كلّ ما كان يستطيع تقديمه . وقد اندفع في استطلاعه ، خلال كانون الثاني (يناير) مع العقيد دورنانو الذي قتـل خلال ذلك حتى بلغ مركز « مرزوق » الايطالي ، وكانت جولة استطلاع موفقـة التحقت بها دورية قدمت من النيل . وانطلق لوكلير في نهاية كانون الثاني على رأس رتل محكم البنيان ، يسانده طيراننا ، في اتجاه واحات كفرا ، على بعد ١٠٠٠ كيلومتر من قواعده ، وراح يهاجم الايطاليين في مراكزهم ، ويصدّ قواتهم المتحركة ، طيلة عدة اسابيع من المناورات والمعارك ، وفي اول آذار (مارس) أرغم العدو عـلى الاستسلام . وفي غضون ذلك ، كان التقدم السريع الذي احرزه البريطانيون في ليبيا ، يبـدو وكأنه يقدم لنا ايضاً مجالات ارحب . وذلك هو السبب الذي جعلـني أصدر للجنرال دي لارمينا ، في ١٧ شباط (فبراير) ، امراً باعـداد غزو فزّان . ثم اضطرّنا سير الحوادث الاخيرة في ليبيا الى الامتناع عن تنفيذ الخطة المعدّة في ذلك الحين . ولكن لوكلير وقواته الصحراوية ، اصبحوا على أهبة للسير نحو ذلـك الهدف الرئيسي . وكان ان حملتني الاحوال ، خلال ذلك الوقت ، عـلى توطيد وضع فرنسا بالنسبة الى وضع البريطانيين ، فيما يتعلق بكفرا وفزّان . سوف نبقى في كفرا ، رغم ان الواحات كانت قد ألحقت من قبـل بالسودان الانكليزي ــ المصري . وحين نحتل فزّان ، يوماً ما ، وتقر انكلترا بحقنا في البقاء

على ارضها ، يمكن عند ذاك ان نجلو عن كفرا .

ومع ذلك ، ظلت المبادرة الاستراتيجية دوماً في يد العدو ، مهما فعل الانكليز والفرنسيون الاحرار معهم ، وعليه كان يتوقف توجيه الحرب . أتراه ينقضّ على افريقيا الشمالية عن طريق السويس وجبل طارق ، بعد ان اخفق في غزو انكلترا ؟ أم تراه يريد ان يصفي حساباته مع السوفيات ؟ كانت هناك ، في جميع الحالات ، أمارات تنبىء انه سينطلق في تنفيذ هذه او تلك من خططه . وأياً كان الاحتمال الذي يصح اكثر من غيره ، فقد كنا ، فيما نرى ، اتخذنا من الاستعدادات ما يسمح لفرنسا الحرة ان تخوض الميدان على نحو مجدٍ بما لديها من قوات. الا انني كنت مصمماً ، عدا ذلك ، وبالرغم من العجز الذي كنا نتقلب فيه ، على التكلم باسم فرنسا وأداء في ذلك حسب ما تقتضيه الظروف ، حيال كل مشكلة يطرحها على العالم هجوم جديد تشنه المانيا وحلفاؤها .

وفي شهر تشرين الثاني ١٩٤٠ ، هاجمت ايطاليا اليونان . وفي اول آذار ١٩٤١ ارغم الرّايخُ بلغاريا على الانضمام الى المحور . وفي الايام الاولى من نيسان (ابريل) دخلت الجيوش الالمانية بلاد اليونان ويوغوسلافيا . واصبح في إمكان العدو ، بعد وضع يده هذه على البلقان ان يهدف الى الانصباب على الشرق ، بمقدار ما يمكنه ايضاً ان يطوّق ضد البريطانيين كل رأس جسر خلف الفهرماخت (الجيش الالماني البري) اذا اراد هذا ان يتغلغل في روسيا . وكنت قد ابرقت الى الجنرال ميتاكساس ، وزير اليونان الاول ، منذ بدأ الهجوم الايطالي على بلاده ، ليكون معلوماً لدى الجميع الجانب الذي تميل اليه أماني فرنسا وولاؤها. واظهر جواب ميتاكساس انه أدرك القصد . غير اني لم اوفق الى حمل الانكليز على القبول بنقل سريّة صغيرة الى اليونان كنت أودّ ايفادها

بصفة رمزية . ويجب القول إن ويفيل ، وهو المنهمك بعمليات ليبيا وأريتريا ، لم يوفد هو ايضاً الى اليونان آنذاك ، أية قوة من قواته الخاصة.

وعلمنا في مستهل شباط (فبراير) بوصول البعثة الالمانية فون هنتيمغ وروزير الى سوريا . وكان من شأن الهياج الذي أثارته تلك البعثة في الاقطار العربية ، ان يفيد إمّا باعداد غارة لقوات المحور عليها ، وإما بأن يخلق فيها إلهاءً مفيداً في حالة شن هجوم من قِبَلِ هذه القوات على كييف وأوديسا .

وراح الخطر الياباني في الوقت ذاته يتحدّد في الشرق الاقصى . لم يكن في الامكان ، ولا ريب ، تبين ما اذا كان اليابانيون ينوون دخول الحرب قريباً ، عن ارادة وتصميم ، أم أنهم يمارسون ببساطة ، ضغطاً في جنوب شرق آسيا ، يراد منه إشغال اكبر عدد ممكن من القوات البريطانية والاستعدادات الاميركية ، بينما تنفق كل من المانيا وايطاليا جهودهما إما نحو موسكو ، واما فيما وراء المتوسط . ولكن اليابانيين كانوا يبتغون بأي شكل ان يؤمنوا لانفسهم فوراً السيطرة على الهند الصينية . واذا هم دخلوا الحرب ، فإن مستعمراتنا ومصالحنا تغدو كلها مهددة من كاليدونيا الجديدة ، الى أرخبيلنا في الباسيفيك ، الى المنشآت الفرنسية في الهند ، وحتى الى مدغشقر .

كان التدخل الياباني في الهند الصينية قد بدأ منذ اتضح ان فرنسا خسرت المعركة في اوروبا . وفي شهر حزيران ١٩٤٠ ، وجد الجنرال كاترو الحاكم العام نفسه مكرهاً على تلبية المطالب اليابانية الاولى . وقبل ان يلبّيها ، جسّ نبض البريطانيين والاميركيين ، واستنتج انه لا سبيل الى انتظار مؤازرة خارجية ، من اي نوع . وعند ذاك ، عيّنت فيشي « ديكو » محل كاترو . واما بالنسبة الي ، فقد وجدت نفسي مكرهاً على ترقب الاحوال الى اشعار آخر ، إذ لم يكن في وسعي ان اثير حركة

في الهند الصينية قادرة على تولي الامور بيدها ، ولا ان احطم التدخل الياباني الذي لا بد لمثل تلك الحركة ان تتحداه ، ولا أن أجعل الحلفاء يصممون على معارضة التعدّيات اليابانية . وكان مني أن أبرقت ، بمشاعر يدركها الجميع ، من دوالا ، في ٨ تشرين الأول ، الى مفتش المستعمرات العام كا و ، ومدير المالية في سايغون ، جواباً عن رسالة مؤثرة أعرب فيها عن الود الذي يكنه قسمٌ كبير من السكان للفرنسيين الأحرار ، كما عرض ايضاً أوضاع الهند الصينية مبيناً انه يستحيل عليها أن تتصرّف وفق ما ترغب وتتمنى . وكانت الهند الصينية تتراءى لي شخصياً ، وأنا الذي أقود قارباً صغيراً فوق أوقيانوس الحرب ، وكأنها يومذاك سفينة كبرى تشرف على الغرق ولا استطيع انقاذها قبل أن يتـــاح لي وقت طويل أجمع به وسائل الانقاذ . وقد اقسمت أن أعيدها الى الحياة يوماً ما ، وأنا أراها تبتعد في الضباب .

وفي مستهل عام ١٩٤١ ، دفع اليابانيون سيام الى الاستيلاء على ضفتي نهر الميكونـغ ، فضلاً عن كمبوديا واللاوس ، وفي الوقت نفسه راحوا يتشدّدون في مطالبهم الخـــاصة ، وهم ينشدون لأنفسهم اولاً ، سيطرة على الهند الصينية من الناحية الاقتصادية ، ثم احتلالاً عسكرياً لأهم النقاط فيها . وكنت أطلّع على تطورات هذه القضية الخطيرة ، لا عن طريق الانكليز والهولنديين في لندن وحسب ، وانمـا عن طريق الممثلين الذين كانت فرنسا الحرة تعتمدهم في أهم ملتقيات الطرق العالمية : شومبره ، ثم بارون ولانغلاد في سنغافورة ؛ غارو ـ دومبال في واشنطن ؛ إيغال في شنغهاي ؛ فينيو في طوكيو ؛ بريناك في سدني ؛ أندره غيبو ثم بيشان في تشونغ ـ كنغ ؛ فكتور في نيودلهي . وبدا لي ان مختلف التيارات ازاء ذلك الحادث الطارىء ، مرتبكة بنسبة ما كانت معقدة ، ولكن أحداً ، على كل حال ، لن يبذل شيئاً لمساعدة الهنـد الصينية الفرنسية

على مقاومة اليابانيين . لم يكن لدى فرنسا الحرة ، بطبيعة الحـال ، وسائل المقاومة . وفيشي التي كانت تملك هذه الوسائل ، وجدت نفسها مع الألمان الذين أسلمتهم قيادها ، غير قادرة على استعمال وسائلها ، ما دام سادتها يرفضون . وكان همّ الانكليز منصرفاً الى ربح الوقت ، وهم يشعرون ان العاصفة لا بد ان تبلغ يوماً ما سنغافورة . وبدا ممثلهم في بانكوك حريصاً قبل كل شيء ، على الاحتفاظ بعلاقات الود مع سيام ، أياً كان مصير أراضي الميكونـغ . أما الاميركان ، فانهم كانوا غير مستعدين ماديًا ، ولا معنوياً لمجابهة النزاع ، فعقدوا النية على ان لا يتدخلوا .

كان كل ما نستطيع عمله ، في تلك الاحوال ، وهو ما عملناه ، إنما كان أولاً أن نشعر الناس في كل مكان أن فرنسا الحرة تعتبر كل تخلٍّ من حكومة فيشي عن نصرة الهنـد الصينية لغواً وليس له أي مفعول شرعي . وكان أيضاً ان لا نقوم بحركات داخلية من شأنها أن تسيء إلى المقاومة التي تبغي منها السلطات المحلية ، احتمالاً ، معارضة اليـابانيين والسياسيين . وكان أيضاً وايضاً ، ايجاد انسجام بين عملنا في الباسيفيك وعمل الدول الأخرى المهددة ، ومحاولة – ولكن عبثاً – وساطة مشتركة تقوم بها انكلترا والولايات المتحدة وهولندا ، لمصلحة الهنـد الصينية . وكان أخيراً ، تنظيم دفاع كاليدونيا الجديدة وتاهيتي ، بالاشتراك مـع أوستراليا وزيلندا الجديدة .

وكان أن قابلت ، فيما يخص هذه النقطة الأخيرة ، وزير أوستراليا الاول السيد منزيس لدى مروره بلندن في شهر آذار ، ووضعت القاعدة الجوهرية مع ذلك الرجل ذي الحس السليم . وقام على أثر ذلك ، الحاكم سوتو بالمفاوضة ، وخلص باسمي الى اتفاق دقيق مع الاوستراليين متخذاً جميع الاحتياطات لتفادي وقوع أي انتقاص من السيادة الفرنسية .

وعلمنا بعد فترة وجيزة ان التايلانديين أخذوا في مهاجمة الميكونغ ، وانهم حصلوا ، رغم الهزائم الفادحة التي نزلت بهم في البر والبحر ، على الاراضي التي كانوا يطمعون بها وذلك نتيجة ضغط شديد قـام به اليابانيون على سايغون وفيشي تحت ستار اسمه : « وساطـة » . وكان ان فرضت اليابان سلطانها من بعد على الهند الصينية ، ولم يكن ثمـة أدنى مقاومة ، ولا ارتفع صوت واحد بالاحتجـاج من جانب أية دولة اخرى ذات علاقة بالمحيط الهادىء . واصبح واضحاً ، منذ ذلك الحين ان دخول اليابانيين الحرب العالمية لم تعد سوى قضية وقت .

وراحت العلاقات بين الفرنسيين والبريطانيين تزداد كلما توضحت اسباب العمل المشترك . وكان الاحتكاك ، على مدى الايام ، قـد ادّى ، من جهة اخرى ، الى التعارف . وان من واجبي القول إنه اذا كان تقديري لأولئك الانكليز الذين يديرون دفة الحكم في بلادهم امراً مفروغاً منه ، فإن هؤلاء كانوا يولونني ، فيما بدا لي ، تقديرهم اياي شخصياً . لقـد كان الملك اولاً قدوة وعلى اطلاع دائم ، والملكة ، وكل افراد اسرتها ، يغتنمون عديد المناسبات ، لإظهار تقديرهم . وكنت مع السيد تشرشل من بين الوزراء ، اكثر ما اكون بالطبع على صلات عـامة وخاصة ، غير اني كنت ارى ايضاً ، اكثر ما ارى ، في تلك الحقبة سواء من اجل الشؤون العـامة ، او في اجتماعات وديّة ، السيد ايدن ، والسير جون اندرسن ، والسيد آمري ، والسير ادوارد غريغ ، والسيد ألكسندر ، والسير أرشيبولد سنكلر ، واللورد لويد ، واللورد كرانبورن ، واللورد هانكي ، والسير ستافورد كريبس ، والسادة أتلي ، ودوف كوبر ، ودالتون ، وبيفن ، وموريسون ، وبيفان ، وبتلر ، وبراندان ـ براكن . كنت ألتقي اكثر الاحيان من بين اوائـل « الخدَمة » المدنيين او العسكريين السير روبرت فانسيتارت ، والسير ألكسندر كادوغان ، والسير

سترانغ ، والسيد مورتون ، والقـــادة السير جون ديل ، وإسماي ، والأميرال السير د ّد ْلي باوند ، ومارشان الجو بورتال . وكـان الجميع يظهرون فيما يتعلق بالمصلحة البريطانية امانة وثباتاً يفرضان نفسيهـــما ويلفتان الانتباه ، سواء كانوا من الحكام او كبار الرؤساء ، او كبار الموظفين ، او من شخصيات البرلمان ، او الصحافة ، او الاقتصاد ، الخ ...

وليس ذلك ان هؤلاء الرجـال كانوا بحال ، مجرّدين من كل روح نقدي ، فضلاً عن بدوات الخيال ، فكم من مرة تطعمت بحلاوة السخرية التي كانوا يمارسونها في نظرهم الى الرجال والحوادث ، رغم الإعياء الذي ينتابهم ، وفي صميم المأساة التي كنا نتقلب فيها جميعاً كما تتقلب الحصى في لجج البحر ! بيد ان كل واحد منهم كان ينطوي على اخلاص للخدمة العامة ، وكانت بينهم جميعاً وحدة نيات تشدهم بعضاً الى بعض . وكان المجموع يوحي ، مـن خلال الهيئة الحاكمة ، ان هنـــاك تماسكاً كنت اغبطهم عليه ، واعجب به اغلب الاحيان .

وكان علي ايضاً ، ان أتحمل شدّات الحزام ؛ ذلك بأن مقاومة آلة الحكم البريطانية محنة قاسية ، ولا سيـ حـــين تأخذ في التحرك لفرض أمر ما . فـإن المرء لا يملك ان يتصور أي استغراق في الجهد ، واي تنوع في الطرائق ، واي إلحاح طوراً ناعماً رقيقاً ، وطوراً ضاغطاً او مهدداً ، يستطيع الانكليز ان يمارسوه لنيل ما يرضيهم ، اللهم الا اذا كان قد عانى التجربة بنفسه .

هناك أولاً تلميحات ُتنثر هنا وهناك ، ولكنهـا بارزة في توافقها كانت ترد علينا فتوقظ انتباهنا وتمارس فينا إعداداً منهجيـاً . وكانت الشخصية ذات الصلاحية تقدّم المطلب أو المُقتضى البريطـاني فجأة ، خلال حديث منظّم في الشكل ، فاذا نحن لم نقبل الدخول في السبل المقترحة – ويجب أن أقول إن هذا ما كان يحدث كثيراً – بدأت محنة

« الضغط » ، وراح الناس كلهم يمارسونها من حولنا ، بجميع القوالب ، وعلى مختلف الدرجات . وكانت هناك المحادثات الرسمية أو شبه الرسمية ، التي تُستدعى بها المستويات على أنواعها المتعددة : الصداقة ، والمصلحة ، والرهبة حسب المناسبة . وهناك عمل الصحافة الذي يُختزن بمهـارة لاستخدامه في موضوع النزاع نفسه ، ولكنه كان يخلق فيما يتعلق بنا ، جواً من اللوم والكآبة . وكان هناك موقف الأناس الذين يتفق أن تربطنا بهم علاقات شخصية ، وكانوا جميعاً يجهدون ، متوافقين بالغريزة ، في اقناعنا . وكانت هناك في كل مكان ، وعلى نحو مكثّف جماعي ، هاتيك الملامات ، والشكايات ، والوعود ، والغضبات .

وكان يساعد شركاءنا البريطانيين في ذلك كله هذه النزعـة الطبيعية لدى الفرنسيين إلى التخلي ازاء الأجانب ، والانقسام فيما بينهم . لقـد كان التنازل عندنا ، عادة أغلب الأحيان ، إن لم يكن مبدأ ، في أوساط أولئك الذين قدر لهم في حياتهم العملية ، أن يهتمّوا بالشؤون الخارجية من قريب أو من بعيد . وكان أمر فرنسا في نظـر كثرة من الناس ، وكان ثمة اتفاقاً بينهم ، أنها لا تقول أبداً : « لا » ، وذلك لفرط ما تمرسوا بالحياة في ظل عهود محرومة من الثبات والصلابة . وكنت أشهد كذلك حتى من حولي في اللحظات التي اصمد بها أمام التطلبات البريطانية ، تظاهرات الدهشة والضيق والقلق . كنت اسمع الهمسات وراء الكواليس ، وأقرأ في العيون هذا السؤال : « إلى أين يريد أن يذهب ؟ » كما لو كان أمراً يفوق التصور أن لا يذهب امرؤ ما إلى قبول ما يراد منه . أما أولئك الفرنسيون المغتربون الذين لم يحالفونا ، فانهم كانوا يتخذون موقفاً معادياً لنا ، على نحو شبه أوتوماتي ، وكان معظمهم يتبع المنحدر الذي تسير فيه مدرستهم السياسية ، وهي التي ترى أن فرنسا كانت دوماً على خطأ ، في الوقت الذي كانت تثبت به وجودها . وكانوا جميعهم ينحون

باللائمة على ديغول ذي الصلابة التي ينعتونها أنها دكتاتورية ، وتتراءى لهم مشــار ريبة بالنسبة لروح الاعمال والتخلي التي يدعون أنها وروح الجمهوريــة سواء !

وحين أتيح لهذه التأثيرات المتعددة أن تلعب لعبتهــا بعمق ، كان الصمت يهيمن فجأة ، ويشيع حولنا ضرب من الفراغ يخلقه البريطانيون ، فلا محــادثات بعد ، ولا مراسلات ، ولا زيارات ، ولا ولائم . وتظل المسائل معلقة ، وأجراس الهواتف تنقطع عن الرنين . والذين كنا نلتقيهم مصادفة من الانكليز يظهرون غامضين لا سبيل إلى دخائلهم . كنا إذ: أناساً ينكرونهم ، كما لو كانت صفحة التحالف وحتى صفحة الحياة ، قد طويت بعد الآن عنا ، وانطوينا معها ، ويحيط بنــا في قلب انكلترا المستغرقة والحازمة ، بردٌ جليدي .

وأقبل في ذلك الجو المكفهر الهجوم الحاسم ، فقد عقد اجتماع فرنسي ـ بريطاني دون تفكير سابق ، وفيه وضعت جميع الوسائل لتعمل كل واحدة عملها ، وقامت جميع الحجج ، واشتبكت فيما بينها الاحقاد ، واصبح كل جانب يغني على ليلاه . وعلى الرغم من أنه كـــان لتلك المسرحية درجاتها لدى الانكليز المسؤولين ، فقد راح كل واحــد منهم يلعب دوره كفنان من طبقة اولى . وتوالت الساعات ، وكانت تتوالى معها المشاهد المؤثرة الراعبة . وافترق الجمــان على إنذارات متبادلة ، وذلك لأننا تخلينا عن كل رغبة ومطلب .

وما كاد يمضي بعض الوقت ، حتى كانت المقدمة . هنـــاك عدة مصادر بريطانية ألقت بعلامات انفراج . وأقبل بعض الوسطــاء يقولون ان ثمة ولا ريب ، سوء تفــاهم . وراح بعض المسؤولين منهم يتسقط اخبــاري . وظهرت في الصحف نبذةٌ تشيد بذكري ، وبهذه المناسبة وصل مشروع تسوية انكليزي يتعلق بالمسألة موضوع النقاش ، وهو يشبه

كثيراً ما سبق لنا ان اقترحناه بأنفسنا . ومذ اصبحت الشروط مقبولة سُوّيَ الأمر بسرعة ، في الظاهر على الأقل . وكان النص قد وُضع اثناء اجتماع ودّي ، لا لأن شركاءنا كانوا قد حاولوا ، في غبطة التفاهم الذي وجد بعد ضياع ، ان يحصلوا بغتة على بعض الفوائد . ثم تُلَفّ التقارير كما يجب ان تلف ، وجوهر الأشياء يظل مع ذلك ، غير محدد . وذلك لان ما من قضية بالنسبة لبريطانيا العظمى يتم حولها التفاهم ابداً .

وفي بداية شهر آذار ١٩٤١ ، لم استطع ان اشك ان الحرب كانت قريبة الاندلاع بالنسبة لنا ، في الشرق وافريقيا ، واننا سنُمنى هناك بمحن كبرى تجاه العدو ، بمعارضة فيشي الشديدة ، وانشقاقات خطيرة مع الحلفاء . وكان عليّ ان اتخذ المقررات الضرورية في المناطق تلك نفسها ، فعزمت على الذهاب اليها .

وقضيت عطلة الاسبوع ، قبل ان اسافر ، في وزارة المال عند الوزير الاول الذي نقل اليّ بشارتين ، وهو يودعني في الوقت نفسه ، فقد اقبل السيد تشرشل في ٩ آذار ليوقظني ويقول لي ، وهو يرقص فملا من الفرح ان الكونغرس الاميركي اقترع الى جانب قانون « الاعارة والتأجير » الذي يناقشه منذ عدة اسابيع . وكان في ذلك ، ما يملأ نفوسنا غبطة ، لا لأن المحاربين سيجدون انفسهم بعد اليوم مطمئنين الى تلقي العتاد الضروري للقتال ، من الولايات المتحده وحسب ، بل لان أميركا خطت أيضاً ، اذ اصبحت كما عبر روزفلت « مصنع حرب للديمقراطيات » ، خطوة جبارة نحو الحرب . وعند ذاك ، أراد السيد تشرشل ان يفيد ، ولا ريب ، من ارتياحي ، فصاغ الخبر الثاني ، قائلاً : « أنا أعرف أنك تحقد على سبيرز باعتباره رئيس ارتباط معكم . غير اني اطلب اليك ان تحتفظ به بعد ، وان تقتاده الى الشرق

وتلك خدمة شخصية تؤديها لي » . ولم استطع ان ارفض ، وافترقنا على ذلك .

وكان لديّ الشعور هذه المرة ، وانا اطير نحو خـــط الاستواء في ١٤ آذار ، ان فرنسا الحرة تتمتع بجهاز قيّم من الاسلحة . وكـان مجلسنا الدفاعي عن الامبراطورية بشكل ، أيا كان تشتت اعضائه ، مجموعة متماسكة ، مقدّرة ومعترفاً بها من قبل الحكومة البريطـــانية ، منذ ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٠ ، من جهة اخرى ؛ وقد توطدت في لندن ادارتنا المركزية ، واصبح يؤلف هيكلها رجال اكفـــاء مثل كاسان ، وبليفن ، وبالوفسكي ، وانطوان ، وتيسّيه ، وديجان ، وألفان ، وديتيري ، وبوريس ، وآنتيه ، الخ .. وكان لدينا ، في جانب آخر ، عدة ضباط ذوي قيمة من الناحية العسكرية أمثال العقداء : بيـــتي ، أنجينو ، داسونفيل ، بروسّيه ، قدموا من اميركا الجنوبية حيث كانوا في بعثات اختصاص ، وانتقل « بورو » من الكاميرون . وعقيد الجو فالان الذي وصل من البرازيل ، وكلاهما زاد في صلابة اركان حربنا . وكاترو في الشرق ، ولارمينا في افريقيا ، قبضا على مقاليد الامور جيـــداً . وكانت مفوضيّاتنا تتركز ثابتة في كل مكان من العالم الجديد ، بتأثير من غارو – دومبال في الولايات المتحدة ، و « ليدو » في اميركا الجنوبية ، وسوستيل في اميركا الوسطى ومارتان – بريفل في كندا . وما انفكت لجاننا في الخارج عن التنامي ، رغم العمل الذي كان يمارسه ممثلو فيشي في امكنتها ، ورغم سوء المعاملة من قبـل معظم الاعيـــان الفرنسيين والمشاحنات المعتادة لدى مواطنينا . وكانت « منظمة التحرير » الـتي أنشأتها في برازافيل ، بتاريخ ١٦ تشرين الثـــاني (نوفمبر) ١٩٤٠ ، ونظمتُها في لندن بتاريخ ٢٩ كانون الثاني ١٩٤١ ، قد أثارت منافسة من أرقى الدرجات في أوساط الفرنسيين الاحرار . واخيراً ، كنا نشعر

من على البحر ، ان فرنسا تتطلع الينا .

هذا التقدم الذي احرزته فرنسا الحرة ، في الوسائل والتوطد ، بدا لي ، مدى الطريق التي سلكتها في موقف الحكام الانكليز الذين كانت تحط لديهم الطائرة التي تقلنا في جبل طارق ، في باثورست ، في فريتاون ، في لاغوس . كنت أرام من قبل يملأ قلوبهم الود ، وأرام الآن وكلهم تهيب واحترام . وحين كنت أجوب ، في الايام التالية ، كتلة البلدان الاستوائية الفرنسية ، لم أشعر قط في أي مكان ، بقلق ، ولا باضطراب . لقد اصبح الآن كل فرد مطمئناً في ايمانه وأمله ، يدير طرفه نحو الخارج ، فخوراً وهو يشهد قوتنا تخرج من مهدها البعيد ، وتكبر بما ينضم اليها ، وتضرب العدو ، وتقترب من فرنسا .

الشرق

طرت نحو الشرق المعقد وأنا أحمل أفكاراً بسيطة . وكنت اعلم ان قسماً جوهرياً من لعبة القدر يجري به ، في صميم العوامل المتشابكة . كان الواجب يقضي اذن ان لا نغيب عنه . وكنت اعلم ان مفتاح العمل بالنسبة للحلفاء انما كان قناة السويس التي قد تفضي خسارتها الى تسلم المحور آسيا الصغرى ومصر ، وان امتلاكها يُتيح ، على العكس ، العمل يوماً ما من الشرق الى الغرب ، في تونس وايطاليا وجنوب فرنسا . وذلك يعني ان كل ما في الموقف كان يقتضينا الحضور في المعارك التي تدور حول القناة . وكنت اعلم ان الاهواء والمطامع السياسية ، والعنصرية ، والدينية ، اخذت تتضرّم وتتوتر في وهج الحرب ما بين طرابلس الغرب وبغداد ، مروراً بالقاهرة ، والقدس ، ودمشق ، كما بين الاسكندرية ونيروبي مروراً بجدة ، والخرطوم ، وجيبوتي . وكنت اعلم ان مواقع فرنسا في هذه المناطق تحوم حولها المطامع وتبث حولها الالغام ، وانه لم يكن ثمة اية فرصة ، على اي افتراض ، لتحتفظ بأي منها اذا هي بقيت – اي فرنسا – سلبية ولاول مرة في التاريخ ، بينما كل شيء كان موضع شبهة وإشكال . كان الواجب يقضي بالعمل إذن في كل مكان ، وأداء ما يجب أداؤه من غير توان ولا ابطاء .

اما الوسائل التي كانت في حوزة فرنسا في تلك المنطقة من العالم ،

ثانها تلك التي كنت أتصرف بها اولاً : قوات محاربة ، احتياطي في طريق التشكيل ، واراضي تشاد ايضاً التي جعلتنا في سعة من العمل في ليبيا من الجنوب ، ووفرت عدا ذلك ، للطيران الحليف قاعدة ينقل اليها معداته جواً من الاطلسي رأساً الى النيل ، بدلاً من ان ينقلها عن طريق البحر ، في دورة طويلة حول رأس الرجاء الصالح . وكانت هناك ، من جهة اخرى ، الاوراق الرابحة التي طفقت فيشي تخسرها في اللعبة : حضور فرنسا في دول المشرق ، حيث كان لها جيش ومصب بترول ، ومستعمرة جيبوتي ، واسطول الاسكندرية . واذا كان لي ان اواجه ، تكتيكاً او ضرورة ، ترك هذا او ذاك من العناصر خارج الحرب ، واذا كنت أتدبر وجوه الأعذار في سلوك المنفذين ، وأقرّ ما أقرّ من نزعة الى الانتظار او الاذعان والطاعة ، فإني لم اكن اقل عزماً وتصميماً على اخضاع تلك العناصر في اسرع وقت . وكنت ، من جهة اخرى ، قد اخذت رأي اعضاء مجلس الدفاع ، لحظة غادرت لندن ، حول ما يناسب عمله فيما اذا قررت انكلترا وتركيا ضمان الاراضي السورية واللبنانية تجاه تهديد مباشر ما ، يمارسه الالمان . وموجز القول : إني وصلت الى الشرق وانا عازم على ألا أداريَ شيئاً لتوسيع العمل من جهة ، وإنقاذ ما يمكن انقاذه من موقف فرنسا ، من جهة اخرى .

نزلت ، اول ما نزلت ، في الخرطوم ، قاعدة القتال في أريتريا والسودان . وكان يقود هذه – احسن قيادة – الجنرال بلاتّ ، اذ كان رئيساً يقظاً مليئاً بالحيوية ، وقد وفق منذ وقت قريب الى انتزاع خط الدفاع الاساسي في أعالي « كيرين » ، من ايدي الايطاليين . واشترك في ذلك اشتراكاً مشرفاً لواء العقيد مونكلار ، وكتيبة الطيران التي يقودها المقدم أستيه دي فيّات . اما قوات جيبوتي فانها لم تقرّر خط سيرها

رغم بعض الاتصالات التي قام بها الجنرال ليجنتيوم معها ، وراح الحاكم نواهيتاس يقمع الحركات التي تتظاهر بتأييد الانضمام الى فرنسا الحرة ، مستخدماً جميع الوسائل ، بما فيها الاعدام .

لم يكن اذن يصحّ الاعتماد على انضواء طوعي لتدخل جيبوتي الحرب . ولم أكن ، من جهة اخرى ، لأزعم أني سألجها بقوة الحراب ، فهناك الحصار الذي يستطيع ، مؤكداً ، ان يحمل مستعمرة تتلقى حاجاتها الاساسية عن طريق البحر ، من عدن ، وشبه الجزيرة العربية ، ومدغشقر . ولكننا لم نتوصل قط الى حمل الانكليز على عمل كل ما هو ضروري في هذا السبيل .

لا ريب ان قيادتهم العسكرية كانت مبدئياً ، تحبّذ الانضمام الذي يزوّدهم بامدادات جديدة ، ولكن جهات انكليزية اخرى كانت أقل تعجلاً ، إذ كانت تفكر ، في اكبر احتمال ، هكذا : « إذا كان للتزاحم في اتجاه منابع النيل ، منذ ستين سنة ، بين بريطانيا العظمى وايطاليا وفرنسا ، ان ينتهي بظفر بريطاني صرف ، واذا سُحق الطليان آخر الامر ، وبدا ان الفرنسيين ظلوا على عجزهم وسلبيتهم ، فأي موقف فريد تحرزه انكلترا بعد اليوم في مجموعة هاتيك المنطقة بأسرها : الحبشة أريتريا ، الصومال ، السودان ! أيكون علينا ان نتخلى عن مثل هذه النتيجة ، من اجل بضعة افواج تستطيع جيبوتي ان تجندها في معركة هي ضمناً مكتسبة لا محالة ؟ » . كانت هذه الحالة الذهنية المنتشرة على نحو يقل او يكثر في اوساط البريطانيين هي التي تفسر ، في رأيي ، نجاح سلطات فيشي ، طيلة عامين كاملين ، في تموين المستعمرة ، ومن ثمة في الابقاء عليها خاضعة لطاعة مشؤومة .

غير ان تواني البريطانيين ذاك لم يزد على الموقف الا انه جعل خدمات الجيوش الفرنسية التي كانت تحارب في أريتريا ، أعلى شأناً وأوفى قيمة .

فقد ذهبت لأقضي معهـا يومي ٢٩ و ٣٠ آذار (مارس) ، وأقلتني طائرة فرنسية الى ارض آغوردات ، وبلغت المنطقة القائمـة الى الشرق من كيرين ، حيث كان لواؤنا يشكل مع فرقة هندية ، ميسرة الجهـاز الحليف . كان جنودنا في حالة معنوية فائقة ، فقد أسهموا اسهاماً ملحوظاً في انتصار كيرين بعد كبكب ، اذ توغلوا في ميمنة الطليان وبدّدوها . وُقـدّم لي العقيد الملازم جينان الذي تميّز في تلك الوقعة ، وهو الذي عبر افريقيا ، منطلقاً من عاصمة الجزائر ، ليلتحق بنا ومـا كاد يصل حتى خاض الميدان . وقيل لي : « ها قد رأيت الآن ما رأيك به ؟ - « آه ! لو كان الجميع ، في الجانب الآخر ، يستطيعون أن يروا ، لما كان ثمة مجال لسؤال » .

ومذ عمد الجنرال بلاتّ ، في اليوم التـالي لزيارتي ، الى استغلال الانتصار ، فقد ساق آمر اللواء الفرنسي جنوده نحو مصوّع ، عاصمـة أريتريا ومحرز دفاعها . ومذ استولى جنودنا في السابـع من نيسان على ونتيكولو و « فور أومبرتو » ، دخل الجيش مصوّع في شكل اعصار ، وأسرع أفراده في حال من الفوضى اختلطوا معها بجماعـات الطليان المنهزمة ، نحو المرفأ ، واستولى على الأميرالية وأعطى العقيـد مونكلار شرف تلقي الاستسلام من قائد البحرية العدوّة في البحر الأحمر . وكان مجموع ما ألقت القبض عليه المفرزة الفرنسية في القتـال ٤٠٠٠ أسير ، وتلقت في مصوّع استسلام ١٠٠٠٠ آخرين .

لم يبق لفلول القوات الايطالية بعد ذلك اليوم ، وقد انكفأت الى الحبشة ، الا أن تعمـل متفسّخة غير منسقة ، ولكن بقاء الصومال الفرنسيّ خارج الصراع ، كان يعوق فرنسا عن الدور الحاسم الذي كان في مستطاع قواتها أن تقوم به ، في أن تزحف رأساً ، على مدى سكة الحديد ، من جيبوتي الى أديس ـ آبابا التي كان يهم النجاشي بالعودة

اليها . لم يكن في مستطاعي الا أن أستلّ النتائج المؤسفة . كان يجب الآن ، نقل القوات الفرنسية الحرة الى مكان آخر ، سواء في ذلك هذه التي تجندت وتلك التي تسعى مسرعة الى التجند . سيظلّ بالوفسكي مكانه كمفوض سياسي وعسكريّ ، محتفظاً بفوج وبضع طائرات تحت تصرفه .

وهبطت أول نيسان ، في القاهرة ، وبها كان ينبض قلب الحرب ، ولكنه قلبٌ مرجرج متزعزع . وكان موقف البريطانيين وحلفائهم فيها يبدو ، واقعاً ، غير مستقر ، لا بسبب من الأحداث العسكرية وحسب ، بل لأنهم يقفون هناك على صعيد تكمن تحته تيارات سياسية هي ألغام ، بين اقوام كانوا يشاهدون اقتتال الغربيين فيما بينهم ، دون ان يساهموا فيه ، وهم ، الى ذلك على أهبة للافادة من غنائم المغلوبين .

كانت هذه الاوضاع تجعل مجرى الحرب في الشرق جدّ معقد . وكان الجنرال ويفيل القائد البريطاني الاعلى يتحرك في لجج من التقلبات العديدة التي لا تتصل ، في معظمها ، بالاستراتيجية الا على نحو غير مباشر ، بيد أنه كان لحسن الحظ وافر الموهبة فيما يتعلق بمحاكمة الامور وهدوء الاعصاب . ثم ان تلك الاستراتيجية نفسها كانت من اعسر الاشياء وكان من ويفيل ان قاد في مستهل نيسان (أبريل) معركة على ثلاث جبهات كانت تمدّها بعناء مواصلات لا نهاية لها .

كان على الانكليز في ليبيا ان يتراجعوا ، بعد انتصارات رائعة حملتهم الى ابواب طرابلس الغرب ، وأوشكت برقة ، خلا طبرق ، ان تسقط في يد العدو . فإن القيادة على كفاءتها ، والجيوش على بسالتها ، لم تكن بعد قد تمرست بذلك الصراع في الصحراء ، وهو جدّ متحرك وسريع فوق مساحات شاسعة مكشوفة ، جد مملة ، وما يرافقه من العطش والحميات الدورية ، تحت شمس محرقة ، على الرمال ، وجحافل الذباب . وكان ان غيّر رومل مصير المعركة في الوقت نفسه الذي

فرضت به حكومة لندن على ويفيل ان يجرّد بعض قواتـه في حملة الى اليونان . ذلك بأن الجبهة اليونانية لم تكن هي ايضاً تسير على ما يرام . صحيـح أن انتصارات اريتريا والحبشة قدّمت بعـض العزاء ، ولكن علامات تنذر بالخطر اخذت تظهر في الاقطار العربية ، فالعراق يغلي ، ومصر لغزٌ لا يبين ، وفي سوريا شرع الالمان في مساومات مقلقة مـع فيشي ، وفي فلسطين كان النزاع الكامن بين العرب واليهود يفرض الكثير من الاحتياطات .

ويضاف الى هذه المشكلات المتراكمة على ويفيل ، ضروب التدخلات ، فهناك برقيات لندن ، لأن السيد تشرشل لم يكن يترك شيئاً يمر ، وهو الكفؤ الفـارغ الصبر ، دون ان يطلب تفسيرات ، ويعطي توجيهات . وكانت هناك ، بصرف النظر عن زيارات المستر إيدن كوزير للحرب اولاً ، ثم كوزير للخارجية في نيسان ١٩٤١ – حيث لقيته في القاهرة – خطوات السفير السير مايلز لمبسون ، المفوض ، نظراً لكفاءته وقـوة الاشياء في ايامه ، بنوع من بعثة تنسيق دائمة . وكان هناك هذا الواقع وهو أن جيش الشرق كان يشتمل ، في قسم كبير منـه ، على قطع عسكرية من اقطار الدومينيون : اوستراليا ، زيلاندا الجديدة ، افريقيا الجنوبية ، وكانت حكومات هـذه الاقطار تراقب استخدام قواتها بدقة وحذر . وكذلك كان الشأن مع قوات الهند التي يجب ان نفيد منهـا من غير إساءة اليها في سير الحرب . وخلاصة القول ان ويفيل لم يكن يمارس قيادته العسكرية الا من خلال قيود سياسية متنوعة لا حصر لها .

يجب ان اقول إنه كان يتحمل هاتيك القيود بهدوء نبيـل ، لدرجة انه احتفظ بمقر قيادته العامة في القاهرة ، حيث كانت تلك الاغلال تكتنفه من كل جانب ؛ ففي قلب هذه المدينة الصاخبة ، في الضوضاء والغبار ، بين جدران مكتب صغير تزيـد الشمس في حره ، كانت

التدخلات الخارجية تنهال باستمرار على ذلك الجندي العادي . وها أنا أصل مُعاسراً وملحاً ، مصمّماً على حل المشكلات الفرنسية التي تجعل البريطانيين موضع اتهام ، وعلى رأسهم قائدهم الاعلى .

رسمت مخططاتنا مع الجنرال كاترو . والجوهري في نظرنا ، انما كان ما يحدث في سوريا ولبنان . ولا بد من الذهاب اليهما عاجلاً او آجلاً . وابتداء من اليوم الذي نكون به هناك ، يصبح لدى فرنسا فرصة للاتيان بجهود مشترك ذي عون كبير ، وبدون ذلك ، تضيع تلك الفرصة ، ويضيع موقع فرنسا ؛ فاذا افترضنا ان المحور كان الغالب ، سيطر هناك كما يسيطر في مكان آخر ، وفي الحالة المعاكسة ، يحل الانكليز محلنا . ينبغي اذن ان تمتد سلطة فرنسا الحرة الى دمشق وبيروت ، في اللحظة التي تقدم بها الحوادث فرصة الامتداد تلك .

ولكن الفرصة لدى وصولي الى القاهرة لم تكن مؤاتية . وما كان في الامكان الأمل بأن تفكّ سلطات المشرق وجيشه ، من تلقاء نفسها ، سحر الاغلال المشؤومة التي كانت تكبلها . والحركة التي دفعت ، اواخر حزيران ١٩٤٠ ، بأرتال كاملة في اتجاه فلسطين ، تجمّدت تنتظر . ثم ان تسريح كثير من الضباط والافراد ، الذي اصدرت به فيشي قراراً بعد هُدنَتها ، حملهم على العودة الى فرنسا . وكان في عداد الموظفين والعسكريين الذين اقاموا على نشاطهم واستمادتهم فيشي ، دعك من الذين اعتقلتهم ، عددٌ من « الديغوليين » . وموجز القول ان الحركة التي كان يؤمل بها لدى وصول الجنرال كاترو الى القاهرة ، لم تحدث ، ولا كان من شأن المعلومات التي تلقيناها من مخبرينا في بيروت ودمشق ان تحملنا على الاعتقاد بأن نشوءها قريب .

وهذا الانحياز نفسه للتخلي عن الحرب هو الذي جمد الاسطول الفرنسي في الاسكندرية . فمنذ ان عقد الاميرال غودفروا الاتفاق الذي جعل

سفنه محايدة ، مع اندرو كننغهام ظلت راسية في المرفأ المدرّعة « لورّين » والطرادات : « دوغـــاي – تروين » ، و « دوكين » و « سوفرين » ، و « تورفيل » ، واللنّافات المضادات : « باسك » ، و « فوربان » و « فورتونه » ، والغواصة « بروتيه » . وراحت بعض العناصر مـن الاركان العامة والبحارة تلتحق بنا في فترات متقطعة . ولكن الآخرين ممن اطاعوا تعليمات فيشي ، كانوا يستخدمون اوقات الحرب في تبـادل البراهين ان افضل طريقة لخدمة فرنسا المغزوة ، انما هي اللاقتال . وفي ذات يوم من نيسان ، شاهدت ، وانا اعبر مرفأ الاسكندرية في زيارة للأميرال كننغهام ، سفناً فرنسية بديعة غافية لا جدوى منها ، بين سفن الاسطول الانكليزي ، على أتم الأهبة لمنازلة الأعداء .

ولـما لم يكن في مستطاعنا التسليم ، ازاء تلك الحـــال ، ان سير المعركة في المتوسط لم يحدث أي تأثير على أذهان الرؤساء في افريقيـا والشرق ، فقـــد حاولنا اجراء اتصالات بهم ، وكان كاترو قد اوصل خلال تشرين الثاني رسالة جوار الى فيغان . وقد وافقت على هذه الخطوة بالغاً ما بلغ املي فيه من الضآلة . واطلقت بنفسي عدة نداءات صريحة من المذياع ، مبيناً في ٢٨ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٠ ، بشكل بارز : « اننـا نقف الى جانب جميع الرؤساء الفرنسيين الذين يصممون على استلال السيف الذي اغمدوه أية كانت خطاياهم بلا استثناء ومن غير مطمح ، واذا نهضت افريقيا الفرنسية ، اخيراً ! لتحارب ، فاننا نندمج بها مع الجزء الذي في ايدينا من الامبراطورية » .

ووجدت في كانون الثاني أعضاء مجلس الدفـــاع مثلي ، مستعدين للاتحاد مع فيشي في حالة عودتها الى القتـال ، حين استشرتهم حـــول الموقف الذي ينبغي اتخاذه ، اذا اتفق لتلك الفرضية أن تصح . وكتبت في ٢٤ شباط بهذا المعنى نفسه الى الجنرال فيغان ، رغم المصير المزعج

الذي كنت انتظره والاستقبال الناقم الذي تلقى بـه رسائلي السابقة . وناشدتُه أن يغتنم الفرصة الأخيرة التي تسنّت له ليستأنف القتـال ، واقترحتُ أن نتوحد ُمفهماً اياه أنـه اذا قبل ذلـك ، يستطيع أن يعتمد على احترامي ومؤازرتي . وكان كاترو ، من جهـة أخرى ، لا يترك مناسبة تمر دون أن يغتنمها لتوجيه اشارات للأميرال غودفروا لحمله على السير معنا . وأخيراً ، كتب في تشرين الثاني الى السيد « بيو » المفوض السامي في الشرق ، والجنرال فوجير القائد الأعلى للقـوات ، ومساعده الجنرال « أرلابوس » ، وما كان هـدفه سوى احداث ارتباط ما معهم .

إلا أن هذه المحاولات المتعدّدة لم تسفر عن أية نتيجة . كان فيغان يجيب موفدينا تارة « أنه يجب اعدام ديغول رمياً بالرصاص » وتارة : « أنه هو جدٌ هرمٍ ليتخذ موقف المتمرد » وطوراً : « أن ثلثي فرنسا في قبضة العدو ، والثلث الباقي في يد البحرية ، وأن دارلان – وذلك أسوأ ما في الأمر كله أيضاً – يتجسس عليه باستمرار ، فـلا يستطيع أن يفعل شيئاً حتى وان هو أراد » . أما الأميرال غودفروا ، فقـد تلقى رسائل الجنرال كاترو بوقار ، ولكنه لم يجب عنها . ووجّه أرلابوس من بـيروت الى الجنرال كاترو جواباً رصيناً ، ولكـن بارداً . ثم ان السفير بيو استبدل في نهاية كانون الأول بدانتز ، على أثر الحادث الجوّي الذي وقع في «شيابّ» ، وكان دانتز هذا جنرالاً جدّ تقليديّ ، مستعداً لتطبيق الارشادات التي يوجهها اليـه دارلان ، بحذافيرهـا . وبعد قليـل أقيل فوجير وانتقلت قيادة قـوات المشرق الى الجنرال دي فرديلهاك .

لم يكن في مستطاعنا ، والحالة هذه ، أن نفكر في دخول سوريا الا اذا وطىء أرضها العدو نفسه . وما كان أمامنا ، ونحن نترقب ،

الا ان نجمع قوات ليجنتبوم ونضعها تحت تصرف ويفيل ليخوض بها ميدان ليبيا . وهذا ما كنت قد اتفقت عليه مع القائد البريطاني الأعلى ، ورتبت في الوقت نفسه ، مع مارشال الجو لونغمور تنظيم قوتنا الجوية الصغيرة واستخدامها .

يجب ان اقول إن جنودنا كانوا يعطون أحسن الانطباع أنى وصلوا. فقد كانوا يشعرون في هذا الشرق المتقد حيث تردد أصداء القرون صيت فرنسا ، أنهم ابطال . ثم ان المصريين استقبلوهم بترحاب خاص ، وربما كان ترحيبهم بالفرنسيين ينطوي على اظهار البرودة التي يحملونها تجاه البريطانيين . وقد قمت شخصياً باتصالات ممتعة مع الأمير محمد علي ، عم الملك ووارث عرشه ، ومع سري باشا رئيس الوزراء ، وعدد من وزرائه . اما الفرنسيون المقيمون في مصر: علماء ، واعضاء في سلك التعليم ، واختصاصيون في الأثريات ، ورهبان ، ورجال اعمال ، وتجار ، ومهندسون ، ومستخدمون في القناة ، فقد بذل معظمهم نشاطاً حاراً لمعونة قواتنا . وكانوا قد انشأوا ، منذ ١٨ حزيران ، بتوجيه من البارون دي بنوا ، والاستاذ جوغيه ، والسيدين مينوست وبونيتو ، منظمة كانت في الحال ، احدى دعائم فرنسا الحرة . ومع ذلك ، فان بعضاً من مواطنينا اقاموا بمنأى عن الحركة ، وكانوا يتمشون عند المساء أحياناً ، في حديقة القاهرة للحيوانات ، ويمرون امام مفوضية فرنسا المقابلة للحديقة حيث تطل وجوه متوترة ، لأولئك الذين لم يلتحقوا بي ، رأيتها من خلال النوافذ ، وكانت نظراتها تتبع الجنرال ديغول.

هناك اذن بعض أمور اتضحت أثناء الاسبوعين اللذين قضيتهما في السودان ومصر وفلسطين . ولكننا لم نقم بالجوهري منها بعد ، وما كان في استطاعتي ان أؤدّي منها شيئاً لتوّي . فقفلت اذن عائداً الى برازافيل . وكان من الضروري ، بأي شكل ، ان ندفع ‹قدماً› تنظيم

كتلتنا الاستوائية ، فاذا كانت خسارة الشرق مقدّرة ، فستكون تلك الكتلة محطة للمقاومة الحليفة ، واذا لم نخسر الشرق ، فسيكون لنا فيها قاعدة لهجوم مقبل .

ونقلتني دورتي التفتيشية مرة أخرى الى البلدان الآتية : دوالا ، ياونده ، مروى ، ليبرفيل ، بور ـ جانتي ، فور ـ لامي ، موصّورو ، فايا ، فادا ، أبيشه ، فور ـ أرشامبو ، بانغي ، بوانت ـ نوار . وكانت تعوزها أشياء كثيرة ، ولكن النظام والعزيمة مـا كانا قط يعوزانها في شيء . وكان الحكام : كورناري في الكاميرون ، لابي في تشاد ، سان ـ مار في أوبانغي ، فورتونه في الكونغو الأوسط ، فالنتـــان ـ سميث في الغابون ـ وهذا جاء ليحل محل باران الذي هلك في حادث طائرة أثناء الخدمة ـ يقودون ويديرون في ذلك الجو الذي لا يساوره شك في شيء ، ويهيمن على الفرنسيين حين يصادف ان يكونوا على وفـاق لخدمة قضية كبرى . وقد جعلت الأولوية في المجـــال العسكري لاعداد رتل لوكلير الصحراوي ، وأرسلت اليه من انكلترا كل ما بقي من الملاكات ، وكل العتاد الخاص بنا الذي قبل الانكليز تزويدنا بـــه . غير اني لم أكن اشك ، منذ حلت نهاية نيسان ان عملنا المقبل انما سيكون ، بين يوم وآخر ، في المشرق .

وواقع الأمر ان الالمان كانوا قـــد نفذوا الى المتوسط ، ففي ٢٤ نيسان انهارت المقاومة الانكلو ـ يونانية ، بينما حلت الهزيمة باليوغوسلافيين انفسهم . ولا ريب ان البريطانيين سيحـــاولون التعلق بجزيرة كريت . ولكن هـــل يستطيعون الصمود فيها ؟ لقد بدا لي من المؤكد أن العدو سيحمل الى سوريا عما قريب اسرابه الجوية على الاقل ، انطلاقاً من السواحل الاغريقية . وحضور تلك الاسراب في قلب الاقطار العربية يثير بهـــا اضطراباً يمكن أن يستخدم توطئة لقدوم الفهرماخت (الجيش الالماني) .

ثم إن الطائرات الالمانية تستطيع بسهولة من جهة ثانية أن تقصف القناة ومنافذها من أراضي دمشق، ورياق، وبيروت، على بعد ٥٠٠ كيلومتر من السويس وبور سعيد.

كان دارلان بهذا الخصوص، أعجز من أن يرد مطالب هتلر. ولكني رحت أهدهد في نفسي الامل أن كثيراً من الفرنسيين سيرفضون الاذعان للوجود الالمـــاني، ويغطون رفضهم ذاك بأسلحتهم. على افتراض أن الرؤساء والجنود الفرنسيين في المشرق سيشهدون أجهزة اللفتواف (سلاح الطيران الالماني) تهبط على قواعدهم. وفي هذه الحالة، يجب ان نكون قادرين على مد يد العون لهم، فوراً. وهكذا، ركزت اذن توجيهاتي فيما يختص بالعمل الذي نشرع فيه. والمراد أن ندفـــع فرقة الجنرال ليجنتيوم الصغيرة رأساً الى دمشق في اللحظة التي يثير بها ظهور الالمان لدى مواطنينا الحركة الـتي كانت تبدو محتملة. وكان كاترو من جهـــته يستعد، في هذه الحال، للقيام بجميع الاتصالات الممكنة، مـــع دانتز نفسه عند الحاجة، بحيث يركـّز ضد غزاة فرنسا وسوريا، جبهة الفرنسيين المشتركة.

ولكن هذه الخطط لم تلاق القبول من البريطـانيين. فالجنرال ويفيل الذي استغرقته جبهات قتال ثلاث، لم يشأ أن يفتح بمجال، وأيّاً كان الثمن، جبهة رابعة. ثم لم يشأ، في جانب آخر، أن يأخذ باحتمال الاسوأ، فكان يقول، انه متأكد استناداً الى تقـارير القنصل الانكليزي العام في بيروت، أن دانتز سيقاوم الالمـــان عند الاقتضاء. وراحت حكومة لندن تجهد، في الوقت نفسه، بلاطفـة فيشي، وهكذا كان من الأميرالية البريطانيـة ان سمحت في شباط، رغم تحذيراتي، بمرور الباخرة « بروفيدانس » التي كانت تقل « ديغوليين » اعيدوا قسراً الى بلادهم، من بيروت الى مرسيليا. ثم هكذا عقدت، في نهـاية نيسان

معاهدة تجارة مع دانتز تؤمّن تموين المشرق . وهكذا ، كانت تستمر المفاوضات في عدن لتموين جيبوتي مع الحاكم نوايهيتاس .

وكان من شأن المعلومات التي تلقيتُها من فرنسا ان حملتني على التفكير في ان النفوذ الاميركي كان يعمل عمله في محاولات « التهدئة » هذه . وقد ُنقل إلي ان بيتان ودارلان كانا يبذلان مغرياتها تجاه الاميرال ليهي السفير في فيشي ، في الوقت نفسه الذي كانا يلبيان سراً مطالب هتلر . وقد أثـّرت برقيات ليهي في روزفلت بدوره ، فراح هـذا يضغط على الانكليز ان يُظهروا تنازلاً وليناً . وبمقدار ما كان يبدو لي إعداد العمل في المشرق ضرورياً ، كان حلفاؤنا يبدون انهم على غير استعداد له . وقد أنهى إلي سبيرز من القاهرة في ٩ ايار ان « احداً لا يفكر بأية عملية في المشرق يقوم بها الفرنسيون الاحرار ، وان لا فائدة لي ان ازور مصر ، وان من الافضل ان اسلك طريق لندن » .

واعتقدت ان واجبي يقتضيني ان أؤثـّر في الانكليز بدوري ، وانا المقتنع ان سياسة الاعتدال مجازفة تكلف غالياً ، فأبرقت في ١٠ ايار (مايو) الى السفير البريطاني في القاهرة والقائد الاعلى احتج على « القرارات المتخذة من جانبهم وحده حول تموين المشرق وجيبوتي » من جهة ، وعلى « العراقيل في طريق تجمع فرقة ليجنتيوم في اتجاه سوريا ، بينما يزداد احتمال وصول الالمان اليها يوماً عن يوم » من جهة اخرى . وبينت انه لم تكن لديّ في هذه الظروف ، نية بالذهاب الى القاهرة في وقت قريب ، وأني تركت الامور فيها تأخذ مجراها ، وانني سأحصر جهود الفرنسيين الاحرار بعد اليوم ، في تشاد . ثم اوضحت الى لندن أني استدعيت الجنرال كاترو من القاهرة ، حيث اصبح وجوده فيها بلا جدوى . واخيراً ، جاءني السيد بارّ قنصل بريطانيا العام في برازافيل برسائل بعثها السيد إيدن لتبرير سياسة التهدئة حيال فيشي ، فأمليت

عليه جواباً يدين هـذه السياسة بحرارة توازي حرارة نقمتي عليها بعد ان عرفت خبر المقابلة التي جرت في برشتسغادن بين دارلان وهتلر، وعقد اتفاق بينهما، وهبوط طائرات المانية في دمشق وحلب .

ذلك بأن العدو كان يلعب هو ايضاً لعبته الكبرى، فقد بدأ رشيد عالي الكيلاني رئيس حكومة العراق النزاع في الايام الاولى من ايار، بإيعاز من العـدو . وحوصر الانكليز في مطاراتهم . وفي ١٢ ايار، وصلت الطائرات الالمانية الى سوريا، ومـن هناك بلغت بغداد . وفي عشية ذلك اليوم، ارسلت سلطات فيشي الى «تل كجك» على الحدود العراقية عتاد الحرب الذي كانت لجنة الهدنة الايطالية قد وضعته مـن قبل، في عهدة تلك السلطات، وبإشرافها . كانت هذه الاسلحة مرسلة بكل تأكيد الى رشيد عالي . وألح الانكليز على دانتز وهم يطلبون اليه بيان ما عنده، فأجاب جواباً تعمّد فيه التهرب، دون ان ينكر الوقائع، مع ذلك . واضاف انه اذا تلقى مـن فيشي الامر بالسماح للقوات الالمانية، فإنـه لن يتوانى عن الطاعة، مما يعني انّ الامر كان قد صدر . وعُلم في الواقع، ان الشطآن التي سينزل بها العدو كانت قد عُيّنت سلفاً .

ورأت وزارة لندن ان من الافضل، في هذه الظروف، ان تنحاز الى وجهة نظري، وكان انقلابها مباغتاً وتاماً . فما اقبل ١٤ ايار حتى اعلن لي ذلك إيدن من جهة، وسبيرز – وكان لا يزال في مصر – من جهة اخرى، بدون مداورة . وجاءتني اخيراً رسالة مـن المستر تشرشل يطلب فيها إلي ان اذهب الى القاهرة، ولا اسحب منها كاترو، باعتبار ان العمل قريب . واغتبطت كثيراً بالموقف الذي تبناه الوزير البريطاني الاول، فأجبته بحرارة، ولأول مرة، بالانكليزية . ولم يكن بوسعي، مع ذلك، الا ان استلّ النتائج التي كانت تفرض نفسها من

تصرف حلفائنا في هذه القضية . اما الجنرال ويفيل ، فإن حكومته أمرته بالشروع في العمل الذي كنا قد ارتأينا القيام بـه في سوريا . وقد وجدته مسلّماً بأدائه عند وصولي الى القاهرة في ٢٥ أيار . والصحيح ان خسارة كريت وانعدام الجبهة الاغريقية في تلك البرهة ، خفّفتا من أعباء القائد الاعلى .

ولم تكن الأمور تجري في سوريا ، أثناء ذلك ، على نحو ما كنا نأمل . لقد حسب كاترو ، في لحظة من اللحظات ، أن في إمكانه تنفيذ خطتنا والزحف على دمشق بقوات فرنسا الحرة وحدها . ولكن سرعان ما تبيّن أن التآمر بين فيشي والعدو لم يثر أدنى حركة لدى مجموع القوات في المشرق ، بل كان العكس هو الذي وقع ، إذ تمركزت تلك القوات على طول الحدود لمقاومة الفرنسيين الأحرار والحلفاء ، بينما كان الألمان خلفها ، يتجولون على هواهم . ومذ كان دانتز يتصرف بأكثر من ٣٠٠٠٠ رجل مزوّدين أحسن الزاد بمدفعية ، وطيران ، ومصفحات ، عدا القوات السورية واللبنانية ، فانه لا يمكن تطبيق خطتنا الأولى ، على ما كانت عليه ، اي في الزحف رأساً على دمشق بما لدينا من قوات وعتاد : ٦٠٠٠ من المشاة ، ٨ مدافع ، ١٠ دبابات ، ونحو من ٢٠ طائرة ، والافادة من المؤازرات التي كنا نحلم بلقائها في المنطقة . كان لا بد للانكليز من ان يندسوا في صفوفنـا ، ونمضي في خوض معركة منسّقة .

كنا نريد أن تكون تلك المعركة أقل ما يمكن احتداماً ، وأقصر ما نستطيع أمداً . وكانت بذلك مسألة وسائل . وقد أشاع أصدقاؤنا في بيروت ودمشق عن لساننا القول : « إذا دخل الحلفاء سوريا من جميع الجهات بعدد كبير ، فلن يكون ثمة سوى معركة رمزية ، وإذا حدث العكس ، ووجدت قوات المشرق نفسها تجاه قوات ضئيلة في

العدد والعتاد ، فان كرامتها الملكية تلعب دورها وتصبح المعمعة حامية الوطيس » . ولقد قمت ، يرافقني الجنرال كاترو ، بعدة محادثات حول هذا الموضوع ، مع ويفيل ، وألححنا عليه أن يتوغل في المشرق ، لا جنوباً ، انطلاقاً من فلسطين وحسب ، بل شرقاً ايضاً من العراق ، حيث كان البريطانيون يعملون في تصفية رشيد عالي وحركته ؛ وطلبنا إلى القائد الاعلى ان يخوض الميدان بأربع فرق ، تكون إحداها مصفحة ، وأن يحمل الى جو سوريا عدداً كبيراً من طائرات السلاح الجوّي الملكي . وتشدّدنا في ان يقدّم لقوات ليجنتيّوم مـــا يعوزها من وسائل النقل والمدفعية ، خاصة .

الأكيد أن الجنرال ويفيل لم يكن مجـرداً من الذكاء الاستراتيجي ، وكان يرغب ، عدا ذلـك ، في إرضائنا ، غير انه ، وهو المنهمك في عمليات ليبيا ، المنزعج دون ريب من برقيـــات المستر تشرشل الملأى بالتهديد ، وبها كان يطلع على تأثير إلحاحنا الخاص ، كان يرد على تقريعاتنا بلطف طيب سلبي . ومـا من شيء استطاع ان يقنعه بأن يكرس من قواته للقضية السورية شيئاً أكثر من الحد الأدنى ، فهو لم يضع في الميدان تحت إمرة الجنرال ويلسن سوى فرقة اوسترالية ولواء من الفرسان يسلك الطريق الساحلي : صور ـ صيدا ، ولواء من المشاة يتجه نحو القنيطرة ومرجعيون ، ولواء هندي أعير للجنرال ليجنتيوم الذي زحف على دمشق من طريق درعا . وقد اضاف إليه ويفيل من بعد ، فوجين أوستراليين ، وأخيراً مفرزة هندية أفضت ، عند نهاية المطاف ، إلى العمل انطلاقـاً من العراق . وكان يُساند الكل زهاء ستين طائرة ، وسفن حربية شتى تواكب العمليات البرية ، على طول الساحل . وبهذا ، يكون الحلفاء قد خاضوا الميدان بمجموع يقلّ عن مجموع ما قابلهم من بعد . وكان لا بد مع ذلك ، من العمل وإنهائه على هذه الأسس المتخلخلة . واتخذ

القرار النهائي ، وأوشكت المأساة ان تبدأ .

وذهبت لتفتيش القوات الفرنسية الحرة إلى « قسطينا » في ٢٦ أيار (مايو) وهي التي تجمعت هناك الآن ، ولكن ظلت سيئة الزاد ، فقدم لي ليجنتيوم سبعة أفواج ، وسرية دبابات ، وبطارية ، وكوكبة الصباحيين ، وسرية استكشاف ، وعناصر مصالح . وقد سلمتُ بهذه المناسبة صلبان التحرر الأولى التي كسبناها في ليبيا وأريتريا . ولمست ، من خلال اتصالي بالضباط والأفراد ، أنهم كانوا في الحالة الذهنية التي كنت أمرّ بها تماماً : أسف واشمئزاز لمقاتلة فرنسيين ، سخط على فيشي التي تضلل انتظام الجنود ، اقتناع بوجوب الزحف ، وتأمين المشرق ، وتحويره ضد العدو . وفي ٢١ أيار اجتاز الحدودَ والتحق بنا مع قسم من جنوده العقيد كوليه *Collet* آمر الكوكبات الشركسية ، وهو ضابط ذو كفاءة كبرى وبسالة أسطورية . وفي ٨ حزيران (يونيو) اندفع الفرنسيون الأحرار والبريطانيون الى الامام تظللهم الرايات الحليفة ، ويأتمرون بويفيل وكاترو معاً اللذين أمرام أن لا يطلقوا إلا على أولئك الذين يطلقون عليهم أولاً . وكانت هناك محطة اذاعية أقيمت في فلسطين قبل أسابيع ، تتوجه بمناشدات وديّة الى مواطنينا الذين كنا نأمل من أعماق قلوبنا أن لا يبادرونا بالعداء ، وكان يوجّه هذه المناشدات كلٌ من النقباء : شميتلان ، وكولي *Coulet* ، وربيتون . وكان علينا أثناء ذلك أن نعبر ، ولم أدع مجالاً لأي شك حول هذه النقطة ، في تصريح عام .

وكنت من جهة أخرى مصمماً على المضي في دفع الأمور الى قرارتها وعلى وجه السرعة ، بمقدار ما كانت هناك علامات تحمل على التنبؤ بهجوم تقوم به فيشي ، وربما المحور ، ضد افريقيا الفرنسية الحرة . وقد رشحت الى علمنا أنباء تفيد أن هتلر طلب الى دارلان عندما تمّ لقاؤهما في برشتسغادن خلال ١١ و ١٢ أيار ، أن يضع تحت تصرف ألمانيا مطارات

سوريا ومرافئها ، وامكانية استخدام تونس وصفاقس وقابس من قبل قواته وطائراته وسفنه ، لاحتلال المناطق الاستوائية بقوات فيشي . ولا ريب ان مخبرينا أضافوا ان فيغان رفض فتح منفذ تونس للالمان ، وشنّ هجوم على الأراضي الفرنسية الحرة ، زاعماً أن مرؤوسيه لن يطيعوه . ولكن لو كان هتلر مصمماً على تنفيذ مشروعه هذا ، فما وزن احتجاج فيغان الذي لم يكن أمامه في نهاية المطاف ، وقد ثبت عدم ارادته في القتال ، إلا أن يقدم استقالته في المجالس التي كان يعقدها المارشال ؟

وهكذا أقمنا على أهبة لصدّ الهجوم ، وأفاد لارمينا من الأثر الذي أحدثه نبأ وصول طائرات ألمانية إلى سوريا ، في بعض عناصر من شاطىء العاج ، وداهومي ، وتوغو ، والنيجر ، فأعد العدّة للتوغل في سوريا لدى أول فرصة . وكنت أنا بنفسي قد أرشدته الى المسلك الذي ينبغي له أن يسلكه . وأجابتني الحكومة البريطانية ، من جهة ثانية ، في رسالة بعث بها المستر إيدن ، أنها ستساعدنا على المقاومة بكل ما لديها من وسائل ، وأنا الذي كنت قد سألتها عما تقوم به ، فيما اذا حاولت فيشي أن تهاجمنا في تشاد مثلاً ، سواء آزرها الالمان فوراً او لم يؤازروها . وقمنا أخيراً بما هو ضروري لحمل الاميركان على الاهتمام مباشرة ، بأمن افريقيا الفرنسية الحرة . وفي ٥ حزيران قدمت مذكرة لوزير الولايات المتحدة في القاهرة ، بيّنت فيها أن افريقيا ستكون يوماً ما قاعدة انطلاق اميركي لتحرير أوروبا ، واقترحت على واشنطن أن تقيم ، دون ابطاء ، قوات جوية في الكاميرون وتشاد والكونغو . وبعد أربعة أيام ، توجه قنصل الولايات المتحدة في ليوبولدفيل لمقابلة لارمينا وسأله باسم حكومته ما اذا كان يقدّر أن افريقيا الاستوائية الفرنسية مهددة ، وحين ردّ المندوب السامي بالايجاب ، طلب اليه أن يطلعه على المساعدة المباشرة التي يتمنى على أميركا أن تزوده بها ، من ناحية التسلّح خاصة .

وعلى الرغم من كل شيء ، ومن بعض الاحتياطات التي استطعنا اتخاذها للدفاع المحتمل عن الحصن الاستوائي فاني كنت أتعجـل رؤية المشرق مغلقاً في وجه الالمان ومنقطعاً عن فيشي ، أمام احتمال جهد جبار يبذل في افريقيا من قبل المحور وأعوانه .

وفيما كان الانكليز والفرنسيون الأحرار يُعدّون العـدة في افريقيا للعمل معـاً على الصعيد العسكري ، راح تنافسهم السياسي يرتسم في الأفق . كنا ندرك تحركات هيئة مختصة أخذت ترى مجال التطبيق ينفتح أمامها أخيراً ! لخطط عمل ، معدّة منذ زمن طويل ، في سوريا ، وذلك على مقربة من الأركان العامة الحليفة ، وحول السفارة في القاهرة ، وحول المفوضية العليا البريطانية في القدس ، وفي مخابرات الفورين أوفيس التي تقوم بها مع كاسان ، وبليفن ، وديجان ، والتي كان ينقلها هؤلاء إلي وانا في لندن ، ثم في اعمدة الصحف التي يوحى اليها ، وخاصة في « بالستاين بوست » (بريد فلسطين) . فان الحوادث ستقدم لبريطانيا العظمى في سوريا ، مجموعة من اوراق سياسية وعسكرية واقتصادية ، رابحة لدرجة لا تملك معها قطعاً ، أن تمتنع عن اللعب بها لحسابها الخاص .

كان ذلك واضحاً بمقدار ما كان يستحيل علينا ، إذا نحن تمركزنا في دمشق وبيروت ، أن نحتفظ فيهما بالوضع الذي كان من قبل راهناً . فان الهزات التي أحدثتها نكبة ١٩٤٠ واستسلام فيشي ، وتأثير المحور ، كل ذلك كان يتطلب من فرنسا الحرة أن تتخذ تجاه دول المشرق وضعية جديدة تلبي التطور وقوة الاشياء . وكان يبدو لنا ، من جهة أخرى ، أن فرنسا لن تحتفظ بالانتداب ، حين تنتهي الحرب . وإذا افتُرض أنها لا تزال راغبة في إبقائه ، فقد كان واضحاً أن حركة الأقطار العربية والضرورات الدولية لن تسمح لها بذلك . هنالك ، والحالة هذه ، نظام واحد ، يمكن في الواقع والقانون أن يحل محـل الانتداب ، ألا وهو

الاستقلال ، على ان يحفظ لفرنسا مصالحها وحق الصدارة التاريخي . وذلك هو ما كانت تهدف إليه ، في جانب آخر ، معاهدتا ١٩٣٦ التي عقدتها باريس ، مع لبنان وسوريا . وهاتان المعاهدتان تشكلان حادثين لا سبيل إلى إنكارهما ، فان الحس السليم والظروف تمنع من التنكر لهما ، وإن كان إبرامهما قد تأجل .

وكذلك كنا قد عقدنا العزم على أن تعلن فرنسا الحرة إرادتها في إنهاء نظام الانتداب وعقد معاهدات مع دول اصبحت تتمتع بالسيادة ، فور دخولها الأراضي السورية واللبنانية . وما دامت الحرب قائمة ، فاننا سنحتفظ طبعاً بسلطة المندوب العليا في المشرق ، وبما عليها من التزامات في الوقت ذاته . وإننا لنقبل أخيراً ان تمارس القيادة العسكرية البريطانية على مجموع البلاد ، سلطة التوجيه الاستراتيجي ضد العدو المشترك ، نظراً لأن سوريا ولبنان جزء لا يتجزأ من ميدان العمليات في الشرق الاوسط ، وللانكليز فيه بالنسبة لنا ، تفوّق ضخم في الوسائل .

ولكن ظهر في الحال أن الانكليز لن يكتفوا بذلك راضين . فإن لعبتهم ركزت في لندن على أيدي إيعازات ملحة ، وكان يحركها في المنطقة جهازٌ مجرد من كل وازع شريف ، مجهز بجميع الوسائل . وقد ارتضت الفورين أوفيس تلك اللعبة التي كانت تئن منها أحياناً ، ولكنها لم تتنكر لها قط ، وساندها الوزير الأول الذي كان يغدق الوعود المبهمة والعواطف التي أحكم تقنينها ، وكان الناس ينخدعون لجهلهم بالنيات . والوزير الأول كان يرمي منها إلى إنشاء « زعامة » بريطانية في الشرق بأسره . كانت السياسة الانكليزية تهم إذن في بذل جهدها على نحو خفي وطوراً بفظاظة ، للحلول محل فرنسا في دمشق وبيروت .

كانت المزايدة كأسلوب عمل هي التي ستفيد منها تلك السياسة ، موهمة أن كل امتياز نقلّد به عنق سوريا ولبنان ، إنما كان بفضل

مساعيها الحميدة ، محرضة الحكومات المحلية على تقديم مطالب تأخذ في الازدياد ، وتمضي أخيراً في مساندة التحريضات التي تتولى من بعد أمر قيادتها . وكانت المحاولة تبذل في الوقت نفسه ، لجعل الفرنسيين بُغضاء ، وحمل الراي العام المحلي والدولي على الوقوف ضدّهم . وهكذا ، يتحول الاستياء الشعبي عن المظالم البريطانية في الأقطار العربية الأخرى .

وما كاد القرار المشترك بدخول سوريا يُتخذ ، حتى راح الانكليز يتصرفون على نحو تنفذ منه إلى نياتهم . فلما كان كاترو يُعدّ مشروع التصريح بإعلان الاستقلال ، طلب السير مايلز لامبسون أن يكون الإعلان باسم انكلترا واسم فرنسا الحرة معاً . وعارضتُ ذلك بطبيعة الحال . وألحّ السفير يومذاك أن يشير النص الى الضمانة البريطانية لوعدنا ، فرفضت هذا الطلب ، مبيّناً أن كلام فرنسا لا يحتاج الى ضمانة أجنبية . وأبرق إلي السيد تشرشل في ٦ حزيران ، عشية الزحف ، يعرب لي عن تمنياته الودية ، ويلح في بيان الأهمية التي تخلعها على الموقف تلك الضمانة الشهيرة . فأجبته عن تمنياته ، لا عن ادعائه ذاك . وكان من اليسير أن نرى أن شركاءنا كانوا يريدون إعطاء هذا الانطباع ، وهو أنه اذا نال السوريون واللبنانيون استقلالهم ، فانما هم مدينون به لانكلترا ، ومن ثمة يأخذون موقف الحكَم بيننا وبين دول المشرق . وكان تصريح كاترو ، في نهاية الأمر ، كما يجب أن يكون ، ولكنه ما كاد يذاع ، حتى نشرت حكومة لندن تصريحاً آخر باسمها الخاص ، على حدة .

إنها لذكريات أليمة هذه التي تعيدها الى ذهني المعركة التي اضطررنا الى خوضها . واني لأشاهد نفسي ، من خلال تلك الذكريات ، وأنا أغدو وأروح متنقلاً بين القدس حيث اتخذت مقري ، وقواتنا الباسلة التي تتقدم نحو دمشق ، أو ذاهباً في زيارة الى الجرحى تقلني سيارة الاسعاف الفرنسية ـ البريطانية مع السيدة سبيرز والدكتور فروشو .

وفهمت ، مع الزمن ، أن كثيراً من جرحانا ، ومن افضلهم ، كانوا يتركون في الأرض العراء ، وأن الجنرال ليجنتيوم مثلاً أصيب بجرح خطير ، وأن العقيد جينان ونقيب السفينة الحربية ، ديترويا قتلا ، وأن المقدّمين دي شفيلبه ، ودي بواسّودي ودي فيوتراي أصيبوا إصابات بالغة ، وأن عدداً من الضباط والجنود الطيبين يسقطون ، في الجانب الآخر ، صرعى رصاصنا ببسالة ، وأن قتالاً عنيفاً دار حول الليطاني في ٩ و ١٠ حزيران ، وفي ١٢ منه أمام « كسوة » ، وحول القنيطرة ودرعا في ١٥ و ١٦ ، وكانت هذه المعارك تخلط أموات الفرنسيين من المعسكرين ، بأموات حلفائهم البريطانيين . وكنت اشعر تجاه أولئك الذين يعارضوننا من أجل فكرة الشرف التي يحملونها ، بعواطف اختلط فيها التقدير بالرثاء . وفيما كان العدو يذيق باريس كأس الهوان ، ويهاجم في افريقيا ، ويتسلل الى المشرق ، كانت هذه الشجاعة تبذل وهذه الخسائر تحمل في صراع بين الاخوة فرضه هتلر على رؤساء سقطوا تحت نيره ، فأشعر أن ذلك كله تبذير فظيع .

ولكن ، كلما كان الأسى يعصر نفسي ، كنت ازداد مضاء في عزمي على الخلاص منه . وذلك هو ، من جهة اخرى ، موقف جنود فرنسا الحرة كلهم ، اذ لن يكون فيهم واحد يشعر بالخور ، وذلك هو أيضاً موقف جميع مواطنينا في مصر الذين اجتمعوا في القاهرة لإحياء الذكرى السنوية الأولى لـ ١٨ حزيران ، وقد استقبلوا كلمتي في تلك المناسبة بهتافات إجماع .

خُيّل في ذلك اليوم أن دانتز أوشك أن يُنهي الصراع البغيض ، وكان هذا الصراع من جهة أخرى ، لا يفتح له أدنى باب أمل . والواقع أن فيشي أوفدت بينوا ـ ميسان الى أنقرة لارسال نجدات الى المشرق ، فلقي الرفض . وفتحت هزيمة رشيد عالي في العراق ، من

الجانب الآخر ، وهربه الى المانيا في ٣١ أيار ، أبواب سوريا للحلفاء عن طريق الصحراء والفرات . وبدا فجأة أن الألمان غير متعجلين إرسال قوات جديدة الى الاقطار العربية . بل ، على العكس ، أعيدت الطائرات التي بعثوا بها ، الى اليونان . والنجدات الوحيدة التي وصلت الى المشرق منذ بداية المعارك ، كانت سربين من الطائرات الفرنسية ، قدمت من افريقيا الشمالية عبر اثينا ، حيث استقبلها الالمان ومدوها بالمؤن . وها هي واشنطن ، ونحن في تلك الحال ، تنقل الينا النبأ ان السيد كونني ، مدير الغرفة السياسية في المفوضية العليا للمشرق ، وجّه الرجاء في ١٨ حزيران الى القنصل الاميركي العام في بيروت ، ان يطلب على وجه السرعة من البريطانيين انفسهم ما هي شروطهم ، وشروط « الديغوليين » لوقف القتال .

وكنت ، ادراكاً للعاقبة واحتياطاً للمستقبل ، أعلمت السيد تشرشل ، منذ ١٣ حزيران ، بالقواعد التي كنت ارى انه ينبغي للهدنة المقبلة ان تُعقد على اساسها . وكتبت نص الشروط بالمعنى نفسه ، خلال اجتماع عقد في ١٩ حزيران ، عند السير مايلز لامبسون وحضره كاترو ، وهي الشروط التي كانت تبدو لي مقبولة منا ولائقة بأولئك الذين كانوا يحاربوننا : « يجب ان ترتكز التسوية على القواعد الآتية : معاملة شريفة للعسكريين والموظفين جميعهم ؛ الضمانة المعطاة من بريطانيا العظمى بأن حقوق فرنسا ومصالحها في الشرق مصانة ، تظلّ كذلك بمجرّد واقعها ؛ تتولى السلطات الفرنسية الحرة تمثيل فرنسا في المشرق » . وحددت ان « جميع الموظفين والعسكريين الذين يرغبون في البقاء حيث هم ، يمكنهم ان يبقوا مع أسرهم ، والآخرين يرحلون الى وطنهم فيما بعد » . غير اني أضفت ان « جميع الاجراءات ينبغي ان تتخذ من قِبَل الحلفاء ليكون هذا الاختيار حراً ، فعلاً » . وصرّحت اخيراً ، رداً على

الإشاعات التي كانت تروّج لها فيشي « أنني لا أنوي بحال ، محاكمة رفاقي في السلاح الذين حاربوني ، تنفيذاً منهم للأوامر التي تلقوها ، وانا الذي لم احاكم احداً منهم قط » . وتلك هي الاجراءات الجوهرية التي تبناها البريطانيون حالاً آنذاك ، وابرق بها الى لندن لتنقلها هذه بدورها الى واشنطن ، ومن ثمة الى بيروت .

وشعرت كذلك في اليوم التالي ، بمرارة في النفس حين اطّلعت على النص الصحيح الذي كانت الحكومة البريطانية قد نشرته آخر الامر ، والذي لا يشبه البيان الذي كنت قد وقعته ، فهو لم يذكر حتى اسم فرنسا الحرة ، كما لو كانت انكلترا هي التي يُراد من دانتز ان يسلمها سوريا ؛ ثم لم يذكر ، عدا ذلك ، الاحتياطات التي اردت الاخذ بها منعاً لعسكريي المشرق وموظفيه ان يرحّلوا جماعياً الى بلادهم ، وبأمر من السلطة ، وانا الذي كنت ، آنذاك ، في حاجة الى الاحتفاظ ما امكن بهم ، فكان ان وجّهت الى السيد إيدن احتجاجاً صريحاً ، وحذرته فيما يتعلق بي ، انني لا ازال عند الشروط المقبولة في ١٩ حزيران ، ولا اعترف بغيرها . وكان لهذا التحفظ اهميته ، كما سنرى من بعد .

ما هي الاسباب التي جعلت سلطات فيشي تنتظر اكثر من ثلاثة اسابيع لتنفذ قرارها الخاص بالمفاوضة لوضع حد للنزاع ؟ لماذا كان من المحتوم تبعاً لذلك ، إطالة أمد عراك لا يملك ان يغيّر شيئاً ، سوى ازدياد الخسائر ؟ لم اعثر على تفسير الا في اندلاع الهجوم الالماني على روسيا . ففي ٢٢ حزيران ، وهو اليوم الذي تلا إيداع المفوضية العليا في بيروت جواب بريطانيا العظمى عن طريق قنصل الولايات المتحدة ، اطلق هتلر جيوشه على موسكو . وكانت له مصلحة لا يطالها شك في ان تظل اكبر كمية ممكنة من القوات المعادية مشتبكة في افريقيا وسوريا،

فتولّى رومل جانباً من ذلك ، وكان على القوات الفرنسية التاعسة في المشرق ان تتولى الجانب الآخر .

ومع ذلك ، دخلت قواتنا دمشق في ٢١ حزيران ، بعد قتال شديد في كسوة . وذهب اليها كاترو في الحال ، ووصلت انا في ٢٣ . وخلال الليلة التالية ، جاءت الطائرات الالمانية تقصف المدينة ، وتقتل مئات من الاشخاص في الحيّ المسيحي ، وتظهر بهذه الطريقة تعاونها مع فيشي . ولكن ما كدنا نستقر ، حتى ترامت الينا من جميع الجهات انباء مقلقة ، من حوران ، وجبل الدروز ، وتدمر ، والجزيرة ، خاصّة ، عن السلوك البريطاني . ولم يكن لدينا من الوقت ما نضيعه للتدليل على ان هزيمة فيشي لم تكن تقهقراً لفرنسا ، وتوطيداً لسلطتنا.

وفي ٢٤ حزيران ، عيّنت الجنرال كاترو مفوضاً عاماً مطلق الصلاحية في المشرق ، وحددت له في رسالة ، غاية مهمته : « توجيه الموقف الداخلي والاقتصادي نحو استعادة وضعه الطبيعي بقدار ما تمكن ظروف الحرب ؛ التفاوض مع ممثلي الاهالي الاكفاء ، لاجراء معاهدات تضع اسس استقلال الدولتين وسيادتها ، كما تركز تحالفها مع فرنسا ؛ تأمين دفاع المنطقة ضد العدو ؛ التعاون مع الحلفاء في عمليات الحرب في الشرق » . وقد تولى الجنرال كاترو « جميع سلطات المندوب السامي لفرنسا في المشرق ، وتبعاته » في انتظار تطبيق المعاهدات المقبلة . اما المفاوضات التي يُشرع بها ، فينبغي ان تكون « مع حكومات موافق عليها من قِبَل مجالس وطنية تمثل واقعياً مجموع السكان ، وتلتئم متى امكن ذلك ، وتكون نقطة انطلاق المفاوضات ، معاهدات ١٩٣٦». وهكذا « يكون الانتداب الذي وُكِلَ الى فرنسا في المشرق ، قد بلغ نهايته ، واكتمل عمل فرنسا » .

وقد استقبلت خلال إقامتي في دمشق كلّ من فيها من اعيان

السياسة والدين والادارة ، وكان مـــن هؤلاء الكثير . وكان واضحاً للميان ، مـــن خلال الفطنة الشرقية المعتــادة ، ان سلطة فرنسا كانت موضع اعتراف بلا نزاع ، في شخصنا ، وان حبـــوط الخطة الالمانية الرامية الى تثبيت قدمها في سوريا ، إنما سجل في جزء كبير منـــه لزيادة رصيدنا المعنـــوي ، وأن كل امرىء أخـــيراً لم يكن ينتظر اعادة تسيير اعضاء الدولة ، وتركيز حكومة جديدة من احد سوانا . وكان من الجنرال كاترو الذي يعرف اهل البلاد وامورها معرفة معمقة ، ان أعاد الأمن ، والتموين ، والخدمات الصحية للمستشفيات ، ولكنه تمهل في تعيين الوزراء .

وانتهت المأساة على كل حـــال . ففي ٢٦ حزيران استولى ليجنتليوم على النبك ، وهو الذي ما انفك ، رغم جراحه الخطيرة ، عن قيـــادة جنوده ؛ وفي ٣٠ منه صد عنهـــا هجوماً معاكساً شديد الوطأة . وفي ٣ تموز (يوليو) عبر رتلٌ هنـــدي قادم من العراق نهر الفرات ، على جسر دير الزور الذي بقي سليماً بفضل مصادفة أستطيع القول انهـــا كانت مدروسة ، وتقـــدم نحو حلب وحمص . وفي ٩ بلغ البريطانيون على طريق الساحل مدينة الدامور ، وجزين الى الشرق منها . وفي ١٠ تموز ارسل دانتز سفنه الحربية وطائراته الى تركيـــا حيث عُزلت . ثم طلب وقف القتال ، فأجيب في الحال . وتم الاتفاق على ان يجتمـــع مطلقو الصلاحية بعد ثلاثة ايام في عكا .

كان هناك كثير من الدلالات تحدوني على التفكير ان ما يسفر عنـــه ذلك الاجتماع لن يكون متوافقاً ومصالح فرنسا . لا ريب اني كنت في ٢٨ حزيران قد نبّهت السيد تشرشل « الى الاهمية القصوى الـــتي يتسم بها ، من وجهة نظر تحالفنا ، سلوك انكلترا تجاهنا في الشرق » ؛ ثم لا ريب أني كـــبت من ذلك ان يحضر المفاوضة الجنرال كاترو . ولا

ريب ان مندوبينا في لندن كانوا قد تلقوا مني إرشادات تتعلق بالشكل الذي ينبغي لسلطتنا في المشرق ان تقوم عليه ، ليفيدوا منه في خطواتهم. ولكن الشروط التي صاغها إيدن من قبل للهدنة مع دانتز ، والجو الذي كان يسود الدوائر البريطانية ، وتعيين ويفيل نائب ملك للهند ومغادرته القاهرة ، وإحلال خلفه أوكنلك محله دون ان يلتحق بمركزه الجديد ، مما ترك المجال حراً امام اهواء « المستعربين » ، كل ذلك لم يكن يسمح لي بالشك ان تسوية الامور مما لا يُطمأن اليه ، وانها تسير من سيء الى اسوأ . ولكن الهدنة ستعقد آخر الامر على يد ولسن مع فرديلهاك . ولم يكن لديّ من وسائل لتحديد الاضرار سوى التهرب والاستعلاء ، وبلوغ غمامة أنقض منهـا على اتفاق لا يُلزمني بشيء ، وفي مستطاعي ان أمزقه في حدود الممكن .

كانت الغمامة برازافيل . اقمت فيها بينما كان يكتب في عكا ذلك النص الذي تجاوز بمعنـاه السيء ، وفي شكله ومحتواه ، كل ما كنت اتخوّف ان يكون .

الواقع ان نصّ الاتفاق كان يوازي إنتقـال سوريا ولبنان للبريطانيين على نحو خالص وبسيط ، فليس فيه كلمة واحدة عـن حقوق فرنسا سواء في الحاضر او في المستقبل ، ولا اي ذكر لدولتي المشرق ، فقد تخلت فيشي عـن كل شيء ووضعته في يد دولة اجنبية ، ولم تسع الا للحصول على شيء واحد : رحيل كل الجيوش ، وارتحال اكبر عـدد ممكن من الموظفين والرعايا الفرنسيين . وبهذه الطريقة ، يمتنع على ديغول ، قدر المستطاع ، ان يزيد في قواته ويحتفظ بمركز فرنسا في المشرق .

لقد أظهرت فيشي بتوقيع هذا الاستسلام انها امينة لمصيرها الكئيب ، ولكن الانكليز ظهروا انهـم يعيرون فيشي افكارهم الدفينة جميعها ؛ انهم يبدون ، وقـد تجاهلوا ، حتى بالكلام ، حلفاءهم الفرنسيين الاحرار

الذين أعانوهم اكبر العون ، بما بذلوا من جهد وإبداع ، على بلوغ غايتهم الستراتيجية – يبدون انهم يريدون الاستفادة في الظاهر ، من تخلّيات فيشي ليطلوا ، تحت ستار من قيادتهم العسكرية ، السلطة التي سلمها لهم دانتز في بيروت ودمشق . وكانوا ، عدا ذلك ، يوافقون فيشي على ترحيل جيوش المشرق بأسرع ما يمكن ، اذ يكون من شأن هذه ، حسب الاتفاق ، ان تتجمّع بأمر من رؤسائها وتنقل على السفن التي يبعث بها دارلان . وهناك ما هو أدهى وأمر ، فقد مُنِعَ على الفرنسيين الاحرار ان يتصلوا بفرنسيي فيشي ويحاولوا ضمهم اليهم . والعتاد الذي تتركه جيوش المشرق يسلم للانكليز وحدهم . اما القوات التي يقال لها « خاصة » اخيراً ، اي السورية واللبنانية التي اظهرت دوماً ولاءها لفرنسا ، حتى ان فيشي لم تجرؤ على استخدامها ضدنا في المعارك الاخيرة ، فإنها ستوضع كما هي ، تحت القيادة البريطانية .

وكان ان أعلنت أني ارفض اتفاق عكا حتى قبل ان اطّلع على التفاصيل ، مستنداً الى الاشارات ، المزوقة طبعاً ، التي كان قد اعطاها عنه مذياع لندن . وسافرت على الأثر ، الى القاهرة ، مبيناً للحكام والرؤساء العسكريين الانكليز ، في كل مرحلة من مراحل سفري الى اي حدّ بلغ الامر من الخطورة . هذا ما قمت به في الخرطوم مع الجنرال السير أرثر هودلستون حاكم السودان العام الودود ، الفائق ، وفي كمبالا مع الحاكم ، وفي وادي حلفا مع محافظ الدائرة ، بحيث تسبقني برقيات التحذير المنذرة بالويل . وفي ٢١ تموز (يوليو) اتصلت بالسيد اوليفر ليتلتون وزير الدولة في الحكومة الانكليزية ، وكانت حكومته قد أوفدته الى القاهرة ليجمع بها ، تحت سلطته ، جملة الشؤون البريطانية في الشرق .

لم يشأ « الكابتن » ليتلتون ، وهو الرجل الودود الرصين ، ذو العقل

المنفتح الناشط ، ان يبدأ علناً مهمته ، بكارثة . وقد استقبلني بشيء من الضيق ، فأجهدت نفسي في تجنب الانفجارات ، وتلفّعت بالجليد ، وصرّحت له بما يلي ، وهو الجوهري من حديثي اليه :

– « لقد استطعنا بفضل المعركة التي خضناها معاً ، ان نؤمّن ميزة استراتيجية مرموقة . ها هي الرهينة في المشرق صفيت وهي التي كان يضمها المحور في ميزان قواه على مسرح العمليات في الشرق ، ونالها بخضوع فيشي له . ولكن الاتفاق الذي عقدتموه مع دانتز هو مما لا يمكن القبول به . ومن واجبي ان اقول لك ذلك . ولا يمكن ان تنتقل السلطة في سوريا ولبنان من فرنسا الى إنكلترا ، فهي لفرنسا الحرة ، ولها وحدها أن تمارسها هناك ، وعليها أن تؤدي حسابها لفرنسا . ثم انني في حاجة ، من جهة أخرى ، الى ضم اكبر عدد من الجنود الذين حاربونا ؛ وترحيلهم السريع المكشّف ، كالاحتفاظ بهم مجمّعين ومعزولين ، ينزع مني كل وسيلة للتأثير فيهم . وبجمل القول ، لا يستطيع الفرنسيون الاحرار القبول بأن يكونوا مبعدين عن مورد فرنسي يمدهم بالنّجدات ، وهم لا يسلّمون ، على الاخص ، بأن يفضي جهدنا المشترك الى تركيز سلطتكم في دمشق وبيروت » .

أجاب السيد ليتلتون : « ليست لدينا النية في ذلك . وبريطانيا العظمى لا ترمي في سوريا ولبنان الى هدف سوى كسب الحرب . ولكن هذا يقتضي ان لا يكون الموقف الداخلي في البلدين ، مضطرباً . ويبدو لنا أيضاً أن من الضروري أن تنال دول المشرق الاستقلال ، الذي ضمنته لها انكلترا . وما دامت الحرب قائمة ، من جهة ثانية ، فان للقيادة العسكرية حقوقاً عليا فيما يتعلق بالأمن العام ، واليها اذن ، عند نهاية المطاف ، يجب ان ترجع القرارات التي تتخذ محلّياً . أما الشروط التقنية التي تبناها الجنرالان ويلسن وفرد يلهاك لانسحاب القوات الفرنسية

وترحيلها ، فانها تلبّي كذلك على نحو ما ، حاجة القيـــادة الى سير الامور بشكل منتظم . وانه ليسوؤنا ان لا تثقوا بنـــا ، فقضيّتنا ، بعد كل حساب ، مشتركة » .

وعدت الى الكلام ، فأجبته :

« – نعم ! قضيتنا مشتركة . ولكن وضعنا غير مشترك ، وعملنا يمكن ان يصبح مثل وضعنـا . ففرنسا في المشرق هي المنتدبة وليست بريطانيا العظمى . انتم تتكلمون عن استقلال الدول . ولكن نحن وحدنا ذوو الصفة لاعطائه ، وقد اعطيناه في الواقع ، ضمن شروط ولأسباب نحن وحدنا نحكم بها ، ونُسأل عنها . ومن المؤكد ان في مستطاعكم ان توافقوا من الخارج ، وليس لكم ان تتدخلوا معنا ، من الداخل . اما الامن العام في سوريا ولبنان ، فهذا من شأننا لا من شأنكم ابداً » .

وقال المستر ليتلتون : « – ومع ذلك انت أقررت في اتفاقنا في ٧ آب (أغسطس) ١٩٤٠ ، بسلطة القيادة البريطانية » .

أجبته : « – لقد أقررت فعلياً بهذه القيادة ، لاعطي توجيهات للقوات الفرنسية الحرة ، ولكن كان إقراري في الناحية الاستراتيجية وضد العدو المشترك ، فحسب . وما كنت قط لأفهم ان هذه الصفة تمتد الى السيادة ، الى السياسة ، الى الإدارة في مناطق وكِلت شؤونها الى فرنسا . وعندما نعود يوماً ما الى الارض الفرنسية ، هل تعيدون الى الذهن حقوق القيادة لتدّعوا حكم فرنسا ؟ ويجب ان اكرّر عليكم ، من جهة أخرى ، انني اصرّ على الاتصال بالعناصر التي كانت تدين بالطاعة لفيشي . وهذا مما يعود عليكم ، بعد كل حساب ، بالنفع ايضاً . وذلك لان من العبث الخالص تسريح جيوش كما هي ، شهدت وطيس القتال واكتوت بحرارته ، ثم نجد أنفسنا يوماً ما تجاه العدو في افريقيا ، او في مكان آخر . ويجب اخيراً ان يعود العتاد الفرنسي وقيادة الجيوش الخاصة ، الى فرنسا الحرة » .

وحينذاك ، ردّ السيد ليتلتون قائلاً : — « لقد أطلعتني على وجهة نظرك . وفيما يتعلق بعلاقاتنا المتبادلة في سوريا ولبنان ، نستطيع ان نتناقش حولها ، ولكن فيما يتعلق باتفاق الهدنة ، فانه موقّع ويجب تطبيقه » .

— « هذا الاتفاق لا يُلزم فرنسا الحرة ، فأنا لم اوافق عليه .

— « ماذا تنوي أن تفعل إذن ؟

— « هاك اياه : لي الشرف ان أعلمكم ، ازالةً لكل ابهام يتعلق بالحقوق التي ترغب القيادة البريطانية في سوريا ولبنان ، في ممارستها ، ان القوات الفرنسية الحرة لن تخضع بعد لهذه القيادة ، ابتداء من ٢٤ تموز ، أي بعد ثلاثة أيام . وأنا آمر الجنرال كاترو ، عدا ذلك ، ان يضع يده فوراً على السلطة في جميع أراضي سوريا ولبنان أية كانت المعارضة التي يلقاها ، ومن أي جانب أتت . وآمر القوات الفرنسية الحرة ان تتصل كما تستطيع ، بجميع العناصر الفرنسية الاخرى وان تأخذ لحسابها ما لديها من عتاد . واخيراً ، هناك تنظيم الجيوش السورية واللبنانية الذي كنا قد بدأنا به سنتابعه بنشاط » .

وسلمت الكابتن ليتلتون مذكرة معدّة من قبل ، وفيها تلخيص دقيق لهذه النتائج . وقلت له وانا استأذن بالانصراف :

« إنك لتعرف ما فعلته انا والذين يتبعونني ، ومـا نفعله في سبيل تحالفنا . فأنت تستطيع إذن ان تتبين مقدار أسفنا إذا تحتّم علينا ان نرى ذلك التحالف يتفكك . ولكننا لا نملك التسليم نحن ، ولا أولئك الذين يعلقون في بلادنا أملهم علينا ، ان يقـوم التحالف على حساب فرنسا ، وضد مصالحها . فإذا وقع ذلك ، لسوء الحظ ، فإننا نفضّل ان نعلق تعهداتنا تجاه انكلترا . وكيف دار الامر ، فإننا سنتابـع القتال ضد العدو من جهة اخرى ، بجميع ما لدينا من وسائل . وإني

لأنوي السفر الى بيروت خلال ثلاثة ايام ، وأنا مستعدّ لكل مفاوضة تبدو لك مرغوباً فيها ، اثناء هذه المدة » .

وغادرت ليتلتون الذي بدا لي ، على برودته الظاهرة ، قلقاً ، متأثراً . وكنت انا شخصياً جد منفعل . وبعد الظهر ، أكدت له كتابةً ان اتّباع القوات الفرنسية الحرة للقيادة البريطانية ينتهي أجله : الساعة الثانية عشر من ٢٤ ؛ غير أني مستعد لتسوية الكيفيات الجديدة للتعاون العسكري ، معه . وأبرقت اخيراً لتشرشل ما يلي : « إننا لنعتبر اتفاق عكا ، مخالفاً في محتواه ، لمصالح فرنسا الحرة العسكرية والسياسية ، أي لمصالح فرنسا ، وفي شكله نعتبر انه يسيء إساءة بالغة لكرامتنا . أتمنى ان تشعروا شخصياً ان مثل هذا الموقف البريطاني ، في قضية نحسبها حيوية ، يزيد في مصاعبنا الى حال من التفاقم خطيرة ، ويكون ذا عواقب أقدّر انها وخيمة ومؤسفة من وجهة المهمة التي شرعت فيها » .

كانت المبادرة لانكلترا ، فتنازلت عن موقفها . وفي المساء نفسه طلب السيد ليتلتون مقابلتي ، وراح يكلمني باللغة الآتية :

— « أنا أوافق على ان بعض المظاهر أوحت اليكم اننا نريد ان نحل في المشرق محل فرنسا . وأؤكد لك ان ذلك خطأ . وأنا مستعد ، تبديداً لسوء التفاهم هذا ، ان اكتب اليك رسالة تضمن تجردنا التام في المجال السياسي والاداري » .

أجبته : « سيكون ذلك تثبيتاً لمبدأ ، نغتبط به . ولكن يبقى اتفاق عكا الذي ينقض المبدأ على نحو مزعج ، والذي يوشك ، بالاضافة الى ذلك ، ان يؤول الى اصطدامات بين ذويكم الذين يطبقونه وذوينا الذين لا يقبلونه . ويبقى كذلك الامتداد للصلاحيات الذي تنوون اعطاءه لقيادتكم العسكرية في المشرق ، والذي لا يتوافق مع وضعنا هناك » .

– « أيكون لديك ما تقترحه حول هاتين المسألتين ؟ »

– « لا ارى من مخرج ، بالنسبة للأولى ، سوى عقد اتفاق فيما بيننا حول « تطبيق » معاهدة الهدنة ، نصلح به عملياً ، ما هو مرذول في النص . امـا المسألة الثانية ، فإن من الضروري والملحّ ان تتعهدوا بتحديد الصلاحيات لقيادتكم على الاراضي السورية واللبنانية ، في العمليات العسكرية ضد العدو المشترك » .

– « اسمح لي بأن افكر في ذلك » .

وتحسّن الجو . وانتهينا في ٢٤ تموز بعد تقلبات شتى ، الى اتفـاق « تفسيري » اولاً ، لاتفاقية عكا ، وهو ما فاوض فيه لحسابنا الجنرال لارمينا والعقيد فالان . وبه صرح الانكليز انهم مستعدون للسماح لنـا بالاتصال بقوات المشرق لنعثر فيها على من ينضوي الينا ، واعترفوا ان العتاد يعود الى القوات الفرنسية الحرة ، وتخلوا عن اخذ القوات السورية واللبنانية الى جانبهم ، وتحت لوائهم . وذكر ، عدا ذلك ، انـه اذا حدث إخلال جوهري باتفاق الهدنة من قِبَـلِ سلطات فيشي ، وجب ان يلحظ ، وتتخذ القوات البريطانية والقوات الفرنسية الحرة جميـع التدابير التي تراها ناجعة لإلحـاق قوات فيشي بفرنسا الحرة » . ومذ كانت هناك عدة « إخلالات جوهرية » قد لحظت وُكشفت ، فإن في الامكان الاعتقاد – وهذا ما اكده لي السيد ليتلتون نفسه – ان قضية مصير القوات برمتها ، ستكون موضع اعادة نظر .

لم يخالجني الشك في حسن نيـة الوزير الانكليزي ، ولكن ما الذي سيقوم بـه الجنرال ويلسن وزمرتـه من المستعربين ، رغم الاتفاقات المعقودة ؟ كان ان ابرقت مرة ثانية للسيد تشرشل ، محاولة مني لحملهم على ان يسلكوا سلوكاً حسناً ، ناشدته فيها : « ان لا يترك تحت تصرف فيشي جيشاً كاملاً ، بوحداته المشكلة » . وأضفت : « يجب ان اكرر

عليك انه يبدو لي ان ابسط قواعد الامن تقضي بوقف ترحيل جيش دانتز ، وترك الفرنسيين الأحرار يتبعون السبل التي يرونها ويفهمونها لإعادة هذه القوات المسكينة التي ضللتها دعاوة الأعداء ، الى حظيرة الواجب » .

وفي اليوم التالي ، ٢٥ ، كتب إلي السيد اوليفر ليتلتون وزير الدولة في الحكومة البريطانية ، باسم بلاده :

« إنّا لنعترف بمصالح فرنسا التاريخية في المشرق . ليس لبريطانيا أية مصلحة في سوريا ولبنان ، باستثناء كسب الحرب . وليست لدينا النية في التطاول بأي شيء ، على مركز فرنسا . لقد وعدت كلّ من فرنسا الحرة وبريطانيا العظمى ، سوريا ولبنان ، بالاستقلال . وإنّا لنسلّم طوعاً انه حين تُقطع هذه المرحلة ، ومن غير وضعها من جديد موضع جدل ، يجب أن يكون لفرنسا مركز سيطرة وامتياز في المشرق ، من بين أمم أوروبا جمعاء .. ولكم أن تأخذوا علماً بتأكيدات الوزير الأول ، الأخيرة في هذا المعنى . وأنا سعيد في أن أؤكد لكم اليوم ذلك » .

ويصرح السيد ليتلتون في الرسالة نفسها ، بقبول نص الاتفاق الذي وضعته بين يديه ، والمتعلق بالتعاون بين السلطات العسكرية البريطانية والفرنسية في الشرق . ونجم عنه أنه لن يكون للانكليز أن يتدخلوا في المجالين : السياسي والاداري في المشرق ، لقاء قبولنا أن تمارس قيادتهم التوجيه الاستراتيجي ، ضمن شروط أُحكم تحديدها ، من جهة أخرى .

وفي اليوم نفسه سافرت إلى دمشق وبيروت .

ولدى دخول رئيس فرنسا الحرة عاصمة سوريا ، وكان يوماً مشهوداً ، ظهرت الحماسة لجة ترتفع فوقها تلك المدينة الكبرى التي عاشت دهرها حتى ذلك اليوم ، وهي تبدي الفتور تجاه السلطة الفرنسية في كل مناسبة

وبعد بضعة أيام ، توجهت في ردهة الجامعة ، بخطاب الى شخصيات البلاد المجتمعين حول الحكومة السورية ، وأوضحت الهدف الذي وضعته فرنسا نصب عينيها بعد اليوم في المشرق ، فلقيت ترحيباً حاراً لا تشوبة شائبة .

ووصلت الى بيروت في ٢٧ تموز . كان الجنود الفرنسيون واللبنانيون يشكلون منها السياج لحظة وصولي ، بينما كان الأهالي ، وقد تجمهروا حول الطريق ، يصفقون ، ولا يأتلون تصفيقاً . وذهبت ، ماراً بساحة الشهداء المدوّية حماسة ، الى السراي الصغير ، حيث تبادلت علانية مع رئيس الحكومة اللبنانية السيد ألفرد نقاش كلمات يفعمها التفاؤل . ثم انتقلت الى السراي الكبير حيث التأم جمع الشخصيات الفرنسية . وكان معظمهم قد أولى الجهاز الذي انشأته فيشي مؤازرته ، وفي أغلب الاحيان ثقته ، غير أني تحققت مرة أخرى ، لدى اتصالي بهم ، من ثقل الأمر الواقع – حين يكون واقعاً حقاً – في المواقف التي يتخذها الناس ، وحتى في المبادىء ، اذ راح الموظفون والأعيان ، ورجال الدين جميعهم يؤكدون لي ولاءهم ، ووعدوني ان يقدموا لمصلحة البلاد ، في ظل السلطة الجديدة ، إخلاصاً لا يشوبه تحفظ . ويجب ان اقول إن هذا التعهد روعي تقريباً وأنجز ، باستثناء عدد ضئيل . وما انفك جميع الفرنسيين الذين ظلوا في لبنان وسوريا عن اظهار تعلقهم الشديد في احرج الظروف ، بفرنسا الحرة واجتماع شملهم عليها ، وهي التي كانت تقاتل لتحرير البلاد ، حاملة في الوقت ذاته حيث كانت تحل ، حقوق فرنسا وواجباتها .

وكانت الضرورة الملحة تقضي ، على وجه الدقة ، ان نعيد لتلك الحقوق والواجبات وزنها واعتبارها . فأنا لم اكد اجد نفسي في بيروت حتى لمست ، دون دهشة ، مقدار ما يستخف الجنرال ويلسن والعملاء السياسيون الذين كانوا يعاونونه ، بالاتفاقات التي عقدتها بنفسي مع ليتلتون

تحت ستار من اللباس العسكري . فقد كان كل شيء يجري في سوريا ولبنان ، كما لو ان احداً لا يدين لنا بشيء ، سواء في ذلك ما يتعلق بتنفيذ الهدنة وتصرف البريطانيين في بلدي المشرق .

كان دانتز ، وهو على وفاق تام مع الانكليز ، قد جمّع جيوشه في منطقة طرابلس ، وظل مستمراً في قيادتها ، وكانت الوحدات تخيم على مقربة من بعضها البعض ، مع رؤسائها ، واسلحتها ، وأعلامها ، تغدق عليها فيشي الصلبان والثناء . ولا تتلقى من الانباء سوى ما يرد عليها بطريق التسلسل ، ويغمرها جو نفسي من الارتحال الوشيك الى الوطن . وكانت السفن التي تقلها دفعة واحدة ، قد أعلن عنها ، من جهة اخرى ، في مرسيليا ، وما كان دارلان ولا الالمان ليضيّعوا يوماً واحداً في الاسراع بذلك الترحيل . وفيما كان الضباط والجنود ينتظرون ، وفقاً لتعليمات دانتز التي كانت تعمل بها كلياً لجنة الهدنة البريطانية ومراكز الشرطة الانكليزية ، اذا بهم يجدون انهم ممنوعون من كل اتصال برفاقهم الفرنسيين الأحرار ، وهؤلاء بدورهم لا يملكون ابداً ان يقتربوا من اولئك. وفي مثل هذه الأحوال ، يصبح من النادر ان ينضم الينا احد . وبدلاً من الاقناع الهادىء الذي كنا ندعي مراسه في ضمائر الرجال واذهانهم ممن وُضعوا منفردين بحيث يقدرون على تفهمنا واختيار السبيل التي يرونها ، لن يكون هناك سوى تبعير جماعي لجيش متكون ، أُغلق عليه في جو من الحقد والهوان ، ولم يبق له من رغبة سوى التخلي بأسرع ما يمكن، عن تضحياته الباطلة وجهوده المريرة .

وبينما ظلت التعهدات التي أعطيناها من الحكومة البريطانية فيما يخص تفسير هدنة عكا ، حبراً على ورق ، ظل كذلك بالضبط ، تخلي بريطانيا العظمى عن العمل السياسي في سوريا ، وتحديد السلطة لقيادتها العسكرية . واذا كانت التعديات في دمشق وحتى في بيروت ، قد احتفظت بشيء

من مظاهر السرية . فانها بدت على العكس من ذلك ، في المناطق الأكثر حساسية ، اذ راحت مطامح انكلترا او مطامح اتباعها الحسينيين الذين كانوا يهدفون إليها في كل زمان ، تعرض نفسها هناك عارية .

وقد عومل المقدم رينيه في الجزيرة ، وكان مندوب الجنرال كاترو ، معاملة المتهم من قبل القوات البريطانية هناك ، ومُنع من إعادة تشكيل الأفواج الأشورية - الكلدانية والكوكبات السورية التي تفرّقت موقتاً . وتغلغل إلى تدمر والبادية المستر غلوب المسمى « غلوب باشا » القائد الانكليزي لـ « قوات شرق الأردن » محاولاً ضمّ القبائل البدويّة للأمير عبدالله . وفي حوران ، عهد إلى عملاء الانكليز الضغط على الزعماء المحليين ، لحملهم أيضاً على الاعتراف بسلطة عبدالله ودفع الضرائب له . وكانت التقارير ترد من حلب وبلاد العلويين مزعجة منذرة بالشر .

ولكن البريطانيين كانوا يظهرون نياتهم علانية في جبل الدروز ، على الأخص . ولم تنشب مع ذلك ، أية معركة هناك ، وكان التفاهم قد تمّ بين كاترو وويلسن أن لا تدخله القوات الحليفة إلى أن يتخذ في شأنه قرار مشترك . وليس من العسير أن يتصور القارىء حالتنا النفسية حين علمنا أنّ لواءً بريطانيا تركز فيه ، وأن الكوكبات الدرزية أصبحت رسمياً في عهدة الانكليز ، وأن بعض الرؤساء استدعاهم وأنفق عليهم المستر باس المسمى « الكومودور باس » وصرحوا أنهم طرحوا السلطة الفرنسية ، وأن « بيت فرنسا » في السويداء حيث كان يقيم مندوبنا ، تحول بالقوة إلى مقرّ للقيادة البريطانية ، وأن هذه القيادة ساقت اليه أخيراً جنود العلم المثلث الألوان على مرأى من القوات والأهالي ، ورفعت علم بريطانيا (الأونيون جاك) .

كان الموقف يقضي أن نردّ في الحال ، على هذه الحركات . ففي ٢٩ تموز أصدر الجنرال كاترو أمراً ، بموافقتي ، للمقيد مونكلار أن يتوجّه

فوراً للسويداء على رأس رتل من الأشداء ، ويستعيد « بيت فرنسا » ، ويسترد سرايا الخيالة الدروز . وأحيط ويلسن علماً بذلك ، وفق الأصول في الوقت المناسب ، فوجّه أليّ في الحال رسالة تنطوي على بعض التهديد يناشدني أن أقف الرتل ، فأجبته : « أن ذلك الرتل بلغ مرامه ... وأن له بنفسه أن يسوّي مسألة تمركز القوات البريطانية والفرنسية في جبل الدروز مع كاترو – وهو الذي كان قد اقترح ذلك – ... وأنني أعتبر كتاباته التهديدية مما يؤسف له ... ولكن إذا أنا بقيت على استعدادٍ لتعاون عسكري مخلص ، فإن الواجب يقضي أن تظل حقوق السيادة لفرنسا في سوريا ولبنان ، وكرامة الجيش الفرنسي أعزّ من أن تنال بسوء » .

وحين وصل مونكلار إلى السويداء ، وفهم أن قائد اللواء البريطاني صرح أنه « إذا اقتضى الأمر القتال فليكن القتال » ، وكان جوابه بالايجاب . ثم لم يبلغ الأمر ذلك الحد إذ استطاع مونكلار أن يتمركز يوم ٣١ تموز في بيت فرنسا ، وأن يرفع فوقه علانية علم الألوان الثلاثة ، ويتخذ في المدينة ثكنة لجنوده ، ويعيد تشكيل سرايا الدروز تحت إمرة ضابط فرنسيّ . وبعد فترة وجيزة من الزمن غادر الانكليز المنطقة .

غير أن كثيراً من حوادث الاصطدام راحت تندلع في كل مكان ، بعد تسوية ذاك . فقد أعلن ويلسون من جهة أخرى ، أنه سينشىء ما دعاه « الحكم العرفي » ويتولى جميع السلطات ، فأخطرناه أننا نضع سلطاتنا ، في مثل هذه الحال ، على طرف النقيض من سلطاته ، وأن ذلك يؤدي إلى القطيعة . وقد امتنع ليتلتون عن التدخل في هذا النزاع ، رغم اطلاعه على أطواره . وكان من هذا الوزير البريطاني ، حتى لدى سريان الاشاعة أن كاترو أخذ في إجراء محادثات في بيروت ودمشق لعقد معاهداتٍ مقبلة ، أن كتب إلى كاترو مباشرة يطلب إليه

أن يحضر سبيرز في تلك المفاوضات ، كما لو أن الأمر كان بديهياً .
وهذا الادعاء المتواصل بحق التدخل في شؤوننا ، بلغ الآن الحد الذي لا يمكننا أن نحمله ، شأنه شأن الاعتداءات التي ما انفكت تتزايد ، فكان أن أبرقت في أول آب لكاسان ، أن يذهب لمقابلة إيدن ويقول له عن لساني « إن تدخل إنكلترا يسوقنا إلى أخطر التعقيدات ، وأن الفوائد المريبة التي يمكن ان تستلّها السياسة الانكليزية في المشرق ، من هذا النسيان لحقوق فرنسا ، لا بد أن تكون جد ضئيلة مقابل الأضرار الكبرى التي تنجم عن خلاف بين فرنسا الحرة وانكلترا » .

خلاف ؟ لم تكن لندن تريد . وأقبل في ٧ آب السيد ليتلتون يزورني في بيروت ، وقضى النهار كله معي . وكانت هذه الزيارة مناسبة لاجتماع يعتقد أنه كان حاسماً بالنسبة للبريطانيين في الشرق ، كما لم يسبق لهم قط أن عرفوا مثيله . فقد أقر الوزير بصراحة أن العسكريين الانكليز لم ينفذوا اتفاقاتنا المعقودة في ٢٤ و ٢٥ تموز ، وقد أكد « أن ليس في ذلك سوى تأخير يُعزى إلى نقص في الابلاغ ، وربما إلى سوء فهم آسف له من كل قلبي ، وأنوي أن أضع حداً لهذه الأشياء كلها » . وبدا دهشاً ومستاء من الحوادث التي افتعلها عملاء الانكليز ، وسردها كاترو عليه ، وصرّح أن فيشي أخلّت باتفاق الهدنة ، وأن الضباط البريطانيين مثلاً ، وعددهم اثنان وخمسون ، الذين أسروا في المعارك الأخيرة وكان ينبغي أن يعادوا بلا إبطاء ، لم يرجعوا بعد ، ولا يعرف حتى أين وضعوا ، وأن دانتز سينقل نتيجة لذلك ، إلى فلسطين ، وستقدّم لنا بعد اليوم جميع التسهيلات للقيام باستلحاق الجنود وضمّهم إلى صفوفنا .

لم أخفِ عن ليتلتون اننا كنا منهكين من الطريقة التي مارس بها حلفاؤنا التعاون ، وقلت له : « إنا لنفضل ان نسير في طريقنا الخاصة ،

وانتم تتبعون طريقكم ، على ان نستمر هكذا » . ومـــذ راح يشكو بدوره ، العوائق التي نضعها في طريق القيادة البريطانية اجبته انـه لا يمكن ان يكون ثمة قيادة حليفة مشتركة ، كما علمني « فوش » في سالف الايام ، من غير تجرد ونزاهة ، وان كل ما يقوم به هو شخصياً ، اي ليتلتون نفسه ، عن اخلاص ، وما يقوله لي او يكتبه ، لا يعبر عـن وضع الانكليز هنا ، ولا هم يتقيدون به . اما الخوض في حديث الدفاع عن المشرق ، على نحـــو ما كان يفتعل ويلسن ، لاغتصـاب السلطة في الجزيرة ، وفي تدمر ، وفي جبل الدروز ، فما ذلك سوى حجة واهية ، اذ كان العدو بعيداً ، في الراهن من الظروف ، عن جبـــل الدروز ، وتدمر ، والجزيرة . واذا كان من الحكمة مواجهة مثل هذا الاحـــتمال بعين يقظة ، اي حـين يعود خطر المحور يحوم بظله الثقيل على سوريا ولبنان ، فإن ما ينبغي عمله ، لأخذ الأهبة والاحتياط ، يصبح من شأن الدفاع المشترك بين فرنسيين وبريطانيين ، وليس سياسة اعتداء انكليزية على مجالنا بحال من الاحوال .

ومذ كان همّ المستر ليتلتون منصرفاً الى انهاء زيارته عنـد نقطة من نقاط الانسجام ، فقد وثب يستغل « خطة الدفاع » ، واقـترح عليّ إدخال الجنرال ويلسن للتكلم حولها ، وانا الذي لم اشأ ان يحضر اجتماعنا ، فأجبت سلباً ، ولكن قبلتُ ان يلتقي ويلسن وكاترو خارج بـــيروت ليضعا مشروعاً عملياً . وكان التقاؤهما في اليوم التالي ، ولم يسفر عملياً عن شيء . وذلك دليل على ان الجانب الانكليزي كان يفكر ، بمــا يخص المشرق ، في كل شيء ، ما عدا احتمال هجوم الماني . ومع ذلك ، وضع وزير الدولة بين يديّ ، وهو يغادرني ، رسالة تكرر التأكيدات التي سبق تقديمها حول تجرّد بريطانيا العظمى السياسي ، وقد اراد بهـا اظهار حسن نيته . وكان المستر ليتلتون قد اكد لي شفوياً انني سأكون

مرتاحاً لنتائج حديثنا العملية .

ولما كانت تلك الهزات ، على كثرتها ، لم تزعزع فرنسا الحرة ، فقد قرّ بي الرأي على ان في الامكان فعلاً ، ان نعتمد على مهلة في المصاعب التي نترقب حدوثها . غير اني لكثرة ما كان لديّ منها ، اصبحت واثقاً مع ذلك ، ان الازمة ستعود عاجلاً ام آجلاً . ولكن كان لكل يوم من عنائه ما يكفيه . وقد وجهت الى مفوضية لندن ، التي كانت تتخوف من موقفي ، وصفاً مني لصيغة النتيجة التي انجلت عنها المحنة الاخيرة ، وقد تغلبنا عليها بصورة موقتة ، وجهتُ رسائل تلخص تقلبات الحال ، وصرّحت اخيراً كنتيجة اخلاقية : « إنما تقوم عظمتنا وقوتنا في الصلابة وحدها لدى كل ما يتعلق بحقوق فرنسا . وسنكون في حاجة الى هذه الصلابة حتى نهر الراين ، الداخل ضمن جهودنا » .

ولقد اتخذت الامور ، على كل حال ، مجرى آخر ، انطلاقاً من ذلك الحادث . واستطاع لارمينا مع مساعديه ان يتصل بالوحدات التي لم تبحر بعد ، ويوجه النداء الأخير ، على عجل ، الى الضباط والافراد . وقيّض لكاترو ان يقابل بعضاً من الموظفين الذين كان يرغب شخصياً في الاحتفاظ بهم . واستقبلت بنفسي عدداً من الزائرين . وارتفع عدد المنضمين آخر الامر الى ١٢٧ ضابطاً ، وزهاء ٦٠٠٠ من صف الضباط والجنود ، اي ما يعادل خمس قوات المشرق . وأعيد ، عدا ذلك ، تشكيل العناصر السورية واللبنانية في الحال ، وقد بلغ مجموعها ٢٩٠ ضابطاً ، و ١٤٠٠٠ جندي . ولكن انتزع منا ، في النهاية ، ٢٥٠٠٠ بين ضباط ، ونواب ضباط ، وجنود في الجيش والطيران الفرنسيين ، بينما كان القسم الاكبر منهم يميل ، دون أدنى شك ، الى الالتحاق بنا ، فيما لو كان لدينا الوقت الكافي والوسائل اللازمة لتنوير اذهانهم . وذلك لان الذين نقلوا الى فرنسا بإذن من العدو ، متخلين عن امكانية العودة

اليها كمحاربين ، انما كانوا ، فيما اعلم ، ترهقهم الريبة والكآبة . اما من جانبي ، فقد كنت اشهد ، والقلب يغمره الأسى سفن النقل التي ارسلتها فيشي ، واراها بعد ان امتلأت ، تتوارى في عرض البحر ، وهي تحمل معها احدى فُرَص الوطن ، للظفر .

ولكن ما بقي هنا من تلك الفرص يمكن الآن ، على الاقل ، ان يُعَدّ للعمل ويعمل . وهذا ما جهد كاترو في مراسه بكل نشاط . لقد انطلق بكثير من الكرامة والتميّز يقود حركة فرنسا في المشرق ، وهو المالك حسّ العظمة الفرنسية والميل الى السلطة ، البارع في تسيير الرجال ، ورجال الشرق خاصة الذين يحسن النفاذ الى مراوغاتهم الدقيقة المفعمة بالأهواء الحارّة ، الواثق من قيمته الخاصة بمقدار ما هو مخلص لعملنا الجليل ، وللعمل الذي يشرف عليه . واذا خطر لي ان افكر مرة في ان ميله الى الإغراء ونزعته الى المسالمة لا ينسجمان دوماً ونوع الصراع الذي فرض عليه ، واذا تأخر ، على الاخص ، في تبين المكر الذي ينطوي عليه القصد البريطاني في اعماقه ، فإني لم اترك فرصة قط تمرّ دون الاعتراف بكفاءته ومزاياه الرفيعة . لقد خدم الجنرال كاترو فرنسا احسن الخدمة ، في موقف حرج جحود ، على نحو استثنائي بسبب من اوضاع رهيبة اساسية ، ونقص في الوسائل ، وعوائق كانت توضع في كل مكان .

كان عليه ، في مستهل امره ، ان ينظم من اعلى الى اسفل ، تمثيل فرنسا الذي تحول فجأة ، وفي كل مكان ، الى العدم تقريباً ، بسبب من ارتحال معظم الموظفين « ذوي السلطة » ، والقسم الاكبر من ضباط الاستخبارات . وقد اتخذ كاترو بول ليبيسّيه اميناً عاماً ، وهو الذي جاءنا من بانغكوك ، حيث كان وزيراً لفرنسا . وانتدب كلاً من الجنرال كوليه والسيد بيير بار : الاول لحكومة سوريا والثاني لحكومة لبنان ،

كما انتدب في الوقت نفسه السادة : دافيد ثم فوكينو في حلب ، ودي مونجو في طرابلس ، و « دومارساي » في صيدا ، والحاكم شوفلر ثم الجنرال مونكلار في بلاد العلويين ، والعقداء : بروسيه في الجزيرة ، ديزيتار في حمص ، اوليفا - روجيه في جبل الدروز . وقد ذهب هؤلاء لتأمين حضورنا ونفوذنا ، في كل واحدة من تلك المناطق .

يجب ان اقول : إن الاهالي اظهروا تجاهنا ترحيباً حاراً ، فقد رأوا في فرنسا الحرة ضرباً محبباً اليهم من الشجاعة ، والإثارة ، والفروسية ، بدا لهم انه يلبي ما كان في نظرهم فرنسا المثلى . وشعروا ، عدا ذلك ، ان حضورنا يبعد عن ارضهم خطر الغزو الالماني ، ويؤمّن غدهم في المجال الاقتصادي ، ويفرض حداً لمساوىء اسيادهم الاقطاعيين . وكانت بشارتنا الكريمة أخيراً التي اعلنّاها عن استقلالهم ، مثار أريحياتهم . وتظاهرات الحماسة التي قامت فور دخولي دمشق وبيروت ، تجدّدت بعد بضعة أيام في حلب ، واللاذقية ، وطرابلس ؛ وكذلك كان الأمر في كثير من مدن هذا القطر الباعث على الاعجاب ، ودساكره حيث تنهض كل محلة فيه وكل بقعة ، بأهازيجها وتقاليدها ، وكأنها شهود التاريخ .

ولكن ، إذا كان شعور الشعب يظهر بجلاء في جانبنا ، فإن رجال السياسة كانوا أقل صراحة في إبداء مشاعرهم ؛ كان أكثر الأمور إلحاحاً من هذه الجهة ، في كلّ من الدولتين ، تولية حكومة قادرة على الاضطلاع بواجبات جديدة ، كنا نريد أن ننقل إليها سلطات الانتداب ، ولا سيما من نواحي المال ، والاقتصاد ، والأمن العام . وكنا ننوي ، في الواقع ، أن لا نحتفظ من تلك السلطات بغير الدفاع ، والعلاقات الخارجية ، و « المصالح المشتركة » بين الدولتين اي : النقد ، الجمارك ، والتموين ، وسائر المجالات التي يستحيل نقلها فوراً ، كفصل سوريا عن لبنان بغتة .

وحين يسمح تطور الحرب من بعد ، يُعمدُ إلى إجراء انتخابات تسفر عن تولية سلطات وطنية تامّة . وفي انتظار ذلك ، راح تسيير حكومات ذات صلاحيات واسعة يرفع حتى الغليان ، حرارة الأهواء القبلية ، والمنازعات الشخصية .

وكان الموقف في سوريا ، من هذه الوجهة خاصّة ، معقداً . لقد حُمِل مندوب فرنسا السامي في تموز عام ١٩٣٩ ، وقد رفضت باريس آخر الأمر المصادقة على معاهدة ١٩٣٦ ، حُمل على إقصاء رئيس الجمهورية هاشم بك الأتاسي ، وحلّ البرلمان . وقد وجدنا مكانه في دمشق وزارة حصرت مهمتها في تسيير الأمور ، من غير أن تكتسب صفة حكومة وطنية ، وكان على رأسها خالد بك العظم ، وهو شخصية تتمتع باحترام وقيمة كبيرين . وكنت آمل أول الأمر ، أن اتمكن من إعادة الأمور إلى نصابها السابق في سوريا . وقد أظهر الرئيس هاشم بك ومعه رئيس حكومته الأخيرة جميل مردم بك ، كما أظهر السيد فارس الخوري رئيس المجلس المنحل ، خلال المحادثات التي أجريتها مع كل منهم بحضور الجنرال كاترو ، أظهروا مبدئياً أنهم مستعدون للعودة إلى الوضع السابق ؛ ولكن هؤلاء الثلاثة ، على أنهم كانوا ساسة محنكين ، ووطنيين مخلصين لبلادهم ، ورجالاً يرغبون في مداراة الصداقة الفرنسية ، ظهروا أنهم لا يتبينون الفرصة التاريخية التي سنحت لهم بكل ضخامتها ، ألا وهي تسيير سوريا على طريق الاستقلال ، بالاتفاق التام مع فرنسا ، والتجاوز بوثبة كبرى ، عن التحفظات والمآخذ السالفة . لقد وجدتهم يُفرطون في اهتمامهم ، على ما شعرت ، بالشكليات التشريعية ، ويفرطون أيضاً في حساسيتهم القومية . وقد دعوت الجنرال كاترو ، مع ذلك ، إلى متابعة المحادثات معهم ، وأن لا يأخذ بحل آخر ، إلا إذا كانت تحفظاتهم تحول ، على نحو قاطع ، دون الوصول إلى نتيجة .

وقد استطعنا في لبنان ، أن نمضي بسرعة أكثر ، من غير ان نعثر ، مع ذلك ، على الحلّ الأمثل ، فإن رئيس الجمهورية إميل إده ، صديق فرنسا الصامد ، ورجل الدولة المتثبّت ، كان قد استقال قبل ثلاثة أشهر من المعركة التي ساقتنا إلى بيروت ، ولم يحل أحد محله . وكانت مدة ولاية البرلمان قد انتهت ، من جهة أخرى ، منذ زمن طويل . وبهذا كان الوضع من ناحية المبادىء والدستور ، ممهداً ، خالياً من كل عقبة . بيد أنه لم يكن كذلك من ناحية الفئات السياسية ، إذ كانت هنالك خصومة جامحة تجعل إميل إده على طرف النقيض من شخصية مارونية أخرى : السيد بشارة الخوري . فهذا ، وقد انقطع لملابسات الشؤون اللبنانية ومنعرجاتها ، جمع حوله عديد الأنصار ، ومتعدّد المصالح . وصرّح لي السيد الخوري : « سبق ان بلغ إده المنصب الأعلى ، وجاء دوري لأن أكون رئيساً » . وكان أخيراً رياض الصلح ، زعيم مسلمي السنة المتحمس ، يلوّح حول المساجد بعلم القومية العربية ، ويحمل المتنافسيْن على الاستصراخ ، دون أن يخلصا ، مع ذلك ، إلى وفاق .

ورأينا ، في تلك الأحوال ، أن من الأفضل أن نرفع إلى السدة العليا ، الرجل الذي كان على رأس الحكومة ، أعني السيد ألفرد نقاش ، وكان أقلّ لمعاناً من أي من الثلاثة الآخرين ، ولكنه كفؤ ، وموضع تقدير . ولم يبدُ لنا أن وجوده على رأس الدولة في ظرف سياسي انتقالي ، يثير معارضة عنيفة ، وذلك لم يكن صحيحاً ، من جهة أخرى ، إلا في جزء منه ، فإذا كان إميل إده قد انسجم ، تكرماً ، واختيارنا الآني ، ورياض الصلح تجنب مضايقة من حمل العبء ، فإن السيد بشارة الخوري انطلق ضده في ميدان من الدسائس والمؤامرات .

لم يكن هذا الموقف السياسي في دمشق وبيروت ، لينطوي في ذاته على ما يقلق ، بانتظار الاستفتاء الشعبيّ الحر . ومـا كان النظام العام

يعاني أخطاراً تهدده . وكانت الادارة تؤدّي مهمتها . والرأي العام كان راضياً بجملته ، عن تأخير الانتخابات ، هذا التأخير الذي تفرضه قوة قاهرة ، وهي الحرب . كان في الامكان ، ومن الواجب دون أدنى شك ، بقول مختصر ، أن تمر فترة الانتقال بين نظام الانتداب وعهد الاستقلال ، بهدوء تام لو لم يبحث الانكليز خلالها ، على نحو ممنهج ، عن مبررات ومناسبات ، للتدخل .

وفيما كان المستر ليتلتون في القاهرة ، منهمكاً في المشكلات التي يطرحها تموين الشرق ، وفيما كان الجنرال ويلسن يتوارى مع حكمه العرفي وتطاولاته المباشرة ، تمركز سبيرز في بيروت ، كرئيس للارتباطات الانكليزية ، ليصبح في كانون الثاني (يناير) وزيراً بريطانيا مطلق الصلاحية لدى حكومتي سوريا ولبنان . وكان تحت تصرفه أوراق رابحة لا نظير لها : وجود الجيش الانكليزي ، عملاء الانتليجانس ذوو النشاط المتعدد الأشكال ، السيطرة على العلاقات الاقتصادية بين البلدين اللذين يعيشان على التبادل ، تأييد الدبلوماسية الأولى في العالم ، في جميع العواصم ، وسائل دعاوة كبرى ، مؤازرة رسمية من قبل دول عربية مجاورة : العراق وشرق الأردن ، حيث يسود أمراء حسينيون ، وفلسطين حيث يتظاهر المندوب السامي الانكليزي باستغاثات لا تنقطع يتلقى أصداءها ، ويطلقها عرب منطقته من « الجور » الذي يعانيه إخوانهم السوريون واللبنانيون ، ومصر أخيراً حيث لم يكن يجد الوزراء سبيلاً إلى الاستقرار في السلطة ، كالذين يطمحون إلى بلوغها ، من فرصة حقيقية آنذاك ، سوى التشفع برضا البريطانيين عنهم .

كان اللعب يمثل هذه الأوراق سهلاً ومغريا ، في الوسط الرشّاح ، الدساس ، النفعي الذي يفتحه المشرق لمشروعات إنكلترا . وكانت إمكانية قطيعة معنا ، وضرورة مداراة شعور فرنسا ، وحدهما ، هما القادرتان على

أن تفرضا على لندن بعض الاعتدال . غير أن هاتيك الامكانية نفسها ، وتلك الضرورة ذاتهـــا ، كانتا تحدان أيضاً من تباهينا وردودنا . فالضرر المادي والمعنوي الذي يعود علينا من جراء انفصالنا عن بريطانيا العظمى ، كان يقوم ، على التحقيق ، بدور فعّال في تعقلنا . ثم أمـا كانت فرنسا الحرة تفقد ، كلما اتسعت ، بعض الشيء من ذلـك الحزم المركـّز ، الذي أتاح لها ان تتغلب هذه المرة ، وهي تجـازف بكل شيء في سبيل كل شيء ؟ وكيف نكشف للشعب الفرنسي اخـيراً ، اساليب حلفائه خلال وقوعه في الهوة ، وفي الوقت الذي لم يكن فيه من شيء أهمّ من بعث الثقـة والامل في نفسه ، لنتمكن من حمله على قتال العدو ؟

لقد كان من تركيز سلطتنا في سوريا ولبنان ، على الرغم من كل شيء ، ان مدّ معسكر الحرية بنجدة كبرى ، فقد اصبحت مؤخرات الحلفاء في الشرق بعد اليوم ، مؤمّنة على نحو وطيد . ولا سبيل بعـد للألمان الى موطىء قدم في الاقطار العربية ، إلا اذا هم خاضوا في حملة واسعة وخطرة . وتركيا التي كان يأمل هتلر ان يثير من مخاوفها مـا يكفي لحملها على الانضواء الى المحور ، ويستخدمها جسراً بـين اوروبا وآسيا اصبحت في مأمن . وثبتت دفعة واحدة حيث كانت . واخيراً ، غدت فرنسا الحرة في مستوى جعلها قادرة على زيادة قواتها .

وقررنا ، من هـذه الجهة ، ان نركز في اراضي المشرق مع القوات السورية واللبنانية ، دفاعاً ثابتـاً في الساحل تكيلـهُ الى بحريتنـا ، واحتياطياً يتـألف من لواء فرنسي ، ونضع الجميع تحت إمرة الجنرال همبلو . ونظمنا في الوقت نفسه ، لنذهب ونقاتل في مكان آخر ، لواءين قويين مختلطين ومجموعة مصفّحة مع ما يلزمها . وكلف الجنرال دي لارمينا ، وقد حلّ محله مندوباً سامياً في برازافيل الطبيب اللواء سيسه ، بقيادة

هذا المجموع المتحرك ، المحدود - ويا للأسف ! - بملاكاته ، ولكنه يتمتع بقوة كبرى من السلاح بفضل العتاد الذي نلناه في المشرق . ولدى مروري ثانية بالقاهرة ، قابلت الجنرال أوكنلك القائد الاعلى الجديد ، وقلت له : « في اللحظة التي تصبح بها قواتنا جاهزة ، نضعها تحت تصرفك ، على ان يكون ذلك للقتال » . فأجابني : « سيقوم رومل مؤكداً بما يلزم لتسنح لي فرصة الافادة منها » .

ولكن ، بينما كانت الحرب في المتوسط تجري ضمن ظروف افضل بالنسبة لنا ولحلفائنا وتنحصر في تخوم مصر وليبيا ، كانت تشتمل على مساحات اوروبية شاسعة من البلطيق الى البحر الاسود . وكان الهجوم الالماني على روسيا يتقدم بسرعة . وأية كانت الانتصارات الاولى التي حققتها جيوش هتلر ، فقد كانت المقاومة الروسية ، تشتد مع ذلك يوماً بعد يوم . كانت هذه ، على صعيد السياسة كما هو الشأن على صعيد الاستراتيجية ، أحداثاً لا يرقى الى مداها حساب .

ورأت اميركا في تلك الاحداث ما يقدم لها فرصة اعمال حاسمة . ومما لا شك فيه ان الموقف كان يقضي ان نتوقع من اليابان الشروع قريباً ، بعملية إلهاء واسعة النطاق في المحيط الهادىء تحدّ من تدخل الولايات المتحدة وتعيقه . ولكن هذا التدخل صوب اوروبا وافريقيا ، اصبح بعد اليوم اكيدا ، ما دامت هناك مغامرة جبارة تمتص في أقاصي روسيا الجوهريّ من القوة الالمانية ، وما دام البريطانيون من جهة ثانية ، استطاعوا بمؤازرة الفرنسيين الاحرار ، ان يؤمنوا مواقع حصينة في الشرق ، وما دام المنعطف الذي سارت فيه الحرب اخيراً ، يبعث الامل ، وبالتالي روح التصميم على القتال ، لدى الشعوب المغلوبة على امرها .

ان ما ينبغي لي ان اقوم به الآن ، وكان في حدود المستطاع ، انما

هو التأثير في واشنطن وموسكو ، ودفع الاحداث لتنمية المقاومة الفرنسية ، واستثارة بجهود وسائلنا في طول العالم وعرضه ، وقيادته . وقد وجب عليّ ، من أجل ذلك ، أن أذهب الى لندن ، مركز المواصلات وعاصمة الحرب ، فكان ان بلغتها في اول ايلول (سبتمبر) ، وانا اشعر بعد التجارب الاخيرة ، بما ستكون عليه مِحَنُ العملية حتى اليوم الاخير ، ولكني كنت مقتنعاً بعد اليوم ، ان النصر قائم هناك ، في نهاية المطاف .

الحلفاء

لم تعد فرنسا الحرة ، حين اقتربت من عامها الثاني ، في نظر العالم هاتيك الزمرة المثيرة للدهشة التي قوبلت اول امرها بالسخرية ، والشفقة او الدموع . الآن اصبح الناس في كل مكان يواجهون واقعها السياسي ، والحربي ، ومجالات اراضيها ، واصبح لزاماً عليها انطلاقاً من ذلـــك الواقع ، ان تنفذ الى الصعيد الدبلوماسي ، وتحتل مكانتها مع الحلفاء ، وتظهر فيها كفرنسا المحاربة ذات السيادة التي يجب احترام حقوقها ، وإفراد حصتها من النصر . وكنت في هذا الشأن ، على استعداد لتحمّل فترات الانتقال . ولكني لم أشأ ، ولا كان في مستطاعي ، ان اتنازل عن شيء فـــيما يتعلق بالاساس . وكنت ، عدا ذلك ، أتعجل الغاية وكسب الموقع قبل ان تقرر الضربةُ الحاسمة مصير الحرب . لم يكن ثمة إذن وقت نضيعه ، ولا سيما الى جانب الكبار : واشنطن ، وموسكو ، ولندن .

كانت الولايات المتحدة تأتي كبار الأمور بمشاعر بدائيـــة ، وسياسة معقّدة . هكذا كان موقفها تجاه فرنسا عام ١٩٤١ ، فبينما كانت حركة الجنرال ديغول تبعث في أعماق الرأي العام الاميركي ردود فعل حماسية ملتهبة ، كان كل ما هو شبه رسمي يجهد ان يعاملها ببرودة او عـــدم اكتراث . اما الرسميون فقـد احتفظوا بعلاقاتهم كما هي ، مع فيشي ،

زاعمين انهم ينازعون بذلك النفوذ الالماني على فرنسا ، ويمنعون تسليم الاسطول ، ويحافظون على الصلة بفيغان ، ونوغيس ، وبواسّون ، الذين كان ينتظر منهم روزفلت ان يفتحوا له يوماً ما ابواب افريقيا . ولكن سياسة الولايات المتحدة الممثلة لدى بيتان كانت تقف ، وذلك تناقض يبعث على الدهشة ، مبتعدة عن فرنسا الحرة ، وحجتها انه لا يمكن الحكم مسبقاً على الحكومة التي توليها الامة الفرنسية مقاليدها بعد ان تتحرر . وجوهر الأمر ان الحكام الاميركيين كانوا يحسبون اتحاد فرنسا امراً مفروغاً منه ، فانسجموا تبعاً لذلك ، مع فيشي . واذا واجهوا ، مع ذلك ، في بعض نقاط من العالم ، ان يتعاونوا ، تحت إلحاح من ضرورات الكفاح ، مع هذه او تلك من السلطات الفرنسية ، فقد كانوا يرون في ذلك تسويات عارضة ومحلية ، لا أقل ولا أكثر .

هذه الحالات جعلت من العسير علينا ان نتفاهم مع واشنطن . وما كان للرئيس فرنكلن روزفلت ان يخفف من تعقيد المشكلة ، أو يقرّبها من حل مقبول ، فنحن ، وان كنا لم نتمكن بعد من التلاقي ، فقد كانت ثمة علامات تجعلني أحزر ما ينطوي عليه تجاهي من تحفظ . غير إني أردت ، مع ذلك ، ان اقوم بكل ما استطيع لأمنع الولايات المتحدة التي تهمّ بدخول الحرب ، وفرنسا التي أردّ عنها انها لم تخرج منها قط ، من ان تسيرا في طريقين مختلفين .

أما شكل العلاقات المراد إقامتها التي مضى رجال السياسة والدبلوماسيون والدعاة يتبارون في مناقشتها ، فيجب ان اقول إنه كان يومذاك ، مما لا يثير اهتمامي على وجه التقريب . كان يهمني واقع العلاقات ومحتواها اكثر بكثير من الصيغ المتتالية التي راح مشترعو واشنطن ينسجونها حول « الاعتراف » . ومع ذلك شعرت ان الاستقلال موضع شبهة وتساؤل امام ضخامة الموارد الاميركية وطموح روزفلت الى تطبيق

القانون وقول الحق في العالم. ولو اردت، باختصار، ان أحاول التفاهم مع واشنطن، لكان ذلك على اسس عملية، ولكن في وضع المنتصب واقفاً.

لقد أوفدت، خلال الحقبة البطولية، وهي الأشهر الأولى من قيام فرنسا الحرة، إفادة جزيلة، من غارو - دومبال وجاك دي سييس كناطقين بلساني. والمراد الآن ان نتعامل، فكلفت بليفن ان يشرع في إجراء الاتصالات، وكان يعرف اميركا. كان بارعاً، لا يجهل شيئاً من شؤوننا الخاصة. وقد حددت له منذ شهر ايار ١٩٤١ في برازافيل مهمته تلك، كما يلي: « تنظيم إقامة علاقاتنا الدائمة والمباشرة مع وزارة الخارجية، وعلاقات افريقيا واوقيانيا الفرنسيتين الحرتين مع اميركا، ومشترياتنا المباشرة من العتاد المفيد للحرب؛ إنهاض إعلامنا ودعاوتنا حتى يقفا على اقدامهما في الولايات المتحدة؛ إنشاء لجاننا فيها وتنظيم المؤازرة التي يوليننا إياها ذوو الإرادة الطيبة من ابناء اميركا». ولم يصل بليفن الذي سافر في مستهل حزيران، صفر اليدين. لقد قدمنا، في الحال، للولايات المتحدة، إمكانية تمركز قواتها الجوية في الكاميرون، وتشاد، والكونغو، وكانت افريقيا يومذاك ملحوظة مسبقاً، لأن تكون قاعدة لهم يستخدمونها في انطلاقهم صوب اوروبا ساعة يضطرون الى إعمال السلاح. وكان، عدا ذلك، عون جزر المحيط الهادىء حيث يرفرف صليب اللورين، إزاء التهديد الياباني، ذا أهمية بارزة بالنسبة اليهم.

والواقع ان الحكومة الاميركية لم تتأخر عن طلب الحق في استخدام بعض من قواعدنا الافريقية لطائراتها، ثم قواعد « هيبريد » الجديدة وكاليدونيا الجديدة. ولم تكن بعد محاربة، وانما توجهت بذلك الطلب لحساب شركة الطيران « البان أميريكان »، ولكن احداً لم يخالجه شك

في مدى ما تنطوي عليه خطوتها تلك .

كانت واشنطن تولي موقعنا المزيد من الانتباه ، كلما اقترب أجل الحرب من الولايات المتحدة ، ففي آب ارسلت الى تشاد بعثة ارتباط يديرها العقيد كننغهام ، واعلن كوردل هول على الملأ في ايلول ان هناك وحدة في المصالح بين الحكومة الاميركية وفرنسا الحرة ، واضاف : « إن علاقاتنا مع هذه المجموعة جدّ حسنة على جميع المستويات » . وفي اول تشرين الاول (اكتوبر) استُقبل بليفن رسمياً في وزارة الخارجية ، وكان نائب الوزير « سمنر ولز » هو الذي استقبله . وفي ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) شمل الرئيس روزفلت فرنسا الحرة بالإفادة من نظام « الإعارة والتأجير » في رسالة وجّهها الى المستر ستيتينيوس لأن « الدفاع عن الاراضي المنضمّة الى فرنسا الحرة حيويّ للدفاع عن الولايات المتحدة » . وفي نهاية الشهر نفسه ، استدعي فيغان من عاصمة الجزائر ، فذهب يحمل معه وهماً اميركياً ان واشنطن لا تعرف بعد الى اي جانب تنحاز . وفي هذه الاثناء ، عاد بليفن الى لندن ليكون عضواً في اللجنة الوطنية التي شكلتُها ، واصبح آدريان تيكسيه مدير مكتب العمل الدولي بالاتفاق مع نظارة الخارجية ، رئيس مفوضيتنا في اميركا . وانتظمت اخيراً علاقاتنا في لندن نفسها ، بيننا وبين المستر دريكسل بيدل ، سفير الولايات المتحدة لدى الحكومات اللاجئة في بريطانيا العظمى .

وفيما راحت العلاقات الرسمية الأولى تنعقد على هذا النحو ، كان يلاحظ تحولات شتى في الصحافة والاذاعة ، وهما الأداتان اللتان ظلتا حتى ذلك الزمن تحملان علينا ، هذا اذا هما لم تلتزما الصمت . وظهر من جهة اخرى ، بين الفرنسيين المغتربين وفيهم رجال بارزون ، رغبة في الارتباط بأولئك الذين يصونون علم البلاد . وهكذا كسب البروفسور فوسيّون موافقة زملائه على الطلب من الجنرال ديغول ان يصدر مرسوماً

يعترف فيه بالمؤسسة التي أنشأها ، وهو الذي كان قد أسس « المعهد الفرنسي » في نيويورك ، جمع فيه أئمة العلم والتاريخ والفلسفة .

وفي ٧ كانون الاول (دسمبر) ، زج الهجومُ على بيرل هاربر ، بأميركا في الحرب . واصبح في الامكان الاعتقاد ان سياستها بعد ذلك ، ستميل بهـا الى معاملة الفرنسيين الاحرار الذين كانوا يحاربون اعداءها بالذات ، على انهم حلفاء . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن . لقد كان من الحتم تحمل كثير من التقلبات الأليمة قبل ان تعقد واشنطن العزم على اعتبارنا أحلافاً . وهكذا كان من امر الحكومة الاميركية ان حجزت في مرافئها يوم ١٣ كانون الاول الباخرة « نورماندي » مع ثلاث عشرة سفينة فرنسية اخرى ، ولم تقبل التفاوض بشأنها ، حتى ولا التكلم معنا حول استعمالها ، وتسلحها . وبعد بضعة اسابيع ، كانت « نورماندي » طعمة للنيران في ظروف مفجعة . وخلال شهر كانون الاول (دسمبر) جرت مباحثات ميثاق الامم المتحدة ووقعته ٢٧ حكومة لم نكن نحن في عدادها . والعجب ، إن لم يكن الغموض ، في موقف الولايات المتحدة تجاهنا ، هو ما سينكشف على يد حادث يكاد لا يذكر لضآلته في حد ذاته ، ولكن ردّ الفعل الرسمي عليه من واشنطن جعله على جانب خطير من الاهمية . وربما كنت أنا الذي أثرته من جهتي ، لأحرك قرارة الاشياء ، كما يلقى حجر في غدير . والموضوع إنما كان انضمام جزيرتي سان – بيير و « ميكلون » .

لقد فكرنا فيها ، منذ البداية . لقد كان في الواقع ، معيباً ان يطلب الالتحاق بنا اهالي أرخبيل فرنسيّ صغير يقع على مقربة من « تير – نوف » (الأرض الجديدة) ، ويظلوا تحت نير فيشي . وكان وسواس البريطانيين الدائم ، غواصات الالمان على طريق القوافل الكبرى ، وان تتمكن هذه الغواصات من العثور يوماً ما على مساعدة تتلقاها خاصة ،

من محطة إذاعة كانت قائمة في سان ـ بيير ، ولذا كانوا ـ اي البريطانيون ـ يرغبون في انضمامها . ولكن لا بد ، حسب رأيهم ، من موافقة واشنطن على ذلك . أما أنا فكنت أتمنى أن تحصل هذه الموافقـــة ، ولكني لا أجدها ضرورة لا غنى عنها ، طالمـــا ان القضية كلها من شأن فرنسا وحدها . وقد زادني تصميماً على استعادة الأرخبيل الى فرنسا الحرة ، ما رأيت من تعامل الاميرال روبير ، مندوب فيشي السامي في جزر الأنتيل وغيانا وسان ـ بيير ، مع الاميركان ، مما لا يمكن ان يؤول إلا الى تحييد هذه الاراضي الفرنسية بضمانة مـــن واشنطن . وقررت العمل لدى اول فرصة ، حين علمت في كانون الاول ان الاميرال هورن أوفد من قِبَل الرئيس روزفلت الى « فور ـ دي ـ فرانس » ، ليضع مع روبير شروط تحييد ممتلكاتنا في اميركا والسفن الراسية في موانئها .

وقد سنحت تلك الفرصة على يد الاميرال موزيليه ، إذ كان عليه ان يذهب الى كندا لتفتيش الطرادة الغواصة « سوركوف » التي كانت متمركزة آنذاك في هاليفاكس ، ويفتش كذلك السفن الحربية الفرنسية التي تواكب القوافل ، فاتفقت معه على اجراء العملية مبدئيـاً . والذي حدث انــه جمع في هاليفاكس يوم ١٢ كانون الاول ، سفـن الحرب « ميموزا » ، و « أكوني » و « آليس » حـــول « سوركوف » وتأهب للمرور في سان ـ بيير وميكلون . ولكنه حسب انّ عليه ان ينال موافقة الكنديين والاميركيين في أوتاوا مسبقاً ، وبهـذا انكشف السر ، فرأيت اني مرغمٌ على إعلام البريطانيين تجنباً لمظاهر المداجاة . وكان جواب واشنطن لموزيليه : « لا » عن طريق وزيرها في أوتاوا ، وصرّح الاميرال انه ما دام الامر كذلك ، فهو يعدل عن الذهاب الى الجزيرتين . وكتبت الى حكومة لندن انهـا لا تمانع ابداً من جهتها ، ولكنها تطلب ، نظراً لمعارضة اميركا ، تأجيل العملية . واتجه الرأي

في تلك الظروف ، الى الاذعـــان لما تمليه ، إلا اذا طرأ جديد عـلى الموقف

ولكن الجديد طرأ ، فقد أحاطتنا الفورين أوفيس علماً بعد ساعات من جوابها - أما كان ذلك مقصوداً ؟ - ان الحكومة الكندية بالاتفاق مع الولايات المتحدة ، إن لم يكن بإيعاز منهـا ، قررت النزول بالعدد والعدة اللازمة في سان بيير ، طوعاً او كرهاً ، لتأمين محطة الاذاعة . فأرسلنا على الفور احتجاجاً الى لندن وواشنطن . غير انه مذ اصبحت المسألة قضية تدخل اجنبي في ارض فرنسية ، بدا لي ان اي تردد بعد ذاك ، امر غير مسموح بـه إطلاقاً ، فأصدرت للأميرال موزيليه أمراً بضم سان بيير وميكلون توا . وهـــذا ما فعله عشية الميلاد ، وسط حماسة الأهلين الكبرى ، من غير ان تطلق رصاصة واحـــدة ، وكان استفتاءٌ نالت به فرنسا الحرة اكثرية ساحقة . وتجند الشبان في الحال ، وألّف الراشدون من الرجال مفرزة تؤمن الدفاع عن الجزر ، وعُيّن سافاري محافظاً ، حل محلّ الحاكم .

كان في الامكان الاعتقاد ان هذه العملية الصغيرة التي نفذت بتوفيق رائع ، ستنال موافقـة الحكومة الاميركية من غير ضجة ، أو أنهـا ستقابل على الأكثر بشيء من الاستياء في مكاتب نظارة الخارجية . ولكن الذي حدث ، ان عاصفـة حقيقية هبّت في الولايات المتحدة ، والمستر « كورديل هل » نفسه هو الذي أثارها في بلاغ أعلن به أنه قطع إجازته في عيد الميـلاد ، ووصل على جناح السرعة الى واشنطن ، وأضاف سكرتير الدولة : « إن العمل الذي قامت به في سان - بيير وميكلون السفنُ التي يقال إنها فرنسية حرة ، إنما جرى دون ان تكون حكومة الولايات المتحدة على علم سابق به ، ودون ان تكون قد وافقت عليه بحال » . ويُنهي بلاغه مصرّحاً ان حكومته « سألت الحكومة الكندية

عن التدابير التي تنوي هذه اتخاذها لإرجاع « الحالة الراهنة سابقاً » الى الجزيرتين » .

وظلّ لغط الصحافة وهيجان الرأي العـــام في الولايات المتحدة ، طوال ثلاثة اسابيع ، يتجاوز حدود التصوّر . ذلك بأن الحادث قدم فجأة للجمهور الاميركي فرصة المفاضلة بـــين سياسة رسمية لا تزال تؤثر بيتان وشعور كثرة من الناس تميل الى ديغول . اما نحن فكنا نرمي ، وقد بلغنا الهدف ، الى حمل واشنطن على فهم للأمور أضبط وأصح . ومذ كان تشرشل في كوبيك يتشاور مع روزفلت ، فقد أبرقت للوزير الاول أعلمه بالأثر السيء الذي احدثه موقــف نظارة الخارجية في الرأي العام الفرنسي . وأجابني تشرشل انه سيبذل ما في وسعه لتسوية الأمر ، ملمحاً في الوقت نفسه الى مثل تلك التطورات المؤاتية التي حيل دونها . وسلّم تيكسيه ، من جانـــبي ، المستر كورديل هل في الوقت نفسه ، معلومات مطمئنة ، بينما راح روسّي دي سال يستخدم صلاته بالصحافة الاميركية في الوجهة نفسها ، وكنا نجهد في ان يستعيد المستر و. بليت آخر سفير للولايات المتحدة لدى الجمهورية ، نشاطه ، وكان يقيم آنذاك في القاهرة .

لم يبق في وسع حكومة واشنطن ، إزاء النقد الشديد في بلادها ، وتنكر بريطانيا وكندا الصامت ، لها ، إلا ان تسلّم في نهاية المطاف بالامر الواقع . وقد حاولت التهويل ، مع ذلك ، قبل ان تسلم به ، وذلك في ان تستخدم توسط الحكومة البريطانية . ولكن هذا الوسيط نفسه لم يكن مقتنعاً بصواب موقفه . وقد قابلني المستر إيدن ، وكرّر مقابلتي في ١٤ كانون الثاني (يناير) وتظاهر بالإلحاح في ان نقبل تحييد الجزر ، واستقلال الإدارة عـــن اللجنة الوطنية ، وإقامة إشراف محلي يؤمنه موظفون حلفاء . وقد رفضت أيّ حل من هذا القبيل .

أخبرني المستر إيـــدن أن الولايات المتحدة تفكر في إرسال طراد ومدمرتين الى سان – بيير وقال لي : « ماذا تفعل في هذه الحالة ؟ » فأجبته : « تتوقف السفن الحليفة عند حدود المياه الاقليمية الفرنسية ، ويذهب الاميرال الاميركي لتناول غدائه مع موزيليه الذي يكون مغتبطاً به ، على وجه التأكيد » – « ولكن اذا تجاوز الطراد الحدود ؟ » – « يقوم رجالنا بتوجيه الإنذارات المعتادة » – « فإذا تمدّى هذه الانذارات ؟ » – « سيكون إذ ذاك الويل الكبير ، لأن على جنودنا ان يطلقوا النار » . ورفع المستر إيدن ذراعه الى السماء ، فأنهيت الحديث مبتسماً وقلت : « إني لأفهم استغاثاتك ، ولكن لي ثقة بالديمقراطيات » .

لم يبق إلا ان نقلب الصفحة . وكان ان استقبل المستر كورديل هل في ١٩ كانون الثاني تيكسيه وسرد عليه ، من غير حـــدة ، اسباب السياسة التي اتبعها حتى ذلك اليوم . وبعد قليل أخذ علماً بالجواب الذي كنت قد أنهيته اليه . وحين عاد المستر تشرشل في ٢٢ الى انكلترا ، طلب ان اقابله ، وقابلته مع بليفن . واقـــترح علينا الوزير الاول ، ويجانبه ايدن ، من قبل واشنطن ولندن وأوتاوا ، تسوية يبقى معها كل شيء على حاله في سان – بيير وميكلون ، على ان نـــترك للحكومات الثلاث ، لقاء ذلك ، ان تنشر بياناً يصون ماء الوجه مهما كان ضئيلاً ، لنظارة الخارجية . وقال لنا الوزيران البريطانيان : « وبعد ذلك ، لن يتدخل احد في هذا الشأن » . وقبلنا التسوية . غير ان شيئاً لم يُذع ، آخر الامر . لقد احتفظنا بسان – بيير وميكلون ، ثم لم يهتم احد بها بعد ، من جانب الحلفاء .

وأيّاً كان وضع واشنطن القانوني والعاطفي تجاهنا ، فإن دخـــول الولايات المتحدة الحرب فرض عليها ان تتعاون مع فرنسا الحرة . كان ذلك صحيحاً ، في الراهن الفوري ، من اجل الباسيفيك ، حيث كانت

ممتلكاتنا : كاليدونيا الجديدة ، وجزر المركيز ، وتواموتو ، والسوسيتي ، وحتى تاهيتي ، امام تقدم اليابانيين الصاعق ، قابلة لان تصبح في يوم او آخر ، ضرورية للاستراتيجية الحليفة . وكان بعضها قد استخدم كمحطات جوية - بحرية . وكان النيكل الكاليدوني ، عدا ذلك ، مما تحتاج اليه كثيراً صناعة الاسلحة . وقد ادرك الاميركان ، على وجه السرعة ، الفائدة التي يجنونها من التفاهم معنا . وكذلك هي حالنا ، اذ لم يكن في مقدورنا ان ندافع وحدنا عن جزرنا ، عند الاقتضاء . وكانت لجنتنا الوطنية قد قررت مسبقاً ، عن روية ودرس إذن ، ان نلبي كل طلبات الاميركان فيما يخص ممتلكاتنا في المحيط الهادىء ، لقاء شرط واحد ، وهو ان يحترموا فيها السيادة الفرنسية وسلطتنا الخاصة .

ثمّ يجب ان تمارس هذه السلطة محلياً على نحو مُرضٍ ، ولم يكن ذلك امراً سهلاً ، نظراً لبعد جزرنا وتشتتها ، ونقص الوسائل ، وطبيعة السكان ، وهم المتعلقون اكيداً بفرنسا وقد اثبتوا ذلك بانضمامهم الينا ، ولكنهم من جهة ثانية ، مشاغبون وقابلون للأخذ بالدسائس التي تبعث عليها المصالح المحلية او الاجنبية . ويضاف الى ذلك ان من بين العناصر المجنّدة ، وكثيراً من افضلها ، تركوا اوقيانيا امتثالاً لأوامري ، وقدموا الى افريقيا ، ليحاربوا مع القوات الفرنسية الحرة . وهكذا أرسل الى الشرق فوج الباسيفيك الباسل الرائع مع غيره من جنود الافواج الاخرى تحت امرة المقدم بروش ، وقد اكتسبت هذه المساعدة الاوقيانيـــة في المعارك لتحرير فرنسا ، معنى سامياً . ولكن الدفاع المباشر عن منشآتنا اصبح معها اكثر صعوبة . وكان من حالة الحرب اخيراً ، ان بلبلت الحياة الاقتصادية لتلك الممتلكات النائية . وجملة الموقف ان الحاجة الى سلطة قوية ومتمركزة قدر المستطاع ، كانت تفرض نفسها في اوقيانيا .

كنت قد رأيت ، منذ ربيع ١٩٤١ ، ان من الصالح ان أرسل

اليها ، في جولة تفتيشية ، الحاكم العام برونو الذي اصبح متفرغاً منذ ضمّ لوكلير الكاميرون . ولكن برونو اصطدم ، بعنف اغلب الاحيان ، وموظفين يعزون اليه ، ولديهم سبب ظاهر ، نية الحلول محلهم مع اصدقائه . وكانت « بابيت » مسرح احداث مضحكة ـ مبكية ، فقد شهدت الحاكمَ ، والأمين العام ، وقنصل انكلترا يُعتقلون بأمر من برونو ، بينما كان الحاكم سوتو في « نوميا » يذيع في الملأ سخطه على المفتش. كان لا بد من اجراء تدابير استثنائية ، فعينتُ في تموز (يوليو) ١٩٤١ نقيب البحرية ـ ثم اميرال ـ تييري دارجنليو مفوضاً سامياً في الباسيفيك بجميع الصلاحيات المدنية والعسكرية ، ومهمة : « إعادة سلطة فرنسا الحرة نهائياً من غير أنصاف حلول ، وتعبئة موارد البلاد في سبيل الحرب ، وتأمين الدفاع عن الأراضي الفرنسية بالوفاق مع الحلفاء ، ضد جميع الاخطار الممكنة ، والمحتملة في وقت قريب » .

كانت لي ثقة بدارجنليو ، فإن رفعة نفسه وحزمه كانا يضمانه معنوياً في مستوى يسيطر به على الدسائس . وكانت كفاءاته كرئيس تجعلني على ثقة من ان وسائلنا تستخدم بمضاء ولكن بحسن فهم ، وستلاقي كفاءاته كديبلوماسي مجالاً رحباً تجول فيه ، وذلك لانه اذا كان قد ادرك بفطرته ، ولي الجرأة ان اقول بإلهامه ، ان عمل فرنسا الحرة يشبه ضرباً من صليبية ، فانه كان يرى ، وهو على صواب ، ان هذه الحرب الصليبية يمكن ان تكون موفقة . وقد وضع الطراد الخفيف « تريونفان » وسفينة الاستكشاف « شيفروي » تحت تصرف المفوض السامي في الباسيفيك . وشرع هذا بتنظيم الامور في تاهيتي ، فعين فيها أورسيلي حاكماً ، بينما قدم برونو و « ضحاياه » يفسرون في لندن ما حدث لهم ؛ ومذ كان الموقف في الشرق الأقصى برمته ، من جهة اخرى ، لا يكف عن التجهّم ، فقد ارتأى دارجنليو

ان يضيف الى مهمته الاولى ، تنسيق العمل بين ممثلينا سواء في اوستراليا وزيلندا الجديدة ، والصين ، وفي هونغ كونغ ، وسنغافورة ، ومانيلا ، وباتافيا . وذهب إسكارا في الوقت نفسه ، وهو الشهير لدى الصينيين كمشترع دولي ، الى تشونغ - كنغ ، ليعقد الصلة مع المارشال تشان - كاي - شك ، وبعدّ إقامة علاقات رسمية .

والتهب الباسيفيك دفعة واحدة في مستهل كانون الاول ، إذ نزل اليابانيون بعد مفاجأة بيرل هاربر الرهيبة ، في الملايو البريطانية ، وجزر الهند الهولندية ، والفيليبين ، واستولوا على غوام ، و « وايك » ، وهونغ كونغ . وحاصروا في مستهل كانون الثاني جيشاً بريطانيا في سنغافورة ، اضطر بعد قليل الى الاستسلام ، واستولوا في الوقت نفسه على مانيلا ، وحوصر ماك آرثر في شبه جزيرة باتان . وما اعرفه عـن هذا الجنرال كان يوحي الي الكثير من تقديره . وقد التقيت يوماً « جون وينانت » سفير الولايات المتحدة في لنـدن ، وكان دبلوماسياً مفعماً بالذكاء والشعور ، وصرّحت له بما يلي : « علي أن اقول لك كجندي وكحليف ، ان افتقاد ماك آرثر ويـل كبير ، فليس في معسكرنا سوى قلة من الرؤساء العسكريين من الطراز الاول ؛ وهو احد هؤلاء . ولا يجوز ان نخسره . ها نحن نفتقده اذا لم تصدر اليه حكومته الامر بأن يغادر « باتان » بنفسه على ظهر زورق حربي ، وحماية جو - ماء . اعتقد ان مثل هذا الامر يجب ان يوجه اليه ، واطلب منك ان تطلع الرئيس روزفلت على رأي الجنرال ديغول في هـذا الشأن » . واني لأجهل ما اذا كانت خطوتي هذه قد اسهمت أم لا ، في القرار الذي اتخذ . غير اني علمت باغتباط كبير ، على كل حال ، ان الجنرال ماك آرثر استطاع ، بعد وجيز من الوقت ، ان يبلغ ملبورن .

كانت كاليدونيا الجديدة إذن مهددة منذ بداية كانون الاول (دسمبر)

وكان الخطر يشتد بمقدار ما هي ملاصقة لأوستراليا ، هدف العدو الرئيسي . ثم إن فيشي ، وقد توقعت احتلال اليابانيين جزرنا في أوقيانيا ، وارادت دون ريب ، ان تحاول استعادة السلطة فيها تحت ستار الغزاة ، عيّنت الاميرال ديكو مفوضاً سامياً للباسيفيك . وهذا لم يــترك مناسبة إلا اغتنمها لتحريض الاهلين في كاليدونيا الجديدة ، من مذياع سايغون ، على التمرد ضدّ فرنسا الحرة . وكان دارجنليو ، وهو يتقلب في لجة من الهموم والمصاعب ، يوجّه الي تقارير ملأى بالحماسة ، وتنأى عن الاوهام . أما من جانبي ، فقد وجهت بضعة إمدادات امكن الحصول عليها ، الى نوميا ، وبيّنت له في الوقت نفسه اعتقادي انه قادر على انقاذ الشرف ، على الاقل . وكان المدد الذي أرسلته يتألف من : ملاكات عسكرية ، ومدافع بحرية ، طراد مساعد « كاب ديبالم » ، والغواصة « سركوف » أخيراً التي كان يعتقد ان كفاءاتها في الغوص وسَعَتها تجد مجالها العملي في الباسيفيك . ولكن هذه الغواصة — وهي اكبر غواصة في العالم — ارتطمت ، وياللأسف ، ليلة ١٩ شباط على مقربة من مدخل قنــاة بناما ، بسفينة شحن ، وغرقت على رأسها مع ربانهـا : نقيب السفينة الحربية « بليزون » ونوتيته جميعهم البالغ عددهم ١٣٠ رجلاً .

أخذ التعاون مع حلفائنا ينتظم ، في هذه الاثنــاء ، تحت ضغط الحوادث . ففي ١٥ كانون الثاني ، وجهت نظارة الخارجية الى مفوضيتنا في واشنطن مذكرة توضح التعهدات التي التزمت بها الولايات المتحدة فيما يتعلق بـ « احترام سيادتنا في جزر الباسيفيك الفرنسية . وان القواعد والمنشآت التي يرخص لها تظلّ حقاً مكتسباً لفرنسا ، وان حق التبادل يعترف بـه لفرنسا في الاراضي الاميركية إذا بقيت القواعد الاميركية بعد الحرب » . وفي ٢٣ كانون الثاني أبرق لي المستر كوردل هل ان « رؤساء الاركان العامة الاميركية والبريطانية يقدرون أهمية كاليدونيا

الجديدة ، وانهم يتخذون التدابير لتأمين الدفاع عنها وفق الشروط المبينة في مذكرة ١٥ كانون الثاني » . وأعرب ناظر الخارجية بودّ عن « أمله في ان يستمر في المستقبل العون الرائع والتعاون اللذين قدّمهما من قبل المفوض السامي الفرنسي » .

وتبعت هذه الاساليبَ الطيبة ، تدابيرُ عملية ، إذ تمكنتُ في ٢٥ شباط ان أخبر دارجنليو ان الجنرال « باتش » الذي عين قائداً للقوات البرية الاميركية في الباسيفيك ، تلقى من حكومته الامر بالذهاب الى نوميا ، وان يتفاهم وإياه « مباشرة وبروح ودية كبرى » حول تنظيم القيادة . وفي ٦ آذار كانت اللجنة الوطنية الفرنسية مدعوة لإيفاد ممثل عنها في « لجنة الحرب للمحيط الهادي » التي انشئت في لنـــدن حيث يجتمع مندوبون عن بريطانيا العظمى ، وزيلندا الجديدة ، وأوستراليا ، والولايات المتحدة ، لتبـــادل المعلومات والمقترحات . وفي ٧ آذار ، طلبت الينا الحكومة الاميركية الإذن بإقامة قواعد في ارخبيل تواموتو وجزر السوسيتي ، ولُبّي طلبها . ووصل الجنرال باتش اخيراً الى نوميا في ٩ آذار ، وكانت تتبعه قوات مهمة .

لقد اصبح لدى الممتلكات الفرنسية في الباسيفيك بعد اليوم ، فرص للتفلت من الغزو . ولكن كان علينا ، مع ذلك ، ان نتغلب على ازمة دقيقة في تلك المنطقة ، قبل ان يسير التعاون بيننا وبـــين حلفائنا كما كان يجب ان يسير . ولا ريب ان الانسجام ساد العلاقـات اول الامر بين باتش ودارجنليو . ولكن وجود القوات والدولارات والمخابرات السرية الاميركية سيزيد عمـا قريب اسباب الاضطراب الكامنة لدى اناس تقض مضاجعهم حتى الحصار . وهنـــاك قسم من الميليشيا عملت فيه المطامح الحلية عملهـــا ، فتفلت من المفوض السامي ، ووضع نفسه تحت إمرة باتش الذي ارتكب خطأ التغطيـة لذلــك العصيان . ثم إن الحاكم

سوتو الذي لم يطق ، من جهة اخرى ، ان يكون مرؤوس دارجنليو ، راح يسعى وراء شعبية شخصية يستطيع ان يفيد منها . وكان مني ان دعوت سوتو الى لندن ، بعد اصطبار مدة من الوقت ، لأعطيه منصباً يتوافق مع الخدمات التي أدّاها ، فقرر أول الأمر ان يلبّي دعوتي ، غير انه عاد واحتج « باستياء أثاره الأمر الذي تلقاه في اوساط الاهلين » وأعلن أنه يأخذ على عاتقه « التمهل في السفر » .

إلا ان الحاكم سوتو أبحر تلبية لدعوتي متبعاً الأسلوب اللائق متذرعاً بالحزم المنشود ، وأوفد مونشان من تشاد ليحل محله ، والعقيد دي كونشار من لندن ، ليقود القوات . ولكن تبع ذلك في نوميا والأدغال ، مظاهرات عنيفة كان الاميركان يشجعونها علناً . وخالجني الشعور بأن حركة مزعجة تدبّر للآتي من الأيام ، فحذّرت واشنطن ونبهت ، من جهة اخرى ، باتش أننا « لا يمكن ان نقبل تدخله في شأن فرنسي » غير أنني أوعزت في الوقت نفسه الى دارجنليو « ان يبذل أقصى جهده في توطيد علاقات شخصية وثيقة مع باتش ، وان يظهر ، إذا أمكن ، بعض السذاجة تجاه أهالٍ لا يرقى شك الى هياجهم » . واستعاد الحس السليم حقوقه كاملة بعد ثلاثة ايام من الاضطرابات ، كما استعاد دارجنليو جميع مقومات القيـــادة . وكان ذلك امراً لا ندحة عنـه ، لأن آخر قوات المقاومة الاميركية في الفيليبين استسلمت في ٦ ايار في كوريجيدور ، و ١٠ منه في منداناو ، بينما نشبت معركة بين اسطولي اليابان والولايات المتحدة في الكوراي شمال شرقي اوستراليا ، توقف عليهـا كل شيء ، واصبح من المحتمل ان تهاجم نوميا بين لحظة واخرى .

وتراصّ الاهالي صفاً واحداً ، حول السلطة الفرنسية ، امام الخطر الداهم وهم يشجبون الاضطرابات الأخيرة . ونقل عـــدد من الاشخاص المشاغبين ليخدموا في سوريا . وذهب باتش من جانبه لمقابلة دارجنليو ،

يعتذر له عن « سوء التفاهم » الذي أقحم فيه . وأبرقت الى الجنرال الاميركي أعرب له عن ثقتي وثقة فرنسا الحرة به ، إذا هو مشى يداً بيد مع مفوض فرنسا السامي . وسار الاميركيون والفرنسيون معاً على أثر ذلك ، ليأخذوا مراكزهم للقتال بعزم ومضاء . وحدث ، من جهة اخرى ، انه لم يكن عليهم ان يدافعوا عنها ، لأن اليابانيين وقد ُغلبوا في بحر الكوراي آنذاك ، تخلوا عن مهاجمة اوستراليا وكاليدونيا الجديدة .

وهكذا دفعت الحربُ الولايات المتحدة على ان تقيم معنا علاقات أوثق فأوثق . ويجب القول ان المحيط القوميّ لديهم كان يوطّىء لذلك توطئة واضحة ، ففي وثبة الصليبية التي توحيها لشعب الاميركي مثاليته الغريزية ، وفي وسط ذلك الجهد الضخم الرائع الذي صمّم ذلك الشعب ان يفرضه على نفسه في التسلح والتعبئة ، لم يكن محاربو فرنسا الحرة ليظهروا انهم شعبيون ، وقد انعكس ذلك على السياسة وتأثرت هذه به ، فقد كان في وسعنا في شباط (فبراير) ١٩٤٢ ، ان نتمّم مفوضيتنا في واشنطن ببعثة عسكرية وكلتُ أمرها الى العقيد دي شفينيه . وقد اعترفت اميركا اول آذار في تصريح عام ، ان « جزر الباسيفيك الفرنسية كانت تحت الاشراف الفعلي للجنة الوطنية الفرنسية ، وان حكومة الولايات المتحدة انما تتعامل وتستمر في تعاملها مع السلطات التي تمارس ذلك الاشراف » . وصرحت نظارة الخارجية كذلك ، في شأن افريقيا الاستوائية ، في بلاغ اصدرته بتاريخ ٤ نيسان ، انها تعترف بسلطة فرنسا الحرة هناك ، إذ عينت قنصلاً عاماً للولايات في برازافيل وسائر المناطق الاستوائية التي كانت تخضع لسلطتنا . وحين طلبت الولايات المتحدة حق استعمال المطار لقاذفاتها الثقيلة في بوانت – نوار ، أذنّا لها بذلك ، شرط ان تزوّدنا أولاً بثماني طائرات من طراز « لوكهيد » كانت

ضرورية لمواصلاتنا الخاصة . وقد تسلمناها بعد مفاوضة معقدة ، مما أتاح للعقيد دي مارميه ان ينشيء خطاً فرنسياً بـين برازافيل ودمشق . وللطائرات الاميركية ان تتخذ من بوانت - نوار محطة انتقال . وهكذا صحا الجو بيننا وبـين اميركا ، من غير ان نكفّ عن توطيد مكانة فرنسا .

وفيما كنا نقصّر المسافة الديبلوماسية التي تفصل واشنطن عن فرنسا الحرة ، خطوة خطوة ، توصلنا الى عقد علاقات تحالف ، في وثبـة واحدة ، مع موسكو . وهنا ، يجب القول ان الهجوم الذي شنه هتلر على روسيا ووضعها امـام خطر الهلاك ، يسّر علينا السبيل ، ثم ان السوفيات لمسوا ، من جهة اخرى ، عقم السياسة التي اتبعوها تجـاه المانيا عامي ١٩١٧ و ١٩٣٩ ، حين أداروا ظهورهم لفرنسا وانكلترا . وقد بدا حكام الكرملين ، في لجة البلبلة البالغة التي ألقاهم بها الغزو الالماني ، يتراجعون عن موقفهم الى عكسه تواً ، ومن غير تحفظ . وفيما كان مذياع موسكو لا يكف عن طعن « الامبرياليين الانكليز » و « مرتزقتهم الديغوليين » حتى اللحظة التي عبرت بها الدبابات الالمانية حدود روسيا ، إذا بالناس يسمعون إذاعات موسكو ، تغدق الثناء على تشرشل وديغول تماماً بعد ساعة ، على وجه الدقة .

وكان انغماس روسيا في الحرب يفتح في جميع الاحوال ، لفرنسا المنسحقة ، أوسع ابواب الأمل ، فإن هذه ان تكبّد العدو أفدح الخسائر وتلحق به اضراراً رهيبة ودائمة إذا لم يوفـق الرايخ سريعاً الى تصفية الجيش السوفياتي . وما كنت يقيناً لأشك في ان نصراً يكون للسوفيات فيه سهم رئيسي أوفر ، يمكن بمجرد مساهمتهم ان يضع العالم من بعد امام اخطار اخرى . يجب التحسّب لهـذه الاخطار ، في الوقت نفسه الذي نكافح به الى جانبهم . ولكني كنت أرى انه يجب علينا قبـل

التقلسف ان نعيش ، اي ان نغلب . وروسيا قدّمت إمكانية هذه الغلبة ، وحضورها في معسكر الحلفاء ، من جهة اخرى ، مدّ فرنسا المحاربة تجـــاه الانكلو ــ سكسون ، بعنصر توازن رحت اعتمد جيداً عـــلى الإفادة منه .

لقد علمت وانا في دمشق ، التي زرتها على أثر دخول قواتنا المدينة يوم ٢٣ حزيران ١٩٤١ ، باندلاع الحرب بين الروس والالمان ، واتخذت موقفاً لتوّي ، إذ أبرقت في ٢٤ الى مفوضية لندن بالتعليمات الآتية : « يجب ان نعلن ــ كما فعل تشرشل ــ أننا بكل صدق مع الروس ، ما داموا يحاربون الالمان ، ولا سبيل للمناقشة حالياً في عيـوب النظام السوفياتي وحتى في جرائمه.. فليس الروس هم الذين يسحقون فرنسا ويحتلون باريس ورانس وبوردو وستراسبورغ .. فالطائرات والدبابات والجنـــود الالمـان الذين يقضي عليهم الروس الآن وغداً ، لن يكونوا هناك بعد ليمنعونا مـــن تحرير فرنسا » . تلك هي اللهجة التي أمرت ان تعطى لدعاوتنا . وأشرت على مفوضيتنا في الوقت نفسه ان تذهب الى السيد ميسكي سفير السوفيات في لندن وتقـول له باسمي : « الشعب الفرنسي مع الروس ضدّ المانيا . اننا نتمنى بالتالي ، تنظيم علاقات عسكرية مع موسكو » .

وقابل كاسّان وديجان السيد ميسكي ، فأظهر لهما في الحال ، أطيب الاستعدادات . اما النتائج العملية ، فإن قطع العلاقات بين فيشي وموسكو وهي القطيعة التي طلبهـا هتلر من فيشي ، افضى الى تسهيل الامور على نحو عاجل . ولذلك أوعزتُ ، وأنا في بيروت في ٢ آب (اغسطس) الى كاسان وديجـان ان يسألا السيد ميسكي « عمـــا إذا كانت روسيا مستعدة لاقامة علاقات مباشرة معنا .. وعما إذا كانت تنوي ان تتوجه الينا بتصريح عن نيتها في اعادة استقلال فرنسا وعظمتها ، وان تضيف

الى ذلك ، إذا أمكن ، وحدة كيانها » .

وأفضت المحادثات في ٢٦ أيلول إلى تبادل رسائل بيني وبين السيد ميسكي ، إذ صرح سفير الاتحاد السوفياتي ، باسم حكومته أن هـذه « تعترف بي كرئيس لجميع الفرنسيين الأحرار ... وأنها على استعداد للاتصال بمجلس الدفاع عن الأمبراطورية الفرنسية من أجل جميع المسائل المتعلقة بالتعاون مع أراضي مـا وراء البحار الموضوعة تحت سلطتي ... وأنها مستعدة لتقديم العون والمساعدة للفرنسيين الأحرار في سبيل الكفاح المشترك ... وأنها مصممة على تأمين إعـادة استقلال فرنسا وعظمتها ، إعادة كاملة مطلقة ... » . ومع ذلك فإن السوفيات – شأنهم شأن بريطانيا العظمى التي لم تعمل بموجب اتفاق ٧ آب ١٩٤٠ – مـا كانوا ليتحدثوا عن وحدة كياننا .

وبعد ذلك بقليل اعتمدت الحكومة السوفياتية السيد بوغومولوف ممثلاً لهـا لدى اللجنة الوطنية . وتقدم السيد بوغومولوف من فيشي حيث كان ، منذ سنة ، سفيراً لدى بيتـان . وكان أن تكيف دون أدنى ارتباك ، مع الأوضاع الجديدة على الأقل ، التي أخذ يمارس فيها مهمته . غير أني لم أسمع قط من فمه كلمة تشير إلى سخط منه على أشخاص : المارشال ووزرائه ، ممن كان يمثل لديهم حكومته ، حتى أنه سرد على مسامعي ، في إحدى محادثاتنا ، هذه الحكاية : « كان لديّ في فيشي من أوقات الفراغ ما أستخدمه في التنزه خفية وتطواف الريف والتحدث إلى عامة الناس . وقد قال لي يوماً فلاح وهو يحرث أرضه : « إنه لمحزن أن يكون الفرنسيون قد غلبوا أولاً . ولكن ، انظر هذا الحقل ! إنما أنا أستطيع أن أحرثه ، لأن الأمور سويت على نحو تركني به الألمان وشأني . وسترى أنها ستسوى عما قريب على نحو يخرجون معه من فرنسا » . وقد حسبت أن السيد بوغومولوف أراد ، من خلال هذا

التبرير الذي يوضح نظرية « الترس » و « السيف » ، أن يبين لي أنه فهم الموقف الفرنسي جيداً ، وأن يشرح لي في الوقت نفسه مبررات المواقف المتعاقبة التي اتخذتها روسيا السوفياتية .

ومنذ ذلك الزمن ، أخذت ألتقي السيد بوغومولوف ، أغلب الأحيان . وكان يستخدم أقصى ما يستطيع ليظهر أنه إنساني بما يتخذ من خطوات ويجري من محادثات ، في حدود ما يسمح له العرف الدبلوماسي الصارم المفروض عليه . وكان حين يوجه أو يتلقى مخابرة رسمية ، صلب العود ، متأهباً كتلة واحدة ، وهذا الرجل نفسه ذو الثقافة الحقيقية كان يبدو ، في ظروف أخرى ، مرناً ، رحب الصدر ، يحسن استخدام السخرية ، ذاهباً حتى الابتسام عند الحكم على الأشخاص والأشياء . يجب أن أقول إني اقتنعت من خلال احتكاكي به ، أنه إذا كان النظام السوفياتي يخلع على شخصية خادميه غلاً لا فكاك منه ، فإنه لا يملك أن يمنع من أن يظلّ تحت ذلك الغل ، إنسان .

وكنا ، من جانبنا ، قد أرسلنا الجنرال بيتي إلى موسكو ليقوم بمهمة الارتباط العسكريّ . وأظهر السوفيات لتوّهم ترحيباً فائقاً به وأحاطوه بالرعاية والاعتبار ، من احتفالات أقامتها الأركان العامة ، إلى زيارة للجبهة ، إلى استقباله من قِبَل ستالين نفسه . ورحت أتساءل من بعد ، ما إذا كانت غاية حفاوتهم هذه بالجنرال بيتي ، مجرد عمل مسلكي . وفي جميع الأحوال ، كانت التقارير التي ترد من مصادر شتى تعطي الانطباع أن الجيوش الروسية راحت ، وقد تصدّعت أول الأمر ، على أثر الهجوم الألماني ، تتلاحم شيئاً فشيئاً ، وأن الشعب في أعماقه ، وقف على قدميه ليقاوم ، وأن ستالين إزاء الخطر الذي اجتاح الأمة ، عين نفسه مارشالاً ثم لم ينزع اللباس العسكري قط ، وأنه يجهد في أن يظهر كرئيس لروسيا الدائمة ، الثابتة ، أكثر مما يظهر وصياً على النظام .

كانت خريطة المعركة الجبارة منشورة على جدران مكاتبنا ، وكان الجهد الجبار الذي ينفقه الألمان يبدو في توسعه على الخريطة ، بمجموعات جيوشهم الثلاث : فون لوب ، وفون بوك ، وفون رونشتت نفذوا خلال أربعة أشهر إلى قلب الأراضي الروسية ، وأسروا عدة مئات الوف ، واستولوا على غنائم ضخمة ، إلا أن عمل جوكوف الناشط في كانون الأول حول موسكو ، يساعده شتاء قاس سابق لأوانه ، أوقف الغزاة ، ثم جعلهم يتراجعون . ولينينغراد لم تسقط ، وسيباستوبول ظلت صامدة . وبدا أن هتلر لم يتوصل إلى فرض الاستراتيجية الوحيدة ، التي كان يمكن أن تكون حاسمة ، على القيادة الألمانية ، اي تجميع كل القوات الآلية في اتجاه العاصمة السوفياتية وحده ، لضرب العدو مباشرة في القلب . لقد اضطر الفوهرر هذه المرة إلى الأخذ بالأخطاء السالفة ، وتوزيع وسائل الاجتياح بين مارشالاته الثلاثة ، والتوزع على جبهة ، لا إطلاق منجنيق يصعق العدو دفعة واحدة ، رغم الانتصارات المثلى التي حققها في معارك بولونيا ، وفرنسا ، والبلقان . ها قد مرت لحظة المباغتة ، وسيرغمه الروس ، بما لديهم من مساحات شاسعة ، على ان يدفع الثمن غالياً .

رحنا ، بانتظار ذلك ، نجهد في أن نمد الجبهة الشرقية بعون مباشر ، مهما كان ضئيلاً . فكانت سفننا الحربية وشاحناتنا تشارك في القوافل الحليفة التي تأتي مورمانسك بالعتاد ، عبر الأوقيانوس المتجمد الشمالي ، وفي أشق الأحوال والأوضاع . ولما لم أوفق بادىء ذي بدء ، إلى التحصيل من البريطانيين سوى الفرقتين الخفيفتين اللتين ألفهما لارمينا في المشرق ، وخاضتا الميدان في ليبيا ، فقد أصدرت الأمر في شباط (فبراير) إلى الجنرال كاترو أن يتخذ العدة لنقل واحدة منهما نحو إيران والقفقاس ، مما اغتبط به الروس وشغل بال الانكليز . ومذ كانت قوات لارمينا قد

اشتبكت من بعد في المعركة ضد رومل ، فقد أرسلت الى روسيا مجموعة المطاردة « نورمـاندي » ، التي أصبحت من بعد : فوج « نورماندي ـ نيمن » ، وأدت خدمات جلّى ، وكانت القوة الغربية الوحيدة التي تحارب على الجبهة الشرقية . وشاهدنا ، في الجهة المعاكسة ، مفرزة من خمسة عشر ضابطاً ونحواً من مائتي رجل محاربين ينزلون في لندن بقيادة النقيب بيلوت وكانوا قد هربوا من الأسر في ألمانيـا ، واستطاعوا بلوغ روسيا ، ليسجنوا بها من جديد ، واطلق سراحهم بعد قليل من اندلاع الحرب الألمانية السوفياتية ، فوصلوا عن طريق السبيتزبرغ في قافلة عائدة من أرخانجيلسك .

وحييت من المذياع ، في ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢ انبعاث روسيا العسكري وأكدت التحالف الذي جـددنا عقده معها في الحاضر والمستقبل . وفي شباط أوفد روجيه غارو الذي كان حتى ذلك الوقت وزيراً مطلق الصلاحية في بانغكوك ، وكان قد انضم الى فرنسا الحرة ، أوفد الى موسكو مندوباً عن اللجنة الوطنية . وقد مثّل غارو فرنسا في روسيا طيلة ثلاث سنوات تمثيلاً مجدياً وواعيا . وقام فيها بجميـع الاتصالات التي يسمح بها النظام القائم ، وجعلنا على علم واسع بمـا كان يجري فيها . ومنذ تسلم مهمته قابل السيدين مولوتوف وفيشنسكي : الأول مفوّض الشؤون الخارجية والثاني مفوض مساعد للشؤون نفسـها كما قابل السيد لوزوفسكي ، وكيل الوزير . وهؤلاء الثلاثة بيّنوا له مؤكدين نية حكومتهم في عقد علاقات أوثق ما يمكن أن تكون مع فرنسا المحاربة .

وفي شهر أيار قدم السيد مولوتوف الى لندن ، وجرى بيني وبينه ، في ٢٤ ، حديث معمّق ، وكان يرافقه بوغومولوف ، ويرافقني ديجان . وقد وجدت ذلك اليوم ، كما بالتالي من الأيام ، في السيد موتولوف رجلاً بدا أنه معدّ بكل ما اجتمع له من ظروف وصفات ، لأداء العمل الذي

وكل اليه . لقــد كان وزير الشؤون الخارجـيـة السوفياتية يقول ما يود أن يقوله برصانة ، ويصغي بانتباه وله نبرة جادة ، قليل الإشارة ، إلى استقامة متدبرة ولكن دقيقة ، ونظرة مصوبة إلى داخل ذاته . بيد أنه ما كان ليلقي شيئاً يظهر أنه عفوي ، فلا سبيل إلى حمله على التأثر ، ولا إلى إضحاكه ، ولا إلى إغاظته . وإن المرء ليشعر معه ، أية كانت المشكلة التي تطرح ، أنه يعرف ملفهـا ، ويسجل العناصر الجديدة التي يدخلها الحديث عليها بدقة لا تخطىء ، ويصوغ بالضبط وضعها الرسمي ، ولكنه لا يخرج عما كان قد أعد وقرّر من قبـل . وصحيح أنه كان قد عقد من قبل الاتفاق الجرماني – السوفياتي مـع ريبنتروب بالصلابة نفسها التي أتى يفاوض الآن بهـا ، لعقد المواثيق الغربية . واعتقد أني تعرفت في شخص مولوتوف ، الذي لم يكن ولا أراد أن يكون سوى دولاب أحكم صنعه وتركيبه في جهاز ميكانيكي لا يدور في غيره ، إلى نجاح كامل أحرزه النظام الاستبدادي ، وفيه حييت عظمة ذلك النظام ، ولكني شعرت بالكآبة التي ينطوي عليها ، أية كانت القدرة التي اضطلع بها انصاره على إخفاء ما يكمن في قرارة الاشياء .

لقد تبين من خلال حديثنا في لندن ان وزير الشؤون الخـارجية السوفياتي على وفاق معي حول مـا ينبغي لحكومته واللجنة الوطنية أن تفعله كل منهما للأخرى في الحال . فإن من شأن فرنسا الحرة أن تدفع حليفتيها أميركا وبريطانيا على فتح جبهة ثانية بأعجل ما يمكن في أوروبا وتؤازر ، من جهة ثانية ، بموقفها الدبلوماسي والعام ، روسيا السوفياتية في جهدها لفك طوق العزلة الذي حصرت به منذ زمن طويل . وهذه من جانبها تساند جهدنا في واشنطن ولندن لاعـادة وحدة الامبراطورية والوحدة الوطنية ، فيما نحن نتابع الحرب . وهـذا ينطبق على إدارة

أراضينا – مدغشقر مثلاً – ، على المشاريع التي يقال إنها متوازية وهي في الواقع ، متمركزة في الخارج يعززهـا الأنكلو – سكسون من وراء ظهورنا ، وأخيراً على حركات المقاومة في فرنسا إذ تعترف موسكو أن لا حق لأية حكومة أجنبية – حتى لحكومة السوفيات – أن تصدف أية حركة منها عن الاذعان للجنرال ديغول . أما في المستقبل ، فكان من المتفق عليه أن يتم التفاهم بين فرنسا وروسيا حول بناء السلم . وقد قال لي السيد مولوتوف : « ان حكومتي حليفة حكومتي لندن وواشنطن . ومن الجوهري أن نتعاون تعاوناً وثيقاً معهما في سبيل الحرب . ولكن روسيا ترغب ، في أن يكون لها مع فرنسا تحالف مستقل » .

وما كان جهد فرنسا في توسيع علاقتها باتجـاه واشنطن وموسكو ليمنع أن يكون مركزها قائماً على الدوام في لندن ، وأن تكون شؤونها الخاصة من عمل عسكري ، الى ارتباطات بالوطن الأم ، الى دعاوة ، الى إعلام ، الى مالية ، الى اقتصاد اراضي ما وراء البحار ، جميعهـا وكأنها مندمجة قسراً بشؤون البريطانيين . وقد نجـم عن ذلك بالنسبة الينا ، أن نحتفظ معهم بعلاقات أوثق مما كانت عليه في يوم من الأيام . غير أن اعتداءاتهم كانت تزداد ايلاماً لنا بمقدار ما تزداد كِبَراً . ومع ذلك ، كان دخول روسيا وأميركا الحرب ، وهو ينطوي بالنسبة لانكلترا بدورها ، على عبوديات تحالف مع جبارين ، قابلاً لأن يحتم عليها تقريب سياستها من سياستنا ، وأن تمارس في صلاتها بنا تضامناً صريحاً للعمل في أوروبا ، والشرق ، وافريقيا ، والباسيفيك . ونحن نستجيب طوعاً لمثل هذا التغير ، وكان لدينا الانطباع في بعض الأحيان أن بعض الحـكام البريطانيين كانوا كذلك على استعداد لتقبّل التغيير .

ذلك هو شأن أنطوني ايدن ، فإن هـذا الوزير الانكليزي أبدى ، وان ظل انكليزياً ، ما أمكن أن يكونه وزير بريطاني ، انفتاحاً في

الذهن وحساسية أوروبيين أكثر مما كانا انعزاليين في الجزر ، وانسانيين اكثر مما ظهرا إداريين . هذا الولد المدلل للتقاليد البريطانية : ايتون ، اكسفورد ، حزب المحافظين ، مجلس العموم ، الفورين أوفيس ، لم تكن كلها مما يسهل ولوجه لمن يبدو عفوياً ومجدداً ؛ هـذا الدبلوماسي الذي نذر نفسه كلياً لمصالح بلاده لم يكن يزدري مصالح الآخرين ، وظـل مهتماً بالأخلاق الدولية في خضم همجيات عصره الزنيمة . لقد كان لي أغلب الأحيان شأن ما مع السيد ايدن . وكثيرة هي القضايا التي كـان علينا ان نعالجها ، وكانت مزعجة ازعاجاً صريحاً . وكنت معجباً في معظم تلك المناسبات ، لا بذكائه اللامـع ، ومعرفته بالأمور ، وسحر تصرفاته وحسب ، وانما بالاسلوب ايضاً الذي حـازه في خلق جو من التعاطف حول المفاوضة والابقاء عليه ، ذلك الجو الذي يعزز الوفاق حين يمكن الخلوص اليه ويتجنب الاساءات الجارحة حين يتعذر بلوغه . وكنت مقتنعاً قبل كل شيء ، ان أنطوني ايدن يشعر تجاه فرنسا بمودة خاصة ، فمنها كان قد استقى جزءاً كبيراً من ثقافته ، وكانت تبدو لعقله السياسي وكأنها ضرورة لتوازن عالم تجتاحه الهمجيات جميعها من كل جانب . وما كان هذا الرجل ذو القلب الكبير ليدع نفسه غير متأثرة اخيراً ، بويل أصاب أمة عظيمة .

الا أن نبات السيد ايدن الطيبة لم تستطع ان تجعل من التحالف وردة بلا شوك ، واني لأقرّ انه كثيراً ما عوكس في جهوده عما كان يلقى من خشونة وعبوس ، ولكن الصعوبات انما كانت تنتصب من جـانب البريطانيين على الأخص ، وتتمثل في : حذر الفورين أوفيس ، ومطامع المستعمرين ، ومحاذير العسكريين ، ودسائس « الانتليجانس » . ثم ان عالم لندن السياسي من جهة ثانية ، رغم انه كان بجملته مؤيداً لفرنسا الحرة ، كان يخضع لتأثيرات ليست منه دومـاً ، فقد كانت بعض

الأوساط المحافظة تنظر شزراً الى أولئـك الفرنسيين من ذوي الصليب اللوريني الذين أولعوا بالثورة وحديثها ، وهناك عناصر عمالية شتى كانت عكس اولئك ، تتساءل ما اذا كان ديغول ورفاقـه لا ينزعون منزع الفاشستية . واني لا ازال ارى السيد أتلي وهو يدخل مكتبي بهدوء ، يناشدني التأكيدات التي من شأنها ان تخفف ما يثقل ضميره كرجـل ديمقراطي ، ثم ينسحب وهو يبتسم ، بعد ان سمع مني ما سمع .

كان كل شيء يتوقف ، عند نهاية المطاف على الوزير الاول . وهذا لم يكن في سريرته ، قادراً على الرضا والتسليم باستقلال فرنسا الحرة . وكان السيد تشرشل ، عدا ذلك ، يجعل من خلافنا وكأنه قضية شخصية ، في كل مرة نتصادم بسبب من المصالح التي يتولى كل منا أمرها . وكان الخلاف يجرح شعوره ويحزنه بنسبة الصداقة التي تربط الواحد منا بالآخر . هذه الحالات من الفكر والشعور ، يضاف اليها تكتيكه السياسي ، كانت تلقي به في أزمات من الغضب تهتز معها صلاتنا اهتزازاً عنيفاً .

وكانت ثمة اسباب أخرى تتعاون فيما بينها ، من جهة ثانية ، لجعـل ذلك الرجل الكبير سريع الغضب ، فإن الانكليز كانوا يعانون في بعض الاحيان خطوباً ومحناً فادحة يشتد عليهم وقعها بمقدار ما كان العدو الذي ينزلها بهم ، لا يملك دوماً التفـوق المادي ، وإن بذلوا خلال ذلك الدور جهوداً مجيدة تثير الإعجاب ، ولا سيما في حرب الغواصات . ففي ١٠ كانون الاول (ديسمبر) أغرقت طائرات يابانية في بحر ماليزيا المدرعة الرائعة « برنس أوف ويلز » والطراد الكبير « ريبلس » قبـل ان يتمكنا من طلقة مدفع واحدة . وفي ١٥ شباط ١٩٤٢ استسلم ٧٣٠٠٠ جندي بريطاني في سنغافورة بعد مقاومـة قصيرة . وفي حزيران حطم رومل جبهة الجيش الثامن وأرغمـه على التراجع حتى أبواب الاسكندرية على الرغم من الوسائل الهائلة التي كدسها الانكليز في الشرق ، بينـما

استسلم للألمان بسرعة يصعب تبريرها ، الثلاثة والثلاثون الفاً من الجنود الذين كان عليهم ان يصمدوا في طبرق ويحموها . وكان السيد تشرشل يتدبر اكثر من اي شخص آخر ، نتائج هذه النكبات في سير الحرب . ولكنها كانت تؤلمه كانكليزي وكمحارب ، على الاخص .

ويجب ان نضيف هنـــا ان البعض في الاوساط الحاكمة ، لم يكن يرعوي عن ان يعزو اليه خفية تبعة جزء من العثرات البريطانية . وعلى الرغم من ان انكلترا برمتهـــا كانت تتمسك بونستون تشرشل تمسكها بإنسان عينها ، فقد كانت تنشر ، والبرلمان يستمع ، واللجان تهمس ، والاندية تتناقل تقديرات كانت بعض الاحيان ، تسيء اليه وتؤذي سمعته . ونجم عن ذلك كله ان السيد تشرشل لم يكن يجـــد نفسه ، خلال الاشهر الاولى من عام ١٩٤٢ ، ذا مزاج يَلطف ولا ينأى عن التوتر ، ولا سيا تجاهي .

واخيراً ، وربمـــا كان الاهم في ذلك كله ، ان الوزير الاول اتخذ قاعدة لسلوكه ، وهي ان لا يقوم بعمل ذي اهمية الا بالاتفاق مـــع روزفلت . واذا كان يعاني اكثر من اي انكليزي آخر ، ُعسرَ أساليب واشنطن ، واذا كان يتحمل بمضض حالة الخضوع التي وضع بهـا عونُ الولايات المتحدة الامبراطوريةَ البريطانية ، واذا كان الشعور بالمرارة يخالجه إزاء لهجة الاستعلاء التي اتخذها الرئيس الاميركي تجاهه ، فإن السيد تشرشل كان قد قرّر نهائياً ان يذعن لما يمليه عليه التحالف الاميركي . ثم إنه لم يكن يرغب في ان يتخذ تجاه فرنسا الحرة موقفاً ينسجم على نحو حاسم مع موقف البيت الابيض . ومذ كان روزفلت يُظهر انه غير واثق من الجنرال ديغول ، فان احتمال التحفظ من جانب تشرشل ، جد وارد .

كان الوزير البريطاني الاول منذ وصولي الى لندن في ايلول (سبتمبر) ١٩٤١ ، على جانب كبير من ضيق الصدر ، إذ كان منزعجاً لما جرى

بيننا وبين انكلترا في سوريا ولبنان . وذهب به السخط الى حد كتب لي معه في ٢ ايلول انـه لا يرى في الوقت الحاضر مـن المفيد ، نظراً لموقفي ، ان نتلاقى . وأدلى في مجلس العموم ، في ٩ ايلول ، بتصريح يبعث على القلق . صحيح انه اعترف ان « وضع فرنسا في المشرق كان متميزاً خاصة ، من بين جميع الدول الاوروبية » . ولكنه اخذ عـلى عاتقه الاضافة : « انه لم يكن وارداً ان تحتفظ فرنسا في سوريا بالمركز نفسه الذي كانت تحتله قبل الحرب .. وانه لا يمكن ان يكون المراد حتى في اوقات الحرب ، مجرد احلال مصالح الفرنسيين الاحرار محـل مصالح فيشي » . وكان يرافق استياء السيد تشرشل ، كالعادة ، توتر ممنهج في العلاقات الفرنسية – البريطانية . وقـد تظاهرت حكومة لندن طوال عدة اسابيع ، ان ليس لها معنا أية صلة في أي شأن ، وأنهـا أغلقت دوننا ابوابها مما حداني من جهتي ، على تعليق كل اسهام للفرنسيين في مذياع لندن . غير ان عودة العلاقات ، مع ذلك ، سرعان ما تلت هذه المشاحنات ، حسب ايقاعها المعتاد ، ففي ١٥ ايلول جرى لي حديث مع السيد تشرشل انتهى جيداً بعد ان بدأ سيئاً ، إذ أكد لي في ختامه ان سياسة حكومته تجاه المشرق ، ظلت كما حُدّدت في اتفاقاتنا الـتي عقدت في القاهرة .

وأردتُ ان اكون مطمئناً الى سلامة موقفي ، فقابلت السيد إيـدن عدة مرات في تشرين الاول وتشرين الثاني ، وانتهينا الى تسوية أوضحت الجوهريّ وركزته ، فقد اعترفت انكلترا انـ الانتداب ما زال قائماً وان الجنرال ديغول يمارسه الى ان يستعاض عنه بمعاهدات يصادق عليها قانوناً ، حسب تشريع الجمهورية الفرنسية ، اي في الواقع ، بعد الحرب . وسلمت ان اعلان استقلال سوريا ولبنان من قِبَـل فرنسا الحرة لا يغير هذا الوضع الحقوقي . وكان من المفهوم ، عـــدا ذلك ، ان اتفاقات

ليتلتون ـ ديغول تظل الميثاق الأساسي الذي تقوم عليه العلاقات الفرنسية البريطانية في الشرق .

والواقع ان انكلترا ، وإن عاكست قرار استقلال كل من سوريا ولبنان قبل اتخاذه ، فقد عمدت إلى التكيف معه منذ اتُخذ ، واعترفت بالجمهوريتين ورئيسيْ الدولتين اللذين انبثقا عنه مذ أقام الجنرال كاترو في ٢٧ ايلول استقلال الجمهورية السورية وسيادتها برئاسة الشيخ تاج الدين ، واستقـــلال الجمهورية اللبنانية وسيادتهـــا برئاسة السيد ألفرد نقاش ، في ٢٦ تشرين الثاني . وكنت قد وجهت مذكرات متوالية ، من جهة ثانية ، إلى الأمين العام لعصبة الأمم في ٢٨ تشرين الثاني ، و ٢٩ منه الى الحكومة الأميركية ، وجميع الدول الحليفة ، كما لتركيا ، بينت فيها الاجراءات التي اتُخذت باسمي في سوريا ولبنان . وقد ورد في تلك المذكرات : « هـــذه الإجراءات لا تؤثر في الوضع القانوني الناشيء عن صك الانتداب ، والذي يجب أن يستمر حتى عقد مواثيق دولية جديدة » . ولم تبد الحكومة البريطانية أي اعتراض على هذه البيانات ، بل إنهـا هي التي اقترحت القيام بها .

كان في الامكان الاعتقاد إذن ان المسألة هذه سُوِّيت ، الى ان تضع الحرب أوزارها ، على الأقل . ومذ كنت حذراً كل الحذر ، حرصت على أن اكتب بيدي الى مفوضيتنا العامة في المشرق ، ان من رأيي « إزاء المصاعب التي تلاقيها انكلترا في الاقطار العربية ، وهي تعاني مثلنا الهم في ان تشهد شعور التضامن يسود أكبر دولتين اسلاميتين ، ويحل محل المنافسات المسكينة التي سادت الماضي » ؛ ان « تتجنب كل ما من شأنه ان يزيد في مصاعب حلفائنا ، وان لا تهمل شيئاً يسهِّل عليهم مهمتهم ، وذلك بتعاون مخلص ، والابقاء في الوقت ذاته على مركز فرنسا وحقوقها سليمة ، مصانة » . وكان هذا لسوء الحظ ، اعتماداً على شيء لا وجود

له . وواقع الأمر ان السياسة البريطانية ستستمر في التبرم به دون ان تنازع نظرياً في انه حق .

والواقع أيضاً ان أحداثاً متكررة أخذت تحدث في الشرق من شأنها ان تبقي الخصام الفرنسي – البريطاني على ما كان عليه . وهذا ما جرى في تجنيد – غير مشروع – لفرزة فرسان درزية من قبل الانكليز ، وكانت دعواهم – المدحوضة طبعاً – إعلان حالة الطوارىء من تلقاء انفسهم ، أي الاستيلاء على السلطة في الجزيرة ، حيث اندلعت اضطرابات نتيجة التمرد في العراق . وهذا ما جرى في تدخلهم الاعتباطي في عمليات مكتب القمح الذي انشأناه في المشرق ، وكانوا يلحون في الاسهام به بغية التسلل الى الادارة المحلية والتأثير فيها . وهذا ما جرى في التهديد – الباطل من جهة أخرى – الذي وجهه الجنرال ويلسن ، بطرد بعض الموظفين الفرنسيين الذين لم يرقه مسلكهم . وهذا ما جرى مع سبيرز في الموقف الذي اتخذه اذ كان يدلي بتصريحات عدائية ، وتنطوي على التهديد ، ويتدخل دوماً في علاقات مفوضيتنا العامة بحكومتي دمشق وبيروت .

كان الجنرال كاترو يمارس الرصانة والحكمة في سياسته ، فهو ، وان ظل نزّاعاً الى المؤالفة ، وتنازل للانكليز بأكثر مما كنت أريده أن يفعل ، كان يجد نفسه أمام تدخلات تتجدد في كل لحظة . ومن هنا ، كان ذلك القلق الذي لا ينقطع في المشرق ، وتلك المفاوضات الشاقة المرهقة دوماً في لندن .

وجهد الضغط البريطاني خلال أيار ١٩٤٢ ، في الحصول على إجراء انتخابات عاجلة في سوريا ولبنان . ولم تكن لجنتنا الوطنية لتعارض ، بطبيعة الحال ، في استفتاء شعبي ينبثق عنه حكومات تمثل حقيقة البلاد تمثيلاً كاملاً . والذين كانوا يحتلون مراكز السلطة ، انما وضعناهم فيها بصفة انتقالية ، وذلك ما كان في دمشق خاصة . وقد أسفت من جانبي

ان لا يكون الرئيس هاشم بك قد استأنف القيام بمهام منصبه ، بيد أننا قدّرنا ان من المناسب ان ننتظر انتهاء الحرب ، ليجري استفتاء السوريين واللبنانيين ، أي الوقت الذي تجد به الدولتان نفسيهما في أوضاع طبيعية ، وتخف أثناءه تبعتنا كمنتدبين ومدافعين ، ويكون الانكليز فيه قد ابتعدوا عن البلاد ، فلا يُثقل وجودهم عمليات الاقتراع . ومع ذلك ، وعد الجنرال كاترو السيد كايزي الذي ألحّ في الضغط ، وكان قد حلّ محل السيد ليتلتون في القاهرة ، كوزير للدولة البريطانية — وعده كاترو بإجراء انتخابات قريبة ، ونشرت الصحف ذلك في الحال . وكان علي ان اتكيف مع هذه التسوية ، ولكني أمرت في الوقت نفسه بتأجيل التنفيذ ، وكان من السهل التنبؤ بأن هذه المناسبة ستكون بعد ذلك اليوم ، ينبوعاً لا ينضب ، للمصادمات الفرنسية البريطانية .

وسيكون هنالك مصادمات أخرى في امكنة أخرى ، فقد كان حلفاؤنا يلعبون حول جيبوتي لعبة مزدوجة ، اذ فكوا الحصار البحري عنها ، في الوقت نفسه الذي تركوا به قوتنا الصغيرة : فوج المقدم بويّون ، والمهاريين ، تتابع الحصار البري ، فكانت تصل الى تلك المستعمرة المؤن المطلوبة لتغذية دعاة الانتظار ، من عدن على ظهر قوارب عربية ، ومن مدغشقر في غواصات أو في سفينة الحرب « ايبرفيل » . ولكن الانكليز كانوا في هذه الاثناء ، يفاوضون النجاشي لعقد معاهدة تضع الحبشة تحت وصايتهم . وكان العمل الذي يقومون به في أديس آبابا يفسر جمودهم تجاه جيبوتي ، اذ لو استطاعت فرنسا الحرة بمؤازرتهم ، ان تتمكن من ضم الصومال الفرنسي اليها على وجه السرعة ، والتصرف بها ، وبالتالي بالمرفأ ، وسكة الحديد ، والقوة المهمة المقيمة على أرضها ، لكان في وسعها ان تقدم بنفسها للحبشة المنفذ والامن اللذين كانت هذه في حاجة اليهما . وعلى العكس ، فما دامت فيشي تحتل ذلك الموقع ، فإن البريطانيين هم الذين

كانوا يقبضون بأيديهم وحدها على مصير الامبراطور وولاياته .

ذلك هو السبب الذي لم يتمكن معه غاستون بالوفسكي من ان يجعل الحصار المضروب على المستعمرة فعالاً ، ولا هو توصل ايضاً الى حمل الانكليز والاحباش على عقد اتفاق ثلاثي بدلاً من ثنائي . ومع ذلك فان نشاطه ونشاط معاونيه : المقدم آبتير ، آمر المفرزة ، وشانسيل الدبلوماسي الشاب في نيروبي ، أعدا النتيجة التي تلت إعداداً مفيداً . فقد كان من شأن الروابط التي أقاموها مع مختلف العناصر الفرنسية في جيبوتي ، ثم مع السكان الاصليين ، والدعاوة التي قاموا بها في النشرات والمذياع ، وصلاتهم بالجنرال بلات ، ان جعلت من انضمام الصومال في اليوم الموعود ، حادثاً شكلياً . ثم انهم كانوا يقومون في أديس آبابا ، من جهة أخرى ، بتمثيل فرنسا ، اذ حفظت حقوقنا بسكة الحديد ، واستطاعت معاهدنا الدينية والعلمانية التي أغلقها الاحتلال الإيطالي من قبل ، أن تستعيد نشاطها ، وفتحت مفوضية فرنسا أبوابها . وكنت ، وانا أندب الوقت المضاع على يد الانكليز ، أشاهد الثمرة وهي تنضج على ساحل البحر الاحمر .

ولكن ها هو تدخل الانكليز في جزء آخر من الامبراطورية ، يظهر فجأة ، ويحملني في ذروة السخط والقلق . ففي ٥ أيار ١٩٤٢ ، رنّ هاتف احدى وكالات الصحف ، وأعلمني في الساعة ٣ صباحاً ان أسطولاً بريطانيا أنزل جنوداً في « دييغو ـ سواريز » . لقد احتل حلفاؤنا أحد الممتلكات الفرنسية ، حتى من غير ان يستشيرونا !

كنت أجهد ، منذ وقعة بيرل هاربور ، أن أعالج ، بعديد الخطوات ، قضية التحاق مدغشقر بحكومة لندن ، من اجتماع في ١٠ كانون الاول ، بالجنرال بروك رئيس الاركان الامبراطورية العامة ، الى رسالة موجهة في ١٦ منه الى السيد تشرشل ، الى مشروع عمليــة أودع في ١١ شباط

الوزير البريطاني الاول ، والجنرال بروك ، والمفوض السامي في اتحاد جنوب افريقيا ، الى رسالة جديدة للسيد تشرشل في ١٩ شباط ، واخيراً الى مذكرة عاجلة للسيد إيدن في ٩ نيسان . وقد اقترحت في هذه الوثائق جميعها ، القيام بعملية سريعة يؤديها لواء فرنسي حر ينزل في ماجنغا ، ويحمل على تاناناريف بمساندة البريطانيين الجوية ، إذا حدث ان كانت هذه ضرورية ، بينما يقوم حلفاؤنا بعملية إلهاء في محاصرة دييغو من البحر . وطلبت ، من جهة ثانية ، ان تتولى اللجنة الوطنية إدارة الجزيرة .

ومذ كان اتحاد جنوب افريقيا يبدو لي ، خلال تلك البرهة ، انه يهتم بذلك الأمر مباشرة ، فقد رحت اتحرّى المشروعات المحتملة التي تعدّها حكومة بريتوريا ، وأرسلت اليها في اواخر ١٩٤١ العقيد بشكوف كمندوب لفرنسا الحرة . وكان من شخصية بشكوف ان سحرت الجنرال سمطس ، وحسبت أنه إذا كان الاتحاد بنوي دخول الميدان ، فإن وزيره الاول لن يخفي ذلك على مندوبي البارع الامين . واخيراً ، ذهب في آذار الطبيب الجنرال سيسه ، مفوض برازافيل السامي ، في زيارة الى افريقيا الجنوبية ، وخرج من محادثاته مع سمطس والوزراء ، بالانطباع ان الاتحاد نفسه لن يقوم بعمل ما في مدغشقر . كان عليّ إذن ان أبذل جهدي في لندن ، وأنا مقتنع بأن ليس ثمة من محاذير أداريها .

الواقع ان دخول اليابان الحرب كان يهدد مدغشقر . وكان علينا ان نتوقع إكراه فيشي من قبل الاذن ، عاجلاً او آجلاً ، على ان تترك في أقل تقدير ، للطائرات اليابانية المغيرة والغواصات اليابانية استخدام قواعد مدغشقر ، وشلّ ملاحة الحلفاء في عرض البحر ، جنوب افريقيا .

كنا على علم دقيق وكاف بالحالة الذهنية التي تسود الجزيرة ، عن

طريق المتطوعين الذين كانوا يتمكنون ، بين وقت وآخر ، من التفلت منها ، ثم عن طريق السفن التي تمر بها . فقد استُقبلت الهدنة فيها اول الأمر باستياء ، وكان في مستطاع الحاكم العام دي كوبيه آنذاك ان يلتحق بفرنسا الحرة من غير عناء ، لو انه اتبع تصريحاته الخاصة بالعمل ، ولكنه لم يمض في تصميمه ، فقد وضعت فيشي لتوّها ، «كايلا» محله ، وأعان هذا قائدُ الطيران جونو ، فصرف همه الى إخماد روح المقاومة ، قبل ان يخلي هو نفسه مكانه للحاكم العام «آنتيه» . ولو ان بيتان أمر بترك العمل لليابانيين في الجزيرة ، لكان قوبل بالطاعة والإذعان ، وكذلك اطيع لو انه أمر بمقاومة إنزال حليف . ولا بد للأنكلو ـ سكسون في يوم قريب من تأمين جانب الجزيرة . ولكن نظراً للحوافز التقليدية وراء السياسة البريطانية ، كان كل شيء يقضي آنذاك ، ان تكون فرنسا الحرة حاضرة في العملية .

يمكن اذن فهم الهموم التي كانت تنتابني من جراء اساليب الانكليز وتصرفاتهم . وكان يزيد فيها ، ان واشنطن نشرت بلاغاً ، في اليوم نفسه الذي تم به الهجوم على دييغو ـ سواريز تعلن به أن « الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى على وفاق في شأن إرجاع مدغشقر الى فرنسا ، حين لا يعود بعدها احتلال هذه الجزيرة جوهرياً لقضية الامم المتحدة المشتركة » . اما الآن ، هل تُنتزع مدغشقر من فرنسا ، بانتظار ما يأتي به المستقبل ؟ ثم بأية دولة ستلحق ، ، إن لم تكن انكلو ـ سكسونية ؟ وما يكون من امر المشاركة الفرنسية على ارضها ، في الحرب ؟ وما الذي يتبقى فيها من سلطة فرنسا في المستقبل ؟

كان علينا ان نتفلت من هذا المأزق الحرج ، فانتظرت عمداً ستة أيام لأتصل بالسيد إيدن تلبية لطلبه . وكان ان اظهر الوزير البريطاني بعض الارتباك ، خلال حديثي اليه الذي جرى في ١١ ايار ، وقال لي :

« انا أضمن لك اننا لا نرمي الى اي غرض في مدغشقر . وإنا لنرغب في ان تستمر بها الادارة الفرنسية على أداء مهماتها فيهـــا » فسألت : « اية إدارة فرنسية ؟ » . وقد فهمت من مطارحات السيد إيدن ان الانكليز يخططون للتفاوض مع الحاكم العام آنئيه لاقامة وضع من التعايش يترك به كل شيء على حاله في مدغشقر ، لقاء بقاء الحلفاء في دييغو ـ سواريز ويشرفون على ما بقي من الجزيرة .

صرحت للسيد إيدن أننا نعارض هذه الخطة ، وقلت له : « إمـــا ان تفضي الى نهاية ، وتكون النتيجة تحييد ارض فرنسية بضمانة الحلفاء ، وهذا ما لا نسلّم به ابداً ، وإما ان لا تخلص الى غاية ، ويصبح مـن واجبكم خلال بضعة اسابيع ، ان تشرعوا وحدكم داخل الجزيرة في حملة تتخذ مظهر غزو لها . ويبدو لي ، مـن جهة اخرى ، جد محتمل ، ان هذه الفرضية الثانية هي التي ستتحقق ، لأن الالمان سيُكرهون فيشي على محاربتكم » . واعترف السيد إيدن قائلاً : « إننا لنخوض في الواقع مشروعاً يوشك ان يتعقد كثيراً . غير اني في موقف استطيع ان أؤكد لك به أن حكومتي ترغب وتحسب انكم انتم الذين تستعيدون ، آخر الامر ، سلطتكم على مدغشقر ، ونحن عـــلى استعداد للتصريح بذلك علانية » . وتم التفاهم على ان تنشر وزارة لندن بلاغاً بهـذا المعنى ، وهذا ما قامت به في ١٤ ايار (مايو) ، مصرّحة : « فيما يخص مدغشقر فإن نية حكومة صاحب الجلالة ان تقوم اللجنة الوطنية الفرنسية كممثلة لفرنسا المحاربة ، ونظراً لتعاونها مع الأمم المتحدة ، بالدور الذي يعـود اليها في إدارة الأرض المحرّرة » .

كان في ذلك تعهد مهم من جانب إنكلترا ، استشهدتُ به عنـد التحدّث من المذياع في اليوم التالي ، وأظهرت ، لقاء هذا التعهد ، ثقتي بولاء الحلفاء ، غير أني رفضت علناً كل تسوية حول مدغشقر ، مصرحاً

أن إرادة فرنسا هي التي تملي ان لا تتجزأ امبراطوريتها ، ولا تكون محايدة . وأضفت : « إن ما تريد فرنسا ، هو ان توجّه فرنسا المحاربة الجهد الفرنسي وتنظمه في الحرب بجميع أشكاله وفي جميع المجالات ، ان تؤمّن تمثيل حقوقها تجاه الحلفاء ، كما تؤمّن الدفاع عنها ضدّ الأعداء ، ان تحافظ على السيادة الفرنسية وتدبّر شؤونها في أراضي فرنسا التي حُررت والتي ستتحرر » . وأمرت قائد القوات في افريقيا الاستوائية ، في ذلك اليوم نفسه ، أن يعدّ عدة لواء مختلط ويضعه على أهبة التوجه الى مدغشقر .

إلا ان وعود الحكومة البريطانية وتأكيداتي الخاصة فيما يتعلق بالدور المقبل للجنة الوطنية ، كانت تفترض ان الحل وُضع لمسألة لم تكن محلولة ، إذ بقيت فيشي في الواقع ، سيدة الجزيرة برمتها تقريباً . ثم تبين بعد قليل ، ان البريطانيين دخلوا ، وقد حصروا جهودهم في الاستيلاء على دييغو ، في مفاوضات مع الحاكم العام آنتيه ، وأن « انتليجانس » افريقيا الشرقية ارسل ، في الوقت نفسه ، زمرة من العملاء الى الجزيرة يقودها المستر لاش . وكانت هذه التدابير تسير عكس ما تريده فرنسا الحرة ، فقد تأخر من جرائها دخول مدغشقر ميدان القتال ، وقويت سلطة « آنتيه » ، وتمدد انقسام الامبراطورية . وكنت أخشى ، عدا ذلك ، عمل الزمرة البريطانية الذي يمكن ان تمارسه على نحو ما رأينا اسلوبها بمراسه في الشرق ، وجيبوتي ، والحبشة . وثمة حادث مزعج مدّ خشيتنا هذه بالدليل الفوري ، وذلك ان بشكوف الذي أردت إيفاده الى دييغو ـ سواريز ليطلعني على ما يجري فيها ، مُنِعَ من السفر .

وهكذا ، كانت هناك غيومٌ مربدّة تبسط ظلها الثقيل على العلاقات الفرنسية ـ البريطانية حوالي مستهل حزيران (يونيو) ١٩٤٢ . وكانت تنضاف تدابير اخرى تتأكد بها مخاوفنا ، الى جميع الأفاعيل التي كان

يكثر الانكليز من اتيانهـا في سوريا ، والصومال ، ومدغشقر ، اذ راحت بعثة بريطانية يديرهـا المستر فرانك في الشاطىء الذهبي تقـوم باتصالات غامضة خفيـة مع اهالي الاراضي الفرنسية في نطاق النيجر ، وفي الوقت ذاته ، راح الجنرال جيفارو القائد الأعلى في افريقيا الغربية يُخطِر البعثات الفرنسية الحرة في باثورست وفريتاون ، ان عليها ان تغادر البلاد . ومذ كنت أنا اتخذ استعداداتي لزيارة ليبيا في جولة افتش بهـا قواتنا ، فقد تلقيت من الحكومة البريطانية طلباً عاجلاً بتأجيل سفري ، وكان هذا يعني ان وسائل السفر لن تقدم بعد لي . وفي لندن ، راح الحكام ، والموظفـون في الدوائر ، واركان الحرب الانكليز يحيطون انفسهم بجو كثيف من السرية ، إن لم يكن من الحذر .

كان أكيـداً أن الانكلو ــ سكسون شرعوا في وضع خطة لعملية واسعة على الميدان الغربي ، وقد أقام الجنرال مارشال رئيس الاركان العامة للجيش الاميركي ، والاميرال كنغ القائد الأعلى للأسطول الأطلنطي في لنـدن طوال شهر ايار ، وهما يتجنبان لقائي . ومـع ذلك ، كانت فرنسا بممتلكاتها ، وسكانها ، وقواتها ، تندرج ضمناً في كل مـا ينوي الحلفاء ان يقوموا به من مشاريع ظاهرة . ولكن ممـا لا ريب فيه ان ثمة فكرة ترمي الى إبعاد العنصر الفرنسي الناشط قدر الإمكان ، وهو فرنسا الحرة ، والتصرف بأراضيها ومادتها قطعة قطعة ، وربمـا الإفادة من تشتتها ذاك لوضع اليد هنا وهناك ، على نُتف من ممتلكاتها . وقد آن أوان الرد على هذه التحركات . كان الواجب يقضي ان نبيّن للحلفاء ان فرنسا الحرة إنما وقفت في معسكرهم لتدمج بـه فرنسا ، لا لتغطي تجاه الأمة الفرنسية هـذه المساوىء والاعتداءات الـتي يقترفها الحلفاء على حسابها . وقد اجمعت اللجنة الوطنية عـلى هذه الفكرة ، بعد مذاكرة مؤثـرة ومعمّقة .

وكان ان كلفتُ في ٦ حزيران ، السيد تشارلس بيك ، وهو دبلوماسي ممتاز أوفدته الينا الفورين أوفيس ، ان يطلع السيدين تشرشل وإيدن على موقفنا ، وقلت له : « إذا كان على فرنسا ان تخسر اي شيء مما يخصها في مدغشقر ، او سوريا ، او اي مكان آخر ، بفعل حلفائها ، فإن تعاوننا المباشر مع بريطانيا العظمى ، ومن المحتمل مـع الولايات المتحدة ، لا يبقى له ما يبرره . يجب علينا ان نضع له حداً . وهذا يعني عملياً ، ان نتجمع في الاراضي التي انضمت الينا او التي ستنضم ، وان نتابع الكفاح ضد العـدو بكل ما في وسعنا ، ولكن وحدنا ، ولحسابنا » . وأبرقت في اليوم نفسه الى إيبويه ولوكلير في جانب ، والى كاترو ولارمينا في جانب آخر ، لأطلعهم على هذا القرار وأدعوهم للاعداد له ، وأوصيتهم ايضاً ان يُخطروا ممثلي الحلفـاء الذين انتدبوا لديهم ان ذلك هو ما قرت عليه عزيمتنا .

ولم تلنتظر النتيجة لتظهر ، فقد دعاني السيد تشرشل لمقابلته في ١٠ حزيران ، وقضينا معاً ساعة ملأى ، إذ تناول الوزير الاول قضيـة مدغشقر ، بعد الثناء البالغ الذي اغدقه على القوات الفرنسية التي تفوقت وبرّزت في معركة بئر حكيم . وأقر مخلصاً ان لفرنسا المحاربة ما يبرر تخفـيف حماستها في الظروف التي نفذت بها العملية ، وأكد : « ولكننا لا نضمر أية خبيئـة في شأن مدغشقر . اما مـا ننوي القيام بـه في المستقبل ، فإننا لا نعرف بعد عنه شيئاً . الجزيرة جد كبيرة . ونريد ان نعثر على تسوية ما حتى لا نضيع فيها » . قلت له : « إن ما نريده نحن ، هو ان تنضم مدغشقر لفرنسا الحرة وتدخل ميـدان الحرب . ولذلك ، نحن اليوم مستعدون كما اقترحت عليك امس ، ان ننزل فيها جنوداً » . واجاب الوزير الاول : « لستَ حليفي الوحيد » ، وكان يلمح لي بذلك الى ان واشنطن تعارض مساهمتنا . وما كنت حقاً لأشك في ذلك .

ولفت انتباه السيد تشرشل بالحاح ، إلى الخطر الذي يدام تحالفنا في بعض التصرفات إزاء الأمبراطورية الفرنسية ، وغداً إزاء فرنسا نفسها ، فأظهر الاستنكار مبيناً حسن نيته ، ثم اندفع فجـــأة وصرخ : « أنا صديق فرنسا ! كنت دومـاً أريد ولا أزال أريد فرنسة عظمى ذات جيش عظيم . وهذا ما يجب ان يكون من أجل السلام والنظام ، وأمن أوروبا . وما كانت لي قط سياسة غير هذه » . أجبته : « هـــذا صحيح ، وكان لـــك حتى الفضل ، بعد هدنة فيشي ، في الاستمرار بالاعتماد على فرنسا وايلائها الثقة . ولكن حاذر الآن أن تخسر هذه الورقة التي تدعى ديغول ! إن ذلك سيكون أكثر عبثاً مما أنت فيه اليوم وقد أفلحت سياستك وغـــدت فيه فرنسا الحرة روح المقـــاومة الفرنسية وإطارها » .

وتحدثنـا عن روزفلت وموقفه مني ، فقـال السيد تشرشل : « لا تتسرع في شيء ! أنظر إلي كيف أنثني تارة وانتصب تارة » . فأبديت هذه الملاحظة : إنك لقادر على ذلـك ، لأنك على رأس دولة وطيدة الأساس ، وأمـــة متراصة ، وأمبراطورية موحدة ، وجيوش كبيرة . ولكن أنا ! أين هي وسائلي ؟ ومع ذلك ، أحمل على كاهلي ، كما تعرف ، عبء مصالح فرنسا ومصيرها . وإنه لعبء جد ثقيل ، وأنا فقير لدرجة لا أقوى معهـا على أن أحني رأسي » . وختم السيد تشرشل حديثنـا بمظاهرة من التأثر والود : « إن لدينا بعد عقبات كأداء ينبغي أن نتغلب عليها . ولكن سنكون يوماً ما في فرنسا . وربما يحدث ذلك خلال السنة القادمة . وعلى كل حال ، سنكون فيها معاً ! » . وشيعني حتى بلغنا الشارع ، وهو يردد : « لن اتخلّى عنك . تستطيع ان تعتمد علي » .

وجهد السيد إيدن بدوره ، بعد ثلاثة أيام من هـذا الحديث ، في تجديد التأكيدات المرضية حول تجرد بريطانيا عن كل مأرب في الأمبراطورية

الفرنسية عامة ، ومدغشقر خاصة . وأخبرني ان « آمر اللواء » لاش استُدعي ، وان في استطاعة بشكوف أن يسافر ، وقـال بحرارة : « كن على ثقة بي اننا نتمنى السير معـاً يداً بيد لإعـداد الجبهة الغربية » .

وظلت الأمور إذن معلقة ، على نحو موقت . ومـع ذلك ، فإن التحذير الذي تقدّمنا به حظي بآذان صاغية . وأصبح الموقف البريطاني الاعتباطي تجاه أمبراطوريتنا ، محصوراً في حد لا يحتمل بعد اليوم أن يتجاوزه ، إلا في النزر النادر . كانت هنالك فرصٌ لاطمئنان الخواطر حول القضية السورية ، لحمل الصومال على الانضمام ، لأن يرفرف صليب اللورين يوماً ما فوق مدغشقر . وأصبحت اشعر بوضوح ، كما لم اشعر قط من قبل ، أن انكلترا لن تتخلى ، آخر الأمر ، عن تحالفها معنا .

كانت المسرحية التي تُشاهَدُ فيها فرنسا الحرة وهي تستعيد مـكانة فرنسا في مائة فصل متنوعة ، ترى الحكومات اللاجئة في بريطانيا العظمى من بين مشاهديهـا الأكثر اهتماماً وتحمساً ، وقد اتسعت حلقة تلـك الحكومات عام ١٩٤١ بوصول ملك اليونان ووزرائه ، ثم بملك يوغوسلافيا ووزرائه . وكان ما يحدث لفرنسا في نظر هؤلاء وأولئك موضع اهتمام شديد ، فهم وقد خانهم في بلادهم أشباه كويسلنغ ، وأُهينوا على أيدي هؤلاء الذين اغتصبوا مراكزهم ، يشعرون ان فيشي بغيضة إليهم في قرارة نفوسهم ، إذ كان موقفها حجة في أيدي المتعاونين مع الأعداء في ديارهم . ثم إنهم كانوا من جهة أخرى ، وإن لم تكن سيادتهم موضع نزاع لدى الدول الكبرى الحليفة ، يعـانون المصير الأليم الذي يصير اليه الضعاف اذ يُسلِّم أمرهم للأقوياء . وما كان اخيراً ليخالجهم شك في أن نهوض فرنسا شرط لتوازن اوروبا واتزان مستقبلهم نفسه . ولذا ، كانوا يشهدون العمل الذي قامت وتقوم به فرنسا الحرة في سبيل تركيز استقلالها ، وهم

يستشعرون غبطة خفية ، وكانت الآذان الصاغية التي نجدها لديهم تجعلنا في انشراح لا مزيد عليه لمستزيد .

وما كنا لنغفل ، مقابل ذلك ، عن عقد أوثق الصلات مع هذه الحكومات المجردة من أراضيها ، ولكن لها تمثيلاً رسمياً ونفوذاً واسعاً في كل مكان من العالم الحر . وكان ديجان وزملاؤه في اللجنة الوطنية يتصلون بوزراء تلك الحكومات وموظفيها ، ويتعامل أعضاء أركاننا العامة ، ودوائرنا مع زملائهم فيها . وكنت انا بنفسي اقابل رؤساء الدول وكبار المسؤولين .

وكنا نكسب الشرف ، ونُفيد من هذه الزيارات والمحادثات ، إذ ان علاقاتنا كانت مع رجال من ذوي القيَم الرفيعة ، بيد انا كنا نتبين وراء المظاهر الرسمية ، هاتيك المآسي التي غمرتهم بها الهزائم والمنافي . ولا ريب ان هذه الحكومات التي استمرت تدير جهاز السلطة ، كانت تجهد في التظاهر بالهدوء والاطمئنان . ولكن كل واحدة منها كانت تعاني في قرارتها مأساتها الخاصة التي تمزّقها ، في بحران من الهموم والأوصاب .

والحقيقة ان حكام البلدان الغربية ما كانوا يشكون ، ان بلادهم ستتحرر ، منذ دخلت الحرب روسيا والولايات المتحدة . ولكن بأية حال ؟ ذلك ما كان يشغل بال الذين يتحدثون الي من الهولنديين ، والبلجيكيين ، واللوكسمبورغيين ، والنروجيين . وكان حكام البلاد الواطئة (هولندا) يشهدون جميعهم بقنوط امبراطوريتهم في اندونيسيا وهي تتوارى امام أعينهم : من الملكة ولهلمينا النبيلة ، الى وزيرها الأول البروفسور جيربراندي ، الى وزير خارجيتها الجذاب السيد فان كليفنز ، الى الأمير برنهاردت ، على الرغم من الجهود الجبارة التي كان يبذلها اسطول الأميرال هلفريش والمقاومة المتصلة في الأدغال التي يقودها الجنرال

تيربورتن . وكان السادة بيرلو ، غوت ، وسباك يؤلفون معاً في خدمة بلجيكا ، فريقاً من الحكمة والحماسة والمهارة ، تغمره الكآبة وهو يستعيد القضية الملكية . اما الدوقة الكبرى شارلوت وزوجها الأمير فليكس دي بوربون – بارم ، والسيد بيش وزيرهما الدائم لحسن الحظ ، فإنهم لم يكفوا عن حسبان النتائج المادية والأدبية التي تصيب اللوكسمبورغ من الاحتلال النازي . وهناك أخيراً الملك هاكون السابع ، القدوة في الثقة والحزم ، وكذلك السيد تريغفي لي الذي كان يبذل في جميع المجالات نشاطاً لا يكل ، وقد هاله ان يشهد سفن النروج التجارية تتوارى ، والنروجيون يرددون معه : « إن رأسمالنا الوطني هو الذي يغشاه الظلام » .

وكانت حالة اليونان ، ويوغوسلافيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وبولونيا اكثر مأسوية بعد ، لانه اذا كان دخول موسكو الحرب يضمن لهذه البلدان هزيمة ألمانيا ، فانه ينطوي في نظرها ، على تهديدات أخرى . وكان رؤساء دولها ووزراؤها يتحدثون بذلك صراحة ؛ وقد كان ملك اليونان جورج الثاني والسيد تسوديروس رئيس الحكومة يصفان لي البؤس المروّع الذي ألقى فيه الغزو الشعب الهليني ، والمقاومة التي أظهرها رغم ذلك كله ، ضد العدو ، كما وصفا لي أيضاً هلاك الجائعين والمحاربين على يد الحزب الشيوعي . وكنت ألحظ في الوقت نفسه ، حول ملك يوغوسلافيا الشاب بيير الثاني ، وداخل وزارته نفسها التي رئسها على التوالي الجنرال سيموفيتش ، والسيد يوفانوفيتش ، والسيد تريفونوفيتش ، تلك الهزات التي كانت تبعث عليها احداث يتصدع بها البلد : انتصاب كرواتيا مملكة منفصلة يتولى عرشها الدوق دي سبوليت والمناداة به ملكاً عليها ، وضم إقليم ليوبليانا السلوفيني من قبل إيطاليا ، وكذلك دلماسيا ، والتنافس الذي تحول عاجلاً الى عداوة بين تيتو والجنرال ميخائيلوفيتش الذي كان

يقود الكفاح ، مع ذلك ، ضد الغزاة ، في الصرب .

صحيح أن الرئيس « بينيش » ووزراءه المونسنيور شراميك والسادة مازاريك ، وريبكا ، والجنرال أنغر كانوا عكس أولئك ، يظهرون انهم على ثقة من حسن تصرف السوفيات في المستقبل ، وكانوا يعقدون ، بوساطة السيد بوغومولوف ، علاقات طيبة ظاهرة ، مع الكرملين . وكان ممثلهم في موسكو السيد فيرلنغر ، يبدو بها معززاً . وكان هناك فيلق تشيكوسلوفاكي أخذ جنوده من التشيكيين ، وأسرى الروس في صفوف الفهرماخت ، أعادت القيادة الروسية تشكيله . وكان في الامكان الادراك ان بينيش كان يعتمد قبل كل شيء ، على روسيا ، أياً كان مقته للنظام السوفياتي ، ليستعيد سلطانه في براغ ، ويعيد بناء الدولة التشيكوسلوفاكية .

كانت المحادثات مع بينيش دروساً عليا في التاريخ والسياسة يلقيها باسهاب دون أن يملها الاستاذ ولا السامع . واني لأسمعه حتى الآن ، وهو يتحدث عن مصير الدولة التي أشرف على مقدراتها كرئيس ، مدة عشرين سنة . وكان يقول : « لا تستطيع هذه الدولة ان تبقى على قيد الحياة دون تأييد موسكو المباشر ، ما دام يجب ان تُدمج بها منطقة السوديت وهم شعب من الالمان ، وسلوفاكيا التي سلخت عن المجر ولم تستطع هذه ان تسلوها منذ فقدتها ، والـ « تيشن » التي يطمع بها اهل بولونيا . وفرنسا غير متأكدة ابداً من موقفها ، بحيث لا نستطيع ان نلقي بأنفسنا الى ارادتها الطيبة » . واختتم الرئيس حديثه قائلاً : « نستطيع في المستقبل ان نتجنب عقبات التحالف المنفرد الخالص مع الكرملين وحده ، ولكن شرط ان تستعيد فرنسا مكانتها ودورها اللذين ينبغي ان يكونا لها ، في اوروبا . وبانتظار ذلك ، أين هو الخيار بالنسبة لي ؟ » هكذا كان يفكر بينيش ، وأنا اشعر بالاضطراب الذي يغتلي في قرارة نفسه .

اما البولونيون ، فهؤلاء لم يكن يخامرهم شك ، فالروسي في نظرهم خصم ، حتى وإن أكره على قتال العدو المشترك ، فقـــد كان تدفق السوفيات امراً يـــلي هزيمة الالمان حتماً ، في نظر رئيس الجمهــورية راكيويكز ، والجـــنرال سيكورسكي رئيس الحكومة وقائد الجيش ، والوزراء السادة : زالسكي ، راكزنسكي ، والجنرال كوكيبل . اما الطريقة لصدّ مطامــح موسكو ، حــين تُغلب برلين ، فكانت هناك نزعتـــان تتوزّعان البولونيين ، إذ يستولي عليهم طوراً ضرب من الاعتقاد بالأسوأ يستقي منه بأسهم أوهاماً مسكرة ، كما تستلّ موسيقى شوبان الحـــلم من الألم ، وطوراً يداعبــون الأمل بحلّ يمد بولونيا نحــو الغرب ، ويتنازل لروسيا عن جزء من اراضي غاليسيا وليتوانيــا ، ويحملها على ان تمتنع عن حكم فرصوفيا وفرض حكومة شيوعية عليها . ولكنهم كانوا حــين يواجهون اتفاقاً ما ، إنما يلاقونه بنفسية يسيطر عليها الهوى لدرجـــة تبعثهم على المزايدة فــــيما بينهم ، وتثير البلبلة لدى الحلفاء ، والسخط لدى السوفيات .

ومع ذلك ، كان الجنرال سيكورسكي مصمماً على القيام بتجربــة المصالحة ، أياً كان حظها من النجاح . لقد كان هذا الرجل الهمام يمثل بشخصه مصير بلاده ، وذلك لأنه ، وقد عارض من قبل سياسة المارشال بلسودسكي ، ثم بخيلاء « بيك » و « ريدزسميغلي » ، وجد نفسه منذ النكبة وبيده جميع مقاليد السلطة التي تتمتع بها دولة في المنفى .

لم يتردد سيكورسكي لحظة ، منذ دخلت جيوش الرايخ روسيا ، في إعادة العلاقات الدبلوماسية مع السوفيات ، رغم الاحقاد المتراكمة في قلوب البولونيين . ووقع في تموز (يوليو) ١٩٤١ اتفاقـــاً مع موسكو يصرّح أن تقسيم بولونيا الذي جرى عام ١٩٣٩ بين روسيا والمانيا ، لغوٌ وليس له اي مفعــول شرعي . وفي كانون الاول ذهب بنفسه الى

موسكو ليفاوض في شأن الأسرى وإطلاق سراحهم ونقلهم إلى القفقاس ، ومن ثمة يمكن نقلهم الى المتوسط ، تحت إمرة الجنرال أندرسون . وتحدث سيكورسكي مطولاً الى ستالين . ولدى عودته صور لي ، وهو يسرد علي قصة محادثاتهما ، سيد الكرملين غارقاً في بحران من القلق ، ولكن من غير أن يمس بشيء صفاء ذهنه ، وشراسته ، ومكره . وقال لي سيكورسكي : « لقد ترسخ ستالين في قبوله مبدأ التفاهم ، ولكن ما سيضعه في محتوى ذلك المبدأ ، وما يتطلب منا ان نضعه فيه ، لن يتوقف إلا على القوى الراهنة ، وبعبارة أخرى ، على الدعائم التي ستسندنا أو لا ، في الغرب . فإذا دقت الساعة من يمين بولونيا ؟ إما أن فرنسا هي التي ستكون المعين ، وإما لا أحد ! »

هكذا ، كانت الجوقة القلقة للحكومات اللاجئة تواكب في الخفاء خطى التقدم التي تحرزها فرنسا الحرة . وكان الجميع قد اعترفوا ، كالانكليز ، باللجنة الوطنية اعترافاً يشوب عباراته التحفظ ، ولكن الجميع كانوا يقرون ان الجنرال ديغول الفرنسي الكفؤ للتكلم باسم فرنسا ، وكانوا يعربون عن ذلك مثلاً في التوقيع معي على تصريح مشترك يتعلق بجرائم الحرب ، هذا ما حدث في ١٢ كانون الثاني ١٩٤٢ خلال مؤتمر لرؤساء الحكومات . لقد كانت علاقاتنا ، مع الدول اللاجئة والسمعة التي ساعدتنا على إحرازها ، تعيننا ، بجملتها ، على الصعيد الدبلوماسي وتمدنا في أوساط الرأي العام ، بمؤازرة مجموعة من العوامل التي لا سبيل الى تقييمها .

واذا كان عظماء الرجال هم الذين قادوا الرأي العام الأنكلو - سكسوني ، في مأساة العالم ، فان ذلك الرأي العام هو الذي كان ، في الجهة المعاكسة ، يوجه الحكومات . وقد كنا نحاول ايضاً ان نضعه في حسابنا ، وجهدت انا شخصياً في تحقيق ذلك بالإفادة من تظاهرات العطف

والفصول التي كانت تبعث عليها حركتنا ، فكنت أوجه الخطابات بانتظام للجمهور الانكليزي والأميركي . وكنت ، حسب الطريقة الكلاسيكية ، أختار من بين الجمعيات التي تدعوني لالقاء كلمة ، جماعة تناسب الظرف والموضوع . وكنت أشاهد في ختام الوليمة ، وانا ضيف الشرف في الغداء أو العشاء المعدّ في تلك المناسبة ، ان عدداً عديداً من محترفي الإعلام أو الشخصيات المتميزة يندسون في صفوف المدعوين ويتسللون الى القاعة وقد أقبلوا لسماع الخطاب . وحين يلقي « المعرّف » ، على حسب العادة الانكليزية ، كلمة الافتتاح ، أقف واقول ما اريد بيانه .

وكنت أتكلم ، اكثر ما أتكلم ، بالفرنسية لأنني لا اعرف الانكليزية ، ويا للأسف ، معرفة جيدة كافية . ولكن كان سوستيل يدخل الميدان على أثري ، إذ يُترجم خطابي مسبّقاً ، ويوزع في اللحظة التي افرغ بها من إلقائه . وكانت الصحافة والإذاعة في بريطانيا العظمى والولايات المتحدة ، تتوليان نشر الجوهري منه . اما الموضوعية ، فلدي الجرأة على القول إنها تبدو لي نسبية في الصحف الأميركية التي تبرز هذه العبارة او تلك المنتزعة من سياقها ، دساً وتشهيرا ، وكانت هذه ، مع ذلك ، « تعبر الحاجز » . أما الصحف الانكليزية ، فنادراً ما كانت تشوه النص ، ولكنها لا تماري في انتقاداتها ، اغلب الاحيان . ويجب ان اضيف ان صحافة اميركا اللاتينية لم تكن تتوانى عن وضع تصريحاتي الخاصة في أمكنة بارزة عن صداقة منها لفرنسا ، وتقدير لـ « الديغولية » وربما عن رغبة في التعويض عن موقف الولايات المتحدة . والخلاصة اني كنت اجد الديمقراطيات الحليفة ، على الدوام ، تحترم حرية التعبير ، إلا خلال بعض الأزمات التي كانوا يتذرّعون أثناءها بـ « الضرورات العسكرية » لخنق صوتي .

وكنت قد توجهت بخطاباتي ، قبل ان أزور المشرق في ربيع ١٩٤١ ،

الى مستمعين بريطانيين ، ولا سيما في نادي « فويلز الأدبي » وفئة البرلمان الفرنسية – الانكليزية . واستمع إلي بعد عودتي الى لندن في ايلول حتى حزيران ، على التوالي : « الصحافة الدولية » ، والعمال ، ثم مديرو المحافظات ، وملاكات معمل الدبابات « انجليش إلكتريك » ، وفي استافورد « الجمعية الافريقية الملكية » ، و « اتحاد متكلمي الانكليزية » و « جمعية الصحافة الاجنبية » ، و « النادي الفرنسي لجامعة اكسفورد » و « نادي مدينة ليفري » ، و « لجنة الدفاع عن المصلحة العامة » وبلدية ادنبره واعيانها ، واجتماع عقد في البرلمان لأعضاء مجلس العموم . وفي ايار (مايو) ١٩٤٢ ، عقدت لأول مرة مؤتمراً صحفياً . ومذ كنت في ١٤ تموز ١٩٤١ في برازافيل ، فقد أذاعت شركة « هيئة الاذاعة الوطنية » الاميركية ، من جميع محطاتها ، نداء وجهته في المذياع الى الولايات المتحدة . وفي ٨ تموز ١٩٤٢ أذاعت « كولومبيا » في اميركا ، وفي حديقة نيويورك المركزية خاصة حيث جمع عمدة المدينة « لا غوارديا » الأهالي قاطبة ، كلمة بالانكليزية لـ « صديقنا وحليفنا الجنرال ديغول » ، ورسالة جديدة الى الاميركان في ١٤ منه ، بمناسبة العيد الوطني الفرنسي . وكانت تضاف الى هذه المناسبات الكبرى ، مناسبات اخرى أضطر فيها الى الكلام دون استعداد ، وكنت اجد مع ذلك ، اصداء مفيدة . وذلك هو ما كان يحدث في الاستقبالات التي اقيمت لي في مدن : برمنغهام ، وليدز ، وليفربول ، وغلاسكو ، وهول ، وأكسفورد ، وجامعة أدنبره ، وأميرالية بورتسموث ، وترسانتي برغام وكاوان ، ومصانع تالبوت ، ومعامل هارملن ، وصحيفة « التايمز » ، وعدد كبير ، أخيراً ، من الأندية ، وكانت جميعها ، دوماً ، يعمرها الودّ وطيب النيات .

غير أني كنت ألقي ، على الدوام ، بالأفكار والمشاعر نفسها للأصداء

الأجنبية ، وإن نوّعتُ النبرة . كنت أقدم لهزيمة فرنسا اول الأمر ، تفسيراً في النظام العسكري المهلهل العتيق ، الذي كانت تمارسه جميع الديمقراطيات في بداية الحرب ، وذهبت بلادي ضحيته لأنه لم يكن لديها أوقيانوسات تغطيها ، ولأنها تُركت وحدها في الطليعة . وكنت أؤكد ان الأمة الفرنسية ظلت تحيا ، تحت الجور ، حياة عميقة وقوية ، وانها ستظهر عما قريب ، وهي مصممة على الجهد والتجدد . وأعطيت الدليل على ذلك في المقاومة التي كانت تتنامى في الداخل والخارج . إلا اني أظهرت الشعب الفرنسي وهو يتحسس اسلوب حلفائه في تصرفاتهم تجاهه ، بمقدار ما كان يكابد الويل والهوان ، وأن دعاية هتلر تعرض امام عينيه مجالات الامل في النهوض ، شرط ان ينتقل الى المعسكر الاستبدادي ، معسكر الحكم المطلق ، وان فيشي ليست على خطأ – أما كان عليّ ان افيد من كل شيء ؟ – إلا في حدود ما تحترم الديمقراطيات حقوق فرنسا .

هكذا ، وعلى هذا النحو ، ألقيت في اول نيسان ١٩٤٢ ، خطاباً وضعت فيه النقاط على الحروف ، من هذه الجهة ، وأثار عاصفة من المجادلات ، وقد صرّحت فيه : « ألا لا يذهبنّ الظن بأحد الى ان هذا النوع من المعجزة الذي تكوّنه فرنسا المحاربة ، إنما هو نهائي لا يتكرر ابداً .. الأمر كله يرتكز على ما يلي : إن فرنسا المحاربة تفهم أنها تسير مع حلفائها وهي متحفظة تحفظاً صريحاً ، اي ما دام حلفاؤها يسيرون معها ... » . وصوّبت أرمي مباشرة هاتيك العلاقات التي استمرت الولايات المتحدة في الحفاظ عليها مع فيشي ، والمطارحات الخفية التي كانت تجريها مع قناصلها ، فأضفت : « إن انعطاف الديمقراطيات على أناس هدموا الحريات الفرنسية ثم يحاولون قولبة نظامهم على القالب الفاشستي او صورته الممسوخة ، إنما يعني إدخال مبادىء

المسكين «غريبوي» الذي ألقى بنفسه في البحر خشية ان يتبلل، على السياسة؛ ثم اضفت، وانا اسمى في تفجير الصاعقة : «إن في ذلـــك تنكراً خطيراً لحادث يهيمن على المسألة الفرنسية برمتهـا ، ألا وهو ما يدعى الثورة . ذلك لأن هذه إنما هي ثورة ، وهي اكبر ما عرفه تاريـــخ فرنسا الـتي منيت بخيانة نخبتها الحاكمة وذوي الامتيازات من ابنائها ، وقد بـدأت فرنسا في انجازها » ، وقلت بأعلى صوتي : « لن يكون من المسموح به ، ان ما يقال عنه واقعية ، وهو الذي ساق الحرية الى شفير الهاوية ، بين مونيخ ومونيخ اخرى ، ان يستمر في خداع الحماسات وخيانة التضحيات .. » .

وسقطت المواقع . لقـــد وفقت فرنسا الحرة الى التعريـف بنفسها والاعتراف بها من الجمهور وشعوره ، والوزارات ورضاها ، لا كسيّافة لفرنسا وحسب ، بل قهرمانة ايضاً لا تتزعزع في إدارة مصالحها . وقد أدركت هذه النتيجة في الوقت اللازم الذي كان يجب ان تُبلَغ بـه . وذلك لأن الظروف التي تأخذ فيها الحربُ وجهة حاسمة كانت قد تجمعت في اوائل الصيف من عام ١٩٤٢ ، إذ ان روسيا ظلت واقفة عـــلى قدميهـا ، وانتقلت الآن الى الهجوم ، وانكلترا استمرت تتصرف فوق أرضها بقوات كبيرة ، وإن كانت ترسل نجدات وافرة الى الشرق ، والولايات المتحدة على استعداد لنقل وحداتها الجديدة بأكملها ، مـــع عتادها الضخم ، الى الغرب ، وفرنسا اخيراً لا تزال قادرة على خوض المعركة الاخيرة بقوات عسكرية مهمة ، وامبراطوريتها ، ومقاومتها على شدة ما تعاني من تفتت واستعباد في الوطن الأم ، وعلى ما ران مـن جمود على جزء كبير من اراضيها فيما وراء البحار . ومذ كانت الراية ترفع ، على جوانب الميـــدان ، فقد دعوت في ربيع ١٩٤٢ « فرنسا المحاربة » ما كان يدعى حتى ذلـــك الزمن « فرنسا الحرة » ولفتّ

انتباه الحلفاء الى هذه التسمية الجديدة .

ذلك بأن مصير فرنسا سيتقرر في حومة النزال القادم ، وستكون اراضيها - افريقيا الشمالية او الوطن الام - مسرح العمليات الحربية . وسيقرر حصتها من النصر ، ما تعمله او لا تعمله ، عند مهاجمة العدو . ولكن مكانتها في العالم ووحدتها الوطنية وكيانها الامبراطوري ، إنما تتوقف على سلوك حلفائها . وما كان في مستطاعي ان اشك في ان بعضهم ، وليسوا من القلة ، كانوا يفكرون ان يتصرفوا على نحو يجعلون به ، في هذه الفرصة الكبرى ، جهاز الحكم الفرنسي اقل ما يمكن ان يكون استقلالاً وتماسكاً ، وتصبح معه فرنسا المحاربة لقمة سائغة يزدردونها ، إن لم تبعد نهائياً . ولكن المكانة التي احرزتها في العالم ، غدت الآن جدّ راسخة ، بحيث لا يمكن تحطيمها من الخارج .

ولكن ذلك مشروط بأن تصمد هي جيداً ، وان تحظى بتأييد الأمة كلما أخذت هذه تظهر على حقيقتها . وما كنت لأفكر في شيء سوى ذلك ، وأنا أقود في الوقت نفسه كفاحنا . أيكون لدى فرنسا المحاربة في المحنة القادمة من الحماسة ، والقيمة ، والهمّة ، ما يكفي لوقايتها من التصدّع في الداخل ؟ أُترى يريدُ الشعب الفرنسي الخائر ، المضلّل ، الممزّق ان يصغي إلي ويتبعني ؟ أتراني أتمكن من لمّ شتات فرنسا ؟

فرنسا المحاربة

بينما كانت فرنسا المحـــاربة توسّع بين صيف ١٩٤١ وصيف ١٩٤٢ ميدانها الديلوماسي لم تكف هي نفسها عن النمو . وإذا كنا نسرد هنا بالتوالي قصة تنامي هذين الجهدين ، فإن هذين لم يكونا أقـل توافقاً في الزمن وتلاحماً في الأصول . ولكن بما أن حقل العمل كان يتسع يوماً عن يوم ، فقد أصبح لزامـــاً علي أن أضع على رأس الحركة هيئة ملائمة ، فديغول لم يعد بعد كافياً لإدارة كل شيء . لقد أصبح عدد المشكلات وسعتها يتطلبان قبل التقرير ، مجابهة وجهات النظر والكفاءات ، ويجب ان ننزع المركزية عن تدابير التنفيذ . ومذ كان الشكل الجماعي أخيراً لجميع الدول ، هو شكـل السلطة ، فسنتعاون فيما بيننا على الاعتراف بعضنا بالبعض الآخر ، ونحن نتبنـاه لأنفسنـا . وكان ان أسستُ اللجنة الوطنية بأمر أصدرته في ٢٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٤١ .

وانا لم أنقطع ، والحق يقال ، عن التفكير في تلـــك اللجنة ، من بداية الأمر ، ولكن اضطراري الى قضاء ثمانية أشهر في افريقيا والشرق، خلال سنة واحدة ، وافتقاد الرجال الذين يُنعتون أنهم « يمثلون الشعب » على الأخص ، أمران أكرهاني على التأجيل . وكان في استطاعتي لدى وصولي الى لندن ، بعد قضايا سوريا ، ان أتدبر طوراً طويلاً من التنظيم ، عكس الطور السابق . واذا كان معظم الشخصيات الذين انضموا الي من

قبل ، مغمورين ، من جهة أخرى ، فإن بعضهم أصبحوا من البارزين ، وأصبح في إمكاني اذن ان أشكل لجنة ذات قيمة . وستغدو اللجنة الوطنية بالنسبة لفرنسا المحاربة ، جهاز التوجيه الذي تجمّع حولي . وقد راح « المفوضون » فيها يتداولون معاً في جميع الشؤون . وكان على كل واحد منهم ان يشرف على إحدى « الإدارات » التي نمارس فيها نشاطنا . وسيكون الجميع متضامنين في القرارات التي تتخذ ، اي ان اللجنة ستكون ، بقول موجز ، هي الحكومة . وستكون لها صلاحياتها وبنيتها . ومع ذلك ، فلن يكون لها أن تتخذ سمتها التي احتفظتُ بها لليوم الذي تستطيع فيه ان تؤلف سلطة تتسع أبعادها للشمل الوحدة الفرنسية ، مهما كان ذلك اليوم بعيداً . وفي حدود هذا النطاق نفسه ، كان الامر الذي وجهته يضع في الحساب تكوين جمعية استشارية من بعد « تكلف تزويد اللجنة بأوسع تعبير ممكن عن الرأي العام الوطني » . ولسوف يمضي وقت طويل مع ذلك ، قبل ان ترى هذه الجمعية النور .

ومذ كان علينا ان ننتظر قيامها ، فان قراري أثار كثيراً من اللغط في اوساط الفئات الفرنسية القليلة ، التي راحت تصطخب على نحو يقل أو يكثر ، بحجة انها سياسية ، في كل من بريطانيا العظمى والولايات المتحدة . وكانت هذه الفئات تتساهل في ان يتصرف ديغول كجندي يمد الحلفاء بشراذم عسكرية ، ولكنها لا تقبل بحال ، ان يأخذ رئيس الفرنسيين الاحرار على عاتقه تبعات دولة . فهم وقد أبوا الانضواء الى لواء سلطتي وراحوا يفضلون إيلاء مستقبل فرنسا للأجنبي ، سواء كان في الواقع ، روزفلت ، أو تشرشل ، أو ستالين .

وإني لاوافق انه كان هنالك تناقض حقيقي بين مفاهيم هذه الاوساط ومفاهيمي . كان من رأيي في المأساة الوطنية ، ان السياسة يجب ان

تكون العمل في خدمة فكرة قوية وبسيطة . أما هم ، فقد ظلوا يتابعون الخرافات التي كانت تداعبهم منذ زمن بعيـد ، وما ارتضوا ان تكون شيئاً آخر غير فن زخرفي لرسم الخطـوات في رقصة باليه مصطنعة يقوم بها جماعة من ممثليها المحترفين ، ولا يمكن ان يصدر عنها سوى مقالات وخطب ومعرض مواهب بيانية وتوزيع مقـاعد . وعلى الرغم من ان هذا النظـام كنسته الحوادث كنساً ، وعلى الرغم من انه أنزل بفرنسا كارثة كان يُشَكّ في قدرتهـا على النهوض منها ، وعلى الرغم من ان هؤلاء المسمّين اصبحوا الآن مجردين من وسائل صخبهم المعتادة : برلمان ، ومؤتمرات ، ووزارات ، وقاعات تحرير صحفي ، فـإنهم أقاموا على لعبهم في نيويورك أو في لندن ، يحاولون ان يقحموا فيها حكام الانكلو سكسون ، ونوابهم ، وصحافييهم لافتقـادهم لاعبين آخرين . ولقد كان وراء المتاعب التي مُنيت بها فرنسا أغلب الاحيان ، على أيدي حلفائها أنفسهم والحملات التي شنت ضدها من صحافتهم وإذاعاتهم ، نفوذُ عدد من الفرنسيين المغتربين . فهؤلاء ما كانوا يتوانون عن شجب ذلك النوع من الولاية السياسية التي قلدت بها فرنسا المحاربة نفسها في مؤسسة اللجنة الوطنية ، ومضوا يبذلون جهودهم في معاكسة تلك العملية .

وكان الاميرال موزيليه هو الاداة التي استخدموها . ولهذا الاميرال شخصية مزدوجة . فقد أظهر كبحار قيمة تستحق تقديراً عظيماً ، وكان الفضل لقيمته هذه ، الى حد بعيد ، في تنظيم قواتنا البحرية الصغيرة . ولكن ضرباً من مزاج قلق كان يستحوذ عليه دورياً ، ويدفعه على حبك الدسائس ، فهو لم يكد يعرف بعزمي على تشكيل اللجنة ، حتى كتب إليّ واضعاً نفسه بطل التفاهم مع الحلفاء والديمقراطية ، هذا التفاهم الذي أوشكتُ ، حسب رأيه ، ان اضعه في خطر . وإنقاذاً لهـذا وتلك ، اي الديمقراطية ، اقترح علي ان اضع نفسي في مركز شرف ،

واترك له شخصياً السلطة الفعلية . اما الوسيلة التي استخدمها ، محاولة منه في إكراهي على القبول ، فلم تكن أقل من التهديد بانشقاق البحرية التي كما قال هاتفياً : « تصبح مستقلة وتتابع الحرب » .

كان ردّ الفعل لدي واضحاً وموجزاً ، أذعن له الأميرال وهو يزعم ان هنـــاك سوء تفاهم ، وأظهرت لاسباب عـــاطفية وظرفية ، انني اقتنعت ، وأخذت علماً بتعهداته وعينته مفوضاً للبحرية ، وبحرية التجارة في اللجنة الوطنية .

وكان المكلفون في اللجنة : بليفن للاقتصاد ، والمالية ، والمستعمرات ؛ كاسّان للمعارف والعدل ؛ ديجان للشؤون الخارجية ؛ ليجنتيوم للحرب ؛ فالان للجو ؛ ديتلم الذي وصل حديثاً من فرنسا للأشغال والانباء والعمل في الوطن الأم . كاترو ودارجنليو الذي كان في بعثة ، أصبحا مفوضين بلا مفوضية . ووكلت الى بليفن مهمة التنسيق الاداري بين الادارات المدنية « احوال شخصية ، رواتب ، توزيع الموظفين ، تعيين الامكنة ، الخ .. » . وقد تمنيت بادىء ذي بدء ، ثم حاولت من بعد ، مراراً عدة ، ان أوسع اللجنة وأدخل فيها بعض الشخصيات الفرنسية التي كانت تقيم في اميركا . هكـــذا طلبت الى السيدين ماريتان وألكسي ليجه مؤازرتها ، وجاء الجواب موقّراً ، ولكن سلبياً .

وانتظم سير العمل في اللجنـــة الوطنية على نحو مُرض ، ولكن موزيليه افتتح أزمة جديدة . فقد عـــاد الى لندن بعد حملة سان - بيير التي تلقى من أجلها تهانينا الاجماعية ، وصرّح في ٣ آذار ، في جلسة عقدتها اللجنة ، ان الأمور لا تسير على مـــا يهوى ويرغب في فرنسا الحرة ، وقدم استقالته كمفوض وطني ، وكتب الي يؤكد تلك الاستقالة ، فقبلتها ، ووضعت الاميرال تحت تصرف القيادة ، وعينت مكانه أوبوانو الذي استُدعي من الباسيفيك ، ولكن موزيليه صرّح عند ذاك أنه ،

وإن كفّ عن ان يكون عضواً في اللجنة الوطنية ، يحتفـــظ لنفسه بالقيادة العليا للقوات البحرية ، كما لو كان سيداً إقطاعياً يحتفظ بممتلكاته . وذلك مما لا يمكن التسليم به ، ثم انتهت القضية حين تدخلت الحكومة البريطانية فجأة .

كان هذا التدخل قد أعدّ منذ زمن طويل ، والمحرضون كانوا بضعة مشاغبين مقتربين وبعض عناصر من مجلس العموم و « النايفي » (البحرية البريطانيـة) . وقد لقي المتـآمرون مؤازرة من المستر ألكسندر ، اللورد الاول للأميرالية ، فقد صوّروا له باعتبـاره وزيراً ، ان البحرية الفرنسية الحرة تنحلّ إذا تخلى عنها موزيليه ، وهي التي تحرم « البحرية الملكية » من أيدٍ لا يُستهان به ، وحملوه على الاعتقاد باعتباره عمالياً ، ان ديغول ولجنته يميلان نحو الفـاشيّة ، وان الواجب يقضي ان تنزع القوات البحرية الفرنسية من سياستها . وقد اعتنقت الوزارة البريطانية رأي ألكسندر لاسباب تتعلق بتوزانها الداخلي ، وفي اكبر احتمال ايضاً ارادت ، رغبة منها في جعل ديغول اكثر تساهلاً معهـــا ، إضعافه ، فقررت ان تطلب مني الابقاء على موزيليه في منصبه كقائد أعلى للقوات البحرية الفرنسية الحرة .

وجاءتني مذكرة في ٥ و ٦ آذار من السيد إيدن ، والى جانبـــه السيد ألكسندر ، بهـــذا الموضوع . وكان ان اصبحت القضية واضحة وضوحاً نهائياً في ذهني ، منذ تلك اللحظة ، واصبح الواجب يقضي ، مهما كلف الأمر ، ان ينفذ قرار اللجنة الوطنية بحذافيره ، وان تقلع بريطانيا عن التدخل في هـــذا الشأن الفرنسي ، فكتبت في ٨ آذار (مارس) للسيد إيدن أننا قررنا ، أنا واللجنة الوطنية ، ان موزيليـه لم يعد قائداً أعلى للبحرية ، وأننا لا نقبـل في هذا الموضوع ، تدخل الحكومة الانكليزية . وأضفت : « إن الفرنسيين الاحرار يعتبرون ان

ما يعملونـه الى جانب البريطانيين ، وفي سبيل القضية نفسها ، يقضي ان يحافَظ عليهم وان يعامَلوا كحلفاء ، وأن تأييد البريطانيين لا يجوز ان يمنح لهم بشروط تتنافى مع سبب وجودهم نفسه .. وإذا كان الأمر على غير ما نصف ، فإن الجنرال ديغول واللجنة الوطنية يكفّان عن القيام بمهمة يصبح عليهما القيام بها مستحيلاً . وانهما يعتقدان ، في الواقع ، ان من الجوهري ، فيما يخص مستقبل فرنسا كما يخص حاضرها ، ان يظلا أمينين للهدف الذي رسماه . وهذا الهدف يعني إنهاض فرنسا وإعادة وحدتها الوطنية في الحرب الى جانب الحلفاء ، ولكن دون تضحية شيء من الاستقلال والسيادة والانظمة الفرنسية » .

لم يردني جواب في الحال . ولا شك في ان الانكليز كانوا ينتظرون ما سيحدث داخل بحريتنا ، قبل ان يمضوا الى ابعد من ذلك . والواقع انه لم يحدث أي شقاق ، على ظهر أية سفينة ، ولا في أي مستودع ، ولا في أية من منشآتنا البحرية ، بل العكس هو الذي كان ، فان جميع عناصر القوات البحرية الفرنسية الحرة شدّت أواصرها الى ديغول بحماسة تتناسب مع المصاعب التي كانت تُثار في وجهه . وكل ما وقع ان بعض الضباط المتجمعين حول الاميرال ، نظموا في مقر أركانـه العامة حيث ذهبت شخصياً لأكلمهم ، مظاهرة غير لائقة . وعند ذاك عينت للأميرال موزيليه مكاناً يقيم فيه أبعدته به مدة شهر واحد عن كل اتصال بالبحرية ودعوت الحكومة الانكليزية ، طبقاً لاتفاق التشريع المعقود بتاريخ ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٤١ ، الى تنفيذ هذا التدبير ، لأنـه اتخذ على ارض بريطانية . ومذ تأخرت التأكيدات الضرورية عن الوصول إليّ ، خضت المعركة وأنا مستعدّ لكل شيء ، منتظر كل شـيء ، تارك في أيدي بليفن ، وديتـلم ، وكوليه نوعاً من وصية سرية ، تعهد اليهم القيام بمهمة إعلام الشعب الفرنسي في حالة اضطراري الى التخلي عـن

المضي فيما شرعت به ، ساعة أصبح في وضع لا استطيع معه ان اشرح الموقف بنفسي . وانهيت الى حلفائنا ، خلال هذا الوقت ، انـــني لا استطيع ، مع اسفي العميق ، ان اعيد علاقاتي بهم قبل ان يطبقوا هم انفسهم الاتفاق الذي تعهدوا بتطبيقه .

وهـــذا ما كان في ٢٣ آذار . جاءني السيد بيك في زيارة ، وسلمني مذكرة تخبرني ان حكومته لا تلــح ان يظل موزيليه قائداً أعلى ، وتحرص على ان يظل الأميرال منقطعاً ، طيلة شهر ، عن كل اتصال بأي من عناصر القوات البحرية الفرنسية . وأوصت الحكومة البريطانية ، مع ذلك ، بناء على رغبتي ، ان يعامل كما يعامل احد افراد مصالحها . ووصل أوبوانو أثناء هــذه الاحداث ، من الباسيفيك وتولى بنفسه إدارة البحرية وقيادتها . واردت ان اقــدم للأميرال موزيليه فرصة استمراره في الخدمة ، فدعوته في ايار (مايو) الى مقابلــتي لترتيب مهمة تفتيش كنت أنوي ان أكلها اليه ، فلم يحضر . وبعــد بضعة ايام ، وجه إليّ هذا الضابط الذي عمل الكثير في سبيل بحريتنا ، مذكرة يخبرني فيهـا ان تعاونه مع فرنسا الحرة انتهى . فأسفت له على ذلك .

ثم لم يحدث بعد تلك الحادثة الأليمة ما يمنع انتظام السير في طريق « لجنة لندن » هذه الـــتي صورتها الدعاوات المعادية — وهي لم تكن دعاوات العدو وفيشي فحسب — على انها فئـة من السياسيين الطامعـين تارة ، وتارة على انها زمرة من المغامرين الفــاشيين ، وطوراً انها لمامة من المتهوسين المتشيوعين ، وهي التي لم تكن تحسب حساب شيء ، وأنا أشهد على ذلــك ، إزاء خلاص البلاد والدولة . ولقـــد كانت اللجنة الوطنية تجتمع مرة كل اسبوع على الاقل ، بشيء من العلانية ، في غرفة كبيرة من « حدائق الكارلتون » تدعى « قاعة الساعة » ، فتستمع طبقاً لجدول اعمالها ، الى تقرير كل مفوض عن اختصاصه او عن كل مسألة

يجد هذا او ذاك من واجبه ان يطرحها . وكانت تأخذ علماً بالوثائق والمعلومات ، وتناقش بأناة ، وتنتهي الى مقررات تحرّر في الجلسة بشكل محضر ، وترسل من بعد في مذكرات الى القوات والدوائر . وما اتخذت اللجنة قط قراراً مهماً ما لم تناقشه ويتذاكر اعضاؤها فيه.

لقد كنت اجد ، على الدوام ، في اللجنة الوطنية باعتبارها أداة جماعية ، كما وجدت في كل فرد من اعضائها ، عوناً ثميناً ومؤازرة امينة . ولا ريب اني كنت مقتسراً على معرفة كل ما يستحق العناء ، بصورة شخصية . غير ان العبء غدا أخفّ ، نتيجة ما ألقيت من ثقله على رجال ذوي قيمة ومقدرة احاطوا بي واعانوني . ثم لا ريب ان هؤلاء الوزراء الذين لم يسبق لأحد منهم ان خاض الحياة العامة ، كان يُعوزهم الى حد ما ، بعض السلطة والشهرة ، واستطاعوا ، مع ذلك ، ان يحصلوا على هاتين . يضاف الى ذلك انهم جميعهم كانت لهم خبرتهم وشخصيتهم . وكان المجموع الذي تألف منهم يفتح لفرنسا المحاربة آفاق نفوذ كانت تظل لولاهم ، موصدةً دونها . وكنت ألاقي لدى هؤلاء المعاونين ، اغلب الاحيان ، العديد من الاعتراضات ، لا المعارضات بكل تأكيد ، بل المناقضات لمقاصدي وأفعالي . وكان عدة اعضاء في اللجنة ينزعون الى تسوية الأمور ، في اللحظات الصعبة التي كنت اميل فيها نحو الحلول العنيفة . وكان ذلك ، في مجمله ، حسناً ان يجري هكذا . وفي نهاية المطاف ، ما كان أحدٌ من المفوّضين ينازع في أحكامي ، بعد ان ألقي النور على وجهات نظري .

وإذا كانت ثمة آراء تنقسم ، في الواقع ، فإن تبعتي فيها تظل كاملة . وكان « الأنا » المسكين دوماً هو الذي يجيب عن كل شيء في الكفاح من أجل التحرير . وكان دعاة التحرير هؤلاء في فرنسا ، على الأخص ، يشخصون بأبصارهم الى ديغول ، وقد راح عددهم يتنامى وطفقوا يتجهون

نحو المقاومة الفعّالة . وكانت هناك تلبية لندائي تتوالى أوضح فأوضح ، كما كان هنالك ايضاً تلاقي مشاعر بدا لي ضرورياً بمقدار ما كان محرّكاً ومثيراً . ذلك لأني ، وقد لاحظت نزعة الفرنسيين الى الانقسام والتشتت الذي فرضه عليهم الاستبداد وانهم يجنحون الى إظهار تمردهم في اشكال متناهية التنـوع ، رحت أصرف همي كله الى تحقيق وحدة المقاومة . وكانت هذه الوحدة ، في الواقع ، شرط فعاليتها الحربيّة ، وقيمتهـا الوطنية ، وثقلها في ميزان العالم .

أخذ ما يحدث في الوطن الأم ، يصبح معلوماً لدينـا كلما حدث ، منذ صيف ١٩٤١ . وغدت المعلومات تتناهى الينا ، عـلى الدوام ، متكاملة كل التكامل ، مستقلة عما يمكن ان يُقرأ بين السطور في الصحف او يُسمع خلف ما يذيعه المذياع في المنطقتين ؛ وكانت هاتيك المعلومات ترد الينا في محاضر شبكاتنا وتقارير عدد من الرجال كانوا يضعون من قبل صوى[1] في الطريـق ، واحاديث المتطوعين الذين كانوا يفدون كل يوم ، من فرنسا ، والإشارات التي تزودنا بهـا المراكز الدبلوماسية ، والتصريحات التي يدلي بها مهاجرون اثناء مرورهم بمدريد ، ولشبونـة ، وطنجة ، ونيويورك ، والرسائل الموجهة الى فرنسيين احرار من أسرهم واصدقائهم وتصل اليهم بألف حيلة وحيلة . وبهذا كله ، كانت في ذهني لوحة واضحة لمـا يدور يوميـاً . وكم من مرة أدركت اني كشخص ، على اطلاع متصل بالشؤون الفرنسية ، من خـلال التحدث الى مواطنين قدموا حديثاً من البـلاد ، ولكنهم كانوا محصورين فيها بحكم مهنتهم او منطقتهم ، وأتيح لي ان ألمس ذلك بما توفر لي من معلومات لا تحصى ، وبثّ ، ومقارنة بين الحوادث وجمع لها ؛ كان يمدني بهـا حشدٌ من المخلصين الابرار .

---

(١) صوى : جمع صوة وهي العلامة التي تدل المسافر على طريقه ، وهنا ترجمة لكلمة *Jalon*

وكان جل ما يستخلص من تلك المعلومات ان فيشي آخذة في التداعي والانهيار ، فقد تبددت اوهام عهدها نهائياً . وأول ما تبدد نصرُ ألمانيا الذي أعلن انه أمر مفروغ منه لتبرير الاستسلام ، إذ أصبح امراً غير محتمل الوقوع منذ خاضت روسيا المعمعة ، ودخلت الولايات المتحدة الميدان بدورها ، وصمدت إنكلترا وفرنسا الحرة . والادعاء الذاهب الى « صيانة الأثاث » لقاء العبودية تبين انــه مضحك ما دام أسرانا البالغ عددهم ١٥٠٠٠٠٠ لم يعودوا الى الوطن ، والالمان ألحقوا الألزاس واللورين عملياً ببلادهم ، واحتفظوا بشمال بلادنا منقطعاً اداريا عن سائر الاراضي ، والاموال التي استولى عليها المحتل من نقد ، ومواد أولية ، ومحاصيل زراعية وصناعية ، استنزفت اقتصادنا ، والرايخ راح يستخدم لحسابه عدداً يزداد مع الأيام من الفرنسيين ، وتأكيد حماية الامبراطورية « ضد أي كان » اصبح لا يخدع احداً ، ما دام الجيش والبحرية قد أكرها على محاربــة الحلفاء و « الديغوليين » في دكار ، والغابون ، وسوريا ، ومدغشقر بينما كان ألمان لجان الهدنة وطليانها يتصرفون على هواهم في عاصمة الجزائر ، وتونس ، والدار البيضاء ، وبيروت ؛ وطائرات الرايخ كانت تهبــط في حلب ودمشق ، واليابانيون احتلوا الطونكان والكوشانشين . واصبح الآن ، في نظر الجميع ، ان ليس بعدُ مــن فرصة لاسترداد أراضي ما وراء البحار يوماً ما ، الا عن يــد فرنسا المحاربة ، وذلك بتأمــين وجودها شيئاً فشيئاً في افريقيــا الاستوائية ، وجزر اوقيانيا ، و « بونديشيري » ، والمشرق ، وسان - بيير ، ومدغشقر، والصومال الفرنسي ، ومدّ ظلها مسبقاً ، بلا تساهل ، على أفريقيــا الشمالية ، وافريقيا الغربية ، وجزر الانتيل والهند الصينية .

أما « الثورة الوطنية » التي كان يحاول بها عهدُ فيشي ان يعوض عن استسلامه ذاته ، فقد كان انها تبذر اصلاحات لها قيمتها في حــد

ذاتها ، ولكنها متورطة ومرذولة لاقترانهـا بالنكبة والعبودية . وادعاء فيشي بالتجديد الأخلاقي وتقويم السلطة ، وحتى جهدها الذي لا ينكر في التنظيم الاقتصادي والاجتماعي ، كل ذلك لم يكن يفضي شكلاً ، الى شيء ، سوى استعراضات المجنّدين ، وتبجيل المارشال ، وتكاثر اللجان ، وفي الجوهر ، كان يفضي الى الاضطهادات الخسيسة ، وتحـكم الشرطة والرقابـة ، والامتيازات ، والسوق السوداء . وكان يلحظ كذلك ، داخـل العهد نفسه ، دلالات المشوش والبلبلة ، فمنذ نهاية ١٩٤٠ حتى صيف ١٩٤٢ توالت الاحداث الآتيـة : عزل لافال ، تأسيس حزب « التجمع الشعبي الوطـني » في باريس من قِبَل دييا ، وديلونكل ، ولوشير ، وماركيه ، وسواريز ، وغيرهم .. بتأييد مباشر من الألمان . وكان يطعن في الحكام ويقوم بمزايدة صاخبة في نشدان التعاون ، والتنوع المتواصل لصلاحيات دارلان ؛ استقالة اعضاء الوزارة : إيبارنيغاراي ، بودوان ، آليبر ، فلاندان ، بيروتون ، شوفاليه ، آشار ، إلخ .. وكانوا يعلنون الواحد تلو الآخر ، ان المهمة كانت مستحيلة ؛ توقـف قضية « ريوم » المفاجيء ، العجيب ؛ إحالة فيغان للتقاعد ؛ محاولة كوليت اغتيال لافال ؛ تعيين هذا رئيساً للحكومة . وقد أذاع المارشال بنفسه تعاسته ، فقـد قال في حديث أذيع من الراديو خلال آب (أغسطس) ١٩٤١ : « أشعر بريح سوء تهب من عدة أنحاء في فرنسا . القلق ينفذ الى الأفئدة ، والشك يستولي على النفوس ، وسلطة الحكومة موضـع جدل . والأوامر لا تُنفَّذ تنفيـذاً حسناً . هناك ضيق حقيقي يعرو الشعب الفرنسي » . وصرّح من المذياع في حزيران (يونيو) مـن السنة التالية ، بمناسبة انقضاء عامين على طلبه للهدنة : « لا أخفي أبداً ضعف الأصداء التي لقيتها ندائاتي » .

وراحت تتكوّن هنا وهناك في الوطن الأم ، اكثر من نواة واحدة

للمقاومة ، كلما اخذت اعمال فيشي وبهارجها في التقلص . وأمرها إنما كان ، بطبيعة الحال ، عبارة عن نشاطات جد متفرقة ، وغالباً سيئة التحديد ، ولكنها كانت تنبعث عن النيات نفسها . فهنا كان يقـــوم أفراد بتحرير بعض النشرات الدعائية ، ويطبعونها ، ويوزعونها . وهناك يقوم آخرون بالتجسس على العدو ونقل معلوماتهم الى احدى الشبكات . وثمـة أفراد مُعيّنون يشكلون مجموعات عمل في سبيل اغراض متفاوتـة كل التفاوت : مؤازرات اغتيال ، تخريبات ، تلقي وتوزيع عتاد أنزلته المظلات او ُنقـِل خفية ً، استقبال او تهجير لعملاء ، انتقال من منطقة الى اخرى ، اجتياز حدود ، إلخ .. وبعضهم كان يؤلف نواة يرتبط اعضاؤها فيما بينهم بأوامر او باعتناق فكرة واحدة . وموجز القول ، شرعت المقاومة في مراس حياتها الناشطة والخفية تحت ستار سلبي ّ ، هادىء ، يطفـــو على سطح الوجود في الوطن الأم . وأخذ نفر ٌ من المحاربين في الداخل ، يفكرون الآن ، في توجيه ضرباتهم الى العدو من خلال الأشراك الـتي يعدها أفراد الشرطة والوشاة .

وفي آب (اغسطس) ١٩٤١ ، انفتحت سلسلة الهجمات المنفردة على العسكريين الألمان ، وقتل أول من قتل ، نقيب ٌ وهو خارج من المترو ، وضابط في بوردو ، وجنديان في باريس ، شارع شامبيونـــه . وتبعهم عدة اغتيالات . ورد ّ العدو ، ثأراً لقتلاه ، بإعدام مئات من الرهائن ، وزج ّ في السجن آلافاً من المواطنين لينفيهم من بعد ، وفرض غرامات وعبوديات على المدن التي كان يسقط فيها رجاله . وكنا نطّلع على هذه الاعمال الحربية التي يقوم بهـــا افراد تحت أشد الأخطار ، ضد ّ جيش المحتلين ، فنشعر بكبرياء يطفو عليها ظلام الأسى . وكان هلاك الفرنسيين الذين يقضون ضحايا الانتقام الجرماني ، من جهة اخرى ، يغمر اروآحنا بالحداد ، دون ان يسري اليها قنوط ابـداً ، لأن هلاكهم ذاك يوازي

تضحية الجنود في ميادين القتال ، ولكنا كنا نقدّر ، استناداً لأسباب بدائية من التكتيك الحربي ان الكفاح يجب ان يُوجّه ، وان الوقت لم يحن بعد ، من جهة اخرى ، للشروع في قتال علني على ارض الوطن الأم . فانه سيكون لانهاك العدو ، ثم للاشتباك معه في مواقع منتقاة من قِبَل قواتنا في الداخل ، وللوثبة الوطنية الشاملة اخيراً التي كنا نريد الحصول عليها يوماً ما ، فعّالية جبّارة على ان تؤلف جميعها كلاً لا يتجزأ ، وترتبط بعمل جيوش التحرير . بيد ان المقاومة عام ١٩٤١ ، كانت في بواكير نشأتها ، وكنا نعرف ، من جهة اخرى ، انه ستمر أعوام طوال قبل ان يكون حلفاؤنا على استعداد للنزول .

وقد صرحت ايضاً في ٢٣ تشرين الاول ، من المذياع : « إنه لطبيعي إطلاقاً ، ومما يمكن تبريره إطلاقاً ان يقتل الفرنسيون الألمان . فإذا كان الألمان لا يريدون ان يتلقوا الموت من ايدينا ، فليس لهم إلا ان يبقوا في ديارهم .. وما داموا لم يوفقوا الى اخضاع الكون ، فهم على يقين ان كل واحد منهم سيغدو جثة او اسيراً .. ولكن هنالك تكتيكاً للحرب . يجب ان تقاد الحرب على يد أولئك الذين وُكل اليهم امرها .. والأمر الذي أوجهه الآن الى الأرض المحتلة ، هو ان لا يقتلوا فوقها ألماناً على نحو مكشوف . وذلك لسبب واحد ، ألا وهو ان من السهل جداً على العدو ، في هذه الفترة ، ان يرد بذبح محاربينا العزّل آنياً . وعلى العكس عندما نمسي في سعة من الانتقال الى الهجوم ، فستصدر الاوامر بذلك » .

كان الواجب يقضي ان نفيد من الشعور العارم الذي أحدثه القمع الألماني في تعزيز الطاقة والتضامن الوطنيين ، مع المحاولة ، في الوقت نفسه ان نجعل خسائرنا محدودة وهي التي كانت فادحة لقاء نتائج ضئيلة غاية الضآلة . ومنذ كان الغزاة قد سفكوا عشية ٢٥ تشرين الأول

(اكتوبر) دماء خمسين رهينة في نانت وشاتوبريان ، وخمسين آخرين في بوردو ، أذعت ما يلي : « لقد حسب العدو إذ أعدم شهداءنا ، أنه سيدخل الرعب على فرنسا . وفرنسا ستريه انه لا يرعبها . إني لأدعو جميع الفرنسيين والفرنسيات الى وقف كل نشاط ، وان يقيم كل واحد منهم حيث هو صامتاً ، يوم الجمعة في ٣١ تشرين الاول من الساعة الرابعة الى الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة . إن هذا التأهّب الجبار ، وهذا الإضراب الوطني الشامل ، يجعلان العدو امام الخطر المحدق به ، ويدل على الإخاء الفرنسي » . وكررت ندائي عشية اليوم الموعود . والواقع ان التظاهرة اتّسمت في كثير من الامكنة ، ولا سيما في المصانع ، بسمة مؤثرة . وقد وجدت نفسي من جرائها ، أقوى وأشد في عزمي على منع المقاومة من الانحدار الى الفوضى ، وان اجعل منها ، على العكس ، مجموعاً منظّماً ، دون ان احطم فيها ، مع ذلك ، روح المبادرة التي بعث عليها وكان النابض فيها ، ولا الحواجز الفاصلة التي توشك لولاها ان تتوارى برمتها ، دفعة واحدة .

لقد كانت عناصر تكوينها على كل حال ، والحركات المنبعثة عنها ، قائمة الآن ، شديدة المضاء في كثير من الوجوه ، ولكنها تشكو شكوى بالغة من نقص الملاكات العسكرية . وكانت فيشي تقطع الطريق على تلك الملاكات ، اي ما تبقّى من الجيش ، حيث وجدت او يمكن ان توجد . ومع ذلك ، فإن اعمال المقاومة الاولى انطلقت من العسكريين ، إذ كان ثمة ضباط تابعون لأركان الجيش العامة وللمناطق قد خبأوا عتاداً عن لجان الهدنة ، واستمرت مصلحة الاستخبارات في تطبيق تدابير التجسّس المضادّ ، خفية ، وتنقل للانكليز ، في فترات متقطعة ، معلوماتها . وأعدت تدابير تعبئة عامة بإشراف الجنرالات : فرير ، ديلاتران ، فرنو ، بلوخ - داسّو ، دورميّيه ، واستخدام جمعيات

الصداقة لهيئات القوات المجندة . وقد دشن الجنرال كوشيه الدعاية الفعّالة ضد روح الاستسلام . وكثير هم الذين راحوا يتدرّبون ويدرّب بعضهم بعضاً على حمل السلاح ، من مرشدي رابطات الشباب التي كانت تضمّ عدداً من العسكريين القدماء . وكان كل من بقي في الوحدات المشكلة من جميع الضباط تقريباً ، وذوي الرتب ، والجنود ، لا يخفون أملهم في استئناف القتال .

وكان الجمهور يجد في ذلك ، من جهة اخرى ، ارتباطاً طيباً . وقد جيء بفيلم محليات من فرنسا ، شاهدته وحدي في لندن ، فأعطاني مثلاً رائعاً على موقف الجمهور ذاك ، وفيه يشاهد بيتان لدى زيارة قام بها الى مرسيليا ، يبدو من شرفة فندق المدينة امام القوات والجمهور معاً ، والجميع تحركهم الحماسة الوطنية ، ويُسمع المارشال وهو يستجيب لايحاء الجماهير ، يصرخ فجأة : « لا تنسوا انكم جميعاً في تعبئة دائمة ! » ، ويشهد المرء اندفاعة الحماسة التي أثارتها هذه الكلمات في الحفل الحاشد بالمدنيين والعسكريين ، وهم يضحكون ويبكون من التأثر .

وهكذا ، كان الجيش يظهر عفوياً أنه على استعداد لاحتضان المقاومة الوطنية رغم الأمر ، أو رغم هلاك ذويه ، بل أفضل أبنائه معظم الاحيان . ولكن ذلك هو ما لم تكن تريده « الحكومة » التي أولاها طاعته . فقد منعته فيشي من أداء رسالته الخاصة ، وحصرته معنوياً في مأزق لا يملك أحد الخروج منه إلا بتحطيم الانضباط الرسمي ، وهي التي اخذت اول الامر بأسطورة الحياد ، ثم بالتعاون . وعلى الرغم من ان عدداً من العناصر العسكرية اجتاز الحدود ، والذين كانوا منخرطين في الشبكات منهم خاصة ، فإن الواقع هو ان حركات المقاومة اضطرت ، عند منطلقها ، الى ارتجال ملاكاتها العسكرية بنفسها ، على يد أولئك الذين دخلوا الجيش السرّي ، والذين ألفوا من بعد « منظمة مقاومة الجيش » .

ولقد قامت منظمات عديدة بنشاط ملحوظ في حقل الدعاية وجندت تشكيلات شبه عسكرية في المنطقة التي وصفت بأنها حرة منها: «كومبا» التي تولّى رئاستها النقيب فريناي»، و«ليبراسيون» التي قام فيها إيمانوئيل داستيه دي لافيجري بدور رئيسي»، و«فران - تيرور» التي كان رئيس تحرير صحيفتها الموجّهة جان - بيير ليفي. وراح مـــا بقي من النقابات في الأعوام الحاليـة: «الاتحاد العــام للعمل»، «والاتحاد الفرنسي للعمال المسيحيين» يبث روحاً تعزّز المقاومة؛ وكذلك كان شأن بضعة تجمعات منبثقة مـن أحزاب قديمة، أبرزها الاشتراكيون، والديمقراطيون - الشعبيون، والاتحاد الجمهوري. ومذ كان الألمـــان لم يحتلوا المنطقـة، فإن المعارضة التي ألفتها بقـايا هذه الأحزاب، كانت بطبيعة الحال، ضد فيشي، واصبح ما لهذه من شرطة ومحاكم منطلق نزاع. وكان الزعماء يفكرون، من جهة اخرى، وهم يقومون بإعداد القوى الـــتي يمكن استخدامها، إذا اقتضى الأمر، ضد العدو، في الاستيلاء على السلطة، ولا يرون في المقاومة أداة حرب فحسب، بل وسيلة للحلول محل العهد.

كان الطابع السياسي لحركات المنطقة الجنوبية يساعد، بكل تأكيد، على جعلها حيّة، ناشطة، وعلى اجتذاب عناصر ذات نفوذ الى صفوفها، وعلى إكساب دعايتها قوة متحركة تشوق الجمهور وتوقظ أفكار العامّة. ولكن التفاهم الدقيق، من جهة اخرى، وبالتالي عمل اللجان الإدارية المشتركة، لم يكن يشكو اي نقص. يجب القول ان جمهرة المنتسبين والمناصرين لم تكن تولي اهتمامها إلا في النزر النادر، للمنهج الذي ينبغي للمقاومة ان تطبقه فيما بعد، ولا للشروط التي ستتولى السلطة يوماً ما بموجبها، ولا باختيار أولئك الذين سيكون لهم، يومذاك، ان يحكموا. لم يكن الشعور العام سوى الرغبة في القتـال، او الاستعداد له، على

الأقل . كان المراد ، الحصول على أسلحة ، وإيجاد مخابىء ، ودراسة توجيه الضربات ، والقيام بها احياناً ! ولذلك ، كان ينبغي الانتظام في المنطقة نفسها بين جماعة من ذوي المعرفة ، والعثور على بعض الوسائل والامتناع عن اقحام المآرب الشخصية . وموجز القول ، إذا كان الإيعاز داخل الحركات ، متمركزاً نسبياً ، فإن العمل ، عكس ذلك ، كان يتوزع بين فئات منفصلة ، ولكل فئة رئيسها الخاص ، وعملها لحسابها الخاص ، وكانت الفئات تتنازع فيما بينها موارد في منتهى الضآلة ، من الأسلحة والأموال .

وكان هذا التنافس في المنطقة المحتلة يتوارى امام الخطر المباشر ، ولكن كان تشتت الاشخاص والجهود ، يفرض نفسه على نحو أشد ، فالناس هناك على احتكاك مباشر وساحق ، بالعدو . وعلاقتهم إنما كانت مع الغستابو ، فلا وسيلة للانتقال ، ولا للمراسلة ، ولا لاختيار مسكن ، دون اجتياز مراقبات دقيقة ، صارمة . وكل من يُشتَبه به يزج في السجن بانتظار نفيه الى المعتقلات . أما المقاومة الفعّالة فكانت تعرّض المحاربين من غير تأجيل ، للتعذيب والإعدام . والنشاط كان يتفتّت ، في مثل هذه الأحوال ، الى أقصى حد . غير ان وجود الألمان كان ، على العكس ، يبقي على جوّ يدفع الى النضال ويبعث على المشاركة في التآمر . وكذلك راحت الحركات في هذه المنطقة تكتسب طابع توتر من الحرب والتآمر ، فإن « المنظمة المدنية والعسكرية » التي أسّسها العقيد توني ، و « رجال التحرير » الذين كان يرئسهم ريبوش ، و « رجال المقاومة » الذين جندهم ليكونت – بوانيه ، ومنظمة « تحرير الشمال » التي أنشأها كافاييس ، وأخيراً « صوت الشمال » في الهينو ، من فلاندر في بلاد المعادن ، التي أدارها هوك ، كانت جميعها تطرح ارضاً كل نزعة الى السياسة ، ولا تهتمّ بغير الكفاح ، وينفرع

عنها زمر سرّية صغيرة ، منعزل بعضها عن بعض .

ودخل الشيوعيون بدورهم ميدان العمل في نهاية ١٩٤١ . وكان قادتهم حتى ذلك الوقت ، قد اتخذوا تجاه الغزاة موقفاً مسالماً ، وهم يطعنون ، مقابل ذلك ، في الرأسمالية الأنكلو - سكسونية و « الديغولية » خادمتها . ولكن موقفهم تحوّل فجأة حين غزا هتلر روسيا ، واستطاعوا هم أنفسهم أن يجدوا الوقت للعودة الى الدهاليز ، وتركيز ارتباطاتهم الضرورية للنضال السرّي . وهم الذين كانوا مُعَدّين لهذا النضال ، من جهة اخرى ، على يد تنظيمهم في خلايا ، ورتبهم المغفلة ، وروح التضحية لدى ملاكاتهم . سيشاركون إذن في الحرب الوطنية بشجاعة ومهارة ، وهم بلا ريب ، ذوو حس وطني يلبي نداء الوطن ، ولا سيما البسطاء منهم ، ولكن لا يغرب ابداً عن بالهم ، بمقدار ما هم جيش ثورة ، هدفهم الأبعد ألا وهو إقامة دكتاتوريتهم على مأساة فرنسا . وسيحاولون إذن بلا هوادة ان يحتفظوا بحريتهم في العمل . ولكنهم ايضاً كانوا لا يريدون ، وهم يستخدمون ميول المحاربين بما فيها ميولهم ، سوى معركة واحدة ، وسيجهدون بعناد في ان يغمروا المقاومة كلها ليتخذوا منها ، إذا أمكن ، أداة مطمحهم .

هكذا ألفوا « الجبهة الوطنية » في المنطقة المحتلة ، وكانت تجمعاً ذا مظهر وطني خالص ، وجماعة « الرماة الأحرار » ، والأنصار وهي قوة كان يبدو انها وقف على مكافحة الألمان . وهكذا اجتذبوا اليها كثيراً من العناصر اللاشيوعية ، ولكن تلك القوة يمكن ان تستخدم ستاراً لأغراضهم . وهكذا دفعوا ببعض أفرادهم ، مموّهين ، الى الهيئات الادارية لسائر الحركات . وهكذا سرعان ما عرضوا عليّ مؤازرتهم ، دون ان ينفكوا ابداً عن صبّ جام غضبهم خفية ، على « اسطورة ديغول » .

وكنت انا أريد ان يخدموا ، فليس ثمة قوات لا يجوز استخدامها في سبيل دحر العدو ، وكنت أقدّر ان قواتهم ذات وزن كبير في نوع الحرب التي كان يفرضها الاحتلال . ولكن ينبغي ان يخوضوا تلك الحرب كجزء من كل ، أي ان يخوضوها تحت لوائي ، وذلك هو القول الفصل . وكنت ، وأنا اعتمد واثقاً على قوة الشعور الوطني والثقة التي أولانيها الجمهور ، مصمماً بكل قواي ، على إيلائهم مكانتهم في المقاومة الفرنسية ، فضلا عن مكانتهم يوماً ما ، في إدارتها . بيد أني كنت مصمماً كذلك على ألا اتركهم أبداً يربحون الشوط كله ، ويتجاوزونني ، ويصبحون على رأس المقاومة . فالمأساة التي كان يدور حولها مصير الوطن قدّمت لهؤلاء الفرنسيين ، المبعَدين عن الأمة بالحيف الذي كان يثيرهم والضلال الذي حاد بهم عن الجادّة الصحيحة ، فرصة تاريخية للعودة الى حضن الوحدة الوطنية ، وإن كانت عودتهم مدة النضال فقط . وكنت أريد ان اتصرف على نحو لا تضيع معه هذه الفرصة بحال ، ابداً . سيتاح اذن لأولئك الذين يقدمون حياتهم لفرنسا كيفما كان ، وانّى كان ، ان يهتفوا هذه المرة أيضاً « لتحيَ فرنسا ! » ، في لحظة الموت ، إذ ليس لجميع العقائد ، وجميع المدارس ، وجميع التمردات في حركة العالم التي لا تنقطع ، سوى وقت واحد ، فالشيوعية ستزول ، ولكن فرنسا لن تزول . وانا على يقين ان هذه ستعتمد كثيراً ، في مصيرها آخر الأمر ، على هذا الواقع ، ألا وهو انها لن تكون على الرغم من كل شيء ، سوى شعب واحد متكاتف ، عند تحررها ، هذا التحرر الذي سيكون لحظة عابرة ولكن حاسمة في تاريخها .

وعلمت في تشرين الاول ١٩٤١ بقدوم جان مولان من فرنسا إلى لشبونة ، وانه يسعى في الذهاب الى لندن . وكنت أعرف من هو ، وأعرف على الأخص ، أنه كان محافظ « الأور ـ واللوار » حين دخل الالمان

دارلو ، وضرب مثلا للحاكمين في الحزم والكرامة ، وان العبدو زجّه في السجن بعد ان جرجره وعذبه وجرحه ، وأطلق سراحه أخيراً مع اعتذاراته وتحياته ، وان فيشي أعادته إلى منصبه ، غير انها أقصته من بعد . وكنت أعرف انه يريد ان يخدم ، فكان ان طلبت الى المصالح البريطانية ان تقود هذا الرجل الكفء الى إنكلترا . وكان علي ان انتظر شهرين لتلبية طلبي ؛ والواقع ان « الانتليجانس » كان يجهد في ضم مولان اليه ، وكان هو يطالب ، على العكس ، ان يوفد إليّ . وتمكنت عن طريق رسالة عاجلة بعثت بها الى السيد إيدن ، من إبلاغ المسافر الامين ، مرتجاه . وسينالني من بعد عناء كبير ، في تأمين عودته الى فرنسا .

وكانت لي معه أحاديث طويلة خلال كانون الاول ، ذلك بأنه قام بعديد الاتصالات ، قبل ان يذهب الى لندن ، مع كل واحدة من حركات المقاومة ، وجس نبض أوساط سياسية واقتصادية ، وإدارية مختلفة ، من جهة ثانية . وكان يعرف الصعيد الذي أنوي تسييره عليه ، بادىء ذي بدء ، وقد ابدى مقترحات واضحة ، وقدم طلبات دقيقة .

كان هذا الرجل لا يزال شاباً ، ولكن خبرته تكونت من خلال تمرسه بالحياة العملية ، وهو مجبول من الطينة نفسها التي جُبل منها أفضل رفاقي ، إذ كان يفعم روحه هوى فرنسا ، وعلى اقتناع أن « الديغولية » ليست مما يجب ان يكون أداة الكفاح وحسب ، بل محرك كل تجدّد أيضاً ، وكان مشبعاً بالشعور أن الدولة تتجسد في فرنسا الحرة ، متطلعاً الى المشروعات الكبرى . ولكن كان ايضاً سليم الحكم ، يرى الاشياء والناس كما هي ، فكان يعد خطواته وهو يمشي على طريق ملغومة بأشراك الاعداء ، وعرق بالعراقيل التي يقيمها الاصدقاء . كان على مولان ان يؤدّي مهمة رئيسية خلال ثمانية عشر شهراً ، وهو رجل

الايمان والتدقيق في الحساب ، لا يشك في شيء ويحذر من كل شيء ، أي كان رسولا ووزيراً في آن واحد . وسيكون من أمره ان يقود المقاومة في الوطن الام الى الوحدة العملية ، وهي التي لم يرتسم منها بعد سوى وحدة رمزية . ثم حدث ان خانه من خانه ، ووقع أسيراً ، وعذبه عذاباً نكراً عدو لا شرف له . ومات اخيراً في سبيل فرنسا ، شأنه شأن كثير من الجنود الابرار الذين كابدوا بجلد وتضحية مشقة السُّرى ، حتى إذا انجلى الليل ، كانوا موضع حمد وثناء في الصباح .

كنا قد اتفقنا ، انا وجان مولان ، ان يعمل أولا في حركات المنطقة الجنوبية ، ليحملهم على تشكيل منظمة مشاركة برئاسته ، ترتبط مباشرة باللجنة الوطنية ، وان يوطد اتحادهـــا ، ويصدر الاوامر ، ويسوي الخلافات الداخلية ، فاذا تم ذلـك ينتقل الى المنطقة الشمالية ويجهد في ان ينشيء ، لمجموعها ، مجلساً من المقاومة كلها التابعة لفرنسا المحاربة . ولكن مذ كان المراد تتويج كل حركة أو فئة أو فرد في الوطن الام يشارك في الكفاح ، بكيان عضوي واحد ، فقد انطرحت مسألتان : قضية الاحزاب السياسية ، والقوات العسكرية في الداخل .

وحيث اني كنت معنـــيّاً بالصفة التمثيلية لا الادارية التي أودّ ان يتخذها ذلك المجلس المقبل ، والتي سيتخذها فعـــلاً ، فاني لم اشأ ان اسقط الاحزاب منه ، ولا كان في الامكان تجنب تمثيلها فيه . وكان من رأيي ، في جانب آخر ، ان الويلات التي حلت بنا لم تكن من الاحزاب بل من استئثار هذه بالسلطات العامة وإساءة استعمالهـا مما عزز اوضاع الانحطاط وانظمته . ثم اني ، وإن احتفظت لها بمكانتها ، لم اكن اعني في الحاضر ان تستولي على المقاومة ، فهذه لم تستلهم الروح الحزبيّ ولا اعماله بحال من الاحوال ، طالما ان الاحزاب جميعها ، خارت بلا استثناء في اللحظة الحاسمة . إلا انها وقد صعقت امس حيال الكارثة ، اخذت

الآن تتماسك ، فإن بعضاً من عناصرها طفقت تعيد تجمعها ، وإن انضوت الى حركات المقاومة ، في الاطر القديمة ، من جهة اخرى .

صحيح أنه لم يبق لديها جمهور تتملقه ، ولا ألاعيب تتمرس بها ، ولا حقائب تساوم حولها ، فاعتقدت أو اظهرت الاعتقاد أنها رجعت إلى المصادر النبيلة التي صدرت أصلاً عنها : إرادة العدالة الاجتماعية ، عبادة التقاليد الوطنية ، الروح العلماني ، الشعلة المسيحية . وبدا أن تنظيماتها المتوالية لم تكن تريد شيئاً ، وقد طُهرت تطهيراً عميقاً ، إلا أن تقدّم للصراع إسهاماً مباشراً ، بتعبئة هذه النزعة أو تلك من نزعات الرأي العام . وقد استمد هذا ، من جهة أخرى ، حساسيته بعض الشيء ، بمهارة هذه الجماعات المألوفة لديه ، بقدار ما تنكر لأخطائها . والحلفاء لم يتوانوا أخيراً ، عن إيلاء انتباههم للمواقف التي كان يقفهـا رجال الأحزاب . كانت هنالك إذن وقائع لا أستطيع تجاهلها ، وأنا أبني الوحدة الفرنسية . ولذا ، أوصيت مولان أن يُدخل على المجلس المراد إنشاؤه ، في اليـوم الموعود ، مندوبي الأحزاب إلى جانب مندوبي الحركات .

وإذا كنت أحسب أني أستطيع هكذا إيجـاد بعض الوحدة في العمل السياسيّ في فرنسا ، فقد أردت ذلك عينه في العمل العسكري . وهنا ، كانت الصعوبة ترد من الحركات نفسها التي زعمت ، وقد جندت زمراً للقتال ، أن لها أن تحتفظ بها لذاتها . يضاف إلى ذلك ، أن تلك الزمر مما لم يكن له أن يكون إلا في عصابات صغيرة ، باستثناء المناطق الجبلية ، أو المحمية على نحو أكيـد . وكانت تلك العصابات تظهر أبرز ما تظهر ، في محاربي الأدغال الذين تألّفوا ، أكثر مـا تألّفوا ، من عصاة متمردين كان عليهم أن يصمدوا في الميدان . والشكل الحربي الوحيد الذي ينتظر منهم ، إنما كان حرب العصابات . ولكن

هذه يمكن أن تكون ذات فعالية كبرى فيما لو كانت أعمالها التفصيلية جزءاً من كل مترابط ، منظم . فإذا تركنا شتات الزمر المختلفة تعمل بصورة مستقلة ، يصبح المشكل عند ذاك ، أن ترتبط فيما بينها برباط مرن ولكن فعال ، يتصل بي مباشرة . وهكذا ، يصبح في الإمكان أن نركز لها مجموعات من الأهداف تعمل على بلوغها ، في شكل خطط ترسم بالاتفــاق مع القيادة الحليفة ، ويتم تنفيذها حسب الظروف ، وعندما تأزف على الأخص ، ساعة نزول الجيوش ، أخيراً ! وقد كلفت مولان أن يُسيّر الحركات نحو هـذا التماسك الابتدائي بين عناصرها العسكرية . وكان يلزمني ، أن انتظر عدة أشهر لأستطيع أن أوجـد قيادة للجيش السري ، في شخص الجنرال ديلستران .

وقد أنزل جان مولان بالمظلة في الجنوب (الميدي) أثناء الليل من أول كانون الثاني (يناير) . وكان يحمل الأمر مني إليه بمهمته ، وقد عينتُه مندوبي للمنطقة غير المحتلة من فرنسا الأم ، وكلفتُه تأمين وحدة العمل بين عناصر المقاومة . ومـا كان لأحد أن ينازعه في سلطته ، مبدئياً ، استناداً إلى ذلك الانتداب والتكليف . ولكن سيكون له أن يمارس سلطته وعليّ أنا أن أدعمه . وتمّ التفاهم كذلك أن يكون هو ، في فرنسا ، مركز مخابراتنا أولاً مع منطقة الجنوب ، ثم مـع الشمال في اللحظة التي يصبح ذلك بها ممكناً ، وأن توضع تحت تصرفه وسائل البث وأن يلتحق به مفوضونا بالمهات ، وأن يكون على اطلاع بحركات الهيئات ، والعتاد ، والبريد الـتي تجري لحسابنا من انكلترا إلى فرنسا وبالعكس ، وأن يتلقى أخيراً ويوزع الأموال التي تبعث بها إلى مختلف الهيئات العاملة في الوطن الأم . وهكذا أخذ مولان يمارس عمله ، وقد خُول الصلاحيات .

وسرعان ما عمد قادة الحركات في المنطقة الجنوبية ، بوحي منــه ،

يعزّزه ضغط القاعدة ، الى تشكيل نوع من مجلس تولى رئاسته مندوب اللجنة الوطنية . وأصدروا في آذار تصريحاً مشتركاً بعنوان : « كفاح واحد ؛ رئيس واحد » تعهدوا فيه بوحدة العمل ، وأعلنوا انهم يسيرون بالمعركة تحت سلطة الجنرال ديغول . وطفق النظام يسود مختلف النشاطات ، وبدأ الإعداد لصهر الحركات الشبه عسكرية ، وراح مولان في الوقت نفسه ، ونحن نساعده ، يمهر مفوضيته بمصالح مركزية .

وهكذا بدأت مصلحة « العمليات الجوية والبحرية » تتلقى من العقيد ديوافران مباشرة ، المعلومات المتعلقة بذهاب الطائرات والسفن ، وإيابها . وراحت الطائرات من طراز « ليزانديرز » او قاذفات القنابل ، يقودها طيارون مختصون بمثل هذه المناقب الجريئة - أمثال لوران وليفري ليفل - تحط في الليالي المقمرة كل شهر ، فوق الأراضي المختارة . وراح رجال يجازفون كل مرة بحياتهم ، ليؤمّنوا إشارات استقبال المسافرين أو تبحيرهم مع العتاد ، وحماية الأشياء والناس . وأغلب الأحيان ، كان المراد التقاط الهابطين بالمظلات في نقاط معيّنة ، وإيواءهم ، وتسفيرهم . وكانت « مصلحة الراديو » التي بدأت « جولييت » بتنظيمها ، تقوم بأعمالها كذلك في ظل المندوب ، مارة بلندن وهي تتلقى كل شهر مئات البرقيات ومن بعد الآلاف ، تنقّل بلا انقطاع محطاتها التي تتحراها أجهزة الاستكشاف لدى العدو ، وتسُدُّ ثغرات الخسائر الفادحة التي تصيبها كلما عُثر عليها . وأوجد مولان ايضاً « مكتب الإعلام والصحافة » بإدارة جورج بيدو الذي كان يطلعنا دوماً على الذهنية السائدة ، ولا سيما في اوساط الفكر ، والعمل الاجتماعي ، والسياسة . وكانت « اللجنة العامة للدروس » ، الملحقة بالمندوب ، تعد المشاريع للمستقبل ، وفيها كان يعمل كل من « باستيد » ، لاكوست ، دي مانتون ، بارودي ، تيتجن ، كورتان ، ودوبريه . وكان « بلوك - لينه » يدير لحساب المندوبية ، عمليات

المال ويختزن الاموال التي يتلقاها من لندن . وهكذا ، كان مولان يقبض بيديه على مقاليد الامور الجوهرية ، ويُشعر الآخرين عملياً بسلطان حكومتنا . والشهود الذين قدموا من فرنسا في الشهور الاولى من عام ١٩٤٢ ، مدوّنا بالأدلة على ذلك .

وكان ريمي احد أولئك الشهود . فقد جاء من باريس في إحدى ليالي شباط ، حاملا معه لدوائرنا أكداساً من الوثائق ، ولفرينتي شجرة أضاليا في إناء فخاري اشتراها من شارع الرويال ؛ وكانت شبكته « أخوية السيدة » في ذروة نشاطها . فما من باخرة ألمانية عائمة كانت تقترب مثلا من بريست ، لوريان ، نانت ، روشفور ، لاروشيل ، بوردو ، أو تقلع منها دون ان تتلقى لندن برقية تعلمها بأمرها . وما من بنيان يقيمه العدو على ساحل المانش او الاطلنطي ، ولا سيا في قواعد الغواصات ، دون ان يكون مكانه وخطة العمل فيه قد عرفت لدينا ، في الحال . وكان ريمي ، عدا ذلك ، قد نظم اتصالات ممنهجة ، إما بشبكات اخرى ، وإما مع حركات المنطقة المحتلة ، وإما مع الشيوعيين . وهؤلاء كانوا قد احتكوا به قبل سفره بقليل ، وكلفوه ان يقول لي انهم على استعداد لوضع انفسهم تحت إمرتي وإرسال مندوب عنهم ليضعوه تحت تصرفي .

وفي آذار ، جاء « بينو » أحد قادة « ليبراسيون – نور » (تحرر الشمال) ورجل الثقة لدى النقابيين ، وأقام ثلاثة أشهر عمل خلالها معنا ، عملا كان جزيل النفع . وفي نيسان وصل إيمانوئيل داستيه وجعبته ملأى بالمشاريع وبالحسابات ايضاً ، وقد رأيت من الصالح ان يذهب ، قبل عودته الى فرنسا ، في زيارة للولايات المتحدة ، وينقل اليها مباشرة بعض المعلومات الدقيقة عن المقاومة ؛ والتحق بنا من بعد « بروسوليت » ، وكان سخياً بالأفكار ، يرتفع الى اعلى مستويات الفكر السياسي ، وهو

يدرك الهوّة التي تردّت بها فرنسا في أعمق أعماقها ، وما كان لينتظر النهوض إلا من « الديغولية » التي راح يبنيها في عقيدة ، وطفق يلهم عملنا من الداخل ، ويوسّع آفاقه الفكرية . ثم وقع ذات يوم ، وهو يؤدي مهمة ، بين أيدي العدو ، فقضى بنفسه على نفسه خشية أن يضعف . وجاء « روك » ايضاً يحمل رسالات عدد من البرلمانيين ، وكان أن قُبض عليه من بعد وقُتـل . وأبحر بول سيمون بدوره ، أوفدته « المنظمة المدنية والعسكرية » من المنطقة المحتلة لينشىء قواعد الارتباط معها ، وقد وضع فكره المتقد وعزمه الرصين في خدمة القضية ، وأدّى خدمات جيدة ، وقتل بيد العدو عشية التحرير . وأخيراً طلب فيليب ، وشارل فالان ، وفينو ، ودانيال ماير ، وآخرون غيرهم الذهاب الى لندن .

كانت محادثاتي مع هؤلاء الرجال ، ومعظمهم من الشباب الذين يتقدون حماسة في كفاحهم وطموحهم ، تعينني على التبيّن الى أي مدى بلغ تزعزع النظام الذي كان يعيش فيه الشعب الفرنسي عند حلول الكارثة . فالمقاومة لم تكن وثبة دفاعنا المزبل المفرط في هزاله وحسب ، وإنما انتفض معها ايضاً الأمل في التجديد ، وأصبح من المرتجى ان تفيد كرافعة في تغيير عميق للنظام ، وبذل جهد وطني واسع ، شرط ان لا تتبدد بعد الانتصار . وكنت أفكر ، وأنا اشاهد قادتها يمرون أمامي وهم يقدمون تلبية لندائي ، ان الذين يبقون منهم على قيد الحياة ، يمكن ان يؤلفوا حولي الجهاز الحاكم للقيام بمهمة انسانية وفرنسية ضخمة . ولكن ذلك مشروط بأن يرتضوا بعد زوال الخطر ، هذا الانتظام في العقول والمطامح الذي لا يفيد بدونه شيء ، وكان من شأنه ان جمعهم مرّة ووحّدهم .

وقد آن الأوان ، على كل حال ، لأعلن من جهتي ، الهدف الذي كنا نريد بلوغه ، بالاتفاق مع المقاومة كلها وباسمها . وذلك الهدف إنما

كان التحرير بكل معنى الكلمة ، أعني تحرير الإنسان ، بنسبة ما يعني تحرير الوطن . وذلك ما قمت به في شكل بيان أُقِرّ في اللجنة الوطنية بعد أخذ رأي الحركات في فرنسا ، ورأي المندوبية . وقد صرّحت به ان الحرية ، والكرامة ، وحياة الأمن التي عزمنا على تحقيقها لفرنسا في العالم ، عن طريق سحق العدو ، إنما نعني ان نعمل على نحو يستطيع معه كل رجل وكل امرأة في ديارنا ان يحققا تلك المعاني في حياتيهما ، بتغيير النظام السيء الذي رفضاه للكثيرين . أدنتُ إذن « ذلك العهد الأخلاقي ، الاجتماعي ، السياسي ، الاقتصادي ، الذي تهاوى في الهزيمة » ، كما أدنت في الوقت نفسه « هذا العهد الذي نشأ عن استسلام آثم » ، وأكدت ان « الشعب الفرنسي إذ يتحد في سبيل النصر ، إنما يتجمع في سبيل ثورة » . ونشر البيان في ٢٣ حزيران (يونيو) ١٩٤٢ ، في جميع الصحف السرّية في المنطقتين ، كما أذيع من راديو برازافيل ، وبيروت ، ولندن .

كانت أوضاع العمل هذه في الوطن الأم خاصة ، هي التي فرضت علي ، خلال تلك الحقبة ، ان أبقي على مقر اللجنة الوطنية في لندن . وكثيراً ما خطر لي ، مع ذلك ، ان اجعله في ارض فرنسية ، في برازافيل مثلاً . وكانت تعاودني هذه الخاطرة ، على الأخص ، في كل مرة تنشب لنا ازمة في علاقاتنا مع انكلترا . بيد أني كنت أجيب نفسي آنذاك : « كيف لي وأنا في أعماق افريقيا ، ان أتصل بالوطن ، وان أسمع صوتي فيه ، وان أوثّر في عمل المقاومة ؟ والامر في بريطانيا العظمى على العكس من ذلك ، حيث نجد وسائل الاتصال والإعلام المنشودة . ثم إن الجهد الدبلوماسي لدى الحكومات الحليفة يقتضي من جهة اخرى ، علاقات واجواء تقدمها لنا العاصمة الانكليزية ، ونفتقدها يقيناً ، على ضفاف نهر الكونغو . ومن واجبي اخيراً ان احتفظ بالصلات

مع قواتنا التي لا تستطيع ان تجمل قواعدها إلا في الجزر البريطانية ،

وكان ان ركزت مقري في لندن بعد عودتي من المشرق ، وسأمكث فيها عشرة اشهر .

وإني لأعيد النظر في حياتي ، خلال ذلك الزمن ، فيمكن القول إنها كانت ملأى . ولكي أوجز ، أذكر أني كنت اسكن فندق كونوت . وقد استأجرت ، عدا ذلك ، أول الأمر في إيللزمير من اشرويشاير ، ثم في بركهامستد قرب العاصمة ، منزلاً ريفياً كنت أقضي بــــه العطل الاسبوعية بجانب قرينتي وابنتنا آن . وأقمنا من بعد ، في لندن ، حي هامبستيد . وراح فيليب ، على اثر انتهائه من المدرسة البحرية ، يطوف البحار ويقاتل في الاطلنطي على ظهر السفينة الحربية « روزليس » ، ثم في المانش كمساعد ربان لزورق نساف من طراز ٩٦ . وأقامت إليزابيت تلميذة داخلية لدى « سيدات صهيون » ، وكانت تستعد لمتابعة دراستها في أكسفورد . وكان الأهالي حولنا يحرصون على مظهر هو التعـــاطف الودود . وبمقدار ما كانت التظاهرات حماسية حين أظهر أمـام الجمهور في موقف رسمي ، كان موقف الانكليز هو التحفظ واللطف معـاً حين يشاهدونني مع ذويّ في الشارع أسير ، او أتمشى في حديقة ، او ألج قاعة سينما . وهكذا أتيح لي ان اتحقق بنفسي ولما فيه جدوى لي ، ان كل امرىء في ذلك الشعب العظيم ، يحترم حرية الآخرين .

وكنت اقضي النهار معظم الاحيان في « كارلتون غاردنز » . وهناك كان كل من فرنسوا كوليه الذي اصبح رئيساً للديوان منذ ذهب كورسيل يقود كوكبة من المصفحات في ليبيا ، وبيّوت رئيس اركاني العامة الذي خلف « بيتي *Petit* » في هذا المنصب ، حين ذهب في مهمة الى موسكو ، كما خلف « اورتولي » الذي يقود « تريومفان » ، كانوا يقدّمون لي التقارير والرسائل والبرقيات . وهناك كان سوستيل يعرض لي انبـــاء اليوم ،

وباسي – ديوافران يأتيني بتقارير فرنسا ، وشومان يتلقى توجيهاتي في شأن ما يذيع . وهناك كنت اضع تسويات القضايا مع المفوضين الوطنيين ورؤساء المصالح ، وأستقبل الزائرين او الاشخاص الذين أستدعيهم ، وأصدر الاوامر والتعليمات واوقع المراسيم . وغالباً ما كنت التقي شخصيات حليفة على مائدة الغداء ، ومائدة العشاء احياناً ، او فرنسيين كنت أودّ التحدّث اليهم . اما العمل المهم الذي كان بالنسبة لي كتابة الكلمات في مختلف المناسبات ، فكنت اقوم به في منزلي ، مساءً او يوم الاحد . كنت اجهد في جميع الاحوال ، ان لا اعرقل سير الاعمال في المصالح بجدول لاستعمال الوقت ، غير منتظم . وما كان لعمل ان يكون اثناء الليل في « كارلتون غاردنز » باستثناء مكتب الرموز (الشيفرة) .

وكان علي ، من جهة اخرى ، ان اقوم بكثير من الزيارات خارج المكتب ، إذ كنت أذهب حين تسنح الفرصة ، الى احد مراكز الحياة الفرنسية في لندن ، عدا المحادثات مع الوزراء البريطانيين ، ومؤتمرات الاركان العامة ، والاحتفالات التي كانت تدعوني اليها الحكومة الانكليزية ، او هذه وتلك من حكومات حلفائنا . وكان « المعهد الفرنسي » الذي انضوى الينا بكل معنى الكلمة ، منذ الدقيقة الاولى في شخص مديره البروفسور سورا ، كان يمد مواطنينا بوسائل تعليم قيّمة ، ووسط ثقافي ناشط . واستمر « الأليانس فرانسيز » في أداء عمله بحافز من « تيموان » والآنسة سَلمُون . و « بيت معهد فرنسا » استمر كذلك الى ان دكته القنابل ذات مساء واهلكت مديره روبير كرو ، وفيه مكتبة تحوي الوثائق التي تحتاج اليها مصالحنا . وكان هناك « اصدقاء المتطوعين الفرنسيين » ، وهو تجمع يديره اللورد تيريل ، واللورد دي لاوار ، واللورد إيفور تشرشل ، ويتألف اكثر ما يتألف من بريطانيين ؛ وكانت

في اسكتلندا « لجنة تنسيق فرنسا المحاربة » ، يرئسها اللورد إنفركلايد ، وكان اعضاؤها يبذلون لمحاربينا عوناً ذكياً بمقدار ما كان سخياً . ولعبت « غرفة التجارة الفرنسية » دورها في المبادلات بين بريطانيا العظمى والأراضي المنضمة الينا . وكان « مركز الترحيب بفرنسا الحرة » يستقبل أولئك الذين يأتون من فرنسا ، و « المستشفى الفرنسي » يعالج عدداً كبيراً من جرحانا . وكنت أهدف من مشاركتي في هذه المؤسسات المتنوعة ، ان اجعل التضامن الوطني وثيقاً في انكلترا ، كما كنت احاول العمل نفسه في بلدان اخرى .

وكانت « جمعية فرنسيي بريطانيا العظمى » تعينني في ذلك عوناً فعالاً . فهي التي نظمت على الاخص ، بضعة اجتماعات كبيرة احتشد فيها مدنيون وعسكريون ، وأتاحت لي شخصياً ، أن ألتقي جمهرة الفرنسيين ، وأتاحت للحضور ان يظهروا قناعاتهم ويتحمسوا لها ، وللوطن الأم ان يسمع صوتنا بفضل المذياع الذي كان ينقل الخطب ووقائع الاحتفالات . وكنت قد اوضحت من قبل ، في اول آذار (مارس) ١٩٤١ ، وفي كنغزواي هول ، رسالتنا ، وركّزت آمالنا ، امام الوف المستمعين . وبيّنت علناً صيغة المواد الثلاث لسياستنا في ١٥ تشرين الثاني على مسمع من الجموع التي كانت تملأ ردهة ألبرت هول الرحيبة .

قلت يومذاك : « المادة الاولى ان نقوم بالحرب ، اي ان نعطي الجهد الفرنسي في النزاع اوسع مدى واعظم قوة ممكنة ... ولكننا لا نقوم بهذا الجهد إلا تلبية لنداء فرنسا ، وفي خدمتها » . ثم صرحت ، وأنا أدين عهد ما قبل الحرب وعهد فيشي معاً : « إنّا لنعتقد ان من الضروري ان ترتفع من اعماق الأمة موجة هادرة تتدفق بالعافية وتكنس عوامل النكبة وكل ما بُني على الاستسلام وقام فوقه . ولهذا ، فإن

المادة ٢ من سياستنا إنما هي ان نجعل الرأي للشعب في اللحظة التي تسمح له بها الحوادث ان يعبّر بحرية عما يريد وما لا يريد » . ورسمت اخيراً في المادة ٣ الأسس التي نرغب في ان نعطيها للأنظمة المتجددة في فرنسا » وقلت : « هذه الأسس هي التي حددتها شعارات الفرنسيين الأحرار الثلاثة . نحن نقول : « شرف ووطن » ونعني بذلك ان الأمة لا تملك ان تعود الى الحياة إلا بالنصر ، وان تبقى على قيد الحياة إلا بالتعبّد لعظمتها الخاصة . نحن نقول : « حرية ، مساواة ، إخاء » لأن ارادتنا انما هي ان نبقى امناء للمبادىء الديمقراطية . نحن نقول : « تحرير » ، وذلك لأنه اذا كان لجهدنا ان لا ينتهي قبل هزيمة العدو ، فإن عليه ان يتخذ هدفاً له ، بالنسبة لكل من الفرنسيين هذا الشرط ، ألا وهو ان يكون في إمكانه ان يحيا ويعمل بكرامة وأمان » .

وكان من الحضور ، يومذاك ، ان اظهر من التأثر ، وأثار من التصفيق عاصفة ترامى دويّها الى ما وراء النادي ، وابعد من إطار ألبرت هول

كانت مثل هذه الاجتماعات نادرة . وعلى العكس منها ، كثيراً ما كنت اذهب لرؤية متطوعينا تحت ستار من القيام بجولة تفتيشية عسكرية واصبحت قواتنا البرية ، والبحرية ، والجوية بالغاً ما بلغت من الضآلة والتشتت ، وعلى الرغم من اننا لم يكن في استطاعتنا ان نؤلفها ، إلا من قطع واجزاء – اصبحت تشكل الآن كلاً متماسكاً لا ينقطع عن الاشتداد والتلاحم . وراحت خطة التنظيم التي حددتها لعام ١٩٤٢ لمفوضي الحربية والبحرية والجوية تتنفّذ كما رُسمت . وقد تأكدتُ من ذلك خلال زياراتي للوحدات القائمة في بريطانيا العظمى . وكان الناس آنذاك يعبرون عن تقديرهم وتعلقهم الذي لن يفتر ابداً ، لهذا الذي يدعونه شارل العظيم » اذ يرونه عن كثب ، بنظراتهم ،

ومواقفهم ، وحرارتهم في العمل ..

ولم يكن لجيشنا الصغير الذي يحارب في افريقيا والشرق سوى مراكز تدريب على الارض الانكليزية . ولكن تلك المراكز كانت تعدّ قسماً كبيراً من الملاكات . وفي معسكر تشامبرلي قدّم له العقيد رينوار فوج القناصة ، ومجموعة المدفعية ، وكوكبة المصفحات ، ومفرزة الهندسة ، ووحدة الاشارات ، ومنها كان يتخرج كل ستة اشهر ، عددٌ من ذوي الرتب والاختصاص . وانتقلت الى رحبة المدفعية التي كانت تحت إمرة المقدّم بوتيه ، تهيء العتاد الفرنسي المنقول الى بريطانيا العظمى على يد مصالح الجيش الاساسية لحملة النروج ، او بالسفن الحربية القادمة من فرنسا ايام الغزو . وكانت ترسل الأسلحة والذخائر وعربات النقل لتجهيز تشكيلات جديدة ، مع العتاد الجاهز ، إما عن طريق الانكليز حسب نصوص اتفاق ٧ آب ١٩٤٠ ، وإما عن طريق الاميركان حسب قانون « الإعارة والتأجير » . وكانت مفاوضات التنفيذ وتدابيره التي تقتضيها تلك المهمة الكبرى ، تقع على عاتق مصلحة التسلح . وهذه كانت تؤديها بإدارة العقيد موران حتى اليوم الذي قضى به ذلك الضابط الممتاز نحبه ، في الطائرة خلال قيامه بمهمة نائية ، وخلفه المقدم هيرش . وفي لندن نفسها ، كنت أحيي احياناً سرية المتطوعين الفرنسيين التي تولت مهمة النقيب فيها الآنسة تيرّه بعد السيدة ماتيو ، وكانت تشتمل على فتيات ماهرات كسائقات ، وممرضات ، وأمينات سر . وكنت أزور ، من وقت لآخر « فتيان فرنسا الحرة » في مالفرن ، ثم في ريبرزفورد . وكنت قد انشأت مدرستهم عام ١٩٤٠ المخصصة للطلاب والمتخرجين الذين تعلموا في انكلترا . وما عتمنا حتى جعلنا منها مغرساً لمرشحي ضباط . وكان المقدم بودوان يدير مدرسة الفتيان . وقد تخرج منها خمس دورات بلغ مجموعها ٢١١ قائد فصيلة او عصبة ، قتل منهم العدو ٥٢ . وما من شيء كان ينعش رئيس الفرنسيين الاحرار ، مثل الاحتكاك

بأولئك الشبان ، زهرة الأمل تضاف الى مجد فرنسا الذي غشيه الظلام.

وفيما كانت وحدات القوات البرية المتمركزة في بريطانيا العظمى تقوم بتعليم عناصر مخصصة للقتال في مكان آخر ، كان معظم قواتنا البحرية يشارك في معركة المواصلات ، انطلاقاً من موانىء إنكليزية على الأطلنطي ، والمانش ، وبحر الشمال ، والأوقيانوس المتجمد الشمالي . وكان كل شيء يفرض علينا لأداء ذلك ، أن نفيد من القواعد الحليفة . إذ لم يكن لدينا في الواقع ، أية وسيلة خاصة بنا ، في أي مكان ، لإصلاح سفننا ، وصيانتها ، وتموينها ، ولا كان في استطاعتنا ، من طريق أولى ، أن نزودها بوسائل جديدة : دفاع ضد الطائرات ، كاشفات البحار « أسديك » ، رادار ، إلخ ... مما يقتضيه تطور الصراع . وأخيراً ، لا بد من الوحدة التقنية والتكتيكية للجهود المبذولة على مسرح العمليات البحرية الواسع الذي كانت تحتل منه انكلترا مركز الصدارة .

وإذا كانت السفن التي نسلحها تخصنا برمتها أياً كان مصدرها ، وإذا لم تكن ترفع علماً آخر سوى المثلث الألوان ، وإذا لم يكن للأركان العامة والبحارة من تدريب سوى التدريب الفرنسي ، وإذا لم يكن هؤلاء ليقوموا بمهات إلا بأمر من رؤسائهم ، وإذا كانت بحريتنا قد ظلت بقول مختصر ، وطنية خالصة ، فإننا لذلك كله قبلنا ، مما لم تحملنا بعض الأحداث على استخدامها مباشرة ، أن تكوّن جزءاً ، في استخدامها ، من مجموع العمل البحري الذي يقوم به البريطانيون . وكانت ، مع ذلك ، ضمن جهاز يثير الاعجاب بما أظهرت من كفاءة ، وانتظام ، وفعالية ، ينعكس على قيمتها الخاصة . وقدر الانكليز من جانبهم هذه المؤازرة ، فقدموا للقوات البحرية الفرنسية الحرة عوناً مادياً كبيراً ، فكانت ترساناتهم ومصالح بحريتهم تفتنّ في إصلاح سفننا

وإعدادها رغم الفروق في النماذج والأسلحة . وكانت البحرية البريطانية تزود بحريتنا بالأعتدة الجديدة التي تستخدمها ، دون تأخير . وكانت تقدم لنا المراكب الحديثة من سفن وزوارق حربية ، ثم من مدمرات وبوارج وغواصات ، فور صنعها . وإذا كان أسطولنا الصغير قد وفق إلى القيام بدوره والحفاظ على شرف السلاح الفرنسي فوق البحار ، فإن الفضل في ذلك يعود إلى معونة الحلفاء وكفاءة بحارتنا .

وكنت ألمس ذلك في كل مرة أذهب بها لمشاهدة إحدى قطعه في غرينوك ، وبورتسموث ، وكاوز ، ودارتموث . ونحن لم نسلح سوى عمارات صغيرة نظراً لطبيعة الصراع ، والملاك الضئيل الموضوع تحت تصرفنا . ولكن الجهد الذي يبذل على ظهر السفن التابعة لفرنسا الحرة ، كان يُدفع إلى أقصى حد ممكن .

كانت بطبيعة الحال تلك السفن القادمة من فرنسا التي سلحناها أولاً . ولم يبق في ربيع ١٩٤٢ ، من غواصاتنا الخمس الأولى سوى ثلاث هي : « روبي » و « مينرفا » و « جونون » وكانت تهاجم سفناً ، وتضع ألغاماً ، وتنزل فدائيين في المياه النروجية والدانمركية ، والفرنسية ؛ وكانت « نارفال » قد فُقدت قرب مالطة في كانون الأول ١٩٤٠ . وغرقت « سوركوف » بقضها وقضيضها في شباط ١٩٤٢ ، والمنساقتان المضادتان « تريومفان » و « ليوبار » والنساقتان « ملبومين » و « بوكلييه » ظلت طيلة أشهر ، تواكب القوافل في الأوقيانوس والمانش . ثم ذهبت « تريومفان » إلى الباسيفيك ، و « ليوبار » إلى أفريقيا الجنوبية ، وكان أن قامت هذه من بعد بحماية جزيرة « الريونيون » ساعة انضمامها ، وأخيراً غرقت أمام طبرق . وانتقلت « ملبومين » إلى بحر الشمال ، وتحولت « بوكلييه » إلى واحدة من سفن التدريب لدينا . ورابطت ثلاث من سميرياتنا (سفن استكشاف) الخمس ؛ « سافورنيان ـ

دي - براز» ، و « كومندان ديبوك » ، و « كومندان دومينه » في سواحل أفريقيا . وكانت « موكوز » تعين على حماية سفن الشحن في بحر إيرلندا . و « شيفروي » في أوقيانيا كانت تقـــوم بدوريات في نوميا وضمت إلى فرنسا الحرة في ٢٧ أيار ١٩٤٢ جزر « واليس » و« فوتونا » . وهناك اثنتان من كاسحات الألغام : « كونغر » و « لوسيين - جانّ » كانتا تقومان بعملها الشاق عنـــد مداخل الموانىء البريطانية ، وعشر قانصات غواصات اشتركن في تغطية سفن الشحن الحليفة بين الكورنواي والبا دي كاليه . ولم يبق منهن سوى ثمان ، إذ غرق اثنتان . ووضع ستة زوارق ناسفة في الخدمة : « بولميك » أغرق أمـــام بلايموث في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٠ ، « فيكنغ » أغرق في ساحل طرابلس الغرب خـلال نيسان ١٩٤٢ ، واستمر « فايان » و « بريزيـــدان هوندوس » و « رين دي فلو » في حراسة البحار . أما « ليونيّ » فقد استخدم كمستودع للبحرية التجارية . والطرادة المساعدة « كاب - دي - بالم » تذرع البحر جيئة وذهاباً بين سدني ونوميا . وثمة أربع عمارات قواعد : « أورااغان » ، « آميان » ، « آرّاس » و « ديليجانت » ثمّ « الوحدة - البحرية » في غرينوك ومستودع الأعتـــدة البحرية « بيرحكيم » في بورتسموث حيث يتدرب بحارتنا . والمدرعة العتيقة « كوربه » مركز عبور للمجندين الجدد ، ومجموعة محترّفات ، ومستودع ذخائر ومؤن ، وهي راسية في مرفأ بورتسموث تساند بمدفعيتها حماية الميناء الكبير .

وهناك عدد من عمارات أخرى زودنا بها الانكليز وكانت جزءاً من أسطولنا الصغير . وهذه قبل كل شيء ، سفن حربية بنيت منذ بداية الحرب لحماية القوافل ، وكانت تحرس البحار بلا انقطاع بين إنكلترا ، وإيسلندا ، وتير - نوف (الأرض الجديدة) وكندا ، وقد استلمنا

منها تسعة : « أليس » أغرقت وهي تحارب في آذار ١٩٤٢ ، و « ميموزا » أغرقت بعدها بثلاثة أشهر مع ربان البارجة بيرو آمر الفرقة الصغيرة . والسبع الباقيـة هي « آكوني » ، « لوبيليا » ، « روزليس » ، « رينونكول » ، « كومندان – ديتيين – دورف » « كومندان دروغو » و « كومندان – ديتروايا » . وثمة أيضاً ثمانية زوارق ناسفة تابعة للأسطول الصغير الثامن والعشرين الذي كان يذرع المانش بسرعة كبرى لمهاجمة سفن العدو الشاحنة التي تحاذي ساحل فرنسا أثناء الليل ، وما يواكبها من سفن حربية . وهناك أيضاً ثمانية زوارق قاذفة تؤلف الأسطول الصغير العشرين ، وكانت تؤازر زوارق المطاردة المصنوعة في فرنسا . وكنا نُعدّ ، من جهة أخرى ، تسليح العمارات الجديدة إذ كان في عداد البوارج الـتي أخذت تخرج من الترسانات البريطانية ، عدة منها كان يقدمها لنا حلفاؤنا فور الإنتهاء من صنعها . وقد احتفظنا منهـا بأربع ، هي : « لاديكوفرت » ، « لافانتور » « لاسوربريز » ، « لاكروا دي – لورين » . واحتفظنا أيضاً بالنسافة « لاكومباتانت » والغواصتين : « كوري » و « دوريس » اللتين انتهى بناؤهما . ونحن نريد الكثير منهـا ليزيد مجموع الغواصات ، وسفن الشحن ، ومواكبات العدو ، التي توفق سفننا إلى إغراقها ، ثم ليزيد عدد الطائرات التي تُوفق إلى إسقاطهـا . ولكن ليس هو النقص في السفن الذي يحدّ من دورنا وحجم تأثيرنا ، وانما هي الحاجة الى الاشخاص الذين يقومون بهذه المهام الحربية .

لقد هلك خلال حزيران ١٩٤٢ في سبيل فرنسا ٧٠٠ بحار من أنصار فرنسا الحرة . وكان عدد قواتنا البحرية ٣٦٠٠ بحار عاملين ، يضاف إليهم فوج الرماة الذي يقوده آميو دانفيل منذ مات ديتروايا في ساحة الشرف ، كما يضاف أليها أفراد منعزلون تابعون لسلاح الطيران البحري ،

وهم الذين لم يكن في وسعهم أن يؤلفوا وحدة ، فعمدوا إلى الخدمة في القوات الجوية . وأخيراً ، ينضاف إليها « الكوماندوس » الذين تلقوا دروسهم في بريطانيا العظمى تحت إمرة الملازم البحري كيفر . وقد سويت في شهر أيار شروط استخدام هذه القوة من الجنود الأشداء ، مع الأميرال اللورد مونتباتن المكلف لدى الانكليز بـ « العمليـات المختلطة » . وهكذا ، سيكون من تلك القوة أن تشترك قريباً في الهجمات المباغتة التي تجري على الساحل الفرنسي .

لقد جُنّدت هذه الملاكات ، في نصفها ، من عناصر البحرية التي وجدت في انكلترا عام ١٩٤٠ ، وانضم إلينا بعضها في الغابون والمشرق بعد أن قاتلتنا . وكذلك كان الشأن مع نوتية الغواصة « أجاكس » التي أغرقت في مياه دكار ، والغواصة « بونسيليه » التي خُرقت وغرقت في مياه بور – جانتي ، وسفينة « بوغنفيل » التي عطلناها عن العمل في مرفأ ليبرفيل . وهناك بعض عناصر ناشطة كانت تنضم إلينا من وقت لآخر ، انطلاقـاً من الوطن الأم ، من أفريقيا الشمالية ، من الاسكندرية ، من جزر الأنتيل ، والشرق الأقصى . وكانت البحرية تجنـد كل من تستطيع تجنيده من الشباب الفرنسيين في انكلترا ، وأمريكا ، والمشرق ، ومصر ، وسان – بيير . وكانت السفن التجارية اخيراً ، تزود القوات البحرية بقسم كبير من هيئاتها العاملة .

وكان تشكيلُ اركانٍ عامة من السفن أعسرَ مُشكلة تعانيها مفوضية البحرية ، إذ ينبغي تشكيلها من عناصر جد متنوعة إن لم تكن مشتتة ، مع عدم التقيد بقواعد التخصص . ولم يكن لدينا سوى القليل من ضباط الاختصاص العاملين ، فأخذنا في تدريب شباب منهم وتنصيبهم وراحت مدرسة فرنسا الحرة البحرية ، تقوم بعملها ، بشكل ناشط ، على ظهر السفينة « بريزيدان – تيودور – تيسّيِ » والعمارتين « إيتوال » و « بيل

بول » ، تحت إمرة نقيبي البارجة فيتزل و « غيرال » المقدمين اللذين تعاقبا على قيادة « فرقة المدارس » . وقد تخرج منها في أربع دورات ٨٠ مرشح ضابط ، قدموا للبحرية الفرنسية مواهبهم المصقولة ، منذ انخرطوا فيها ، بما كابدوا من عناء ، وكفاح ، ورجاء . ثم ان ضباط الاحتياط الذين عثرنا عليهم ، من جهة أخرى ، في السفن التجارية ، أو في هيئة قناة السويس ، شكلوا جزءاً كبيراً من ملاكات قواتنا البحرية . واستطاع مائتا مرشح ضابط ، جُندوا بهذه الطريقة ان يشكلوا على متون البوارج ، والسفن الحربية ، وسفن المطاردة ، وزوارق الصيد ، وقوارب الإنزال ، خدمة مناوبة ، في مجموعهم ، طيلة اكثر من مليون ساعة .

وعلى الرغم من هذه الاقتطاعات ، ظل الجزء الضئيل من الأسطول التجاري الفرنسي الذي كان يخدم في معسكر الحلفاء ، يقدم لقوافل هؤلاء عوناً كبيراً ، وظلت ١٧٠ سفينة تقدر حمولتها بـ ٧٠٠٠٠٠ طن تتابع المجهود الحربي بعد « الهُدنة » ، من أصل ما يبلغ حمولته ٢٧٠٠٠٠٠ طن – أي ما يعادل ٦٦٠ باخرة وسفينة شاحنة – كانت تملكها فرنسا في بداية النزاع . وكانت مصلحة بحريتنا التجارية التي أدارها مالغليف وبنجن ، ومن بعد سميرس وأندوس – فاريز ، تؤمّن التسلح على أيدي نوتية فرنسيين لأكبر عدد ممكن من السفن . وكانوا يفيدون ، عدا ذلك ، في استخدام السفن الأخرى التي يتولى البريطانيون أمرها . وكان علمَ الأونيون جاك يرفرف ، آنذاك ، إلى جانب العلم المثلث الألوان في مقدمة هاتيك البواخر المنفية أو في أعالي ساريتها . وقد زودنا بالأسلحة ، مع ذلك ، ٦٧ سفينة يبلغ مجموع حمولتها ٢٠٠٠٠٠ ، هلك منها في البحر اكثر من الربع خلال ربيع ١٩٤٢ .

كانت البواخر تنقل جنوداً ، وهكذا جيء بالنجدات البريطانية من

أوستراليا والهند إلى الشرق على ظهر البواخر : « إيل – دي – فرانس » و « فليكس – روسيل » ، و « برزيدان – بول – دومر » . وكانت سفن الشحن المحملة بالمواد الأولية ، والأسلحة ، والذخائر ، تمخر عادة مع القوافل . وكان بعضها يضطر احياناً الى عبور الأرقيانوس وحده . وما كان لسفينة ، في البحرية التجارية ، أن تصل الى ميناء إلا لتقلع منه . وتتعرض خلال رسوّها ، مع ذلك ، لقصف مفاجىء ، وفي عرض البحر كانت الخدمة البحرية مرهقة بمقدار ما هي خطرة ، إذ يجب على القائمين بها ان يسهروا ليلا نهاراً ، ويتقيدوا تقيداً دقيقاً بالاشارات والعلامات ، ويسرعوا بلا انقطاع ، الى مواقع التأهب . وعليهم ، أغلب الأحيان ، ان يقاتلوا ، ويطلقوا المدفع ، ويقوموا بمناورات لدى كارثة ما تجنباً للطوربيد او القنبلة . ويحدث ان تغرق السفينة ، ويجد راكبها نفسه ، وهو يتخبط في الماء الصقيع والملوث بالزيوت حيث يشاهد الرفاق من حوله يغرقون . ويحدث أيضاً ان يشعر المرء بالفرح الرهيب وهو يشهد سقوط قاذفة قنابل او بساط المازوت يضطرب ، وتحته تغرق غواصة العدو ؛ بل يحدث ان يكون البحار نفسه سبباً في إغراق غواصة ، حتى وإن كان في سفينة شحن ، كما جرى لـ « فور – بنجر » الذي قذف الى قاع البحر ، بجر تير نوف ، في أيار (مايو) ١٩٤٢ ، غواصة ألمانية .

وفي ذات يوم ، قادني الأميرال السير برسي نوبل الذي كان يدير الملاحة والمعركة من ليفربول ، في ميدان الأطلنطي برمته ، إلى غرفة العمليات تحت الأرض . فرأيت على جدرانها خرائط بحرية كبيرة ، تدل على الموقف الذي تقف فيه ، ساعة فساعة ، جميع القوافل الحليفة ، وجميع السفن الحربية ، وجميع الطائرات الموفدة في مهمات ، كما تدل على الموقع المعين أو المفترض للغواصات والطائرات ، والمغيرات الألمانية . وهناك محطة تلفون مركزية (سنترال) تربطها خطوط خارجية ، بمحطات

الراديو ، ومكاتب الشيفرة ، تقوم على خدمتها وُرَش نسائية بكل هدوء ، من مرتّبات ، ومختزلات ، وحاجبات . وهذه الورش تنقل من غير ضجة الأوامر ، والرسائل ، والتعليمات التي توجهها القيادة الى أقاصي البحر ، او تلك التي تتلقاها منها . وكل ذلك يرتسم ، كلما ورد ، او صدر ، على ألواح مضيئة . وهكذا تخطّط معركة المخابرات الجبارة ، وتصاغ في كل لحظة ، بجميع التقلبات والأدوار التي تمر بها .

ورحت أحدّق في الخرائط لأتبين أين هي سفننا ، بعد ان تمليت من الجموع . وقد رأيتها في الأمكنة الصالحة ، اي في تلك التي تحتاج الى الكفاءة والبراعة . وها هي تحية رئيس فرنسا الحرة تتبعهم حيث هم ، على جناح الأثير . غير أني ، وقد حسبت على الأثر ، مدى مـا هو عليه عددهم والجزء الذي يمثلون ، من الضآلة ، وكيف ان هـذا الجزء يذوب في جهاز أجنبي ، وتصورت السفن الضائعة هنـاك في طولون ، في الدار البيضاء ، في الاسكندرية ، في فور – دي – فرانس ، في دكار ، وقد أصابها الجمود ، وتمثلتُ الفرصة التاريخية التي أتاحتها هذه الحرب لرسالة فرنسا البحرية ، فأحسستُ بالكآبة تغمرني . وصعدت درج الملجأ القائم تحت الارض بخطى ثقيلة .

وكان يخامر كبريائي شعور كهذا ، حين كنت أتصل بطيارينا على هذه او تلك من القواعد البريطانية ، فكنت وأنا أشاهد مقدار مـا يمتازون به ، وأفكر في كل ما كان بوسع سلاح الجو الفرنسي ان يقوم به انطلاقاً من أفريقيا الشمالية ، من المشرق او من انكلترا ، فيما لو تُرك له ان يقاتل قليـلاً ، فأحس ان فرصة قومية كبرى ضاعت وبُددت تبديداً . غير اني لن آلو جهداً في ان أعمل افضل ما يُعمل ، بحيث يكون جهد أولئك الذين اتبعوني مبذولا في سبيل فرنسا . واذا كنت طبعاً قد رضيت ان يكون كل ما يطير ، في قواتنا ، انطلاقاً من قواعد

بريطانيا العظمى ، على طائرات يزودنا بها الانكليز ، يشكل جزءاً من جهاز الجو البريطاني ، فإنما أردت ان يشكل محاربونا في الجـــو ، ثم ايضاً ، عنصراً وطنياً .

وذلك لم يكن من غير عناء ، فإن حلفاءنا لم يكترثوا ، أول الامر ، بطيران فرنسي حر . فهم ، وقد سلكوا أقرب الطرق واكثرها عملية ، راحوا يتقبلون في وحداتهم بعضاً من طيارينا . ولكنهم لم يقدموا لنـا شيئاً سوى دمج متطوعينا من الطيارين في سلاح الجو الملكي . وما كان في مستطاعي ان أقبل ذلك . ثم إن مصير ذوينـا ظل طيلة نحو من عام ، غير محدد . فهناك البعض منهم ، تجمّع اتفاقاً في اسراب فرنسية وتمكن من المساهمة في معارك أريتريا وليبيا الجوية . وهنـاك آخرون تبنتهم « أسراب » انكليزية موقتاً ، وأسهموا في معركة إنكلترا . ولكن معظمهم أضاع وقته سدى ، وهو ينتظر بلا عمل في قواعد بريطانيا العظمى او مصر ، لنقص في العتاد ، والتنظيم والتدريب .

ومع ذلك ، وُضع لهذه المشكلة بدورها ، حلّ . ففي ربيع ١٩٤١ استطعت ان أسوي الامور مبدئياً مع السير أرشيبولد سنكلر ، وزير الجو البريطاني . فقد رأى هذا ، وكان فطناً وسخياً ، ان وجود قوة جوية فرنسية لا يمكن ان يكون بلا فائدة . وقبل ، كما طلبت ، ان نشكل وحدات ، من نوع المجموعات البريطانية ، على مثـــال « الاسراب » (اسكوادرون) ، والبريطانيون يعيروننا مـــا ينقصنا من فنيين على الارض ، ويقومون في مدارسهم بتعليم مجندينـــا للطيران ؛ وطيارونا الفائضون يؤدّون خدمتهم في الوحدات الانكليزية ، على ان يكون شأنهم فيها شأن للضباط الفرنسيين المنتدبين ، خاضعين للنظام الفرنسي ، يلبسون اللبـــاس الفرنسي . وفي ٨ حزيران (يونيو) ١٩٤١ ، كتبت للسير أرشيبولد من القاهرة ، أكرس الاتفـاق الذي وضعه العقيد فالان على

هذه الاسس اثناء المفاوضة . ومنذ ذلك الحين ، كان فالان يلقى عند التنفيذ ، تأييداً مستمراً من قِبلِ مارشالات الجو : بورتال في لندن ، ولونغمور ، ثم تيدر في الشرق .

وهكذا استطعنا ان ننشيء في إنكلترا ، عند نهاية ١٩٤١ جناح المطاردة « إيل - دي - فرانس » ، وكان يقوده سيتيفو الذي هبط في فرنسا ، وقد عاد من بعد ، وخلفه دوبيريه . وتشكل في مصر غداة معركة سوريا ، جناح المطاردة « ألزاس » الذي قاتل اولاً في ليبيا تحت إمرة دي بوليفن ، وانتقل من ثمة الى بريطانيا العظمى حيث قام على رأسه موشوت ، وكان ان قتل هذا على يد العدو في السنة التالية . وولد جناح القصف « لورين » في الشرق تحت إمرة بيجو ، وهذا اصابته نار العدو بعد بضعة اسابيع ، وكان قد توغل داخل خطوطه ، ولكن تمكن من بلوغ خطوطنا ، وقضى نحبه فيها . وحل كورنيغليون مولينيه محله . وتألف الجناح المختلط « بريتانيا » في تشاد لمساندة عملياتنا الصحراوية ، وكان سان - بيروز رئيسه . وفي ربيع ١٩٤٢ تجمعت في لندن من جهة ، ورياق من جهة اخرى ، تلك العناصر التي ستشكل في روسيا الجناح - ثم الفوج - « نورماندي » وتولى رئاسته على التوالي تولسان ، وليتولف ، وبعد موتهما تولاها برياد . واخيراً وُضع بعض طيارينا ، بأمر مني ، تحت تصرف السلاح الجوي الملكي . وكان مورلييه وفايول ، وغدج ، يقودون في ذلك السلاح « اسراباً » . والاخيران قتلا أثناء الخدمة . والمجد في معارك الجو ، يكلف غالياً . وقد خسر الطيران الفرنسي الحر ، جملة ، عدداً من الاموات اكبر ضعفين من الملاك العسكري الذي كان يسانده في البر .

واذا كانت السمة العالمية للحرب هي التي حتمت عليّ ، مع ذلك ، ان اتصرف على نحو تظهر معه قوات فرنسية مجندة فوق مسارح

العمليات الحربية جميعها ، فقد بذلت كل ما في وسعي لحصر الجهد الاكبر فوق الميدان الذي يهم فرنسا مباشرة ، اكثر من غيره ، اعني أفريقيا الشمالية . فاذا تلاشى الجيش الإيطالي في الحبشة ، ومُنع الالمان من النفاذ الى سوريا ، وقضي على تطلبات فيشي وهي في المهد ، بالعمل ضد أفريقيا الفرنسية الحرّة ، يصبح من اللازم ان نعمل في ليبيا .

كان البريطانيون قد أعادوا الكرّة ، وبادروا فيها بالهجوم خلال تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١ . فإذا هم وُفقوا الى بلوغ الحدود التونسية، يصبح من الضروري ان نكون معهم هناك ، وأعنّا مسبقاً على دحر العدو . واذا حدث العكس ، وتمكن هذا من صدّهم وأكرههم على التراجع ، كان علينا ان نعمل كل ما في وسعنا لوقفه قبل ان تتدفّق حشوده وتغمر أرض مصر . وعلى أي حال ، حان الوقت لبذل أقصى ما نستطيع من جهد ، ولكن على ان نقوم بدورنا لأنفسنا ، كي نحقق ظفراً فرنسياً خالصاً .

وكان لدينا وسيلتان للعمل : إما ان ندفع نحو فزّان انطلاقاً من تشاد ، ذلك الرتل الصحراوي الذي بذل لوكلير زمناً طويلاً في إعداده ، وإما ان نخوض ميدان ليبيا ، الى جانب الانكليز ، بتلك القوات المتحركة التي وضعها لارمينا في المشرق على أهبة الاستعداد . فقررت ان استخدم الوسيلتين ، ولكن ضمن ظروف يكون معها عمل جنودنا لفائدة فرنسا ، المباشرة .

كان فتح فزان ، والزحف من ثمة على طرابلس ، يشكلان عملية مجازفة نهائية ، فإذا هي لم تكلل بالنجاح ، لم يعد في الامكان تكرارها إلا بعد زمن طويل ، نظراً للمصاعب الجسيمة التي ينطوي عليها تشكيل رتل تشاد ، وتجهيزه ، وتموينه . كان لهذا الرتل إذن ان يتوغل في

تلك المنطقة ، في حالة واحدة ، وهي حين يدخل البريطانيون طرابلس الغرب ، بعد ان يستولوا على برقة ، وإلا فليحصر عمله في إنهاك الطليان بغارات عميقة وخاطفة .

وكنت مصمماً ، من جهة اخرى ، على ان تظل « جبهة تشاد » – هذا إذا كان في الامكان إطلاق هذه الصفة على مجموعة اعمال كانت قسراً متقطعة – جبهة فرنسية . ولا شك في ان انطلاق عملنا الصحراوي يجب ان يرتبط بزحف الجيش الثامن البريطاني . وتلك قضية ترابط مع القاهرة . ولكن ، ما عدا ذلك ، يستمر لوكلير في اتباعي ولا يخضع إلا لي ، الى ان يأتي اليوم الذي يلتقي فيه مع حلفائنا على سواحل المتوسط ، وعندئذ ذاك ، يصبح من المنطق وضعه تحت إمرتهم . وكان تشبثي بهذا الاستقلال الذاتي يزداد بمقدار ما كان فتح فزان يضع في أيدينا رهناً لتقرير مصير ليبيا ، تقريراً نهائياً ، من بعد .

وكان ان نفذ البريطانيون الى برقة ، خلال تشرين الثاني وكانون الاول ، بعد ان قاتلوا ببسالة قتالاً شاقاً . واتخذ لوكلير استعداداته ، تحسباً لتغلغلهم في طرابلس ، للاندفاع نحو فزان ، يسانده الجنرال سير الذي كان يومذاك القائد الاعلى للقوات الفرنسية الحرة في افريقيا . وكنت إزاء هذه التحركات ، أتحفظ بتفاؤلي ، فأنا أعلم ان رومل استطاع ان يتفلت من النطاق الذي ضربه الانكليز حوله ، وان فيغان استدعي من افريقيا الشمالية ، وان تطبيق اتفاق هتلر – دارلان يتيح الآن للعدو ان يتموّن انطلاقاً من تونس ، ثمّ لم أسقط من حسابي تقدم الحلفاء السريع نحو طرابلس . وكان يبدو لي ، خلاف ما هو ظاهر ، ان هجوماً معاكساً يقوم به العدو ، هو المحتمل اكثر من غيره . ولذلك ، تحفظت في إصدار أمر بالبدء في الهجوم ، وإن تركت الاعداد له يجري في مجراه . ومذ كانت بعثة الارتباط التي ارسلها لوكلير الى القاهرة ،

من جهة اخرى ، تركت نفسها تنصاع للقيادة البريطانية ، فقد أوضحت للجنرال إزماي ان شيئاً من ذلك لن يكون ، وقوّمت الاعوجاج الذي طرأ على ذهنية « الشاديين » بما يجب ان يكون في هذا الصدد .

والواقع ان حلفاءنا لم يدخلوا طرابلس الغرب . وكانت الاشهر الاولى من عام ١٩٤٢ فترة استقرار للعسكريين المتعادين ، فلم يكن يناسب قواتنا في تشاد ، إلا ان تقوم بغارات كرّ وفرّ . وكان لوكلير يتحرّق لشنها ، فأذنتُ له بها في ٤ شباط (فبراير) . وقام بها ، قاطعاً فزّان خلال آذار ، مع دورياته المقاتلة تساندها طائراته مدمراً عدة مراكز للعدو ، وآسراً عدداً كبيراً من جنوده ، مستولياً على كمية من عتاده . ثم عاد الى قواعده ، ولم يتكبد سوى خسائر طفيفة . ورغبة مني في توسيع منطقة العمل ووسائله امام هذا الرئيس الكفؤ ، فقد سلمته في نيسان قيادة جميع القوات في افريقيا الفرنسية الحرة . وكان عليّ هذه المرة ايضاً ، ان اتغلب على غلوه في الاحتياط والتواضع . وراح يشعر هو وجنوده بالثقة بعد ذلك اليوم وما تلاه ، انهم قادرون على انتزاع الواحات ، ما دامت الاحداث في ليبيا تجري حتماً في مصلحتهم . وكان عليهم ان ينتظروا ، مع ذلك ، عشرة اشهر طويلـــة ، في جو حار شديد الحرارة ، فوق الحصباء والرمال ، قبل التأكد من الظفر ، والانتقال الى شطآن المتوسط حيث ينفضون عنهم الغبار الذي علق بهم .

ولكن ، بينما كان علينا في تشاد ان نؤجل الضربة الحاسمة ، وجدنا في برقة الموقف على العكس ، حيث كانت الفرصة التي انتظرناها منذ زمن طويل لعمل حربي مجيد ، متاحة امامنا . ومع ذلك ، توجّب علينا ان نتغلب على كثير من العوائق قبل ان نحصل على موافقة الحلفاء بأن نخوض ذلك الميدان ، وحدات فرنسية كبيرة .

والواقع ، ان القيادة البريطانية لم تحطْ علماً بأن الفرقتين الخفيفتين

والسريّة المصفحة التي شكلت في سوريا تحت إمرة لارمينا على استعداد للمشاركة في الهجوم الذي شنّ في آخر تشرين الاول . ومع ذلك ، فإن الوحدتين الكبيرتين كانتا متينتين ومسلحتين تسلحاً حسناً . كانت كل واحدة منها مُموترة ، تشتمل على خمسة افواج مشاة ، وفيلق مدفعية ، وسرية دفاع مضاد للدبابات ، وسرية دفـــاع ضد الطائرات ، ومفرزة استطلاع ، وسرية هندسة ، ورحبة هندسية ، وسرية اشارات ، وسرية نقل ، وسرية قيادة عامة ، ومصالح . هذه الوحدات تشتمل على جميع الاسلحة ، وبهذا نفسه ، قادرة على القيام بدور تكتيكي خاص ، فكانت فرقاً عسكرية بالمعنى الصحيح . وقد حرصتُ ، وان كانت « خفيفة » بكل تأكيد ، على إعطائها اللقب الذي تستحق . وقد زوّد لارمينــا جميع القطع العسكرية بسلاح رهيب انتزعه من الاسلحة التي تركها دانتز ، او من المخازن التي أودعتها إياها لجان الهدنة الايطالية ، فكان متطوعونا يحملونها متحمسين ، منتعشين ، وهم يشعرون انهم اقدر من في العالم على استخدامها . وهكذا ، اصبح لكل فوج ، عدا مدفعية الفرقة ، ستة مدافع من عيــار ٧٥ تحت تصرفه الخاص ، كما زُوّد ايضاً بعدد وافر من مدافع الهاون والاسلحة الاوتوماتيكية . وينبغي في حالة الهجوم ، تخفيف أحمال القوات ، عند الاقتضاء ، ولكن كان المراد الاحتفـــاظ بالميدان ، فوضع تحت تصرف أولئك الجنود اسلحة ذات قوة استثنائية الى أبعد مدى .

ومذ كنت وافقت في ٢٠ أيلول ، على تشكيل الفرقتين الخفيفتين ، فقد وجّهت للسيد تشرشل في ٧ تشرين الاول مذكرة اطلعه فيها على رغباتنا ووسائلنا ، وكتبت في الوقت نفسه للجنرال اوكنلك القـــائد الأعلى في الشرق ، أذكّره بمدى تشوقنا الى اشتراك قواتنا في خوض ميدان ليبيا للقتال . وبيّنت للسيد تشرشل والجنرال اوكنلك بدقـة ،

اني مستعد في سبيل هـذه العمليات ، لأن اضع تحت إمرة القيـادة البريطانية حشود لارمينا برمتها ، وان لوكلير ، من جهة ثانية ، يستطيع ان يندفع على فزان في الموعد الذي يطلب الينا الزحف به ، وإن ظل عمل هذا الاخير مستقلا . وفي ٩ تشرين الاول ، ذهبت لمقابلة السيد مارغستون وزير الحربية البريطانية ورجوته ان يتدخل ، وبينت اخيراً للجنرال كاترو في ٣٠ تشرين الاول ، الأحوال التي تناسب قواتنا ان تخوض بها المعركة ، اي بوحدات كبيرة .

ولم أتلقَّ الجواب البريطاني إلا في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) . وقد وجّهه إلي الجنرال إزماي رئيس الاركان العامة لوزارة الحرب ، والسيد تشرشل . وكانت رسالته توازي بمعناها عدم اخذ العلم ، ولكن بأدب وصراحة . وقد زعم حلفاؤنا ، تفسيراً منهم للرفض « تشتت الوحدات الفرنسية في نقاط شتّى من سوريا ، وأنها « لم تكن مدرّبة على العمل بوصفها فرقاً او ألوية » ، وأخيراً « عدم كفاية تجهّزها » . وأعربوا ، مع ذلك ، عن تمنياتهم أن يسمح المستقبل بإعادة النظر في الأمر .

الأكيد أن القيادة الانكليزية كانت تحسب ان تنهي غزو ليبيا والقضاء على روميل دون مؤازرة الفرنسيين . صحيح انـه كان لديها ، في ذلك الموقع ، قوات بريّة وجويّة عظيمة ، وأنها كانت تعتقد ان بوسع الاميرال اندرو كننغهام — وهو رئيس وبحار ممتاز — ان يجترح اكثر من معجزة ، ويمنع مواصلات العدو بين ايطاليا وطرابلس الغرب .

لك أن تتصور أي خيبة أمل أحدثها في نفسي الجواب الانكليزي. ولم يك في مستطاعي التسليم بأن تظل قواتنا شاكية السلاح لأمد غير محدود ، بينما كان مصير العالم يتقلب في ساحات القتال ، ففضلت ان اجازف بتغيير للاتجاه ، على ان يأتي القدر ويسيّرنا في اتجاهه ، واستدعيت السيد بوغومولوف ورجوته ان يعلم حكومته ان اللجنة الوطنيـة ترغب

في ان تساهم بعض القوات الفرنسية مباشرة في عمليات الحلفاء على الجبهة الشرقية ، إذا ظل مسرح العمليات في افريقيا الشمالية موصداً ابوابه دونها . ثم لم أخف بالطبع شيئاً من خطوتي هذه ، عن لندن . ولكن نيّات بريطانيا تحوّلت ، حتى قبل ان يردني جواب موسكو ، إذ كتب إلي السيد تشرشل في ٧ كانون الاول رسالة حارة يقول لي : « إنه علم مؤخراً مدى تلهف الجنرال اوكنلك لتجنيد لواء فرنسي حرّ في عمليات برقة » . ويضيف الوزير الاول : « أنا أعرف ان هذه النية تنسجم ورغبتك . وأعرف أيضاً الى أي درجة يتعجل رجالك بلوغ الميدان الذي يقاتلون فيه الالمان » .

أجبت السيد تشرشل أني موافق على المشروع وأنني وجهت الأوامر اللازمة للجنرال كاترو . والواقع ان الانكليز راحوا يقدرون الفائدة العسكرية التي تعود من مؤازرتنا في معركة برقة ، بصرف النظر عن المكاره التي يسببها لهم احتمال نقل القوات الفرنسية الحرة الى روسيا . وقد لمسوا فعلاً ان العدو لا يتخلى عن الارض في برقة إلا شبراً شبراً ، وان قواتهم الخاصة تتكبد خسائر فادحة ، وان عليهم ان يعيدوا في الموقع نفسه ، تنظيم قيادة ساء تكيّفها مع العمليات الآلية . فهم الآن ينتظرون ، وقد تخلوا عن الاندفاع في هجومهم على طرابلس الغرب ، ان يسرع رومل في أخذ المبادرة . وهذا ما حملهم على التمني بأن نمد لهم يد المساعدة .

وكان أن رتب كاترو في القاهرة مع أوكنلك تسيير الفرقة الأولى الخفيفة نحو ليبيا ، وحصل كونيغ الذي وكل إليه التفاوض في التفصيلات، من حلفائنا على فوائد إضافية تتعلق بالمدافع المضادة للدبابات ، والمضادة للطائرات ، ووسائل النقل . وكان لهذه الفرقة ، خلال كانون الثاني بضعة اشتباكات مظفرة مع عناصر تابعة لرومل طوّقت في سلّوم وبرديا ،

واستسلمت بعد قليل من تطويقها . وحين أبصرت قواتنا مواكب الأسرى الألمان التي أعانت في أسرهم ، عرتها رعشة كما لو مسها سلك كهربائي ، فقد أخذت تسير بفرح في اتجاه الغرب . ومذ كان الانكليز قد ركزوا قواتهم الرئيسية ، خلال شباط (فبراير) ، في قلب إقليم برقة ، على الموقع الذي يقال له « غزالة » ، والمؤلف من عدة مناطق للمقاومة ، فقد خُصص لقواتنا موقع بير حكيم القائم إلى الجنوب ، وفيه شرعت وهي تنظم نفسها في الوقت ذاته ، بصراع ناشط من مناوشات ودوريات في المنطقة الواسعة المجردة التي تفصلها عن قوات العدو الكثيفة .

لكن إذا كانت الفرقة الأولى الخفيفة قد أتيح لها ان تغتنم الفرصة التي سنحت ، فإن شيئاً لم يُعمل من أجل الفرقة الثانية التي كانت تضيع وقتها ، وهي تنتظر في المشرق . إلا أني كنت عازماً على ان تشارك هي ايضاً في العمليات . وجاءني بوغومولوف تماماً في ذلك الظرف ، ليقول لي في ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ان مشروعي بإرسال قوات فرنسية الى روسيا استُقبل بموافقة حارة من حكومته ، وان هـذه مستعدة لتزويد قواتنا بالعتاد اللازم في الأماكن التي يتمركزون بها . وعند ذاك توجهت بفكري ، لا نحو إيفاد جناح الطيران « نورماندي » وحسب ، الى الشرق ، بل إيفاد الفرقة الثانية الخفيفة أيضاً . فهـذه تنطلق من سوريا ، مارة ببغداد ، فتجتاز إيران بالشاحنات ، ثم تنقل من تبريز عن طريق سكة الحديد الى القفقاس . كانت تلك هي الطريق الـتي تسلكها ، انطلاقاً من الموانىء الايرانية ، قوافل العتـاد الذي يرسله الحلفاء الى روسيا . وكتبت في ٢٩ كانون الأول للجنرال إيزماي أعلمه بنياتي ، وأعطيت الجنرال كاترو التعليمات المطلوبة . وستسافر الفرقـة الثانية في ١٥ آذار الى القفقاس إذا هي لم تُقبل في ليبيا ، قبل هذا الموعد .

وأثارت القيادة البريطانية في وجه المشروع الرامي الى نقـل هذه الوحدة إلى روسيا كل ما امكنها من اعتراضات ، ولكن السوفيات في موسكو حلوهـا ، عكس الانكليز ، معنى كبيراً ، ولقيت منهم كل تأييد ، إذ تحدث مولوتوف الى غارو ، والجنرال بانفيلوف الى «بيتي» ، ليستحثانا على إكمال الشوط . واطلع السيد إيدن على الأمر ، فجال جولته وكتب اليّ يؤيد وجهة نظر العسكريين الانكليز . ولم يكن في مستطاعي الا ان أصمد في وجهة نظري ، وهي التي انحازت اليها القيادة الحليفة في أواخر شباط (فبراير) ، وأعلمني بذلك إزماي . وطلب أوكنلك الى كاترو ان يضع الفرقة الثانية الخفيفة تحت تصرفه . وكان من هذه ان غادرت سوريا ووصلت الى ليبيا في الأيام الاخيرة من آذار (مارس) .

أصبحت حشود لارمينا بعد اليوم في ساحة العمل : كونيغ مـع الفرقة الاولى في بير حكيم ، على خط القتال . كازو في الاحتياط مع الثانية . والفيلق المصفح يتلقى من الوراء ، بقيادة العقيد ريمي ، عتاداً جديداً . وهناك سرية مظليين استقدمتها من انكلترا ، راحت تتدرب الآن في الاسماعيلية ، وغدت مستعدة للقيام بالهجمات التي تطلب اليها . وكان مجموع المقاتلين ١٢٠٠٠ أي ما يعادل زهاء خُمس الملاك الذي يعمل مع الحلفاء ، جملة واحدة . وكان جناح المطاردة « ألزاس » وجنـاح القصف « لورين » يحاربان منذ تشرين الأول في سماء برقة . وكان هناك عدد من طائراتنا وزوارقنـا الحربية يقوم على طول الساحل ، بمواكبة القوافل ، يعين على حمايتها . وهكذا ، تجمعت قوات فرنسية كبيرة ، في الوقت المعين ، على مسرح العمليات الرئيسي . وسيقدم إله المعارك ، في عدالته ، ميداناً واسعاً ومجداً كبيراً لجنود فرنسا الحرة . وشن رومل هجومه في ٢٧ أيار ، فهوجمت بير حكيم .

هناك لحظة تمر عادة ، يشعر خلالها الرائد الذي يوجه مقادير المجازفة الشاملة بعمل عظيم ، ان المصير تقرر . ويبدو له من خلال اتفاق عجيب ، ان الألف محنة التي يتخبط في لججها ، تنجلي فجأة في حادث حاسم ، فاذا كان هذا موفقاً ، استسلم الحظ ، ولكن اذا انقلب ذلك الحادث لما فيه بلبلة الرئيس ، خسر هذا قضيته برمتها . وبينما كانت مأساة بير حكيم تدور حول مضلّع ذي ستة عشر كيلومتراً مربعاً من المساحة يقوم عليها كونيغ ورجاله ، كنت أنا بذاتي في لندن أتلو البرقيات ، وأستمع الى التعليقات ، وأتأمل الظل طوراً ، والنور طوراً في النظرات ، أتقرّى أي النتائج تتوقف على ما يدور هناك . إذا أصيب هؤلاء المحاربون الخمسة آلاف وخمسماية ، وكل واحد منهم يحمل عناءه وأمله ، وقد قدموا طوعاً من فرنسا ، وأفريقيا ، والمشرق ، والباسيفيك ، وتجمعوا هناك حيث يجتازون الآن كثيراً من الصعاب — إذا أصيبوا برزء مظلم ، فان قضيتنا تتعرض لأشد الأخطار . وإذا هم ، على العكس ، وفقوا إلى مأثرة حربية لامعة في هذه اللحظة ، على تلك الأرض ، فسيكون المستقبل عند ذاك ، لنا !

لم تدع الاشتباكات الأولى مجالاً لتمنّي شيء . فلقد علمت أنه بينما كان جحفل العدو الأكبر يمر في ٢٧ أيار ، جنوب بير حكيم ليقلب موقع الحلفاء ، أطلقت الفرقة الآلية الإيطالية « آرييت » زهاء مائة من دباباتها على الفرنسيين وخسرت منها أربعين بقي حطامها على المنحدر المقابل . وفي ٢٨ و ٢٩ انتشرت مفارزنا في جميع الاتجاهات ، فدمرت زهاء خمسة عشر سلاحاً آلياً وأسرت ٢٠٠ محارب . وفي ٣٠ عمد الجنرال رومل الذي لم يستطع أن يسوي حساب الطليان دفعة واحدة ، مع التشكيلات الآلية الانكليزية ، إلى الانسحاب ليُعد مناورةً جديدة . وبعد يومين ، حمل رتل فرنسي يقوده المقدم بروش ، على روتوندا سينيالي ،

الواقعة على بعد ٥٠ كيلومتراً إلى الغرب ، واستولى عليهـــا . وقـام لارمينا في أول يوم من حزيران (يونيو) بجولة تفتيشية لقواتنا هناك . وجاء تقريره مفعماً بالتفاؤل . ونشأ في العالم جو مماثل . وشعر بعضهم ، في الواقع ، أن هذه المعركة يمكن أن تتجاوز إطار التكتيك العسكري ، وأخذت أحاديث الناس توجه الثناء بتحفظ والإذاعات بعبارات مبهمة ، والصحف بفطنة وحذر ، إلى القوات الفرنسية ورؤسائها

وفي اليوم التالي أمسك رومل بزمـام المبادرة . وكان منه أن دفع هذه المرة جيشه رأساً إلى قلب موقع الجنرال ريتشي الذي وكل إليـه أوكنلك قيادة جبهة القتال ، فانتزع الألمـــان في « غوط السقارب » لواءً بريطانياً ، وعبروا في تلك النقطة حقل الألغام الذي كان يغطي الحلفاء من غزالة إلى بير حكيم ، ووجهوا ضد قواتنا ، توسيعاً منهم للثغرة ، فرقة من جيش « الأفريكا – كوربس » . وهذه هي المرة الأولى منذ حزيران ١٩٤٠ التي يعود بها الاحتكاك على مستوى شديد وواسع ، بين فرنسيين وألمان . لم يكن أول الأمر سوى مناوشات أسرنا بهـا ١٥٠ جندياً ، ولكن سرعان ما تركزت الجبهـة في اتجاه معركة . وكان رد كونيغ على المفاوضيْن العدوين اللذين طلبا إليه الاستسلام أنه لم يأت إلى ذلك المكان ليستسلم .

ومع ذلك ، شهدت الأيام التاليـــة العدو يشد الخناق ، وراحت بطارياته من العيار الثقيل بما فيها ذات ١٥٥ و ٢٢٠ ، تفتح ناراً على خطوطنا تتفاقم وتزداد عنفـاً ، وراحت طائرات الشتوكا واليونكرز تقصفها ثلاث مرات ، أو أربع ، أو خمس كل يوم في أسراب يبلغ كل سرب منها زهاء المائة طائرة . وتأخر وصول المؤن ، فلا يأتي منهـــا بعد سوى كميـات ضئيلة ، وانخفض في بير حكيم مخزون الذخائر ، ونقصت أقوات الجند ، وخفت مقادير المياه الموزعة ، وأصبح المدافعون

تحت الشمس المحرقة ، وفي مشـــار الزوابع الرملية ، يكابدون حالة تأهب لا ينقطع ، يحيون مع جرحاهم ويدفنون موتاهم على مقربـة من الجرحى . وفي ٣ حزيران ، يوجه إليهم الجنرال رومل إنذاراً بخط يده ، يحثهم فيه على إلقاء السلاح « وإلا أصابهم الاضمحلال ، كما أصاب ألوية الانكليز في غوط السقارب » . وقدم إليهم في ٥ حزيران أحد ضباطه يكرر عليهم الانذار نفسه . وكانت مدفعيتنا هي التي تولت الرد . غير أن وعي الجمهور استيقظ في الوقت نفسه ، في كثير من البلدان . وأصبحت الجرائد الناطقة أو المطبوعة تولي فرنسيي بير حكيم اهتمامـاً يزداد يوماً عن يوم ، وتحفـز الرأي العام لإصدار حكمه . والمراد أن يعرف ما إذا كان المجد بعد أن يعانق جنودنا .

وفي ٧ حزيران ، غدا تطويق بير حكيم تامـاً ، فالفرقة الألمانية التسعون والفرقة الإيطالية « تريستا » تساندهما بزهـــاء عشرين بطارية ومئات الدبابات أمستا على أهبة الهجوم . وكانت القيادة الحليفة قـــد وجهت أمراً ، مساء أول حزيران ، إلى كونيغ : « اصمدوا ستة أيام بعد ! » . ها قد مرت الأيام الستة . وطلب الجنرال ريتشي « اصمدوا ثمانياً وأربعين ساعة بعد ! » . يجب القول إن الخسائر والبلبلة التي أحدثتها ضربات العدو المفاجئة في صفوف الجيش الثامن كانت من الفداحة بحيث يستحيل بعد اليوم أن تجدي معها أية عملية إنهاض أو إنقاذ . أمـــا رومل فقد انهمك في العدْو نحو مصر ، مستفيداً من البلبلة التي تبينها لدى البريطانيين ، وضاق ذرعـاً بهذه المقاومة التي تمتـــد على طول مؤخراته ، وتزعج مواصلاته . لقد أصبحت بير حكيم الهم الذي استحوذ عليه والهدف الرئيسي الذي يبغي الفراغ منـه . وكان قد جاء بنفسه إلى الموقع عدة مرات ، وسيأتي إليه بعد يتعجل المواجهين .

وفي ٨ ، شُنت هجمات شديدة . وحاول مشاة الاعداء مراراً عدة ،

تنجدهم مدفعية قوية ودبابات ضخمة ، أن ينتزعوا ببسالة هـذا القطاع أو ذاك من خطوطنا ، ولكن عبثاً . كان نهاراً جد قاس على جنودنا ، وكذلك كان الليل الذي مر في إعادة ترتيب المواقع التي دمرت . وفي ٩ ، استؤنفت الهجمات ، وقد اشتدت مدفعية العدو بعيارات ثقيلة لا تقوى على صدها مدافع العقيد « لوران – شامبروزاي » من عيار ٧٥ . وشح الماء على جنودنا ، فلا يصيب واحدهم بعد أكثر من ليترين خلال أربع وعشرين ساعة . ومثـــل هذه الكمية ، في مثل ذلك المناخ ، لا تنقع غليل أحد . ومع ذلك ، لا بد من الصمود بعد ، لأن مقاومة كونيغ ترتدي الآن طابعـــاً من الأهمية القصوى ، في لجنة الاضطراب الذي ضعضع مختلف عناصر الجيش البريطاني . وراحت أبواق الاعلام تشيد صاخبة بـ « دفاع الفرنسيين البطولي » و « هزيمة الألمان أمام بير حكيم » في لنـــدن ، في نيويورك ، في مونتريال ، في القاهرة ، في الريو ، في بونوس أيريس . . هـا نحن نقترب من الهدف الذي رمينا إليه في تأمين دور كبير للقوات الفرنسية الحرة – أياً كان ملاكهـــا محدوداً – في مناسبة كبرى ، فإن مدفع بير حكيم أعلن للعالم برمته ، بداية نهوض فرنسا .

بيد أن الذي راح يستحوذ على أفكاري بعد ذلك اليوم وما تلاه ، إنما هو سلامة المدافعين . فأنا أعـــلم أنهم لا يستطيعون بعد طويلاً أن يحطموا هجمات تساندها وسائل ساحقة ، وأنا على يقين ، ولا ريب ، ان الفرقة لن تستسلم بحال من الاحوال ، وان العدو سيكون محروماً من الاغتباط برؤية رتل طويل من الأسرى الفرنسيين يستعرضه روميل ، وان هذا سيضطر ، إذا صمدت قواتنا في مواقعها ، الى مقاتلة حشودها الواحد تلو الآخر ، ليتمكن من القضاء عليها . ولكن المراد ان نعيدها سالمة ، وما هو ابداً ان ندعن للقدر في إبادتها الجيدة ، فأنا في حاجة من بعد ،

الى هاتيـــك المئات من الضباط ومرشحي الضباط المتميزين ، الى تلك الألوف من الجنود الأبرار . ها إنهم سجلوا واحدة من مآثرهم ، وعليهم الآن ان يقوموا بمـأثرة اخرى ، ان يشقوا الطريق عبر المغيرين وحقول الألغام ، ليلتحقوا بكتلة القوات الحليفة .

لم أكن أترك لحظة تمر دون ان أعلم ، على النحو الأكثر إلحاحاً ، هيئة الأركان العامة الامبراطورية البريطانية ، خلال ٨ و ٩ حزيران ، مقدار الأهمية الكبرى لهذه القضية وهي ان يتلقى كونيغ ، قبل فوات الأوان ، الأمر بمحاولة الخروج من الميدان ، وإن كنت أحرص على ان لا اتدخل مباشرة في سير المعركة . وأعـدت ذلك على السيد تشرشل الذي بحثت معه مسألة مدغشقر . وعلى اي حال ، كانت الخاتمة تدنو ، وقد أبرقت لقائد الفرقة الخفيفة الاولى : « ايها الجنرال كونيغ . إعلم وقل لجنودك ان فرنسا برمتهـــا ترمقكم بنظرها ، وأنكم فخرها » . وكان في نهاية اليوم نفسه ، ان أخبرني الجنرال السير آلان بروك رئيس الاركان العامة الامبراطورية ، ان العدو لم يكفّ منذ الفجر عن عناده في مهاجمة بـير حكيم ، بيد ان ريتشي امر كونيغ ان ينتقـــل الى موقع جديد ، إذا وجـــد الامكانية لذلك . والعملية مقدّرٌ ان تجري اثناء الليل .

في صباح اليوم التـــالي ، ١١ حزيران ، وردت تعليقات الاذاعـــة والصحافة تشيد ببطولات المحاربـين وتؤبّن مزاياهم ، فالناس كلهم وقد فاتهم ان الفرنسيين يحاولون الخروج مـــن المأزق ، كانوا ينتظرون تحطم مقاومتهم بين لحظة واخرى . ولكن ها هو بروك يرسل إلي في المساء يقول : « توصل الجنرال كونيغ مع فريق كبير من قواته الى « الغوبي » ، خارج منال العدو » ، فشكرت الرسول ، وصرفته ، واغلقت الباب . انا وحيد . إيه ! القلب يخفق شجواً ، وتنهّدات الكبرياء ترتفـــع ،

ودموع الفرح تنهل !

لقد أعاد كونيغ قرابة ٤٠٠٠ رجل بالسلامة ، بعـد اربعة عشر يوماً في القتال ، من اصل زهاء ٥٥٠٠ كانوا يؤلفون الفرقـة الاولى الخفيفة قبل بير حكيم ؛ وهناك عـدد من الجرحى أمكن نقلهم الى المؤخرة مع الوحدات ، في الوقت ذاته . وتركت قواتنا في الميدان ١١٠٩ من الضباط والجنود بين قتيل وجريح ومفقود . وكان في عداد القتلى ثلاثة ضباط من ذوي الرتب العالية : العقيد بروش ، والمقدمان سافيه وبريكونيو . وفي عداد الجرحى من هم على جدول الترقيـة : المقدمان بوشوا وبابونـّو . اما العتاد فقد دُمّر سلفاً ، وترك في مكانه . ولكننا كبدنا العدو خسائر تفوق خسائرنا بثلاثة اضعاف .

وفي ١٢ حزيران أعلن الألمان أنهم البـارحة « استولوا عنوة » على بير حكيم . ثم أذاع راديو برلين بلاغـاً صرح فيه : « إن الفرنسيين البيض والملونين الذين وقعوا أسرى في بير حكيم ، ولا ينتمون إلى جيش نظامي ، ستجري عليهم قوانين الحرب ويُعدمون » . وبعـد ساعة ، أطلقتُ المذكرة الآتية بعـد ترجمتها إلى جميع لغات العالم ، وأذاعتها أمواج البي . بي . سي : « إذا كان الجيش الألماني قد لوث شرفه إلى درجة يقتل معهـا جنوداً فرنسيين رقعوا في الأسر وهم يحاربون من أجل وطنهم ، فإن الجنرال ديغول يعلن بأسف عميق ، أنه يجد نفسه مكرهاً على إنزال المصير نفسه بالأسرى الألمـان الذين وقعوا في أيدي قواته » . ولم يكد ذلك النهـار يبلغ نهايته حتى أعلن راديو برلين : « لا مجـال لأي سوء تفاهم حول العسكريين الفرنسيين الذين أسروا خلال معارك بير حكيم ، فإن جنود الجنرال ديغول سيعاملون كجنود » . وهذا ما جرى فعلاً .

وبينما كانت الفرقـة الخفيفة الاولى تتجمع في سيدي براني ، وكاترو

يعمل في الحال على إكمالها ، ظل جناحنا الجوي « ألزاس » يشارك في عمل المطاردة مع سلاح الجو الانكليزي ، وجناحنا « لورين » يضاعف هجماته على مواصلات العدو ، مع قاذفات القنابل البريطـــانية . وكان مظليّونا في الوقت نفسه ، يقومون بعدة غارات موفقـة ، فكان منهم ان دمروا ليلة ١٢ – ١٣ حزيران ١٢ طائرة جـاثمة في مطارات العدو بليبيـا ، وكان من النقيب « برجه » الذي ألقي على جزيرة كريت مع بضعة رجال ، ان أحرق قبل ان يُقبض عليه ، ٢١ قاذفة قنابل و ١٥ شاحنة ومستودعاً للبنزين فوق أرض قنديا .

غير ان الجيش الثامن تخلى تحت وطأة انخذال معنويّ مفـــاجيء ، عن برقة ، تاركاً وراءه عتاداً كبيراً . وكان الجنرال أوكنلك يأمل ان يحتفظ ، على الاقل ، بطبرق ذلك الموقع الذي أتقن تنظيمه وتموينه من البحر . ولكن حاميته البالـغ عددها ٣٣٠٠٠ رجل استسلمت في ٢٤ حزيران للألمان . ثم لم يتمكن البريطانيون من التمركز صوب العلمين إلا بعد عناء كبير . وكان ثمـة قطاع من الموقع عهد بالحفاظ عليه للجنرال كازو وفرقته الخفيفة الثانية التي وضعت بدورها اخيراً في الميـــدان . وكان في عـداد القوات الاحتياطية جحفل العقيد ريمي ، المصفّح الذي زوّد بالعتاد على عجل . كان الموقـف خطيراً ، إذ راح الشرق كله ، وقد اهتزّ قلقاً ، يترقب ان يدخل الألمان والطليان القاهرة والاسكندرية .

لم يكن انخذال حلفائنا ذاك سوى غيمة عابرة ، فسيأتي يوم يتغلبون فيه نهائياً ، بفضـل سيطرتهم على البحر ، ووصول إمدادات جديدة ، وتفوّق جوّي كبير ، وكفاءات الجنرال مونتغمري اخيراً . ثم إن رومل علّق ، من جهة اخرى ، زحفه الى الامام ، وقد استنفد او كاد ، ما لديه من مؤن . وكان مجموع الحوادث ، مع ذلك ، يُبرز للملأ اهمية عملنا . وهذا ما اعترف به اوكنلك اعترافاً نبيـلاً ، إذ أصدر في ١٢

حزيران بلاغاً رائعاً على شرف الفرقة الخفيفة الأولى صرّح فيه بما يلي : « ينبغي للأمم المتحدة ان تمتلىء بالاعجاب وعرفان الجميل تجـاه تلك القوات الفرنسية وجنرالها الهمام » .

واجتمع في لندن بعد ستة ايام ١٠٠٠٠ فرنسي بين مدنيين وعسكريين للاحتفال بالذكرى السنوية الثانية لنداء ١٨ حزيران . وكانت طوابق ألبرت هول الأربعة مكتظة بالحضور الى مدى ما تسمح به سلامة البناء . وكانت تمتد ، على الجدار ، وراء المنبر ، لافتة عـلم مثلث الالوان ، موشاة بصليب اللورين ، وقـد تجمّعت عندها الانظار . وتعالت في الفضاء ألحان النشيدين : « المرسلياز » و « المارش لورّين » ، وكانت أصداؤها ترن في كل القلوب . وأخذت مكاني ، وتحلّق حـولي أعضاء اللجنة الوطنية والمتطوعون الذين قـدموا مؤخراً من فرنسا ، فسمعت جميع الألسنة تصيح بالايمان الذي يعمر أفئدة هذه الجمهرة المتحمسة . غـير أني شعرت ذلك اليوم بالفرح يرفرف ، كما شعرت في الوقت نفسه بالأمل . وتكلمت . كان لزاماً عـلي ان اتكلم . العمل يضع الحماسات موضع التنفيذ . ولكن الكلام هو الذي يبعث الحماسات .

واستشهدت بكلمة قالها شانفور : « العقلاء داموا ، والمولعون عاشوا » . وأعدت ذكرى العامـين اللذين اجتازتهما فرنسا الحرة : « لقـد عشنا كثيراً ، ذلك لأننـا مولعون بالكرامة . ولكننا دمنا ايضاً . آه ! كم نحن عقلاء !.. » ان ما قلناه منذ اليوم الأول : « فرنسا لم تخرج من الحرب ، والسلطة التي قامت تعزيزاً للتخلي عن الواجب ، ليست سلطة شرعية ، وأحلافنا مستمرة ، وقد اثبتنا ذلك بأعمال هي معارك ... كان ينبغي لنا ، بالتأكيد ، ان نعتقد ان بريطانيا ستصمد جيداً ، وان روسيا واميركا ستزجان في الصراع ، وان الشعب الفرنسي لن يقبـل الهزيمة . أجـل ! لم نكن على خطأ ... » . ثم وجهت التحية الى

محاربينا في كل مكان من العالم وحركات مقاومتنا في فرنسا . وحييت الامبراطورية أيضاً ، الامبراطورية الأمينة قاعدة الانطلاق لإنهاض البلاد . والأكيد انه ينبغي ان يتحول بنيانها بعد الحرب . ولكن فرنسا مجمعة على النية في الاحتفاظ بوحدتها وكيانها . « حتى الشجاعة الأليمة التي انطلقت في الدفاع عن هذا الجزء او ذاك ، ضد فرنسا المحاربة وضد حلفائها ، من قِبَل قوات تضللها أكاذيب فيشي ، إنما هي دليل مغلوط ولكن لا يدحض على إرادة الفرنسيين هذه ... » . ولحظت ان فرنسا المحاربة تلبثق ، رغم كل شيء ، من الاوقيانوس . « إن العالم عاد فعرف فرنسا حين أطلّ في بير حكيم ، شعاع من مجدها المنبعث ، وأقبل يعانق جباه جنودها المدمّاة » .

وكان جواب الحضور عاصفة من الهتافات ، ثم النشيد الوطني ينشد بحرارة لا سبيل الى التعبير عنها . وقد سمعه ايضاً أولئك الذين يقيمون في ديارنا خلف الأبواب ، والمصاريع ، والستارات ، وكانوا يصيخون لأمواج الأثير وهي تنقله اليهم .

وران الصمت على الحضور ، وانتهى الاحتفال ، وعاد كل امرىء الى عمله . ها أنا وحيد حيال نفسي . وليس ثمة من موقف يتخذ في سبيل تلك الجابهة ، ولا من اوهام تدارى . ووضعت حساب الماضي ، فإذا هو ايجابي ، ولكنه أليم . لقد اصبحت فرنسا المحاربة ، بكل تأكيد ، صلدة متماسكة « رجلاً رجلاً ، وقطعة قطعة » . ولكن كم كان علينا ان نكابد من خسائر ، وأحزان ، وتمزّقات ، لندفع ثمن هذه النتيجة ! ونحن نقترب الآن من الطور الجديد بوسائل ذات قيمة : ٧٠٠٠٠ رجل تحت السلاح ، رؤساء من ذوي المزايا الرفيعة ، أقاليم تقوم بمجهود كبير ، ومقاومة داخلية تزداد يوماً بعد يوم ، وحكومة مطاعة ، وسلطة معروفة ان لم تكن معترفاً بها ، في العالم . وليس ثمة

أدنى شك في أن ما يلي من احـــداث يقيم قوى اخرى . بيد أني لا أضلّ عن العراقيل في الطريق : قوة العدو ، حذر الدول الحليفـــة ؛ عداء الرسميين وذوي الامتيازات من الفرنسيين ، دسائس البعض وجمود عدد كبير ، وخطر تخريب عـــام ، آخر الامر . وأنا ، أنا الرجل المسكين ! أيكون لديّ من البصيرة النافذة ، والحزم ، والبراعـــة ، لأسيطر حتى النهاية على المحَن ؟ واذا أنا وفقت الى قيادة شعب تجمّع في النهاية ، حتى تحقق له النصر ، فما يكون مستقبله من بعد ؟ وخلال ذلك ، كم هي الخرائب الـتي تضاف الى خرائبه ، والانقسامات الـــتي تضاف الى انقساماته ؟ وحين ينقضي الخطر ويمر ، وتنطفىء الأسرجة ، أي أمواج من الوحل تنهال على فرنسا ؟

هدنة تتوارى معها الشكوك شكوك ! ها إني ، وأنا حانٍ على الهوة التي تردّى فيها الوطن ، أحد أبنائه يناديه ، ويحمل له النور ، ويريه طريق الخلاص . وكثيرون هم الذين التحقوا بي ، وسيأتي آخرون . أنا متأكد من ذلك ! الآن أسمع فرنسا تجيبني ، إنها لتنهض من اعماق الهاوية ، وتزحف ، وتتسلق المنحدر . إيه ! أيتها الأم ، هـا نحن ، كما نحن ، في سبيل خدمتكِ

وثائق

الوثائق التي تلي، جزء من مجموعة البرقيات، والمذكرات، والتصريحات التي كتبتُها كرئيس لفرنسا الحرة، ورئيس اللجنـــة الوطنية الفرنسية (١٩٤٠ – ١٩٤٢) .

وكنت قد أودعتُ بنفسي، دارَ « المحفوظات الوطنيـــة » المجموعة الكاملة .



نداء إلى الفرنسيين

في ١٨ حزيران (يونيو) ١٩٤٠

الرؤساء الذين كانوا ، منـــذ سنواتٍ عديدة ، على رأس الجيوش الفرنسية ، شكلوا حكومة .

وهذه الحكومة اتصلت بالعدو ، وهي تزعم أن جيوشنا هزمت ، لوقف القتال .

صحيح أن قوة العدو الآلية في البر والجو أغرقتنا ، ولا تزال .
إنما هي دبابات الألمان ، وطائراتهم ، وسعة حيلتهم القتالية الـــتي تفوق اعدادهم بكثرة ساحقة ، التي جعلتنا نتراجع . ودبابات الألمـان هذه ، وطائراتهم ، وحِيَلهم القتالية هي التي فاجأت رؤساءنا وساقتهم إلى الانخذال الذي يقفون اليوم عنده .

ولكن هل قيلت الكلمة الأخيرة ؟ هل للأمل أن يتوارى ؟ والهزيمة ، أهي نهائية ؟ لا !

ثقوا بي ، بي أنا الذي أحدثكم حديث عارف بالسبب ، وأقول لكم إن شيئاً لم يضع على فرنسا ، فإن الوسائل نفسها التي غلبتنا يمكن أن تأتينا بيوم النصر .

ذلك بأن فرنسا ليست وحدها . ليست وحدها ! ليست وحدها ! إن لها وراءها امبراطورية رحبة ، وفي وسعها أن تتكتل مع الامبراطورية

البريطانية مالكة البحار ، وتستمرّ في الكفاح . وتستطيع أن تستخدم إلى غير حد ، كإنكلترا ، صناعة الولايات المتحدة الواسعة ، الضخمة .

وهذه الحرب لا تنحصر في أراضي بلادنا المفجوعة . هـذه الحرب لم تنحسم في معركة فرنسا . هذه الحرب عالمية ، فإن جميع الأخطاء ، والتخلفات ، والآلام لا تمنع أن يكون في العالم جميع الوسائل لسحق أعدائنا يوماً ما . وإذا كانت القوة الآلية قد أصعقتنا اليوم ، فإن في مستطاعنا أن نتغلب في المستقبل بقوة آلية أكبر . ومصير العالم هناك .

أنا ، الجنرال ديغول ، المقيم حالياً في لندن ، أدعو الضباط والجنود الفرنسيين الذين هم على أرض بريطانية أو يقدمون إليها بجميع أسلحتهم أو بدونها ، أدعو المهندسين والعمال الاختصاصيين في صناعات التسلح الذين هم على أرض بريطانية أو يقدمون إليها ، أن يتصلوا بي .

لا يجوز ، مهما جرى ، أن تنطفىء شعلة المقاومة الفرنسية وهي لن تنطفىء .

سأتكلم غداً ، كاليوم ، من إذاعة لندن .

برقية الى الجنرال نوغيس

القائد الأعلى للعمليات الحربية في أفريقيا الشمالية
في عاصمة الجزائر

لندن ، ١٩ حزيران (يونيو) ١٩٤٠

أنا في لندن على صلة شبه رسمية ومباشرة مع الحكومة البريطانية . أضع نفسي تحت تصرفكم ، إما للقتال بإمرتكم ، وإما للقيام بأية خطوة تبدو لكم مفيدة .

رسالة إلى الجنرال فيغان [1]

لندن في ٢٠ حزيران (يونيو) ١٩٤٠

سيدي الجنرال

تلقيت أمرك بالعودة إلى فرنسا . فأخذت أبحث في الحال عن وسيلة للعودة ، إذ ليس لديّ ، طبعاً ، أية عزيمة أخرى سوى الخدمة في القتال .

وإني لأفكر في أن أمثل بين يديك خلال أربع وعشرين ساعة ، إذا مضت هذه ، ولم يُوقّع الأمر بالاستسلام .

ولكني في حالة توقيعه ، سألتحق بكل مقاومة فرنسية تنتظم في أي مكان . وإن في لندن خاصة عناصر عسكرية – وسيأتي غيرها ، دون ريب – مصممة على القتال ، مهما حدث في الوطن الأم .

وأعتقد أنّ من واجبي ان أقول لكم بكل بساطة ، إنني أتمنى لفرنسا ولكم ، سيدي الجنرال أن تدركوا النكبة وتقدروا على التفلّت منها وتنتقلوا الى فرنسا ما وراء البحار ، وتتابعوا الحرب . فليس في الإمكان الآن عقد هدنة ضمن الشرف .

وأضيف ان علاقاتي الشخصية مع الحكومة البريطانية – ومع السيد تشرشل خاصة – يمكن أن تتيح لي ان اكون نافعاً لكم ، أو لأية شخصية فرنسية أخرى رفيعة الشأن تريد ان تقوم على رأس المقاومة الفرنسية المستمرة .

---

(١) نقل هذه الرسالة الجنرال ليلانغ الملحق العسكري في لندن الى الجنرال فيغان وأعيدت من فيشي الى الجنرال ديغول خلال أيلول ١٩٤٠ ، ومعها ورقة كتب عليها بالآلة الكاتبة هكذا : « اذا أراد الكولونيل المتقاعد ديغول ان يتصل بالجنرال فيغان ، عليه ان يتبع الطريق النظامي » .

وأرجو أن تتفضلوا سيدي الجنرال بقبول أخلص مشاعري من الاحترام والإخلاص .

برقية الى الجنرال نوغيس

القائد الأعلى للعمليات الحربية في أفريقيا الشمالية

لندن ، ٢٤ حزيران (يونيو) ١٩٤٠

نحيطكم علماً أنه يجري الآن تشكيل لجنة وطنية فرنسية لربط جميع عناصر المقاومة فيما بينها ومع الحلفاء . ونطلب إليكم شخصياً المشاركة في تشكيل هذه اللجنة . والجميع هنا يعتبرونكم الرئيس الأعلى للمقاومة الفرنسية . تفضلوا بقبول عبارات احترامنا ورجائنا .

عن اللجنة الوطنية الفرنسية التحضيرية

الجنرال ديغول

برقيـــة

- الى الجنرال ميتلهاوزر القائد الأعلى للعمليات في المتوسط الشرقي
- الى السيد غ . بيو مفوض فرنسا السامي في سوريا ولبنان
- الى الجنرال كاترو حاكم الهند الصينية العام

لندن ، ٢٤ حزيران ١٩٤٩

إننا معكم كلياً في إرادة متابعة الحرب .
وقد شكلنا لجنة وطنية فرنسية لربط عناصر المقاومة الفرنسية .
نطلب إليكم مشاركتنا شخصياً في تشكيل هذه اللجنة .
تقبلوا عبارة احترامنا ورجائنا .

عن اللجنة الوطنية الفرنسية

الجنرال ديغول

مذكرة الى السيدين تشرشل وهاليفاكس

لندن ، ٢٦ حزيران ١٩٤٠

١ – لن أنتظر تشكيل لجنة وطنية خالصة ، ولذا فاني الآن في صدد تشكيل لجنة فرنسية عاملة تهدف الى ما يلي :

أ) جمع عناصر المقاومة الفرنسية على الأرض البريطانية الموجودة فيها ، أو التي تقدم إليها .

ب) وضع أنفسنا تحت تصرف جميع المقاومات الفرنسية التي تظهر في الامبراطورية ، وعلى وجه الاحتلال ، في الوطن الأم ، لربطها فيما بينها ، ومع الحلفاء ، ومدها بالعتاد إلخ .

٢ – تستطيع اللجنة الفرنسية أن تنظم :

أ) قوة عسكرية فرنسية برية وجوية وبحرية ، مؤلفة من متطوعين ، صغيرة في الحال ، ولكن من المؤكد أنها تكبر مع الأيام . وستكون هذه القوة منفصلة عن العناصر العسكرية الفرنسية اللامتطوعة ، وتتجمع على نحو عاجل قرب لندن .

ب) عنصراً يكوّن منظمة للمصنوعات الحربية (مهندسين وعمالاً) . وتستطيع هذه المنظمة أن تشتغل في المصانع الانكليزية وفق شروط تحدّد فيما بعد .

جـ) منظمة دراسات وشراء عتاد حربي ، تستطيع أن تتعامل مباشرة مع دوائر التسلح الانكليزي والصناعة الأميركية .

د) منظمة نقل وتموين .

هـ) منظمة إعلام ودعاوة .

٣ – لا بد لي ، تحقيقاً لذلك من أن أنال موافقة الحكومة البريطانية على النقاط الآتية :

أ) يجب أن تكون جميع نشاطات الفرنسيين على الأرض البريطانية مركزة ، لا بين المنظمات الانكليزية مباشرة والأفراد العاملين في مختلف الحقول ، ولكن بوساطة اللجنة الفرنسية وموافقتها ، لا سيا حين يتعلق الأمر بإمداد المنظمات الانكليزية بخدمات عسكرية ، أو صناعية ، أو علمية ، أو اقتصادية .

ب) تفتح الحكومة البريطانية للجنة الفرنسية الاعتمادات الضرورية لنشاطها الخاص ، كما لتنظيم جميع المرتبات ، والأجور ، والنفقات للعسكريين والمدنيين الذين يلتحقون بها .

جـ) كل المسائل التي سوّيت حتى الآن مع السلطات البريطانية ، إما عن طريق البعثة العسكرية الفرنسية ، أو البعثات الدراسية أو بعثات التنسيق ، تركز من بعد مباشرة ، عن طريق اللجنة الفرنسية مع السلطات البريطانية .

د) تكون اللجنة الفرنسية على صلة مباشرة بجميع الادارات الوزارية البريطانية .

هـ) توضع هذه الترتيبات موضع التنفيذ ابتداء من ٢٨ حزيران ، وعلى الحكومة البريطانية أن تعلن موافقتها المبدئية ، في بيان تعممه على الجمهور .

٤ – تتلو البيان مفاوضات بين اللجنة والإدارات الوزارية البريطانية ، لعقد اتفاق واضح ودقيق ، تركز فيه التفاصيل .

برقيـــة

– الى الجنرال ميتلهاوزر القائد الاعلى لميدان العمليات في المتوسط الشرقي
– الى السيد ج . بيو مفوض فرنسا السامي في سوريا ولبنان
– الى السيد بيروتون المقيم العام في تونس

لندن ، ٢٧ حزيران ١٩٤٠

أقترح عليكم ان تشاركوا في مجلس الدفاع عن فرنسا مـا وراء البحار الذي يهدف الى تنظيم جميع عناصر المقاومة الفرنسية في الامبراطورية وانكلترا ، واحكام الروابط فيما بينها

وفي وسعي ان أرسل الى أراضيكم عتاداً أميركيا سبق ان شُحن وأصبح في طريقه الينا ، او اي عتاد آخر يمكن أن تطلبوه .

أمسى من واجبنا نحن ، وقد خسرت حكومة بوردو استقلالها ، ان ندافع عن شرف فرنسا والامبراطورية ، ونحمي كيانها .

اخلاصي الموقر

جواب للقائم بالاعمال في لندن

الذي وجه مذكرة للجنرال ديغول ، بالامر الصادر من حكومة بوردو
ان يسلم نفسه أسيراً في تولوز

لندن ، ٣٠ تموز ١٩٤٠

سيدي

أعيد اليكم طيه نص الوثيقة التي وجهتموهـا اليّ . واني لأكون ممتنـا لكم اذ تُعلمون أولئك الذين كلفوكم تحويلها اليّ ، ان تبليغهم لا قيمة له ابداً في نظري .

وتفضلوا ، يا سيدي ، بقبول مشاعري السامية .

كلمة القيت من مذياع لندن

٨ تموز ١٩٤٠

هناك حادثة فظة على نحو خاص ، جرت خلال الثالث من شهر تموز ، أثناء التصفية الموقتة للقوات الفرنسية ، تلك التصفية التي تلت الاستسلام . وأعني ، كما هو معروف ، قصف وهران المروع بالمدافع .

أريد ان اتكلم بوضوح ، من غير مواربة ، لأن من واجب الرجال الأبرار ، في مأساة يقود بها كل شعب مصير حياته ، ان يملكوا الجرأة على مواجهة الأمور ، ويقولوا الحقائق بصراحة .

سأقول اولاً ما يلي : ما من فرنسي عرف ان سفناً تابعة للأسطول الفرنسي أغرقت على أيدي حلفائنا ، الا وكان متألماً غاضباً . وهذا الغضب ، وذلك الألم ينبثقان من أعمق اعماقنا . وليس ثمة أدنى مبرر للتآلف معها والانصياع لها ، واني من جانبي لأعرب عنها ، على نحو سافر . وأتوجه للانكليز كذلك ، وأدعوهم ان يوفروا علينا وعلى أنفسهم كل تصوير لهذه المأساة البشعة ، على انها ظفر بحري مباشر ، فإن ذلك جائر ، وفي غير محله .

لقد كانت سفن وهران في الواقع ، عاجزة عن خوض معركة . وكانت في حالة رسوّ ، لا تملك معها أدنى طاقة على المناورة أو الانتشار ، وكان رؤساؤها ونوتيتها في أمرّ حالات الارهاق المعنوي منذ خمسة عشر يوماً . وقد تركوا للسفن الانكليزية الصلْيات الأولى . وهذه كما يعرف الجميع ، ذات أثر حاسم في البحر ، على مثل تلك المسافات . ولم يكن تدميرها نتيجة معركة مشرّفة . هذا هو ما يصرّح به جندي فرنسي للحلفاء الانكليز ، بصراحة توازي في وضوحها مقدار ما يشعر به تجاههم من تقدير ، في الناحية البحرية .

ثم أتوجه بخطابي الى الفرنسيين ، وأطلب اليهم أن ينظروا الى جوهر الأمور من الوجهة التي ينبغي لها وحدها أن يحسب لها الحساب النهائي ، أي من جهة النصر والخلاص . فإن الحكومة التي كانت في بوردو قبلت ، بناء على تعهد مشين ، أن تسلم سفننا الى العدو . وليس ثمة أدنى شك في أن العدو لا بد أن يستخدمها يوماً ما ، عن مبدأ أو ضرورة ، إما ضدّ انكلترا ، واما ضدّ امبراطوريتنا نفسها . وها أنا أقولها من غير إبهام ولا مداورة ، ان من الأفضل أن تدمّر .

واني لافضل أن أعرف أن الدارعة « دنكرك » ، دارعتنا الجميلة ، العزيزة القوية « دنكرك » ، أغرقت في مرسى الكبير ، على أن أراها يوماً ما ، وفوق ظهرها رجالٌ من الألمـــان ، وهي تقصف الموانىء الانكليزية أو عاصمة الجزائر ، أو الدار البيضاء ، أو دكار .

ان الحكومة الـتي كانت في بوردو تقـوم بدورها ، دور العبودية ، اذ تتسبب في هـــذا القصف بين الإخوة ، ثم تسعى في تحويل غضب الفرنسيين ضد حلفاء خانتهم .

والعدو أيضاً يقوم بدوره ، دور الفاتح اذ يستغل الحادث ليحرّض كلاً من الشعبين الانكليزي والفرنسي ، الواحد منهما ضد الآخر .

وإن جميع ذوي النظر الثاقب من رجال الشعبين يقومون بدورهم ، دور الوطنيين اذ يأخذون المأساة كما هي ، أي مفجعة وكريهة ، ولكنهم يمنعون في الوقت ذاته أن تكون نتيجتها الشقاق المعنويّ بين الانكليز والفرنسيين .

الانكليز الذين يحسنون التفكير لا يملكون أن يجهلوا أنّ أي انتصار لهم لا يمكن أن يكون ، اذا تحوّلت فرنسا بروحها عنهم الى العدو .

والفرنسيون الجديرون بهذه الصفة لا يملكون أن يتنكروا لهـــذه

الحقيقة ، وهي أن الهزيمة الانكليزية تطبعهم الى الأبد ، بطابع العبودية .

ومهما حدث ، حتى وإن هوى أحد الشعبين لفترة ما من الوقت ، تحت نير العدو المشترك فإن شعبينا ، شعبينا الكبيرين يظلان مشدوداً واحدهما الى الآخر ، فإما أن يرزحا كلاهما معاً ، أو أن يظفرا معا .

أما أولئك الفرنسيون الذين لا يزالون أحراراً في أن يعملوا بمقتضى الشرف ومصلحة فرنسا ، فإني أعلن باسمهم أنهم مضوا نهائياً في مـــا عزموا عليه ، ولن تثنيهم مشقة .

لقد عزموا نهائياً على المضيّ في القتال

برقيــــة

الى الجنرال ويفيل

القائد الاعلى في الشرق الاوسط

لندن ، ١٤ تموز ١٩٤٠

تلقيت برقيتكم المؤرخة في ١٢ تموز ، وأشكركم عليها مخلصاً . وأنا معكم على وفاق تام حول النقاط الآتية :

١) تجميع كل العناصر الفرنسية الموجودة بمنطقة عملكم ، في وحدات مركزة .

٢) تقوية الدفـــاع في إقليم جيبوتي تحت إمرة الجنرال ليجنتـّوم ، بتلك العناصر .

٣) الإفادة ، بصورة خاصة ، تحقيقاً لهذا الغرض ، من فوج قبرص الفرنسي الذي وضع نفسه تحت إمرتي . وقد أمرت ذلك الفوج ان يكون بقيادتكم في برقية وجهتها اليوم باسم حاكم قبرص .

واني لاكون لكم شاكراً اذ تنقلون الى الجنرال ليجنتيوم برقية أوجهها اليوم اليه باسمكم .

برقية

الى فليكس أيبويه

حاكم تشاد

لندن ، ١٦ تموز ١٩٤٠

أنا على علم بموقفكم الذي أؤيده أتمّ التأييد . الواجب يقضي ان نصمد في كل نقطة من أديم الامبراطورية ، في سبيل فرنسا ، وضد الالمان والطليان . أطلب اليكم إطلاعي على وضعكم ، كلما وجدتم ذلك مناسباً ، واني لمستعد لتقديم كل مؤازرة أستطيع تقديمها لكم . أطلب اليكم ان تظلوا على ارتباط بي .

مودتي القلبية .

تعليمات

وجهت الى مندوبي الجنرال ديغول في
المستعمرات الفرنسية بأفريقيا

لندن ، ٥ آب ١٩٤٠

١ – تتكون مهمة المفوضية من :

١ – تمثيل الجنرال ديغول في كل مفاوضة يمكن ان تجرى او يقبل بها ، في كل تصريح يمكن ان يُدلي به ، في كل مبادرة يمكن ان يتخذها ، بغية اجتذاب كل المستعمرات الفرنسية في أفريقيا او جزء منها ، غربية واستوائية ومعها الكاميرون ، للانضمام الى الجنرال ديغول لمنع تنفيذ الهُدنة ، ومتابعة الحرب ضد الألمان والطليان .

٢ – الاتصال على أكمل ما يمكن مع الشخصيات الفرنسية في هذه المستعمرات سواء كانت لهم مهمة رسمية أم لا .

٣ – تركيز الارتباط والمحافظة عليه مع السلطات البريطانية في غامبيا ، وسيراليون ، وشاطىء الذهب ، ونيجيريا ، ثم مع سائر السلطات الأجنبية المحتمل قيامها .

٤ – إطلاع الجنرال ديغول على الحالة العامة حيث وُجد له مندوبون ، من جميع النواحي في المستعمرات الفرنسية ، في أفريقيا الغربية والاستوائية ، وعلى أفضل إمكانات العمل في تلك المستعمرات .

٢ – كُلّف المقدم لوكلير ، تكليفاً خاصاً ، تمثيل الجنرال ديغول لدى الجنرال آمر القوات البريطانية في جنوب الاطلنطي ، ولدى الاميرال قائد القوات البحرية البريطانية في جنوب الاطلنطي ، لأداء هذه المهمة المشتركة .

وستكون إقامة المقدم لوكلير إذن ، على نحو رئيسي ، في أكرا . وسيشكل كل من السيد بليفن والنقيب بوالامبير الجانب « المتحرك » من المفوضية ، ويتنقلان في النقاط التي يجدانها أصلح من غيرها للقيام بالاتصالات التي يريان إجراءها .

٣ – تنقل المعلومات البرقية التي تزود بها المفوضية الجنرال ديغول ، عن طريق السلطات البريطانية .

تجري مخابرات الجنرال ديغول البرقية ، مبدئياً ، مع المفوضية ، عن طريق الحاكم البريطاني في شاطىء الذهب ، أو عن طريق الجنرال قائد القوات البريطانية جنوب الاطلنطي ، او عن طريقي هاتين السلطتين معاً .

رسالة الى السيد ونستون تشرشل

لندن ، ٧ آب ١٩٤٠

سيدي الوزير الأول

لقد تفضلتم بإرسال مذكرة إليّ تتعلق بتنظيم دائرة المتطوعين الفرنسيين واستخدامها وشروط عملها ، وهي التي يجري الآن تكوينها تحت قيادتي .

وبصفتي معترَفاً بي من حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة ، رئيساً لجميع الفرنسيين الأحرار أنى وجدوا ، ممن ينضمون إليّ للدفاع عن قضية الحلفاء ، جئت أحيطكم علماً أني أقبل هذه المذكرة . وستُعتبر اتفاقاً معقوداً بيننا حول تلك المسائل.

واني لسعيدٌ أن تكون الحكومة البريطانية قد تعهدت في هذه المناسبة ، بتأكيد عزمها أن تؤمّن إعادة كيان فرنسا واستقلالها وعظمتها ، حين تنتصر الجيوش الحليفة .

وأؤكد لكم من جانبي أن القوة الفرنسية الجاري تشكيلها إنما هي مخصّصة للمشاركة في العمليات ضدّ الأعداء المشتركين (ألمانيا ، إيطاليا ، أو أية دولة أجنبية أخرى معادية) ، بما في ذلك الدفاع عن الأراضي الفرنسية ، والأراضي الخاضعة للانتداب الفرنسي ، والأراضي البريطانية ومواصلاتها ، الخاضعة للانتداب البريطاني .

وتفضلو ، سيدي الوزير الأول ، بقبول تأكيدات اعتباري السامي .

تنويه بـ « تشاد » في وشاح الامبراطورية

٢٧ آب ١٩٤٠

ها أنا هذا اليوم ، الواقع في ٢٧ آب ١٩٤٠ ، وهو اليوم الستّون بعد

الثلاثماية من نشوب الحرب العالمية ، أنوّه بذكر إقليم تشاد في وشاح الامبراطورية للسبب الآتي بيانه :

« لقد أظهرت تشاد ، بحافز من رئيسها : الحاكم إيبويه ، بصفته حاكماً ، والعقيد مارشان ، بصفته قائداً عسكرياً للإقليم ، أنها تظل أرضاً للفرنسيين الشرفاء .

« وعلى الرغم من وضع عسكري واقتصادي خطير على نحو خاص ، فإن إقليم تشاد رفض أن يوقع استسلاماً مخزياً ، وقرر متابعة الحرب حتى النصر . وقد دل ، بعزيمته التي تثير الإعجاب ، على طريق الواجب ، وأعطى الاشارة بنهوض الامبراطورية الفرنسية بأكملها .

« الجنرال ديغول »

رسالة الى الجنرال كاترو

٢٩ آب ١٩٤٠

سيدي الجنرال

لن يتاح لكم ان تعرفوا بأي فرح تلقيت نبأ وصولكم القريب . هنالك الكثير مما ينبغي عمله لاخراج فرنسا من الهوة ، وإن رجلاً ورئيساً مثلكم ، يستطيع ان يقوم بمثل هذا الدور في إنهاضها ! وانكم لتعلمون أنني احمل لكم ، منذ زمن طويل ، تقديراً جد خاص ، ومودة صادقة واحتراماً كبيراً . وما كان من شأن الموقف الذي اتخذتموه في الهند الصينية الا ان يرسخني في هذه المشاعر . والآن ، علينا أن نبني .

وستكون على علم بما جرى هنا وفي غير اماكن على وجه السرعة . أما فيما يتعلق بي فانني ، وقد كنت في الحكومة خلال الايام الاخيرة من المعركة ، تمكنتُ من معرفة مدى البراعة العميقة في عمل العدو ، في

حاشية الحكام وذهنية هؤلاء الحكام أنفسهم . وما كان في استطاعتي ان أشك لحظة في ان سقوط صديقنا المشترك بول رينو ، وتوصّل المارشال العجوز المسكين الى السلطة ، انما كانا بمثابة الاستسلام . ورفضت ، من جهتي ، ان أذعن له ، فأتيت لندن لأنشىء فيها هناك ، فرنسة محاربة . واستطعت ، في استنفار للفرنسيين ، ان أكوّن بداية قوة عسكرية ، وبحرية ، وجوية ، وقواعد دوائر رسمية : شؤون خارجية ومستعمرات ، مالية ، إعلام ، إلخ ... وأجريت اتصالات متعددة بكثير من أرجاء العالم . هناك استعدادات كامنة قائمة في فرنسا والامبراطورية . وقد انضمّت إلينا جزر هيبريد الجديدة ، وتشاد ، والكاميرون ، وشاطىء العاج الاعلى . وسأكون ، حين تتلقى هذه الرسالة ، في طريقي إلى دكار مع قوات ، وسفن ، وطائرات ، و .. تأييد الانكليز .

واذا نجح هذا المشروع ، فان مسألة أفريقيا الشمالية الكبرى ستنطرح في الحال ، وستنطرح ملحة بمقدار ما هو الخطر الألماني ، والإيطالي ، والاسباني ، في نظري ، دائم . ولا يبدو لي أن في استطاعة الرجال الذين يشغلون بها الوظائف والذين جعلهم إذعانهم للهدنة غير أكفاء ، أن يكونوا بعد ، بحال ، « رجال حرب » . وأنا إنما أصوّب كلامي هذا ، وأنا أقوله لك ، على الجنرال نوغيس ، الذي ما فتىء منذ أول يوم ، يعدّد مراوغاته الكئيبة ليحتفظ بمنصبه . وفي اللحظة التي نستطيع بها أن نضم إلينا أفريقيا الشمالية ضماً كاملاً ، لا بد لنا من « شخصية ذي مكانة » يتولى أمرها . وهذه الشخصية ، إنما هي أنت يا سيدي الجنرال ، إذا تفضلت بقبول ذلك .

وإنك لتعلم أن الحكومة البريطانية قبلت مسبقاً ، بعد أن اعترفت بي كـ « رئيس » للفرنسيين الأحرار ، أن أعالج جميع المسائل المتعلقة

بالدفاع عن امبراطوريتنا وحياتها الاقتصادية ، مع « مجلس دفاع عن فرنسا ما وراء البحار » في حالة تشكيل هـذا المجلس . وتلك هي ، في الواقع ، نيتي . واني لأطلب اليك ، سيدي الجنرال ، أن ترضى بمنصب « أفريقيا الشمالية » في هـذا المجلس . وبانتظار تأسيس هـذا المجلس ، ستكون معنا موفور المكانة ، لإعداد عملك . ولربما يغدو في إمكانك ، منذ اللحظة التي تسمح بها الظروف ، أي منذ نحط أقدامنا في المغرب أو الجزائر ، وفي الوقت الذي تجده صالحاً ، ان تذهب الى هناك وتمارس ادارة مجموعة أفريقيا وقيادتها : المغرب ، والجزائر ،وتونس .

الأميرال موزيليه ، وأنطوان (الذي اتخذ اسم فونتين) وقد كلفته أن يمارس بالوكالة في غيابي ، الوظائف الآتية ، على التوالي : قيـادة القوات العسكرية والبحرية والجوية في انكلترا ، وإدارة المصالح المدنية ، سيخبرانك عما نحن عليه الآن من ناحية قواتنا ودوائر الخدمات لدينا . وثمة قضية مهمة نحن الآن في صدد معالجتها ألا وهي تسليح عـدد من سفننا الحربية .

وستكوّن رأياً لك عن الأميرال موزيليه ، فقد كان موضع انتقاد ، وله عيوب ، ولكن له ايضاً مزايا . وهو في قرارة حقيقته رجل مقدام . وكنت أفضل طبعـاً أن يقدم إلينا دارلان بأسطوله ، ولكن دارلان لم يقدم ...

أما من الناحية العامة ، فان لديّ ثقة تامة باحراز النصر النهائي . ولقد أدرك الانكليز بعمق هذا الأمر لحسن حظهم وحظنا معـاً ، والسيد تشرشل هو « رجل الحرب » كيانيـاً . واللعبة تدور بين هتلر وبينه .

وفيما أنا انتظر شرف مقابلتك ، أرجوك سيدي الجنرال ، ان تتقبل أخلص عواطفي وأوفى احترامي .

رسالة [1] الى السيد بواسّون

الحاكم العام لافريقيا الغربية الفرنسية

في البحر ، امام دكار
١٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٠

سيدي الحاكم العام

ان لكم ، في حركة النهوض الفرنسية الواسعة التي تشمل أمبراطوريتنا ، دوراً عظيماً لتقوموا به . لقد دقت ساعتكم .

أطلب اليكم ان تلتحقوا بي لمتابعة الحرب ، بُغية تحرير الوطن .

واني الآن على مقربة منكم مع قوة عسكرية مهمة ، بحرية وجوية . هذه القوة قدمت الى دكار لتقوية الحامية ، ووضع الموقع في مأمن من كل سطوة يمكن ان يسطوها العدو ، وتموين المستعمرة ...

واني لأحسب ان أنزل تلك القوة وهذه المؤن بين لحظة وأخرى ، ولا أستطيع تصور قيام معارضة . واذا صح المستحيل وحدثت مقاومة ما ، فاني على ثقة أنكم ستتصرفون على نحو تتداركون به الاحداث الأليمة .

وستكون هذه الاحداث اكثر ايلاماً ، من جهة أخرى ، اذا هي أفضت الى تدخل القوات الحليفة التي تواكبني ، ومهمتها ان تمنع بجميع الوسائل ، تعرض قاعدة دكار للسقوط في أيدي العدو .

واني لأنتظر جوابكم بثقة يا سيدي الحاكم العام ، وأرجو ان تتقبلوا أسمى عواطفي .

---

(١) لم يكن في الامكان تسليم هذه الرسالة لصاحبها عن طريق المفاوضين ، والسبب معروف .

برقية الى السيد ونستون تشرشل

في لندن

فريتاون ، ٢١ ايلول ١٩٤٠

يجب ان أحتج لديكم على أسلوب الحكومة البريطانية في تصرفها بإرسال الجنرال كاترو الى مصر ، قبل ان تنال موافقتي مسبقاً ، فأنا اعتبر هذه الطريقة في العمل تتنافى والتعهدات المعقودة بيني وبين الحكومة البريطانية ، وهي تعهدات أتقيد بها كل التقيد ، وأنوي أن استمر في التقيد بها .

وقد نشأ من جهة اخرى ، عنصر خلاف . ذلك بأن الجنرال كاترو بكل تأكيد ، هو ، الشخصية ذو الكفاءة العليا لتمثيل فرنسا الحرة في الشرق ، وما كنت لأتردد في ان اطلب اليه الذهاب الى هناك ، لو انني كنت على علم ، في الوقت المناسب ، بما يجري في سوريا . ولكن ، على الرغم من اني وصلت الى هنا في ١٦ أيلول ، ولا أزال ، منذ ذلك الحين ، تمكنت من تلقي أنبائكم ومقترحاتكم ، ولم أتلق شيئاً يخص هذا الموضوع ، ووجدت نفسي اليوم بشأنه ، امام أمر واقع .

ليس للجنرال كاترو ان يقوم بعمل على اراضي المشرق الخاضعة لانتداب فرنسي ، الا بصفته ممثلاً للفرنسيين الاحرار. الذين أرئسهم ، وقد اعترفتم انتم بذلك . ولا يمكنه ان يعمل في المشرق الا بأمر مهمة صادر مني اليه . واذا كان الموقف على غير ما أبسط ، فسأكون مضطراً الى شجب كل عمل يمكن ان يشرع فيه . واني لأصر على ان أطلع في أقصر مهلة ، على الترتيبات التي تعتمد الحكومة البريطانية اتخاذها نتيجة لهذه الملاحظات .

وانه لمن المصلحة الحيوية ان تساعد الحكومة البريطانية على تجميع الجهود ، وتتحاشى ، عكس ما تفعل ، ان تعين على تشتتها ، من أجل نهوض فرنسا رويداً رويداً ، بأعباء هذه الحرب الى جانب حلفائها .

برقية الى الجنرال كاترو

في القاهرة

في البحر ، ٢٢ ايلول ١٩٤٠

أوافق على سفركم الى المشرق ، حيث يمكنكم ان تبذلوا عوناً كبيراً لإنجاح مهامّنـــا هناك . وقد اضطررت الى الاحتجـاج لدى الحكومة البريطانية على اسلوب تصرفها في هذا الشأن . ولكن ردة فعلي هـذه لا تتعلق بكم شخصياً . فان لي بكم ، فعلاً ، ثقة توازي ما أكنّه لكم من ودّ واحترام . وانتم ، من جهة أخرى ، أكفـأ من يمكن لتولي أمورنا في الشرق .

برقية الى السيد و . تشرشل

وقد أطلع الجنرال ديغول على المفاوضات التي أجريت
في مدريد بين سفير فيشي وسفير انكلترا

لاغوس ، ٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٠

١ – لقد سجّل الجنرال ديغول باهتمام كبير ، أن حكومة فيشي واجهت لأول مرة ، في اتصال رسمي ، مثل هذه الظروف التي كان بوسع فرنسا الرسمية ، أن تستأنف بها الحرب إلى جانب بريطانيا العظمى .

٢ – وبناء على الأمر الواقع والسياسة التي اتّبعتها حكومة فيشي ، فان مثل هذه الخطوة تعتبر علامة اضطراب سياسي يقارب اليأس أكثر مما هو إقرار صريحٌ بخطأ وطني ودولي لا حد له .

٣ - ومن الضروري ، كيف دار الأمر ، أن نبرز النقطة الآتية :

حتى وان انتقلت حكومة فيشي يوماً ما ، كلياً أو جزئياً إلى أفريقيا الشمالية وأعلنت أنها تريد استئناف القتال ، فانها لا تملك من السلطة والفعالية ما يكفي لإدارة الحرب ، اذ لم يبق لها من النفوذ بعد أن أذعنت اذعاناً تاماً لشريعة العدو وجعلت الامبراطورية عزلاء ، ما يلزم لقيادة أولئك الذين تدعوهم لحمل السلاح ، واجتذابهم .

٤ - وأية كانت التسويات التي يمكن أن تضطر الحكومة البريطانية الى القبول بها مع حكومة فيشي فيما يخص العلاقات الاقتصادية بين فرنسا غير المحتلة والامبراطورية الفرنسية ، فلا يجوز أن تجرّ هذه التسويات الى مدّ ، وان موقتاً على الأقل ، في نفوذ فيشي على المستعمرات ، هذا النفوذ السائر الآن في طريق التصفية . ويبدو من الأفضل الاقتراح على فيشي القيام بتموين مباشر عن طريق أعمال الاسعاف التي تمارسها مؤسسات الولايات المتحدة ، لقاء إشراف تُركز قواعده . وفي هذه الحالة ، يصبح من المفيد ، سيراً مع اقتراح سابق للجنرال ديغول ، أن تُعرّف ترتيبات التموين على انها اتخذت استجابة لطلب الجنرال ديغول .

٥ - ينوه الجنرال ديغول بارتياح أن الحكومة البريطانية بينت لحكومة فيشي :

أ) عزمها في الاستمرار على تأييد حركة الجنرال ديغول في المستعمرات التي انضوت الى سلطته ، او التي ستنضوي إليها .

ب) نيتها الرسمية في المساهمة باعادة استقلال فرنسا وعظمتها بعد الحرب ، ولا سيما إعادة المستعمرات .

جواب لمفتش المستعمرات العام ، كازو

مدير المالية في الهند الصينية
الذي ابرق الى الجنرال ديغول ، حول الموقف
في الهند الصينية ، ومشاعر السكان

دوالا ، ٨ تشرين الاول ١٩٤٠

١ - أشكركم على عواطف الولاء التي أعربت عنها رسائلكم اليّ ، لا سيما في الفقرتين ١ و ٣ . وإننا لندرك جيداً الصعوبات التي تلاقونها ، ومن المستحيل على القوات الفرنسية الحرة ، ان تقدم لكم الآن عوناً فعالاً . وبانتظار اقتدارها على ذلك يوماً ما ، فإننا على ثقة انكم ستتصرفون دوماً على افضل نحو لمصلحة فرنسا في الشرق الأقصى ، وأنكم ستتعاونون معنا ، ناشطين ، حين تدق ساعة النصر . ولا ريب انكم ستطلعوننا ، منذ الآن ، على احتياجاتكم الأكثر إلحاحاً لنلبيها ساعة تصبح ظروف العمل مؤاتية . ومهما حدث ، فإنه يسعدنا ان نتلقى منكم أنباء قيمة ، ولنا بكم ملء الثقة للمحافظة على روح المقاومة لدى اصدقائنا ، وتنميتها .

٢ - لقد أطلعني الجنرال كاترو الذي انضم اليّ ، على الموقف كما كان خلال الأسابيع الأخيرة التي تلت الهدنة . واني لأوجه إليك التعبير عن ثقتي الودية .

بيان أطلق من برازافيل

٢٧ تشرين الاول ١٩٤٠

إن فرنسا تجتاز أرهب أزمة في تاريخها ، فان حدودها ، وأمبراطوريتها ، واستقلالها ، وحتى روحها مهددة بالدمار .

وقد أسلمها للذعر لا مبرر له ، حكامٌ تولوا الأمور ، جمعتهم المآرب ،

وقبلوا شريعة العدو وخضعوا لها . ومع ذلك ، فإن هناك أدلة لا تحصى على ان الشعب والامبراطورية يرفضان العبودية الشنعاء . هناك ملايين من الفرنسيين أو من رعايا الفرنسيين قرروا متابعة الحرب حتى التحرر ، وملايين وملايين آخرون لم يحركوا ساكناً في انتظار رؤساء أكفاء جديرين بهذا الاسم .

والواقع ، لم يبق ثمة من حكومة فرنسية خالصة . الواقع ان السلطة المقيمة في فيشي التي تزعم انها تحمل هذه الصفة ، غير دستورية ، وهي خاضعة للغزاة . ولا تستطيع هذه الهيئة في حالها من العبودية ، كما هي في الحقيقة ، إلا ان تكون أداة يستخدمها اعداء فرنسا ضد شرف البلاد ومصلحتها . لا بد اذن من سلطة جديدة تأخذ على عاتقها إدارة الجهد الفرنسي في الحرب . الاحداث تفرض عليّ هذا الواجب المقدس . ولن أخل به .

سأمارس سلطاتي باسم فرنسا لأدافع عنها ، لا لشيء آخر ، واتعهد على رؤوس الاشهاد ان أقدم الحساب عن اعمالي لممثلي الشعب الفرنسي ، ساعة يصبح في امكانه ان يعين ممثلين له بحرية .

واني أدعو الى الحرب ، أي الى القتال او التضحية ، جميع الرجال وجميع النساء في الاراضي الفرنسية التي انضمت اليّ . والمراد ان ندافع عن التراث الوطني ضد العدو او ضد مساعديه ، بالاتحاد الوثيق مع حلفائنا الذين يعلنون عن ارادتهم بإرجاع استقلال فرنسا وعظمتها ، وان نهاجم العدو في كل مكان يتاح لنا ان نهاجمه ، وان نجعل جميع مواردنا من عسكرية ، واقتصادية ، واخلاقية ، تعمل وتنتج ، وان نحافظ على النظام العام ، وان نجعل العدالة تسود .

سنؤدّي هذه المهمة الجلّى في سبيل فرنسا ، ونحن واعون من اننا نخدمها احسن خدمة ، وواثقون من النصر .

أمر رقم ١

يقضي بانشاء مجلس دفاع الامبراطورية

باسم الشعب والامبراطورية الفرنسيين

نحن الجنرال ديغول ، رئيس الفرنسيين الاحرار ، نأمر :

المادة الأولى : تمارس السلطات العامة في جميع أجزاء الامبراطورية المتحررة من ربقة العدو على قاعدة من التشريع الفرنسي السابق ليوم ٢٣ حزيران (يونيو) ١٩٤٠ حسب الشروط الآتية ، ما دام في غير الامكان تشكيل حكومة فرنسية وتمثيل للشعب الفرنسي ، نظاميين ومستقلّين عن العدو :

المادة الثانية : أنشيء مجلس دفاع عن الامبراطورية مهمته المحافظة على الولاء لفرنسا ، والحرص على الضمان الخارجي والامن الداخلي ، وادارة النشاط الاقتصادي ، ودعم التماسك المعنوي بين شعوب أراضي الامبراطورية .

هذا المجلس يمارس القيادة العامة للحرب ابتغاء تحرير الوطن ، في جميع الشؤون ، ويبحث مع الدول الأجنبية المسائل المتعلقة بالدفاع عن الممتلكات الفرنسية والمصالح الفرنسية .

المادة الثالثة : يتخذ القرارات رئيسُ الفرنسيين الأحرار ، بعد مشورة مجلس الدفاع ، اذ اقتضى الامر .

صدر في برازافيل

٢٧ تشرين الاول ١٩٤٠

ش . ديغول

برقية الى العقيد لوكلير

في دوالا

برازافيل ، ٣١ تشرين الأول ١٩٤٠

إن قراري ، في الحـــالة الراهنة ، أن أخلص ، قبل كل شيء ، من

قضية لامبارينيه ..

إذا سوّيت قضية لامبارينيه على نحو مؤات ، فأنا مستعدّ لمواجهة القيام بعملية جوّية وبحرية ، وبرية ضد ليبرفيل ، دون أن يتدخل البريطانيون مباشرة ، إلا اذا أنجدتها فيشي .

ونتيجة لذلك ، أفوّضك بإعداد هذه العملية التي أعتمد ان أضع تحت تصرفك في سبيلها جميع الطائرات والسفن التي يمكن الحصول عليها ، كما أضع جميع الوسائل البرية التي عيّنت من قبل .

برقية الى الرئيس متاكساس

وزير اليونان الأول

برازافيل ، ٢ تشرين الثاني ١٩٤٠

أوجّه الى دولتكم ، كما للحكومة والشعب اليونانيين ، مشاعر إعجابنا وإيماننا ، باسم جميع الفرنسيين سواء من الذين يتابعون الحرب ، أو من أولئك الذين أخضعهم العدو موقتاً للعبودية .

إن الهلّينيين إذ ينهضون لانقاذ استقلالهم مرة أخرى ، يقدمون من جديد مثلاً للعالم جديراً بتقاليدهم الغابرة .

إننا سنغلب أعداءنا المشتركين ، ونحن يد واحدة ، مع حلفائنا .

برقية الى الجنرال كاترو

في القاهرة

برازافيل ، ٦ تشرين الثاني ١٩٤٠

تلقيت برقيتكم المؤرخة في ٣ تشرين الثاني . وإنها لمناسبة لي أكرر بها أنني موافق على خطتك وعملك في جميع النقـــاط ، فإذا توالت الأحداث متدافعة وجرّت البريطانيين والاتراك لاحتلال سوريا ، يصبح

من الجوهري بكل معنى الكلمة ، وللمصلحة الوطنية العليا ، أن تشترك مفرزة من القوات الفرنسية الحرة في العملية ، حتى وإن غدت هذه المفرزة ، رمزية بنحو خاص . وفي هذه الحالة ، ستجدون أكيداً من الضروري أن تشاركوا شخصياً في العملية بغية أن يكون ثمة اسم فرنسيّ عسكري كبير ، أسهم في تلك القضية . وهذا في رأيي ، كما هو في رأيكم ، من الأهمية بمكان . ولن يفوتكم من جهة أخرى ، وأنتم أدرى من غيركم ، أن دخول الأتراك سوريا يضع المستقبل في خطر جسيم . ومن الأفضل بكثير ، أن لا يقوم بالعملية ، إذا أمكن ، سوى البريطانيين والفرنسيين الأحرار .

برقية الى العقيد باران
في لامبارينيه

برازافيل ٠ ٦ تشرين الثاني ١٩٤٠

أعانقك وأهنيك ، أيها العقيد باران ، حاكم الغابون . وتهانيّ إلى جميع الذين هم تحت إمرتك ، وإلى المقدم ديو ، خاصة . قل لقواتك إنهم أحسنوا الخدمة . لقد حاربوا من أجل فرنسا وانتصروا في ستدارا ، وميتزيك ، وندجول ، ولامبارينيه . يجب الآن إكمال الظفر .

برقية الى العقيد لوكلير
في ليبرفيل

برازافيل ١٠ تشرين الثاني ١٩٤٠

أهنيك أيها العقيد لوكلير ، وأهني القوات التي تأتمر بك على الظفر الرائع الذي حققته بتحرير ليبرفيل .

وإني لأدعو بور - جنتي ، عن طريق الراديو ، أن توفد ممثلين عنها

فوراً الى الرتل الفرنسي الحر الذي ينحدر إليها من الأوغويه . وأرجوك أن تجعل الطائرات تحلق فوق بور – جنتي وتعلن ، في نشرات تلقيها على الأهلين ، استسلام الجنرال تانو في ليبرفيل ، وتطلب إليهم الطاعة ، كما أرجوك أن ترسل قوة بحرية تكون على صلة لاسلكية بي .

أمر بانشاء وسام التحرير

باسم الشعب والامبراطورية الفرنسيين

نحن الجنرال ديغول ، رئيس الفرنسيين الأحرار

بنـــاء على أمرنا رقم ١ الصادر في ٢٧ تشرين الأول ١٩٤٠ الذي ينظم السلطات العامة طيلة الحرب ، والذي أنشىء بموجبه مجلس دفـاع الامبراطورية .

وبنـــاء على أمرنا رقم ٥ الصادر في ١٢ تشرين الثاني ١٩٤٠ الذي حدّد الشروط التي تتخذ بموجبها قرارات رئيس الفرنسيين الاحرار .

نأمر :

المادة الأولى : أنشىء وسام يُدعى « وسام التحرير » يحمل أصحابه لقب « رفاق التحرير » .

وضع هذا الوسام لمكافأة الاشخاص أو المجموعات العسكرية او المدنية التي تتميز في عمليات تحرير فرنسا وامبراطوريتها .

صدر في برازافيل

١٦ تشرين الثاني ١٩٤٠

ش . ديغول

برقية الى الجنرال دي لارمينا

المفوض السامي في برازافيل

لندن ، ١١ كانون الاول ١٩٤٠

إن نفوذ حركتنا المتزايد في فرنسا نفسها ، كتزايد الضرورات العامة

الحربية ، يفرضان علينا أن نوسع عملنا الحربي ضد العدو ، الى أقصى حد ممكن وفي أقصر مهلة .

لقد قررت أن يتسع نطاق مجهودنا اتساعاً ملحوظاً في الشرق الاوسط ، بأن أرسل اليه ، فوراً :

اللفيف الاجنبي ،
مفرزة من الرماة البحريين ،
فوجاً سنغالياً ،
سرية دبابات ،
مفرزة مدفعية من عيار ٧٥ ،
مفرزة إذاعة ،
سرية نقل ،
عناصر مصالح الجيش ،

وستوضع جميع هذه العناصر تحت إمرة العقيد ماغران ـ فيرنيريه .

وان مختلف المفاوضات التي أجريتها حول هذا الشأن ، مع الحكومة البريطانية ، فيما يتعلق بنقل القوات والعتاد ، قد أفضت الى اتفاق . الا أنني أرجوك ، منذ الآن ، ان تتخذ جميع الترتيبات لتكون هذه العناصر جميعها بلا استثناء مستعدة للإبحار خلال مدة أقصاها عشرون يوماً ابتداء من هذا اليوم .

برقية الى الجنرال كاترو

في القاهرة

لندن ، ١٨ كانون الأول ١٩٤٠

ينبغي ان يتجه الآن مجهودنا الاكبر من الناحية العسكرية في الشرق الاوسط ، ضد الطليان .

ان لواءنا الشرقي الاول الذي يشتمل على فيلق ذي ست سرايا ،

ومفرزة من الرماة البحريين ، وفوج سنغاليين ذي ست سرايا ، وسرية دبابات هوتشكيس طراز ١٩٣٩ ، ومفرزة مدفعية عيار ٧٥ ، ومفرزة إرسال لاسلكي ، وعناصر مصالح عسكرية أبرزها ناقلة جرحى ، وجميعها تحت إمرة ماغران - فيرنيريه المدعو مونكلار - ؛ هذا اللواء سيتحرك نحو الشرق الاوسط ، وسيكون انطلاقه خلال هذا الشهر نفسه ، والقسم الاكبر منه ، عن طريق البحر ، وفيلق السنغاليين الآتي من تشاد ، يسير براً نحو الخرطوم . وسيعمل هذا اللواء ، كما تعلم ، في السودان ، بناء على اتفاق سابق مع الجنرال ويفيل .

ثم إن سوتو ينظّم الآن ، من جهة أخرى ، فيلقاً للباسفيك مختلطاً من الأوروبيين والسكان الأصليين . وأخص مصر بهذا الفيلق ، كما طلبت . وثمة حالياً فوج من ٧٠٠ رجل على أهبة في نوميا ، وأنا أقوم هنا بترتيبات نقله في وقت جد قريب .

وأنا الآن ماض أيضاً في جمع كل ما بقي من أسلحة فرنسية في إنكلترا ، على أن أرسلها إليك باستمرار . وأحسب أنه سيكون في مستطاعي أن أمدك بما يلزم لتسليح فيلق الباسيفيك تسليحاً وافياً ، وكذلك الأمر مع فوج مصر الثاني أيضاً الذي شرعت في تكوينه . وسأرسل إليك في الوقت نفسه مع الأسلحة والذخائر ، ضباطاً لتتميم الملاك . واني لأرغب شديد الرغبة اخيراً ، في ان يستعيد طيارونا في الشرق الاوسط ، طباعهم الفرنسية ، حتى وان كان عليهم ان يخدموا ، خلال هذه الفترة ، في الاسراب الانكليزية .

ومن المفهوم ان جميع هذه العناصر توضع تحت إمرتك في الحاضر والمستقبل ، أيان وُجدت او يمكن أن توجد في اي مكان من الشرق الاوسط ، واستخدامها انما يتم ترتيبه بينك وبين الجنرال ويفيل ، هذا اذا لم يتقرر في لندن بيني وبين الحكومة البريطانية .

رسالة إلى أعضاء مجلس دفاع الامبراطورية

لندن ، ١٨ كانون الثاني ١٩٤١

إني لأحسب أنكم مطلعون على الموقف الذي اتخذته في كلماتي الأخيرة المذاعة بالراديو والخطاب الذي ألقيته بحضور الكاردينال هنسلي عن موقف فرنسا الحرة تجاه الحلفاء وحكومة فيشي . وأتمنى أن أعرف رأيكم في مواجهة الاحتمالات الثلاثة الآتية :

١) هل تقدّرون أن من واجبنا ، فيما يتعلّق بنا ، أن ننفي كل نوع من الصلات بفيشي ، في الحالة الراهنة ، أي ما دامت فيشي راضية بالعيش في ظل نظام الهدنة والتعاون ، وإن طفيفاً ، مع العدو ؟

٢) إذا وقفت فيشي على قبول نظام الهدنة والتعاون وقررت الانتقال إلى خارج سلطة العدو ، لا لتستأنف الحرب ، ولكن للتقيد بالحياد ، هل تقدّرون أنه يجب علينا في هذه الحال ، أن نستمر في عدم الاعتراف بسلطتها ، لقاء إقامة بعض العلاقات معها في مواجهة المستقبل ؟

٣) وعلى افتراض أن حكومة فيشي قررت الانتقال إلى أفريقيا الشمالية ، واستأنفت القتال ، فما هي الشروط التي ينبغي لنا أن نضعها للالتحاق بها ، إن في الحقل الخارجي ، وإن في الحقل الداخلي ؟

مذكرة سلمت للحكومة البريطانية حول الموقف في الهند الصينية

٢٠ كانون الثاني ١٩٤١

١) على مجلس الدفاع عن الامبراطورية الفرنسية أن يبيّن ، إزاء غزو الهند الصينية الفرنسية من قبل قوات اليابان وتايلند ، المسلّحة ، أنه لا يملك حالياً الوسائل المادية اللازمة ، ليأخذ على عاتقه الدفاع من

الخارج ، عن الهند الصينية . ولكن هـذا الوضع يمكن ان يتغير في المستقبل . وكيفما كانت الحال ، فإن مجلس الدفاع عن الامبراطورية الفرنسية يعتبر ان من شأنه أن يُعليَ حقوق فرنسا في كل مكان تكون به مهدّدة .

٢) إن إطلاق حركة داخل الهند الصينية ، رامية الى إحلال سلطات تعيّنها فيشي محل السلطات التي عينها مجلس الدفاع عن الامبراطورية الفرنسية يوشك ان يؤدّي ، من جانب اليابان ، الى توسع فوري في الغزو ، وهو توسع لا تبدو معه الهند الصينية ، في هذه الفترة ، قابلة لمقاومته بقواتها الخاصة . وبالتالي ، فإن مجلس الدفاع عن الامبراطورية الفرنسية ، لا ينوي إطلاق مثل هذه المقاومة ، وقد أخذ علماً بأن سلطات فيشي في الهند الصينية تبدو أنها وعدت بأن لا تقوم بأي عمل من شأنه أن يعكر الأمن في الأراضي الفرنسية ، في الباسفيك ؛ ثم إن تلك السلطات المزعومة لا تملك ، من جهة أخرى ، كما يظهر ، امكانية القيام بأي عمل ، حتى وإن أرادت ذلك .

٣) ونحن نعتبر ، عدا هـذه المسألة المنوطة بالظروف ، أن حقوق فرنسا في الشرق الأقصى تظل ، على كل حال ، متضامنة وحقوق دول أخرى . وإن توسّع اليابان وتايلند في الهند الصينية خاصة – ولا سيما إذا استمر هذا التوسع ، كما يفترض ، أو هو سائر في طريق الاستمرار – لا يمكن إلا أن تكون له بعض الاصداء على وضع الامبراطورية البريطانية ، والولايات المتحدة ، وهولندا ، في ذلك الطرف النائي من آسيا .

٤) وإذا كانت أية محاولة وساطة تقوم بها إحدى هذه الدول بمفردها ، تتعرّض لخطر الإخفاق ، إمّا بسبب السلطات الحالية في الهند الصينية ، وإما بفعل اليابان وتايلند . فـإن لوساطةٍ جماعيةٍ تقوم

بها الدول الثلاث ، وترمي على الأقل ، إلى وقف المعارك ، فرص نجاح ، لا ريب في ذلك . فإن وضع اليابانيين العسكريّ ، ولا سيّما في كوانغ – مي ، واتساع مواصلاتهم مع الهند الصينية ، أمران يبدو من شأنها أن يحدّا من متطلّبات اليابان ، وبانعكاس الأثر ، من متطلبات تايلند ، تجاه مثل هذه الوساطة الجماعية المقترحة ، إذا تحققت في هذه البرهة من الزمن . وعلى العكس ، فإن كل تخوّر في قدرة الهند الصينية على المقاومة ، يدفع اليابان وتايلند على التشدّد والتصلب .

٥) وعلى كل حال ، وما دامت السلطات الحالية في الهند الصينية ، تظهر نيتها بمعارضة اعتداءات اليابان وتايلند في حدود ما تستطيع ، فإن مجلس الدفاع عن الامبراطورية الفرنسية لا يبدي اي اعتراض على تقديم بعض التسهيلات لتلك السلطة من اجل مساعدتها على حفظ النظام في البلاد ، والدفاع عن حقوق فرنسا . ويندرج تحت ذلك أيضاً استئناف بعض العلاقات الاقتصادية مع الدول الحليفة ، بنسبة ما يندرج المستوى الذي تُرْفَعُ له الهند الصينية في مدّها بالأسلحة وتقويتها .

وإن نقل طائرات من طراز « بيارْن » إلى الهند الصينية ، من هذه الوجهة ، يمكن إن يكون في رأينا مقبولاً ، وان بدا أنه يشتمل على كثير من الصعوبات العملية . ولكن قبوله مشروط ، مع ذلك ، بتعهد تقدمه سلطات الهند الصينية ، أن لا تستخدم تلك الطائرات ضد القوات الفرنسيّة ، ولا ضدّ الحلفاء .

برقية إلى هنري سوتو

حاكم كاليدونيا الجديدة ، في نوميا

لندن ٢٨ كانون الثاني ١٩٤١

١) من الضروري نظراً للحالة العامة ولا سيا من جهة اليابان ، أن تؤمّن الدفاع وتكمله ، عن كاليدونيا الجديدة وتاهيتي .

٢) وبالتالي ، فإن جميع القوات الموجودة حاليـاً في كاليدونيا الجديدة وتاهيتي وجميع تلك التي تجندونها ، يجب أن تخصّص ، حتى إشعار آخر مني ، للدفـاع عن كاليدونيا الجديدة وتاهيتي ، باستثناء ثلاثماية رجل من كاليدونيا الجديدة ومفرزة ٣٠٠ آخرين من تاهيتي ينبغي أن يبحروا الى الشرق الأوسط حين يصبحون على استعداد للقتال ، أي بعد أن تتمّ قيادتهم ، وملاكاتهم ، وتسليحهم ، وتجهيزهم ، وتعليمهم .

٣) ونظراً الى أن إعداد متطوّعي كاليدونيـا الجديدة ونقلهم الى الشرق الأوسط ، يجريان بمؤازرة حكومة أوستراليا ، ونظرا أيضاً الى أن الدفاع المحتمل عن كاليدونيا الجديدة ، يمكن ان يحظى بتأييد حكومة أوستراليـا ، فقد طلبت الى هذه الحكومة أن توفد إليكم ضبـاط ارتباط ، لترتيب كل مـا يتعلق بمسألة المؤازرة العملية التي تقوم بها تلك الحكومة .

برقية الى الجنرال كاترو

في القاهرة

لندن ، ٣٠ كانون الثاني ١٩٤١

تلقيت برقيتكم المتعلقة بالاتصالات مع الجنرال فيغان .

إن معلوماتكم تكمّل الدلالات المتلقاة من مصادر أخرى وتؤيّدهـا من جديد . ومن الواضح أن فيغان يرى الوضع العامّ الآن غير ما كان يراه في حزيران (يونيو) . ومن الثابت كذلك ان حاشيته تدفعه على السير في الطريق الصالح . ومن المعروف أخيراً ، أن الخصومة الشخصية اللدود بين دارلان وفيغان تعين على جنوح فيغان الى جـانب الصلاح . ومع ذلك ، فأنا لا أميل ، وان كنت أعترف بالفائدة التي تقدمها بداية التطور هذه لدى فيغان ، الى إيـلائه في الوقت الراهن ، كثيراً من الأهمية للأسباب الآتية :

١) إنّ موقف فيغـان غير وطيد . ولا يمكن أن يعتبر رجـــلا حازماً ، ولا سيا في هذه الأيام ، وإن كان يقيم في أفريقيـا بأمر من المارشال بيتان ، ويتصرف على وفاق معه . ويزداد موقفه ترجرجاً ، كما تعلم ، بمقدار ما ينطوي بيتان تجاهه ، في قرارته ، على قلة ود ، وبمقدار ما خسر فيغـان نفسه كثيراً من هيبته في فرنسا وفي صفوف الجيش . وإنه ليكفي قليلٌ من الضغط الجادّ يمارسه الألمان على فيشي ، ليُستدعى فيغان أو يُرغم على الهرب .

٢) فيغان في الرابعة والسبعين من سنيّه . وما سبق له قط أن كان ذا ولع بالمجازفة . وانه ليشعر ، مُضافاً الى ذلك ، ان مقامه هوى ، فلن يعود ليصبح رجل الحرب ، بعد أن كان رجل الهدنة .

٣) وحتى عندما يريد فيغان أن يستأنف الحرب في أفريقيا الشمالية ، لا يملك أن يستأنفها دون دارلان . وذلـك لأن هذا ، هو الذي يقبض على الموانيء من الدار البيضاء ، الى وهران ، الى دكار ، واليهـا تأتي الاسلحة والمؤن من أميركا وانكلترا . وحقيقة الحال ، أنّ دارلان لا يريد الحرب ، فهو يحسب أن يحل يومـاً ما ، محل بيتان ، وهذا مـا لا يستطيعه دون تأييد الألمان . ويجب ان نضيف أنّ سلطة فيغان في أفريقيا نظرية اكثر مما هي واقعية ، فالمغرب لنوغيس الذي لا يطيق فيغان . والجزائر لأبريال *Abrial* ، وتونس لاستيفا *Esteva* ، وهذان كلاهمـــا يواليان دارلان . وأفريقيا الغربية لبواسّون ، وهو سيد دكار .

وأنوّه بشبه الوعـد الذي أعطاه فيغان أن لا يهاجمنـــا في أفريقيا الاستوائية . فأنا اعتقد من جهة اخرى ، انه لو اراد ذلـك لما اتبعه احد من القوات ، او اتبعته قلّة جـدّ ضئيلة منها . وعلى الرغم من انّ خطتنا ، ان تبذل الجهد حالياً ضد الطليان فأنا لا ارضى بحال ، ان أعطي وعداً بأن لا اعمل شيئاً لضم اراض اخرى تابعة لفيشي . ينبغي

لنا ان لا نرضى ابداً ان نوضع على قدم المساواة مع الذين لا يحاربون من اجل فرنسا . ان لنا حقوقاً وواجبات ، وسنعمل دوماً ما يبدو لنا ضرورياً ، دون تقيد بشيء سوى ما تفرضه علينا وسائلنا .

وختاماً ، اوافق على ان تتابعوا الاتصالات مع الجنرال فيغان ، فهي مما يحتمل ان تفيد في جميع الافتراضات . ومن المفهوم طبعاً ان هذه الاتصالات ينبغي ان تجري بصفة شخصية ولا تلزم مجلسنا للدفاع ، ولا تلزمني ، وان كنت احرص على ان اظل على اطلاع مستمر بما يدور ، كما سبق وفعلت عيناً وتماماً .

برقية الى الجنرال كاترو

المفوض العام في القاهرة

لندن ، ١٣ شباط ١٩٤١

لقد حان الوقت لأبيّن لكم بالدقة ، نيّاتي فيما يتعلّق بالعمل العسكري الذي ينبغي لنا أن نقوم به في الحبشة خلال الحقبة القادمة . بالارتباط مع حلفائنا البريطانيين .

كان أن قررت ، كما تعلم ، بالاتفاق مع الحكومة البريطانية والأركان العامة البريطانية ، أن من الأفضل أن يجري ذلك العمل انطلاقاً من أرض الصومال الفرنسي . وهذه الخطة تقتضي بالطبع أن نستولي أولاً على جيبوتي عن طريق عملية أولية ، ندعوها عملية « ماري » ، فيما اذا كان ذلك ممكنا من غير معركة ضد الحامية الراهنة في مستعمرتنا .

وعملية « ماري » نفسها لا يمكن القيام بها ولا يجوز ان تنفذ الا بعد وصول الفرقة الأجنبية ، وهي على اهبة للعمل – والتي اوشكت ان تبلغ بور سودان – ؛ وهذه الفرقة وحدها لا تكفي ، وانما يرافقها ايضاً رماة بحريون ، وفوج سنغالي ، وسرية دبابات ومدفعية ، وهذه

لن تبلغ بور سودان إلا في منتصف شهر نيسان (أبريل) بسبب من تأخر في وسائل النقل .

إذا كانت المعلومات المتوفرة عن جيبوتي والوضع العسكري العام ، تسمح إذن بالاستنتاج أن عملية « ماري » ممكنة بلا معركة بين فرنسيين ، يجب أجراء تلك العملية ، والقوات الفرنسية أشترك بعد ذاك في الهجوم الحليف ، منطلقة من أرض فرنسية .

وإن الجنرال ليجنتيوم مؤهل على نحو خاص للقيام بالاتصالات الأولية مع مرؤوسيه القدامى في جيبوتي والتقاط المعلومات . وهو مؤهل كذلك لقيادة عملياتنا في الحبشة ، ولهذا ، وكلت اليه قيادة جميع القوات التي أرسلها ، انطلاقاً من أفريقيا الاستوائية إلى ذلك الميدان ، وتلك التي نستطيع استردادها للعمل معنا في جيبوتي نفسها . وأضيف أن الجنرال ليجنتيوم كان حريصاً كل الحرص على ألا يبقي الأمور في جيبوتي على ما كانت عليه ساعة غادرها . وإني لأوافق على قراره ، وأمنحه فرصة العمل .

ولكن سواء نفذت عملية « ماري » أخيراً أم لم تنفذ ، علينا أن نشارك بدون ابطاء ، وبجميع وسائلنا في العمليات التي تشرع بها في أريتريا حلفاؤنا واشترك بها جنودنا الصباحيون .

وستخوضها قواتنا تحت إمرة الجنرال ليجنتيوم . وقد طلبت الى الجنرال ويفيل ان تحارب جميعها في ميدان واحد ، ولدي ما يجعلني أحسب أن الجنرال ويفيل موافق .

وكما سبق وأشرت إليك من قبل ، سيكون الجنرال ليجنتيوم ، بطبيعة الحال ، تحت إمرة الجنرال ويفيل في العمليات العسكرية ، وهم تحت سلطتك في سائر الشؤون الأخرى . وإني لمقتنع أن شخصيتك الرفيعة ، لا بد أن تحسن استخلاص أفضل ما يمكن من جهود

قواتنا الباسلة ، في خدمة فرنسا ، بوصفك مفوضاً سامياً لفرنسا الحرة ، ومندوبيّ العامّ .

برقية الى الجنرال دي لارمينا

المفوض السامي في برازافيل

لندن ، ١٧ شباط ١٩٤١

إن تقدّم البريطانيين نحو طرابلس الغرب يحملنا على التنبؤ بانهيار كل مقاومة إيطالية في ليبيا . ومن الممكن إذن أن تسنح لنا الفرصة للتركز في فزّان ، وننتقل انطلاقاً منها إلى « غات » وحتى « غدامس » .

واني لأطلب اليك بالتالي ، أن تُعِدّ سريعاً الوسائل الضرورية لهذه العملية . ان فتح فزان وواحات ليبيا الغربية واحتلالها بقوات فرنسية يرتدي من جميع النواحي أهمية لا تخفى عليك .

واني لأرجوك من جهة ثانية أن تعلمني متى يصبح في وسع فوج أرشامبو وفوج الكاميرون ، أن يتحرّكا نحو الشرق الأوسط .

وأؤكد لك إرسال ٨٠ مرشح ضابط عما قريب الى أفريقيا الاستوائية ، تمّ تدريبهم هنا منذ سبعة أشهر وثمانين رقيباً . وكلّهم من ذوي الكفاءات الممتازة .

بلاغ من الجنرال ديغول
ومجلس دفاع الامبراطورية

لندن ٢٢ شباط ١٩٤١

١) لا يمكن أن تبرر نكبة فرنسا الموقتة ، بحال من الأحوال ، أدنى مساس من قِبَل الدول الأجنبية إنْ بكيان أراضي الامبراطورية ، وإن بحقوق فرنسا في أي نقطة من أديم العالم .

٢) كل تخلٍّ ترضى به حكومة فيشي او ممثلوها يعتبر لغواً ، ولا

يُلزم في شيء مجلس دفاع الامبراطورية الفرنسية .

٣) ينطبق هـــذا التصريح وهذا القرار على حـــالة الهند الصينية الخاصة .

ومجلس دفاع الامبراطورية الفرنسية لا ينكر بحال ، فائدة الاتفاقات التي توجد الانسجام بين مصالح الهنـد الصينية الفرنسية ومصالح الدول الأجنبية ، ولكن فرنسا الحرة لا تعترف أن الامتيـازات التي انتزعت والمساس الذي نيل عن طريق القوة او التهديد ، بحدود أراضي الهنـد الصينية ووضعها السياسي كما كان قبل ٢٣ حزيران ، وهو تاريخ تطبيق « الهُدن » — لا تعترف أن ذلك كله مبرّر قانونياً ، او أنه نهائي .

ومجلس دفاع الامبراطورية الفرنسية يصرح انه يوافق مسبقاً ، على موقف الهند الصينية بمقدار ما تقاوم مثل هذه الاعتداءات .

رسالة الى الجنرال فيغان

في الجزائر

لندن ، ٢٤ شباط ١٩٤١

سيدي الجنرال ،

إننا لم نكن على وفاق . وكلنا في نكبة فرنسا ، علينا ان ننطلق من النقطة التي انتهت اليها الأمور .

لم يعد بعدُ مجال لشك في المنعطف الذي يسير به التعاون مع الألمان ، ولا في الذين يزعمون القيام به . وواقع الحال ، ان انتصار هتلر يعني نهاية الاستقلال . ولا تزال امامك بضعة ايام ، وانت في وسعك ان تقوم بدور وطني كبير . فاذا تقضّت ، تضيّع اللبن في الصيف .

اقترح عليك ان توحدنا . ولنصرّح معاً اننا نتابـــع الحرب لتحرير الوطن ، ولنستنفر الامبراطورية لذلك ! وانك لتعرف عواطف الجيش

والاهالي . وانك لتعلم ان تفاهمنا بثير لدى الفرنسيين جميعهم حماسة ظافرة ويؤدّي الى مؤازرة لنا فورية من قبَلِ الحلفاء .

إذا كان جوابك : « نعم » ، فإني أؤكد لك احتراماتي .

مذكرة لمجلس دفاع الامبراطورية

لندن ، ٣ آذار ١٩٤١

يتمنّى الجنرال ديغول أن يعرف رأي أعضاء مجلس الدفاع حول الموقف الذي ينبغي لفرنسا الحرة أن تتخذه في حالة اضطرار انكلترا وتركيا إلى احتلال الاراضي الواقعة تحت الانتداب الفرنسيّ في المشرق، أو جزء منهـــا بالقوة ، بغية تأمين مواصلاتها واستمرارها في عملياتها ضدّ المانيا .

هل يجب علينا ، في هذه الحالة ، نشر احتجاجٍ يدين هذا العمل ؟

أم يجب علينا أن نترك الأمر يجري في مجراه ، مقتصرين على التحفظ خطيّاً ، للاحتفاظ بحقوق فرنسا في تلك الأراضي .

ألا يجب علينـــا في الأرجح ، أن نشارك باسم فرنسا في عمل يستجيب ، فيا يتعلق بنا ، لهدفٍ ثلاثي .

أولاً : إعادة الأوضاع الضرورية لاستئناف القتـــال ضدّ الاعداء المشتركين ، في جزءٍ من الامبراطورية الفرنسية .

ثانياً : حفظ حقوقنا بحضورنا .

ثالثاً : عون حلفائنا .

رسالة الى المقدم لوزيه
في طنجة

لندن ، ٦ آذار ١٩٤١

صديقي العزيز ،

إن قضية أفريقيا الشمالية تحتاج على وجـه السرعة ، إلى إعداد على

مستوى رفيع ، واسع .

ثمة شرط جوهري ، هو تشكيل مسبق للجان سرية ، ولكن جدية ، قادرة على أن تتولى السلطة محلياً ، داخل البلاد ، باسم فرنسا الحرة فور الشروع بالعمل من الخارج .

يلوح لي أنه لا بد لنا من لجنة مغربية ، ولجنة تونسية ، ولجنة جزائرية ولجان محلّية مرتبطة بتلك اللجان . ويجب تشكيلها بأقل عدد من الأشخاص ، فالحماسة في بذل النشاط ، أكبر قيمة من الوضع الراهن .

هل في وسعي أن أعتمد عليك لتسيير هذا الأمر ، وإقامة روابط بيننا وبين اللجان ؟

برقية الى هنري سوتو

حاكم كاليدونيا الجديدة في نوميا

لندن ، ٧ آذار ١٩٤١

قابلت اليوم وزير أوستراليا الأول الذي ناقشت معه النقاط الآتية :

أولاً – تجنيد متطوّعين . وسيبذل الوزير الأول جهده في تأمين نقلهم الى بور سودان حيث يجدون أسلحتهم ويلتحقون بالقوات الفرنسية.

ثانياً – الوزير الأول موافق على البدء بمحادثات سرية عسكرية حول الدفاع عن المستعمرات . وهو موافق ، ما دمت مكلفاً بشؤون مصالحنا جميعها في الباسيفيك ، على أن تستخدم الإدارة الأوسترالية لمناقشة المسائل التي تهمّ زيلندا الجديدة ، بحيث لا يكون لديك سوى طريق واحدة للمخابرات .

ثالثاً – الوزير الأول يدرك الأهمية السياسية لتجنب كل ما من شأنه أن يبعث الشعور بسيطرة بريطانية أو أوسترالية على مستعمرات

الباسيفيك الفرنسية .

لقد كنت متأثراً بروح الودّ التي أعرب عنها السيد منزيس تجاه فرنسا الحرة والمصالح الفرنسية ، اذ قال لي : إن كاليدونيا الجديدة وجزر الهيبريد تستطيع أن تعتمد على المساندة الاقتصادية الحالية من كل قيد ، التي تمدّها بها أوستراليا .

برقية الى الجنرال دي لارمينا
المفوض السامي في برازافيل

١٠ آذار ١٩٤١

أنا لا أناقش انتماء كوفرا في المستقبل ولمن تكون ، ولكن من غير المناسب أن نأخذ من الآن تعهدات في شأن كوفرا بينما نحن نجهل مثلاً الموقف البريطاني إذا كان لنا أن نطرح مسألة فزان يوماً ما . فإن اتفاقات من هذا النوع انما هي شؤون عامّة يجب الرجوع إليّ في موضوعها .

برقية الى مفوضية فرنسا الحرة
في لندن

الخرطوم ، ١٦ نيسان ١٩٤١

أرسل اليكم وأنا أغادر مصر والسودان الى برازافيل خلاصة الملاحظات التي قمت بها والتدابير التي اتخذتها .

لقد قمنا بقتال في أريتريا مع الفرقة الأجنبيّة ، وفوجين سنغاليين وسرية مشاة من البحرية وكوكبة من الصباحيين . هذه القوات باستثناء الصباحيين الذين كانوا يعملون على حدة ، كانت دوماً في الجانب الايسر من الجهاز الحليف على محور كبكب ، كيرين ، مصوّع . وقد أحسنت القتال اذا أسرت ٤٥٠ في كبكب ، و ٩٠٠ في كيرين ، و ٧٠٠ في

مصوّع وعدة آلاف في المدينة . خسائرنا طفيفة وما كانت ، منذ البداية ، لتتجاوز المائة والخمسين وكثير منهم جرحى . ولم تسنح فرصة القتال للأفواج ديلانج ، وبوتيون ، ورو ، وللرماة البحريين والدبابات ، والمدفعية التي كانت في الطريق أو في البحر .

وفرقة ليجنليوم التي تشكلت بتاريخ ١٥ نيسان ستتجمع جنوب القاهرة .

وأسطول فيلات الجوي الصغير المجهز بقنابل بلنهايمز قام بعدة غارات قصف واستطلاع أثناء معارك كيرن ومصوع ، وجوار غوندار ، وقاتل قتالاً موفقاً .

أما في مصر حيث يسير الوضع ، كما أرى ، نحو الاستقرار لأمد غير طويل ، فإن فوج مشاة البحرية سلك سلوكاً هو الجودة والكمال ، وهو الآن في طريقه ال الالتحاق بالفرقة .

وقاتل طيارونا المطاردون على طائرات هاريكين ، خلال الأيام الأخيرة ، في برقة وأحرزوا نجاحات كبيرة ، وقد أطلعتكم على الترتيبات التي أجريتها بالاتفاق مع مارشال الجو لونغمور لتنظيم الطيران الفرنسي في الشرق . ومن المهم الآن ان تظهر سفننا الحربية في المتوسط .

لقد كانت المساهمة العسكرية الفرنسية بمجموعها ، بجيدة وذات قيمة .

والحماسة التي أظهرها معظم الفرنسيين تجاه حركتنا في اجتماعاتنا بالقاهرة ، والإسكندرية ، والاسماعيلية ، كانت رائعة . وجميع الصحف التي تصدر بالفرنسية كانت معنا ووكالة الإعلام الفرنسية تقوم بعمل جيد . إلا أن مذياعي القاهرة والقدس كانا يضيقان بالأوضاع السياسية المحلية . ولكن مذياع « المشرق – فرنسا الحرة » ممتاز ، يستمع الناس اليه في كل مكان ، وإن كانت بيروت تشوّش عليه . وثمة بعض الفرنسيين يحيون بنأى وكأنهم خجلون ، واعتزالهم يعود لأسباب مادّية . ومعظم المؤسسات

الفرنسية مما يلتحق بنا ، اذا كان في استطاعتنا أن نقدم لها الإعانات المالية التي تتلقاها من فيشي ، وهي زهاء ١٠٠٠٠٠ ليرة استرلينية في السنة .

ويؤلف الأسطول الفرنسيّ في الإسكندرية الذي ينفق عليه بسعة ، ويظهر بمظهر حسن ، من جهة أخرى ، عصبةً على حدة ، ولكن من غير حوادث .

أعتقد ، من وجهة نظر عامة ، أن الأشهر القادمة ستكون قاسية بالنسبة للحلفاء ، في البلقان ، في مصر ، وفي آسيا الصغرى ، دفعة واحدة . ويزمع هجوم الاعداء ، أن ينتشر على جانبي المتوسط بالارتباط مع التمرد العربي . لا يجوز أن نتردد عن رؤية الأشياء وجهاً لوجه . واقدر ان النهوض سيحدث في ايلول .

اما فيما يختص بفيشي ، فإني اقدر ان الإشكال الوطني والدولي سائر في طريقه الى نهايته ، وان الألمان سيلقون القناع بسبب من انتصاراتهم ، وان فيشي ستنتقل الى التعاون المكشوف وتخسر ، في الوقت نفسه ، ما بقي لها من الرأى العام الوطني . والحملات التي تشنها الاذاعة علينا ، علامات تشير الى ذلك . يجب اذن ان نرفع صوتنا أعلى فأعلى وأثبت فأثبت مما كان عليه قط من قبل ، لأن من المؤكد اننا نحن الملاذ الوحيد للاستقلال الفرنسي .

أنا ذاهب الى برازافيل التي ستكون مركزي لبضعة أسابيع .

لنسر باستقامة ووفاق تام .

رسالة الى الجنرال كاترو

مفوض فرنسا الحرة السامي للشرق

برازافيل ، ٢٥ نيسان ١٩٤١.

لي الشرف ان أوجه اليكم طياً ، خطة العملية المحتملة في سوريا.

وانه لمن اختصاصكم ان تحصلوا على موافقة السلطات البريطانية صاحبة العلاقة ، على هذه الخطة، بقدار ما تتضمن مؤازرتهم .

وانني على اتم الاستعداد ، طبعاً ، لتمحيص كل تعديل ترونه مفيداً وتقترحونه علي إما من جانبكم . واما من جانب حلفائنا . ومع ذلك ، فإن الإعداد اذ يقتضي مُدداً طويلة ، واذ يمكن ان تسنح الفرصة خلال امد قصير ، ارجوكم ان تلحّوا على سلطات الشرق البريطانية ان ترسل جوابها عن مبدأ العملية في اقرب وقت ، حين تصلكم الوسائل الضرورية ، بأقصى سرعة ، اذا هي كانت موافقة .

(يلي تفصيل العملية المتوقعة)

برقية الى مفوضية فرنسا الحرة
في لندن

برازافيل ، ١٢ أيار ١٩٤١

قررتُ ، بسبب من السياسة السلبية المتبعة تجاهنا من البريطانيين في موضوع سوريا وجيبوتي ، ان يغادر الجنرال كاترو القاهرة ما دام حضور مفوض سام فيها ، لا يجد الآن له مبرراً .

عينتُ بانوفسكي ممثلاً سياسياً في الشرق والجنرال ليجنتيوم قائداً أعلى للقوات . ويظل تولسان رئيساً لأركان الجو العامة في الشرق . تفضلوا بإعلام الحكومة البريطانية بذلك .

وقد أشعرت الجنرال كاترو مباشرة ، وسيغادر القاهرة عندما يتمكن ويقدم لمقابلتي في برازافيل حيث نقرر منصبه الجديد .

استدعيت البارحة القنصل البريطاني العام وأطلعته على بعض الاعتبارات العامة في موضوع السياسة البريطانية الجديدة تجاهنا والأخطار التي تنطوي عليها فيما يتعلق بالحالة المعنوية في فرنسا وبالتالي ، بتعاون فيشي مع الألمان ، فكلما ازداد إهمال انكلترا لنا ، ازدادت برودة

الرأيَ العام الفرنسي تجاهنا ، وازداد تعاون فيشي . وقد أرسل « بار » برقية الى حكومته على أثر هذه الحادثة . اطلعوا الفورين أوفيس على ما ورد فيها .

برقية الى مفوضية فرنسا الحرة
في لندن

برازافيل ، ١٦ أيار ١٩٤١

أجّلت استدعاء الجنرال كاترو ، للتغير المرضي الذي طرأ على موقف حلفائنا الانكليز فيما يتعلق بسوريا وجيبوتي . سأذهب قريباً إلى القاهرة .

برقية الى رنيه بليفن
في لندن

برازافيل ، ١٩ أيار ١٩٤١

نظراً للموقف الذي يكاد يكون عدائياً ، والذي اتخذته الولايات المتحدة ، وللتعاون الذي يبدو أظهر فأظهر من قبل فيشي تجاه المانيا ، وللظروف الاقتصادية الخاصة أخيراً التي تمر بهـا مستعمراتنا الحرة في أفريقيا وأوقيانيا ، فإن الوقت حان لتنظيم علاقاتنا مع أميركا . وإني لأعتمد على إيلائك شخصياً أداء هذه المهمة .

إنها تقتضيك أن تسافر في أقرب وقت ، وتقيم في الولايات المتحدة مدى ما يلزمك من أسابيع لتركـيز قضيتنا ، أي أداء النقـاط الجوهرية الآتية :

١ ـ وضع قاعدة لإعادة علاقاتنا الدائمة والمباشرة مع نظارة الخارجية . وسيقوم بتأمين هذه العلاقات من بعد ، ممثل سياسيّ يتمتع بميزة الممثل السياسي لفرنسا الحرة .

٢ ـ تنظيم العلاقات الاقتصادية والمالية لأفريقيـا الفرنسية الحرة وأوقيانيا الفرنسية ، مع أميركا .

٣ – تنظيم المشتريات المباشرة ، إذا أمكن ، من عتاد الحرب أو المفيدة للحرب وفق النظام الذي يتّبعه البلجيك .

٤ – إنشاء لجاننا أو إعادة إنشائها .

٥ – تركيز إعلامنا ودعايتنا في الولايات المتحدة .

٦ – تنظيم التضامن بين الإرادات الطيبة الخاصّة في أميركا .

وإني لأرجوك أن تعدّ منذ الآن ، هذه المهمة التي ينبغي أن تظلّ بالطبع مكتومة في منطلقها ، ولا سيّما تجاه البريطانيين ، ولكنها مع ذلك تامة ومحكمة .

برقية الى مفوضية فرنسا الحرة

في لندن

القاهرة ، ٣١ أيار ١٩٤١

لقد اصبحت ساعة العمل قريبة في سوريا ، بعد كثير من التأخر والتردد اللذين لم يكونا من صنعنا . أعتمد أن أظلّ في القاهرة حتى ذلك الوقت . ثم اتوجه ، على الأثر ، إلى سوريا لمدة قصيرة إذا سارت الأمور سيراً مرضيا . وإذا ساء سيرها ، فسأعود الى برازافيل ، وربما إلى لندن .

سيكون وضعنا السياسيّ في سوريا كما يلي : سنعلن الاستقلال . ولكننا لن نصرح بيسر وبساطة أن الانتداب ألغي ، فذلك سيكون أولاً مثقلاً من وجهة النظر القانونية ، ومن وجهة نظر أولئك الذين لا يتخلـّون عن عصبة الأمم ، جميعهم . ثم لا بد من فترة انتقال يجري أثناءها نقل السلطات . وسوريا تقع أخيراً في منطقة قتال ، ومن المستحيل قلب طبيعة السلطة فيها ، والمعركة في أوجها . سنقول إننا جئنا لنضع حداً لنظام الانتداب وحسب ، ولعقد معاهدة تضمن الاستقلال والسيادة .

وسيكون وضعنا العسكري كما يلي : سنقوم بإصلاح القوات البرية والبحرية والجوية الفرنسية ، والسورية ، واللبنانية في المشرق ، وسأضع هذه القوات تحت إمرة القيادة البريطانية العليا ، لأداء خدمتهم في بر الشرق الأوسط ، وبحره وجوه .

برقية الى هنري سوتو
حاكم كاليدونيا الجديدة

القاهرة ، ٢ حزيران ١٩٤١

أوافق على مشروع الاتفاق العسكري بين الحكومة الاوسترالية وبيننا المتعلّق بكاليدونيا الجديدة ، حسب الشروط الآتية ، وذلك أن يكون استخدام الطائرات والجوماءات الأوسترالية التي تتخذ قواعدها في كاليدونيا الجديدة ، تحت تصرف القائد الفرنسيّ الأعلى ، ما دام القصد هو الدفاع عن الجزيرة . وعلينا أن نحدّد عدد الضباط والموظفين الأوستراليين الآخرين في دوائر الارتباط ، فليس لهؤلاء أن يتدخلوا بشيء أبداً ، في تنظيم قواتنا ، ولا في استخدام قواتنا ، ولا في توزيع السلاح على قواتنا . يجب أن يكونوا ملحقين مباشرة بالقائد الفرنسي الأعلى ، ما عدا مرؤوسيه مباشرة . وبالمعاملة بالمثل ، يجب أن يكون لنا ضابط ارتباط في أوستراليا .

وعلى الحاكم سوتو أن يعقد الاتفاق ، لا باسم كاليدونيا الجديدة ولكن باسم الجنرال ديغول ومجلس الدفاع عن الامبراطورية الفرنسية .

برقية الى رنيه بليفن
في لندن

القاهرة ، ٣ حزيران ١٩٤١

أطلب إليكم ، في محادثاتكم المقبلة مع السلطات الأميركية ، أن تقدّموا مقترحات ألخصها لكم فيما يلي ، ولكم أن تضعوا التفاصيل .

إذا اضطرت الولايات المتحدة ، آخر الأمر ، الى اللجوء للسلاح ، فستكون قضية انتشار قواتها بطبيعة الحال ، جوهرية . ومفهوم القوة ، قبل كل شيء ، إنما هي القوة الجوية في الحرب الحديثة . إنها قضية قواعد ومواصلات .

وأرض بريطانيا العظمى بهذا الاعتبار ، غير مؤاتية إلا قليلاً بسبب من ضيقها ، والأخطار التي تتهدد مواصلاتها مع أميركا . وأفريقيا على العكس ، مهيأة بحكم قربها لأن تكون قاعدة أساسية لعمل تدريجي تقوم به الولايات المتحدة في اتجاه المراكز الحيوية العدوّة في أوروبا . ولكن إنشاء مثل هذه القاعدة يحتاج الى إعداد . ثم ان إنشاءً مسبقاً كهذا لا يكون عملاً حربياً . وأفريقيا الشمالية الفرنسية تقدّم قواعد مثلى ، ولكن تعاون فيشي مع ألمانيا لا يسمح بالاعتماد عليها .

إننا نقدم للولايات المتحدة جميع التسهيلات التي تريدها لانشاء قواعد جوية أميركية في أفريقيا الفرنسية الحرة ولا سيما في الكاميرون وتشاد والأوبانغي . وإنزال العتاد والمؤن ممكن في دوالا وبوانت — نوار ومن السهل إقامة معامل فيها لتركيب الطائرات .

وستكون أفريقيا الفرنسية الحرة عما قريب المركز الجغرافي لمنطقة الحرب في أفريقيا .

برقية الى السيد ونستون تشرشل
في لندن

القاهرة ، ٧ حزيران ١٩٤١

تلقيت في هذه اللحظة رسالتكم المؤرخة في ٦ حزيران . أحس أني على وفاق تام معكم حول سياستنا المشتركة تجاه العرب ، كما هو شأنها تجاه غيرهم ، إذ ينبغي أن تكون الثقة فيها متبادلة . وإني لأشكركم شكراً عميقاً على فكرتكم في قواتي . ومهما حدث ، فإنّ الفرنسيين

الأحرار عازمون على القتال في سبيل الغلبة معكم كحلفاء أمناء حازمين .

رسالة الى السير أرشيبولد سنكلر

وزير الجو البريطاني

القاهرة ، ٨ حزيران ١٩٤١

عزيزي السير أرشيبولد ،

اطلعني العقيد فالان ، بالتفصيل ، على التدابير التي اتخذت مؤخراً لتعليم الطيارين الفرنسيين الجدد في انكلترا ، وتجميعهم . واني لحريصٌ على أن أقول لكم إن هذه التدابير تبدو لي ممتازة ، وأنا أشكركم عليها شخصياً . أعتقد أنه يمكن الاستنتاج منها ، أننا الآن فعلاً ، على وفاقٍ حول تكوين طيران فرنسي صغير ، على نحو تدريجيّ وسريع ، يُجمّع به الفرنسيون ذوو التكوين نفسه وحدات فرنسية ، قدر المستطاع .

ومن الأكيد أنّ الأهمية السياسية القصوى لمثل هذا الانجاز ، لا تخفى عليكم . وأضيف أن ترتيبات من هذا النوع تجري الآن في الشرق الأوسط ، وإني لأشعر بالارتياح الى ما ألمسه من أنّ القيمة العسكرية لعناصر الطيران الفرنسي ، أخذت ترتفع .

وإني لأغتنم هذه المناسبة لأعرب لكم عن اعجابي وإعجاب الفرنسيين الأحرار بقيمـــة السلاح الجوّي الملكي وفعّاليته في معركة الشرق ، ولأوجه اليكم تهانيّ الشخصية المخلصة .

لكم بإخلاص .

رسالة الى السيد جميل مردم بك

رئيس مجلس وزراء سوريا السابق

القاهرة ، ٨ حزيران ١٩٤١

عزيزي الرئيس ،

سيوجه الجنرال كاترو بياناً إلى الأهـــالي وهو يدخل سوريا بقوات

فرنسا الحرة . وسيذاع هذا البيان الذي وافقتُ عليه نصاً وروحاً ، باسمي واسم فرنسا الحرة ، أي باسم فرنسا .

وسيحمل للوطنيين ، وأنت منهم ، ما يرضي أعزّ أمانيهم ، إذ يعترف لشعبيْ المشرق بنظام السيادة والاستقلال ، مضموناً بمعاهدة .

وهكذا يتكرس نجاح قضية كرّستَ لها نفسك بكثير من الحماسة والسخاء .

«إني لسعيد في أن أشاطرك الغبطة بذلك النجاح ، وأعرب لك عن الأمل أن تجد في هذا الحادث الكبير ، تشجيعاً قوياً للتعاون مع فرنسا الحرة وممثلها الجنرال كاترو .

تفضل ، أيها الرئيس العزيز ، بقبول أسمى اعتباري الفائق .

تصريح أودع صحافة البلدان الحرة وإذاعاتها

القاهرة ١٠ حزيران ١٩٤١

إن فرنسا الحرة تحارب . وواقع الحال أن الألمان بدأوا ، برضا من فيشي ، في تثبيت أقدامهم في المشرق . وهذا خطر جسيم من الناحية العسكرية . وذلك يعني ، من الناحية السياسية ، تسلم شعوبٍ للطغاة تعهدنا ، على مدى الزمن ، أن نقودها إلى الاستقلال . ومن الناحية المعنوية بالنسبة لفرنسا ، خسران كل ما بقي لها من نفوذ في الشرق .

هذا هو سبب دخولنا سوريا ولبنان مع حلفائنا البريطانيين .

إنه لصحيح أن زحفنا يمكن أن يلاقي ، لسوء الحظ ، مقاومة من جانب رفاقنا قوات المشرق . وإن بعضاً منهم يحسبون ان من واجبهم ، وقد ضُللوا ، ان يقابلونا مكرَهين ، بالقوة . ولن نطلق النار على هؤلاء ، بادئين . ولكن اذا نجم بسبب من عملهم ، بعض الاشتباكات ، فسنقوم بواجبنا

ولكن ما اكثر اولئك الذين يقدمون الينـــا ويلتحقون بنا ! اني لأستطيــــع ان اكشف أنّ من بين القوات الفرنسية الحرة التي تؤدّي خدمتها حتى هذه الساعة في الشرق ، قدم الينا ثلاثة وستون ضابطاً جاؤوا من سوريا رغم العقوبات والتهديدات والانتقامـات . وقد زجت فيشي في السجن ، أو رحّلت الى مرسيليا ، اكثر من مائتي ضابط .

ان فرنسا لا تريد نصراً للألمان . فرنسا تريد أن تتحرّر . وستنفذ مشيئة فرنسا .

مذكرة وجهت لسفير بريطانيا وقادتها الأعلين
لدى المؤتمر الذي انعقد في القاهرة
في ١٩ حزيران ١٩٤١

إن من رأي الجنرال ديغول وضع تسوية مع المفوض السامي في المشرق .

ينبغي أن تقوم تلك التسوية على الأسس الآتية :

١) معاملة لائقة لجميع العسكريين وجميع الموظفين

٢) الضمانة التي قدمتها بريطانيا أن تصان حقوق فرنسا ومصالحهـا في المشرق بمجرد واقعهـــا . والسلطات الفرنسية الحرة أن تؤمّن تمثيل فرنسا في المشرق ، ضمن نطاق الاستقلال الذي وعدت به تلك السلطات دولتيْ المشرق ، وضمنته بريطانيا العظمى .

٣) جميع الذين يريدون أن يخدموا مع الحلفـــاء من العسكريين والموظفين يستطيعون أن يبقوا بحرية ، وكذلك مع أسرهم . وجميع الذين لا يريدون يرحّلون إلى وطنهم مع أسرهم حين تسمح الظروف . ومع ذلك ، يحتاط الحلفاء لاتخاذ التدابير التي تجعل الاختيار حقيقةً ، حراً لكل واحدٍ منهم .

٤) يجب أن يسلّم عتاد الحرب كله للحلفاء .

٥) وتسليم السفن يكون بالاتفاق .

٦) والجنرال ديغول الذي لم يقدم أحداً قط للمحاكمة من رفاقه في السلاح الذين حاربوه تنفيذاً لأوامر تلقّوها ، لا ينوي بحال ، في هذه المرة أن يحاكم أحداً .

٧) يعتبر الجنرال ديغول مشاركة ممثله في المفاوضات ، ضرورياً ، وليكن إعطاء الجواب في بيروت باسمه كما يعطى باسم السلطات البريطانية .

برقية الى السيد ايدن

في لندن

القاهرة ، ٢٠ حزيران ١٩٤١

علمتُ اليوم الساعة ١٠ ، من البرقية التي وجهتموها معاليكم في ١٩ حزيران الى واشنطن ، في شأن الشروط التي تصرّح الحكومة البريطانية بقبولها كأساسٍ لمفاوضةٍ مع سلطات فيشي .

لا استطيع ان أخفي على معاليكم الدهشة التي اثارها في نفسي ذلك الجواب من جانب واحد ، والصريح من جهته ، في شأن التزمت به فرنسا موقفاً معيناً مثل انكلترا ، واصبحت حياة الجنود الفرنسيين الأحرار ، كحياة الجنود البريطانيين مرتهنة به ، ثم في موضوع المسائل التي يتعلق بها تعلقاً جوهريا ، مصير هيئة عسكرية ومدنية فرنسية ، ومصير اراضٍ تُمارس فوقها سلطة فرنسا .

واني لألاحظ ان الناطق بلسان مفوض فيشي السامي في بيروت الذي يقدّر ، بلا شك ، وجهة نظر فرنسا الحرة في الحاضر والمستقبل ، قد طلب ان يعرف ، لا شروط الحكومة البريطانية وحسب ، بل

شروط فرنسا الحرة ايضاً ، وان معاليكم أبرقتم الى واشنطن كما لو كانت حكومتكم وحدها ذات الصفة لإعطاء الجواب ، وهذا اعتبره تصرفاً لا مبرر له .

ان معاليكم ستدركون بكل تأكيد في مثل هذه الحال ، انني لا اشعر ابداً في مثل هذا الحادث اني مرتبط ، على نحو من الانحاء ، بالاعتبارات والنتائج التي تشتمل عليها برقيتكم الموجهة الى واشنطن ، وانني ألتزم بما ورد في البرقية التي ارتضيتُ نصها في ١٩ حزيران ، بالاتفاق مع سفير بريطانيا العظمى والقادة البريطانيين الاعلين .

رسالة الى الجنرال كاترو

دمشق ، ٢٤ حزيران ١٩٤١

سيدي الجنرال ،

عينتكم بمرسومين صدرا بتاريخ اليوم ، مفوّضاً عاماً مطلق الصلاحية وقائداً أعلى للشرق .

وستمارسون سلطاتكم وصلاحياتكم باسمي واسم مجلس الدفاع عن الامبراطورية الفرنسية . وستكون مهمتكم في جوهرها ان توجهوا إعادة الوضع الداخلي والاقتصادي في المشرق حتى يصبح سوياً بمقدار ما يمكن وما تسمح به ظروف الحرب ، وأن تفاوضوا ممثلي الأهالي الأكفاء لعقد معاهدات تركّز استقلال دولتي المشرق وسيادتها ، كما تضع أسس تحالفها مع فرنسا ، وتحافظ على حقوق فرنسا ومصالحها ، وأن تؤمّنوا الدفاع عن أراضيها كلّها ضد العدو ، وأن تتعاونوا مع الحلفاء ، في العمليات الحربية في الشرق .

وستتولون جميع السلطات التي كان يضطلع بها حتى الآن ، مفوض فرنسا السامي في المشرق وجميع التبعات التي تتضمنها ، في انتظار

العهد الجديد الذي ينبثق من المعاهدات المقبلة ويصبح قادراً على تطبيقها ، وهذا ما يجب أن يتمّ في أقرب وقت ممكن . وستكون صلاحياتكم من بعد صلاحيات ممثل فرنسا في نطاق المعاهدات ، وقائد أعلى لقواتنا .

وسيكون من اختصاصكم أن تعملوا على إيجاد مجالس تمثل حقيقة مجموع الأهالي ، فور تمكنكم من ذلك ، وتشكيل حكومات ترضى بها تلك المجالس ، ومعها تشرعون حالاً في مفاوضات تهدف إلى عقد معاهدات التحالف . ويجب أن تعقد هذه المعاهدات مع تلك الحكومات ومعي بالذات .

وعلى الرغم من التمزّقات والتقلّبات الناجمة عن النكبات التي نزلت بالجيوش الفرنسية ، ومن دسائس غزاة بلادنا ، فإن الانتداب الذي وُكلَ إلى فرنسا في المشرق من قِبَل عصبة الأمم عام ١٩٢٣ ، ينبغي أن يصل الى نهايته ، وأن يستمر عمل فرنسا في تلك الديار ، ولهذا تتخذون من معاهدات التحالف المعقودة مع دولتي المشرق عام ١٩٣٦ نقطة انطلاق لمفاوضة تينك الدولتين ، وتقترحون على حكومتيهما أن تكون التدابير الموقتة التي تتخذ بالاشتراك معهما ، موضوع اتفاقات خاصّة ، تلبّي لضرورات دفاعنا المشترك في الحرب الراهنة .

وإني لأحتفظ بإحاطة عصبة الأمم علماً ، في الوقت الذي أشاء ، أن عهد الانتداب في المشرق انتهى ، وحلّ محله عهد جديد يستجيب للأهداف التي أنشىء الانتداب من أجلها .

ثقوا ، يا عزيزي الجنرال ، بمواطفي الخالصة المخلصة .

برقية الى رنيه كاسان

مفوضية فرنسا الحرة في لندن

القدس ، ٢٤ حزيران ١٩٤١

١) علينا فيما يتعلق بالنزاع الألماني – الروسي ان نتخذ موقفاً محدداً .

يجب أن نعلن ، كما أعلن السيد تشرشل ، أننا مع الروس بكل صدق ما داموا يحاربون الألمان ، دون ان نخوض حالياً بمناقشة نقائص العهد السوفياتي ، وحتى جرائمه . انهم ليسوا هم الروس الذين يسحقون فرنسا ، ويحتلون باريس ، ورانس ، وبوردو ، وستراسبورغ ، وينهبون بلادنا ويحطمون معنوياتها ، ويستخدمون فيشي لحمل فرنسيين على محاربة فرنسيين في سوريا . والطائرات ، والدبابات ، والقوات الألمانية التي يدمرهـا الروس والتي سيدمرونها ، لن تكون بعدُ هناك ، لتمنعنا من تحرير فرنسا .

أرجو أن تعطوا دعايتنا هذه اللهجة ، على الفور .

٢) إذهب أنت بنفسك الى السيد ميسكي بعيـداً عن الأضواء ، واعرب له باسمي إعراباً رصيناً ، ولكن صريحاً ، أنّ الشعب الفرنسيّ مع الروس ضد ألمانيا ، وأننا نتمنى بالتالي ، أن ننظم علاقات عسكرية مع موسكو . وأطلع الفورين أوفيس على ذلك .

برقية الى ونستون تشرشل
في لندن

القاهرة ، ٢٨ حزيران ١٩٤١

إني لأحرص ، في الوقت الذي سيمكن به فرنسا الحرة أن تحـل به ، دون شك ، محل فيشي في سوريا ولبنان ، بفضل جهدنا المشترك — أحرص على أن أعرب لكم عن وجهة نظري فيما يتعلق بملابسات هذه القضية ، وتنظيم العلاقات الفرنسية – البريطانية محلياً ، في الشرق .

سيكون النهج الذي تسلكه السياسة البريطانية تجاه سوريا معياراً ذا أهمية كبرى ، فهذه هي المرة الاولى التي تنفذ فيهـا القوات البريطانية متحدة مع قوات فرنسا الحرة ، الى ارض خاضعة لسلطة فرنسا . ويصادف عدا ذلك ، ان نزعات السياسة البريطانية قلّما طابقت ، فوق تلـك

الارض ، نزعات السياسة الفرنسية ؛ ولهذا السبب المزدوج ، فإنّ الرأي العام الفرنسي والرأي العام الدولي سيكونان في غاية التنبّه للطريقة التي تتصرف بها بريطانيا العظمى تجاه وضع فرنسا في تلك المنطقة .

إذا كانت نتيجة عملنا المشترك في سوريا ولبنان تبدو وكأنها خفض من مقام فرنسا هناك ، وإدخال نزعات وأعمال بريطانية خالصة ، إرضاء لفيشي وبرلين وروما ، فأنا مقتنع ان أثر ذلك على الرأي العام في بلادي سيكون أليماً . ويجب ان أضيف أن جهدي الخاص الذي يرمي اساساً الى حفظ المقاومة الفرنسية من الناحيتين المادية والمعنوية ، الى جانب إنكلترا ، ضد اعدائنا ، يصبح بذلك في مأزق حرج .

وأنا واثق أن تلك هي نظرتكم بالذات . بيد أني أتمنى على السلطات البريطانية المحلية ان لا تعمل إلا في هـذا الاتجاه . وأتمنى أيضاً ان تكـون نشاطاتها في حقول الامن ، والإعلام ، والاقتصاد ، الخ ... مركزة ومحدودة ، كي لا توحي بالانطباع ان احتلال سوريا على يد قوات بريطانية في جزء منها ، وتحت قيادة بريطانيا ، يؤدّي إما الى تحويل في السلطة على حساب فرنسا ، وإما الى ضرب من السيطرة على سلطة فرنسا .

برقية الى مفوضية فرنسا الحرة
في لندن

القاهرة ، ٩ تموز ١٩٤١

لقد حان الوقت لإعادة سلطة فرنسا الحرة في الباسيفيك نهائياً ، ودون تدابير ناقصة ، وإعمال جميع الموارد هناك ، في سبيل الحرب ، وتأمين الدفاع عن الاراضي الفرنسية ضدّ الأخطار الممكنة ، وربما القريبة ، بالاتحاد مع حلفائنا .

واني أنتدب نقيب البحر دارجنليو لهذه المهمة . وأنا اعينه اليوم برسوم ، مفوضاً سامياً لفرنسا في الباسيفيك ، وسيمارس باسمي جميع السلطات المدنية والعسكرية .

وسيتوجه المفوض السامي الى مركز عمله فوراً ، وهناك يتخذ كل التدابير التي يراها ضرورية تجاه الأشخاص ...

واكرر ، من جهة اخرى ، الأمر بإرسال سفينة أو عـــدة سفن حربية الى الباسيفيك .

تفضلوا وأحيطوني علمـــاً بسفر المفوض السامي ، وتحرك السفينة أو السفن المشار اليها .

برقية الى مفوضية فرنسا الحرة
في لندن

برازافيل ، ١١ تموز ١٩٤١

تلقيت برقيتكم المتعلقة بـ « حزب التحرير » ، وتلقيت كذلك ، من جانب حكومة لندن حول هذه المسألة ، مذكرة جعلتني أفكر .

أنا لا اوافق على هـــذا الحزب للتحرير الذي سيتم إنشاؤه بوحي انكليزي ، ولا ينصهر في المستقبل بفرنسا الحـــرة ، ويضع في أيدي الانكليز خيوطاً لا يجوز أن تكون إلا في ايدينا .

ان حزب التحرير الفرنسي وجد منذ ١٨ حزيران ١٩٤٠ ، وهـو فرنسا الحرة . ولا مبرر أبـداً لإنشاء حزب آخر . وانا ادعوكم من جهة اخرى ، للحذر من مفاهيم السياسة الفرنسية وافكار الدعاية الفرنسية التي تبثها الفورين اوفيس ووزارة الإعلام البريطانية . فإن هاتين المؤسستين كانتا تسعيان دوما في العمل من وراء ظهورنا واللعب على الألفاظ ،

أعني تتظاهران انها تعملان لحسابنا وبهذا تستخدمان ما لنا من رصيد لغايات ليست دوماً غاياتنا ، بل هي بعيدة عنها .

وحاذروا كذلك هذا الامر ، وهو ان بعض الأشخاص الفرنسيين ممن يسعون في ان يكون لهم وجود سياسي خارج دائرتنا ، هم الذين يوحون أغلب الاحيان ، الى الفورين أوفيس ووزارة الاعلام .

برقية الى مفوضية فرنسا الحرة
في لندن

برازافيل ، ١٣ تموز ١٩٤١

لا أرى قيمة للفقرة الاولى من مذكرتكم المؤرخة في ٧ تموز ، بشأن السلطة في سوريا . السلطة العليا في سوريا تخص فرنسا ولا تخص بحال من الاحوال ، على أي مستوى ، قائداً أجنبياً أعلى . والقوات البريطانية في سوريا لا تحتل بلداً فتحته بالقوة ، وانما هي تعاون في المعركة على أرض حليفة . وحين كان المارشال هايغ يحارب في فرنسا ، ظلت السلطة في المقاطعات التي وُجدت بها قواته ، على ما كانت عليه ، تخص بأكملها حكومة الجمهورية .

ومن المفهوم أن للقيادة العسكرية الفرنسية أو الحليفة ، في منطقة الجيوش ، صفة لاتخاذ التدابير الضرورية للأمن ، والتموين ، واستخدام طرق المواصلات والموانىء ، ووسائل البث ، وتسيير الدوائر العامة . ولكنها لا تستطيع أن تقوم بذلك الا بتفويض من السلطة العليا ، وفي حدود ما يتعلق ذلك بالعمليات فقط . ثم ان عليها ان تؤدي عملها بوساطة السلطات المحلية .

وإن للجنرال كاترو ، في الحالة الخاصة بسوريا أن يتخذ ، بالنسبة لهذه الاعتبارات المختلفة ، الترتيبات التي تطلبها منه القيادة العسكرية .

ثم انه ليس من المحتوم بحال ، أن يتولى القيادة العسكرية في سوريا رجلٌ بريطاني ، فقد قبلتُ في اتفاق ٧ آب ١٩٤٠ ، التوجيهات العامة للقيادة البريطانية فيما يخص سير الحرب من ناحية عسكرية ، ولكني لم أقبل في شيء قط ، أن تكون قواتنا بالضرورة ، تحت إمرة البريطانيين. ثم ان اتفاق ٧ آب ، من جهة اخرى ، وهو الذي لم يطبقه البريطانيون الا جزئياً ، ولا سيما بالنسبة للتسلح ، انما عقد في فترة من الزمن لم يكن فيها بعد لدينا اراض ، تمارَسُ عليها سيادة فرنسا ونتحمل تبعتها. وقد أصبح لدينا الآن هذه التبعة وهي مما يمكن ان يتنافى وتوجيهات القيادة البريطانية. واني لأحتفظ ، في هذه الحالة ، بحق الرفض لتلك التوجيهات في سوريا خاصة ، وحتى فيما يتعلق بالعمليات.

والخلاصة : سأقوم بتسوية مع ليتلتون من شأنها ان لا تدع مجالاً للمس بسيادة فرنسا وسلطتها العليا في سوريا ، وان تقدم التسهيلات الضرورية للقيادة البريطانية مما تحتاج اليه في عملياتها ، وان تنظم القيادة الحليفة المترابطة في حدود ما يترك هذا التنظيم تبعتنا الوطنية والدولية كاملة في سوريا. وكل نظام مغاير لهذا ، يصبح غير مقبول ، ولن اقبله.

تلك هي التوجيهات التي أرجوكم ان تجعلوا وجهات نظركم مطابقة لها في مباحثاتكم حول هذا الموضوع ، مع الرسميين البريطانيين.

برقية وجهت الى الجنرال كاترو
في القاهرة
وبلاغ الى الجنرال سبيرز ، والى السفير البريطاني في القاهرة ، وللقائد البريطاني الأعلى

برازافيل ، ١٥ تموز ١٩٤١

آمل ان لا تكونوا قد انسقتم الى توقيع اتفاق الهدنة ، المخالف لاغراضي

وتعلباتي ، فان ترك قوات فيشي تحت إمرة ضباطهم مع الوعد بترحيل قريب الى الوطن على سفن فيشي ، يجعل من المستحيل انضمام عدد كبير من الرجال ذوي الشأن الينا . انه النهج نفسه الذي اتبعه الانكليز مع الجنود والبحارة في إنكلترا .

ربما كان ذلك هو شأن الانكليز الذين ما زالوا دوماً تحت سيطرة أوهامهم عن فيشي ، والذين يرغبون قبل كل شيء في التخلص من العناصر الفرنسية التي لا يدركون النفع الذي يمكن ان يعود منها علينا . ولكن النتيجة جدّ مسيئة لفرنسا ، اذ ان ذلك مما يعيق نهوضنا العسكري .

والواقع ان نتيجة هذه الاوضاع ، ان نردّ الى افريقيا الشمالية وافريقيا الغربية للفرنسية قوات مشكّلة تمرست بالحرب على حسابنا ، واستثارتها المعركة ، ثم نلاقيها ضدنا في تشاد او حتى في افريقيا الشمالية ساعة يصدر هتلر الامر لدارلان بذلك .

انا لا اوافق اذن على هذه الشروط ، وهي التي لم يستشرني احد قط في موضوعها اثناء المفاوضات ، وقد دامت هذه ثلاثة ايام . ونتيجة لذلك ، اجد نفسي مكرَهاً على اتخاذ التدابير لالقاء تبعتها على عاتق الانكليز وحدهم ، حالما أتلقّى تفاصيل الاتفاق . واني لأدرس كذلك الى اي حد وجدتم حلاً للمسائل الحيوية بالنسبة الينا . سأصل الى القاهرة يوم الجمعة .

برقية الى مفوضية فرنسا الحرة
في لندن

القاهرة ، ٢١ تموز ١٩٤١

تلقيت نص مذكرتكم المؤرخة في ١٧ تموز ، المتعلقة بالهدنة الانكلو - فيشية . أوافق على هذه المذكرة . وقد لفتّ انتباه ليتلتون شفويا وخطيا الى :

١) اننا نرفض الاتفـاق والبروتوكول برمتها ، واننـا نحتفظ بحق العمل وفق ما يبدو لنا صالحاً . وسنتخذ مباشرة ، على نحو خاص ، تدابير كل اتصـــال نريده ، مع قوات فيشي ، وسنشكل بأنفسنا « قوات المشرق الخاصة » .

٢ ـ أننا لن نقبل بعد قيادة بريطانية لقواتنا في المشرق ابتداء من ٢٤ تموز ، عند الساعة ١٢ .

كانت مقابلةً استغرقت ساعتين ، هادئة اللهجة ، قاطعة من حيث الجوهر . وقلت ، أبرز مـا قلت ، لليتلتون إن مسلك البريطانيين في هذه القضية لا يتفق مـــع الشرف ومصالح فرنسا وكرامتنا . وأضفت أننا نواجه حتى قطع تحالفنا بأسى ولكن دون تردد ، لأننا نحارب في سبيل فرنسا لا من أجل انكلترا .

وبدا لي ليتلتون ، رابط الجأش ولكن بانفعال مكبوت ، في ضيقٍ بالغ ، وقلقٍ شديد ... أنا هنا مع الجنرال دي لارمينا . سنتوجه إلى بيروت في ٢٥ تموز ، وهناك نلتقي سيسه .

أطلب إلى كل عضو في مجلس الدفاع عن الامبراطورية الفرنسية أن يؤيدني بعمق في مفاوضاتي الحاسمة التي أحسب ان النجاح مآلها .

برقية الى مفوضية فرنسا الحرة
في لندن

القاهرة ، ٢٤ تموز ١٩٤١

عقدتُ هذا الصباح مع ليتلتون ، بعد مناقشات حاميـــة عنيفة ، تسوية تتعلق بتفسير اتفاق الهدنة . وقد أبرقتُ إليكم نصوص هـــذه التسوية ، من جهةٍ أخرى . وهكذا أصبح لدينا مـــا نؤثر به تأثيراً فعالاً في قوات فيشي ، وأن يكون عتادها في حوزتنا . أسافر اليوم

إلى بيروت لأقوم بتطبيق ذلك ، وأوجه عهدنا السياسيّ والاداريّ في الشرق . وقد كتب الي ليتلتون رسالة يعترف فيها بسيادتنا التامة على دولتي الشرق . كل ذلك مدعاة جادة لارتياحنا .

يجب الآن منع ترحيـــل القوات . أبرقت اليوم إلى السيد ونستون تشرشل في هذا الموضوع . مسلك فيشي فيما يتعلق بالهنـــد الصينية وموقف دانتز الحالي في سوريا قدّما لنا جميع المبررات . أعتقد ، من جهة أخرى ، أن الحلّ الذي تفضي إليه مسألة جيبوتي قريب ، وهو الاستسلام . وُفقتُ إلى حمل البريطانيين على إرسال تعليمات مرّضية إلى سلطاتهم المحلية . أصبح التحول البريطاني الآن ، بجملته ، مؤاتيـــاً . كانت الأزمة حادّة ، ولما تنته بعد انتهاء تاماً .

رسالة الى م. أ. ليتلتون
وزير الدولة البريطاني في القاهرة

بيروت ، ٢٧ تموز ١٩٤١

عزيزي الكابتن ليتلتون ،

تلقيت رسالتكم المؤرخة في ٢٤ تموز ١٩٤١ ونص الاتفاق الذي وضعه ممثلو من الجانبين كتفسير لاتفاق الهدنة في سوريا . ويسرني أن أقول لك إني أوافق على هذا النص الذي يلزم منذ الآن السلطات العسكرية والمدنية الفرنسية المتعلق بها .

وأخذت علماً ، من جهة ثانية ، بموافقتكم على العقوبة التي ينبغي أن تتخذ بحق العناصر الفرنسية المنشقة المدعوة « عناصر فيشي » إذا ثبت أن هذه العناصر أخلّت فعلاً ، كما احسب ، بالاتفاق .

ومن المتفق عليه أن كتابكم المؤرخ في ٢٤ تموز ، وجوابي عنـه لا ينشران إلا إذا رضينا نحن الاثنين معاً بذلك .

لكم باخلاص .

رسالة الى م. أ. ليتلتون
في القاهرة

بيروت ، ٢٧ تموز ١٩٤١

عزيزي الكابتن ليتلتون ،

تلقيت رسالتك المؤرخة في ٢٥ تموز . أنا سعيد بتسجيل التأكيدات التي تفضلت بتقديمها لي فيما يتعلق بتجرد بريطانيا العظمى في سوريا ولبنان ، وأن بريطانيا العظمى تعترف مسبقاً بمركز فرنسا الممتاز في المشرق ، حين تصبح هاتان الدولتان مستقلتين .

إن نص الاتفاق وملحقه الذي وجدته طيّ رسالتكم ، والذي رسمناه معاً في القاهرة بتاريخ ٢٥ تموز ، سيوضع فوراً موضع التنفيذ من قِبَل السلطات العسكرية الفرنسية المختصة .

لكم بصدق .

برقية الى مفوضية فرنسا الحرة
في لندن

بيروت ١ آب ١٩٤١

وجه الكابتن ليتلتون رسالة مؤخراً إلى الجنرال كاترو يطلب إليه فيها ، وكأن ذلك طبيعي في منتهى البداهة ، أن يكون الجنرال سبيرز حاضراً في مفاوضات المعاهدة الفرنسية – السورية ، والمعاهدة الفرنسية – اللبنانية .

وكان جواب الجنرال كاترو ، بطبيعة الحال ، رفضاً خالصاً ، وبسيطاً . إذا كان هذا الطلب من ليتلتون مطابقاً لسياسة حكومته ، فمن البدهي أن هذه السياسة لا تتوافق مع حقوق السيادة لفرنسا . ومن البدهي كذلك ، أننا لا نستطيع القبول بمساس هذه الحقوق ، أيّاً كان نوعه .

وأنا مقتنع أنّ تدخل إنكلترا في الشؤون السياسية الفرنسية بسوريا ولبنان يؤدّي بنا إلى تعقيدات جدّ خطيرة ، فإن جميـــع الفرنسيين الأحرار هنا متفقون على هذه النقطة ، بل الفرنسيين الآخرين ممن هم ذوو موقف معروف تجـاه إنكلترا . وإنه ليبدو لي أن الفوائد المريبة التي يمكن أن تستلّها السياسة الانكليزية من هذه الغفلة عن حقوق فرنسا ، ستكون جدّ هزيلة لقاء أضرار كبرى تنشأ عن تشوش في العلاقات بين فرنسا الحرة وإنكلترا .

تفضلوا واطلبوا اجتماعاً مـــع السيد إيدن ، وأطلعوه من جانبي على إبلاغ جدّ صريح وواضح ، بهذا المعنى .

برقية الى رنيه كاسان

مفوضية فرنسا الحرة في لندن

بيروت ، ٢ آب ١٩٤١

أرغب إليكم أن تتصلوا بسفير روسيا في لندن لاجراء محادثات شبه رسمية معه ، ذات طابع سريّ مطلق ، تتناول النقاط الآتية :

أولاً – أتكون روسيا على استعداد لإقامة علاقات مباشرة معنـا ؟ وفي حالة الايجاب ، ما هو الشكل الذي يمكن أن تقام به ؟

ثانياً – هل تواجه روسيا الآن أو فيما بعد ، أن تبعث إلينا بتصريح تعرب فيه عن نيتهـــا في المساعدة لإعادة استقـلال فرنسا وعظمتها ، إما بالنص نفسه الذي بعثه تشرشل ، وإما بنص آخر ؟ إننا لنحب ، طبعاً ، أن تضيف روسيا « كيان » إلى « استقلال » و « عظمة » .

ثالثاً – أي تعهد تود روسيا أن تتلقى من جانبنا لقـــاء مثل تلك التصريحات ؟

برقية الى رنيه بليفن
في واشنطن

حلب ، ٩ آب ١٩٤١

تلقيت اليوم ، واليوم بالذات ، برقيتكم المؤرخة في ٢٦ تموز . وإني لأقدّر عملكم ، وأنا مقتنع أنه سيؤتي ثماره . لقد أدركتم ، بصورة عامة ، أننا لا نطلب من الولايات المتحدة أية صدقة ، وإنما وسائل كفاح وحسب . وواقع الحال ، أني أرى نظارة الخارجية تقترح ، في الوقت الراهن ، عقاقير لا أسلحة ، ونحن نرفض العقاقير اذا لم ترفق بالأسلحة . إن أوهام الأخذ بالعرف الجامد البليد تستشري في واشنطن وتعزّز فيشي ، أي هتلر الذي خلق فيشي .

أنا لا أرضى أن تحضر أنت ، ممثل فرنسا ، مؤتمراً ثلاثياً كخبير فحسب . وإنما يمكنك أن تحضره ولك حقوق الند لأنداد بين المؤتمرين ، وإلا فلن تحضره . ولا أزال مع ذلك ، على العرض الذي تقدمتُ به ، وهو أن أستقبل في برازافيل ضابطاً أميركياً أو عدة ضباط أميركيين .

برقية الى مفوضية فرنسا الحرة
في لندن

بيروت ، ١٣ آب ١٩٤١

تلقيت برقيتيكم المؤرختين في ٢٥ تموز و ١٠ آب . لقد أمعنت النظر ، اكثر من أي شخص آخر ، في النتائج الخطيرة الوطنية والدولية التي تنجم عن قطع العلاقات بين فرنسا الحرة وإنكلترا . وذلك بالضبط هو ما جعلني أضع انكلترا أمام هذه النتائج ، في حال تصرفها تجاهنا بطريقة لا يمكن قبولها . وأنا أنعت أمراً « لا يُقبل » ، سياسةً وموقفاً يستخدمان مؤازرتنا لإيقاع الضرر بمصالح فرنسا ، أو بمركزها على الأرض

نفسها التي يجري فوقها التضامن ، وذلك هو بالضبط ما كان في مجرى التنفيذ ، في سوريا . إننا لنخسر كرامتنا وسلطتنا في فرنسا معاً إذا نحن رضينا ذلك . وأنا لم أرضه ، وجميع رفاقنا هنا وفي أفريقيا ، تكتلوا كتلة واحدة معي ، في هذا الشأن .

هكذا استطعت أن أقوّم الوضع وأنقذ الجانب الجوهري منه . وإني لأدرك أن البريطانيين تميّزوا غيظاً منه ، ولكنّ هذا الغيظ يخف وزناً إذا قيس بواجباتنا تجاه فرنسا ، وأقدر أن الأزمة انتهت سليمة حتى فيما يخص علاقاتنا بإنكلترا . والأكيد أن السيد تشرشل سيدرك أنّ احداً لا يتكىء إلا على ما هو صلب .

وأنا أعتقد ، عكس ما تحسبون ، أن استسلام فيشي في شأن أفريقيا سيؤول إلى إكبار فرنسا الحـــرة من قبل الأمة والخارج ، وخاصّة من وجهة النظر الأميركية .

أما بشأن الضمانة المقدّمة من بريطانيا العظمى لاستقلال سوريا ولبنان ، فإني لم أعترف بها قط . وليس لها مجال ، أدنى أثر في بيان الجنرال كاترو الذي عدّلت منذ وصولي إلى القاهرة ، مشروعه الأولي . وكنت قد أخطرت ، من جهة أخرى ، سفير بريطانيا في القاهرة ، برسالة وجهتها إليه في ٣ حزيران أنني ، وإن لم يكن في وسعنا أن نعارض نشر ضمانة من قبل الانكليز ، سأشجبها ، ولن أقيم لها وزناً . وليس لدولة أجنبية أن تضمن وعداً أعطته فرنسا . وكذلك ، لا يمكن قبول اشتراك سبيرز في مفاوضات دمشق وبيروت . فأنا أزعم أن حضور دولة ثالثة في مفاوضة فرنسا مع دولة تحت انتدابها ، يشكل تدخلاً لا يمكن قبوله ولن أسلّم به .

وختاماً أدعوكم إلى التصلب ، وأن لا تعطوا الانطبـــاع أن ممثليّ لا يتبعون بالدقة سياستي ، فإن عظمتنا وقوتنا إنما يتكوّنان من شيء

واجد ، هـو التصلب فيما يتعلّق بحقوق فرنسا . وسنكون في حاجـة إلى التشدد هذا حتى نبلغ الضفة الأخرى من نهر الرّين .

برقية الى مفوضية فرنسا الحرة
في لندن

برازافيل ، ٢٥ آب ١٩٤١

علينا أن نكون ، فيما يتعلّق بموقفنا من تصريح تشرشل – روزفلت المعنون : « ميثاق الاطلنطي » ، على اكبر جانب من اليقظة حول المادّة الأولى ، في شكلها ومضمونها المختصة بـ « التوسّعات » . ومن واجبنا أن نتدبر إمكانية توسيع مركزنا في بلاد الرين ، دون الكلام حالياً عن الرين ، في حال انهيار الرايخ . وذلك نظراً للتدمير الماديّ والمعنوي الذي يصيب بلاد الرين في تلك الحالة ، يمكن أن تحدث أمور غير متوقعة .

يجب القول : إننا لا نسعى وراء أي توسع في الاراضي ، ولكننا لا نتخلّى صراحة ، عن كل توسع من نوع آخر .

أما المادة ٤ ، فيجب أن تشتمل ، من جانبنا ، على تحفظات صريحة . نحن لا يمكن أن نقبل بعد الحرب ، نفاذ ألمانيا وإيطاليـا إلى المواد الأولية على قدم المساواة مع فرنسا التي جرّدتاها منها ، على نحو فظيع .

علينا ، بصورة عامّة ، أن نذيع الفكرة أن الحرب الحالية ليست سوى حدث من أحداث الحرب العالمية الـتي ابتدأت عام ١٩١٤ . ومؤازرة فرنسا للقضية المشتركة ، وهي الحرية في الحرب العالمية ، إنما تقاس ابتداء من ١٩١٤ . وكذلك هو شأن تضحياتها ، وبالتالي ، شأن لتعويضات من كل نوع ، التي تحق لها .

برقية الى الجنرال كاترو

المفوض العام المطلق الصلاحية في بيروت

والطبيب الجنرال سيسه

المفوض السامي في برازافيل

لندن ، ١٦ أيلول ١٩٤١

يبدو أن المصاعب الخطيرة التي أحدثتها قضية سوريا بين حلفائنا البريطانيين ، وبيننا ، آخذة في الزوال . وعلى الرغم من أن خطاب تشرشل الأخير ينمّ عن نزعة مقلقة فإن « طريقة التعايش » التي أقامتها اتفاقات ليتلتون – ديغول ، يجب أن تصان ، فإذا كان الأمر كذلك ، نستطيع أن نعتبر أن جوهر القضية مصان ، وأن مركز فرنسا في المشرق محفوظ ، على الجملة ، في ظروف مرضية .

وبعد حقبة من التوتر المركز في لندن نفسها ، من جانب الانكليز ، وهي الحقبة التي أعقبت عودتي ، بدا أن العلاقات ترتكز سوية ، في انتظار أن تصبح ودّية . قابلتُ تشرشل مطولاً . أكد لي الوزير الأول أن السياسة البريطانية بالنسبة لسوريا كانت وستظل كما حددتها اتفاقاتنا في القاهرة . وأكد لي ، من جهة أخرى ، أن حركة فرنسا الحرة ، الآخذة في الانتشار في فرنسا نفسها ، أصبحت كما لم تكن قط من قبل ، عنصراً كبيراً في السياسة البريطانية ، وأن حكومة جلالته عازمة على دعمها إلى أقصى حد .

برقية الى رنيه بليفن

في واشنطن

لندن ، ٢٣ أيلول ١٩٤١

أطلب إليك ، في محادثاتك المحتملة مع سمنر ولز وكوردل هل ، أن تبرز النقاط الآتية :

١) لقد أصبح وضع رجال فيشي الذي وضعوا أنفسهم فيه بالنسبة للعدو ، في واقــع أمره ، يجعلهم ، من غير تعليق على العواطف التي يمكن أن تحركهم ، خارج الدائرة التي يتاح لهم فيها أن يمارسوا سيادة فرنسا والدفاع عن مصالحها في الخارج . وإن في أحـداث سوريا والهند الصينية أدلة ساطعة على ذلـك . وينتج بالتالي أن فرنسا أصبحت غير ممثلة تمثيلاً حقيقياً في العالم .

٢) الاحوال التي ولبت بها فيشي السلطة في فرنسا ، وطبيعة السلطات التي تخولتها والأسلوب الذي تمارسها به ، كل ذلك يتنافى وسيادة الأمة الفرنسية . هناك اغتصاب محض .

٣) على الرغم من القمع الدامي الذي يثقل به الغزاة وفيشي كاهل الشعب الفرنسي ، وحرمانه من التعبير بحرّية عن آرائه بــأية طريقة من الطرق ، فانه لم يبق اليوم من شك في أن سياسة التعاون مــع العدو والدكتاتورية الداخلية التي تتبعها فيشي ، إنما هي تتعارض تعارضاً مطلقاً مع أماني اكثرية المواطنين الفرنسيين .

٤) لقد أصبح أمراً واقعاً ان أراضي مستعمرات مهمة في أفريقيـا والباسيفيك وقوات مسلحة لا يستهان بها انضمت إلى فرنسا الحرة لتظل محاربة إلى جانب الحلفاء والامبراطورية البريطانية خاصة ، ضد غزاة الوطن . وهذا الواقع يفرض على الجنرال ديغول وسلطات فرنسا الحرة ان تمارس على تلــك الأراضي والقوات ، صلاحيات حكومة . ولكن الجنرال ديغول كان يعلن دوماً على رؤوس الأشهاد ، أنه لن يمارس هذه الصلاحيـات إلا بصورة موقتة اساساً ، كمدبّر للتراث الفرنسي ، وأنه يخضع مسبقاً للتمثيل الوطني ، ساعة يتاح لهذا التمثيل أن يتحقق بحرّية .

٥) والجنرال ديغول أخذ الآن ، بانتظار تلك الساعة ، في تشكيل لجنة وطنية تنفيذية مهمتهـا أن تساعده في مراس سلطاته ، من جهة ،

وجمعية استشارية غايتها أن تمكن الرأي العـام الفرنسي من التعبير عن نفسه بأوسع ما يمكن ، من جهة ثانية .

٦) نحن على استعداد لتقديم جميع التسهيلات التي نقدر عليها ، إلى الولايات المتحدة الاميركية لتتركز فيها ، علانية أو سراً ، وجميـــع الوسائل العسكرية ، بحرية أو جويّة مما يبدو ضرورياً للإسهام مباشرة أو غير مباشرة في دحر غزاة فرنسا ، وذلـــك فيما يتعلق بالاراضي الخاضعة حالياً لسلطتنا أو لسيطرتنا ، أو تلك التي يمكن أن تخضع لها في المستقبل .

برقية الى رنيه بليفن
في واشنطن

لندن ، ٢٣ أيلول ١٩٤١

تلقيت برقيتكم المؤرخة في ٢٠ أيلول . إنها جدّ رصينة ، ومتوافقة كل التوافق مع ما أراه . وفيما يتعلق برئيس مفوضيتنا ، أختار تيكسيه ، فهو معروف أنه رجل أمين وصلب . وللنقابات الفرنسية ، عـدا ذلك ، موقف ممتاز في فرنسا ، سواء نقـــابات الاتحاد العام للعمل *C. G. T.* والمسيحيين . والقضية الاجتماعية أخيراً ، هي قضية الغد الكبرى .

أمر بانشاء اللجنة الوطنية الفرنسية

باسم الشعب والامبراطورية الفرنسيين ،
نحن الجنرال ديغول
رئيس الفرنسيين الاحرار .
بناء على أمرينـا الصادرين في ٢٧ تشرين الاول و ١٢ تشرين الثاني ١٩٤٠ ، وعلى قرارنا التنظيمي بتاريخ ١٦ تشرين الثاني ١٩٤٠ .
ونظراً إلى ان الوضع الناشىء عن حـالة الحرب لا يزال يحول دون

كل اجتماع ، وكل تعبير حر للتمثيل الوطني .

ونظراً إلى ان دستور الجمهورية الفرنسية وقوانينها خُرقت ، ولا تزال مخروقة على أراضي الوطن الأم والامبراطورية جميعها ، بفعل العدو كما باغتصاب السلطات التي تتعاون معه .

ونظراً إلى ان كثيراً من الأدلة تثبت ان اكثرية الأمة الفرنسية ، وهي أبعد ما تكون عن قبول عهد فُرِضَ بالعنف والخيانة ، ترى في سلطة فرنسا الحرة التعبير عن أمانيها وإراداتها .

ونظراً الى أن المهم أن تكون سلطات فرنسا الحرة قادرة ، بالفعل وبصورة موقتة ، على مراس صلاحياتها العادية للسلطات العامة ، بسبب من الاهمية المتزايدة لأراضي الأمبراطورية الفرنسية والاراضي الواقعة تحت الانتداب الفرنسي ، وكذلك أهمية القوات المسلّحة الفرنسية التي انضمت إلينا لمتابعة الحرب الى جانب الحلفاء ، ضدّ غزاة الوطن .

نأمر :

المادة الأولى : يتأمّنُ المراسُ الموقت للسلطات العامة ، وفق الشروط المثبتة في هذا الامر ، بسبب من ظروف الحرب ، والى ان يصبح ممكناً إيجاد تمثيل للشعب الفرنسي ، قادرٍ على التعبير عن الارادة القومية ، على نحو مستقلّ عن العدو .

المادة الثانية : أنشِئت لجنة وطنية مشكّلة من مفوضين يعيّنون بمرسوم . الجنرال ديغول ، رئيس الفرنسيين الأحرار ، هو رئيس اللجنة الوطنية .

المادة الثالثة : يخضع مراس السلطات العامة ابتداء من الاجتماع الأول الذي تعقده اللجنة الوطنية ، للقواعد الآتية :

التدابير التشريعية تصدر بأوامر مدروسة في اللجنة الوطنية موقعة من رئيس الفرنسيين الاحرار رئيس اللجنة الوطنية وصادرة عنه وعليها .

توقيع وشهادة طبق الأصل بواحد أو عـــدة من المفوضين الوطنيين . تكون هذه الاوامر إجبارية ، وخاضعة لمصادقة التمثيل الوطني ، حين يصبح ذلك ممكناً .

والتدابير العائدة الى النظام الداخلي في كل دائرة تصدر بها مراسيم عن رئيس الفرنسيين الاحرار ، رئيس اللجنة الوطنية ، بنـــاء على اقتراح أو تقرير يقدمه مفوض وطني واحد ، أو عدة مفوّضين وعليه توقيعه أو تواقيعهم .

المادة الرابعة : المعاهدات الدولية والاتفاقات الدولية التي تخضع عادة ، بموجب الدستور لمصادقـة المجالس التمثيلية ، تدخل حيّز التنفيذ حين يصادق عليها بأمر اتخذ حسب الشروط المبيّنة في المادة السابقة .

المادة الخامسة : المفوضون الوطنيون أعضاء اللجنة الوطنية يمارسون جميع الصلاحيات الفردية أو الجماعية التي تعطى الوزراء الفرنسيين ، عـــادة .

تحدد صلاحية كل وحدة ادارية وحدودها ، بمرسوم .

وضع في لندن ، ٢٤ ايلول ١٩٤١

ش. ديغول

رسالة الى السيد ميسكي

سفير اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية
في لندن

لندن ، ٢٦ ايلول ١٩٤١

سيدي السفير ،

لي الشرف أن أعلمكم اني تلقيت إبلاغكم الذي تودّون سعادتكم اعلامي بـــه ، ان حكومة بلادكم تعترف بي كرئيس لجميع الفرنسيين الاحرار ، انـّى كانوا ، من الذين ينضمون الي للدفاع عن القضية الحليفة ،

وانها مستعدة للاتصال بمجلس الدفاع عن الامبراطورية الفرنسية المنشأة بأمر ٢٧ تشرين الأول ١٩٤٠ ، من أجل جميع المسائل المتعلقة بالتعاون مع الأراضي الفرنسية فيما وراء البحار التي تضع نفسها تحت سلطتي .

واني لأقبل بامتنان وعد حكومتكم بتقديم العون والمساعدة للفرنسيين الاحرار في الكفاح المشترك ضد ألمانيا الهتلرية وحلفائها . وأنا جد سعيد كذلك بأن حكومة الاتحاد السوفياتي رأت من المناسب ان تبين عزمها الوطيد على إعادة استقلال فرنسا وعظمتها عزماً تاماً كاملاً ، حين نوفق معاً الى غلبة العدو المشترك .

وإني لأتعهد من جانبي ، باسم الفرنسيين الأحرار ، على ان أحارب إلى جانب اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية وحلفائه حتى النصر النهائي على العدو المشترك ، وان أقدم العون والمساعدة للاتحاد السوفياتي في هذا الكفاح بجميع الوسائل التي هي في متناول يدي .

تفضلوا يا سيدي السفير ، بقبول تأكيدات أسمى اعتباري .

مذكرة سلمت للجنرال إسماي

ليقدمها للسيد تشرشل ، في شأن اشتراك القوات الفرنسية في هجوم محتمل على ليبيا

لندن ، ٧ تشرين الأول ١٩٤١

١ - ينبغي ان يحمل وضع الحرب العام الحلفاءَ ، على الشروع بأقرب وقت ممكن ، في بذل جهد عسكريّ قويّ في ليبيا .

والفائدة الكبرى التي تقدمها تصفية رأس الجسر هذا . للمحور في أفريقيا ، قبل أن يصبح العدو قادراً على مهاجمة الشرق الأوسط ، والضرورة المادية والمعنوية لتخفيف العبء على وجه السرعة ، عن الروس والآفاق السياسية التي تنفتح ، فيما يتعلق بإيطاليا ، وخسرانها التام

لامبراطوريتها ، ووجود الحلفاء على مقربة مباشرة من صقلية ، وإمكانات الضغط والعمل أخيراً ، في أفريقيا الشمالية الفرنسية التي يشتمل عليها الاتصال بتونس والمناطق الصحراوية . كل ذلك لا يسمح طبعاً بعـد بتأجيل هذه العملية الكبرى . وإن ظروف المناخ لتعين ، من جهة أخرى ، على القيام بها ابتداء من نهاية تشرين الأول .

٢ – والجنرال ديغول يطلب على نحـو ملحّ عاجل ، أن تشترك القوات الفرنسية الحرة في الهجوم على ليبيا ، على أوسع مـدى ممكن (يلي تفصيل القوات الفرنسية التي تستطيع خوض ميدان ليبيا في البر والبحر والجو) .

رسالة الى الجنرال أوكنلك

القائد البريطاني الأعلى
في الشرق الأوسط

لندن ، ٧ تشرين الاول ١٩٤١

عزيزي الجنرال ،

قلت لك ، في الحديث الذي كان لي شرف القيام به قبـل سفري من القاهرة ، إلى أي مـدى يرغب الفرنسيون الأحرار في المشاركة بهجوم بريطاني على ليبيا ، في حالة عزمكم على شنّه .

وإنك لتعلم بالتأكيد أن الجنرال كاترو نظم في سوريا تجمّعاً عسكرياً مهماً ، في الحقيقة . فهو مسلّح تسليحاً حسناً ولديه عدة حسنة ايضاً ، ووضع تحت إمرة الجنرال دي لارمينا . وانك لتعلم كذلك ، أن لدى الجنرال لوكلير في تشاد الوسائل للشروع في عمل مهمّ على قطاع فزّان .

وأنا أتمنى شخصياً بمقدار ما يمكن لانسان أن يتمنى شيئاً مـا ، أن تهاجم القوات الفرنسية جنباً إلى جنب مع القوات البريطانية ، الألمان

والطليان في ليبيا ، لكثير من الأسباب العسكرية والسياسيّة .

إذا تم ذلك ، يصبح لارمينا وحشده برمته ، تحت إمرة قيادتكم في ليبيا ، ويستطيع لوكلير أن يشنّ غارتـه على فزان في الموعد الذي تحددونه له (مع إشعار سابق بنحو من خمسة عشر يوماً) .

وستكون ظروف الاشتباك الذي يقوم به حشد لارمينا ، وفقاً على تقديركم بطبيعة الحال . ويبدو لي ان من الأفضل ان يخوض الميدان متى سوّيت قضية برقة .

أتمنى لكم ولجيوشكم ، أيها الجنرال العزيز ، أعظم مجدٍ ممكن .

مذكرة سلمت الى السيد هيوغ دالتون

الوزير البريطاني لـ « الاقتصاد الحربي »
(الدوائر السرية)

لندن ، ٨ تشرين اول ١٩٤١

لقد توطدت روح المقاومة لدى الشعب الفرنسيّ خـــلال الأسابيع الأخيرة ، عن طريق أعمال ملموسة .

ويبدو أكيداً ، من جهة أخرى ، ان فرنسا اصبحت رمز المقاومة الوطنية في نظر الشعب الفرنسي .

والجنرال ديغول واللجنة الوطنية الفرنسية يريان أنّ من إختصاصهما ان يأخذا على عاتقهما ، بصورة فعّالة ، إدارة هذه المقاومة في الارض الفرنسية التي يحتلها العدو او يسيطر عليها .

والعمل العسكري المحض (المعلومات ذات الطابع العسكري ، الكمائن الفردية ، إعداد تنظيم عسكري محلي) يجري الآن مجرى حسناً بتوجيه من الدوائر المختصة التابعة لفرنسا الحرة بالارتباط مع الدوائر البريطانية المختصة . ولكن ثمة الآن مجالاً للشروع في العمل السياسيّ ، وهو الذي

يتميز ، ويجب ان يتميز عن العمل العسكري ويشتمل على رجـــال ووسائل مختلفة .

والجنرال ديغول واللجنة الوطنية الفرنسية يرغبان في الانتقـــال الى العمل السياسي في فرنسا . وتعاون دوائر الوزارة البريطانية لـ « الاقتصاد الحربي » معها ، ضروري لها .

تشتمل الخطة على :

١) تنظيم الارتباطات العديدة ، السريعة والاكيدة ، مع الاراضي غير المنضمة . محطـات إرسال واستقبال سرية ؛ وضع موظفين تقنيين لتسيير هذه المحطـات . مرور متواصل لعمـلاء أحسن إعدادهم ، في الاتجاهين . نقل سري لمياه الدعاية ، الخ ...

٢) تنظيم شبكة من الاستخبارات السياسية ، بوضع عـدد صغير من المراقبين الأكفاء في النقاط الجوهرية .

٣) تنظيم شبكة سرية للدعاية .

وإن للإرسالات الإذاعية السرية دوراً كبيراً . ينبغي أن تزدوج بدائرة توزيع للنشرات ، والجرائد ، والأدوات المختلفة ، على أن تعم هذه الدائرة فرنسا والأمبراطورية الفرنسية .

وينبغي تسيير دعايات خاصة ، توجه جنباً الى جنب مـع الدعاية العامة ، نحو بعض الطبقات أو الأوساط الخاصة (نقابات ، تنظيمات عمالية ، موظفون ، أحزاب سياسية ، اكليروس ، إلخ ...)

٤) تجنيد بعض الشخصيات البارزة محلياً .

إن مثل هذه الخطة تشتمل ، إذ تتجاوز بسعتهـا جميع تلك التي وزجهت حتى الآن ، على وسائــل مهمة ، لا سيما في موضوع الارتباطات ، ومحطات البث السرية ، وتجنيد العملاء وتكوينهم ، ونقل

المعتاد الخاص . ولكن يبدو الآن أن التربة صالحة ، وأن النتائج الممكنة تستحق بذل مجهود عظيم .

برقية الى الجنرال كاترو
في بيروت

لندن ، ٣١ تشرين أول ١٩٤١

كان لي حديث ، هذا الاسبوع مع السيد إيدن حول سياستنا في دولتيْ المشرق . وقد أيد السيد أيدن ما بسطه شفوياً في مذكرات مختلفة سلّمني إياها .

يُستخلص منها ، في أول منزلة ، أن الحكومة البريطانية تعترف أن انتداب فرنسا لا يُمس ، وان فرنسا الحرة هي التي تمارسه ، وأنه لا يمكن ان يتغير أو يلغى بلا مفاوضة وبغير اتفاق فرنسا الحرة مع مجلس عصبة الأمم وحكومة الولايات المتحدة . وقد أجبت السيد إيدن حول هذا الموضوع أن ذلك هو بالضبط موقفنا الخاص ، وأننا بسبب من الظروف الراهنة لا نواجه الشروع في مثل تلك المفاوضات مع عصبة الامم ، ولا مع الولايات المتحدة ، قبل نهاية الحرب . وأضفت أننا لا نتصور ، بحال من الاحوال ، نهاية الانتداب من غير معاهدات في شكل مرضٍ وصالح ، تعقد بين فرنسا الحرة وحكومتيْ سوريا ولبنان .

وأبلغني السيد إيدن نص الرسالة التي أعدت ليرسلها ملك إنكلترا إلى الشيخ تاج الدين ، وقلت إني لا أعترض عليها . وتلقى سبيرز مهمة نقلها .

وسألني السيد إيدن عما اذا كانت لدينا النية لحمل الحكومات الحليفة على القيام بخطوة مماثلة ، فأجبته أننا سندرس المسألة .

وسألني السيد إيدن ما اذا كنا نرى توجيه مذكرة لمجلس عصبة

الأمم وحكومة الولايات المتحدة أولاً ، نطلعها فيها على أن فرنسا الحرة أخذت الانتداب على عاتقهـا ، وأننا من ثمّـة قررنا أن نتخذ في المشرق بعض الترتيبات العملية المتعلقـة باستقلال الدولتين وسيادتها . فأجبته أننا سنقوم بذلك مؤكداً ، حين تنتهي المسألة في لبنان ، بعد أن تكون قد انتهت في سوريا ، وأننا سنصرّح لعصبة الأمم كما للولايات المتحدة ، أن المراد من ذلك تدابير ظرفية لا تمس حقوق الدولة المنتدبة ولا واجباتها .

يبدو ، بوجه عام ، أن موقف الحكومة البريطانية المرضيّ اكثر من ذي قبل ، يعود إما الى المخابرات التي أجرتها معهـا حكومة واشنطن ، وإما الى رغبتها الراهنة في مداراتنا ، ومراعاة الحالة العامة في المشرق التي تشهد تعلق الأهالي بفرنسا .

خاتمة الخطاب الذي ألقي في جامعة أكسفورد

في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٤١

يجهدُ الغالبون موقتاً في القارة الأوروبية ، أن يبنوا مـا يدعونه نظاماً جديداً . ومن هنا ، كان محور الحرب الراهنة حيـاة الحضارة الغربية أو موتها . وواقع الحال ، أن هذه الحركة الرهيبة تزداد رهبة بمقدار ما هي ناشئة أيضاً ، عن التطور العام .

يجب أن نوافق ، في الواقع ، على أن تحوّل أوضاع الحيـاة عن طريق الآلة في العصر الحديث ، وتكاثف الجماهير المتزايد ، ونزعـة الجماعات الهائلة الى التماثل وهذان نتيجتان لذلك التحول ، كلها مجتمعة فتحت ثغرةً في حريات كل فرد ؛ ومـا دام البشر يجدون أنفسهم خاضعين في سبيل عملهم ، وملذاتهم ، وأفكارهم ، ومنافعهم ، لضرب من تجمع دائم ؛ ومـا دامت مساكنهم ، وملابسهم ، وغذاؤهم تسير

تدريجاً نحو نماذج واحدة ؛ وما دام الجميع يقرأون في الوقت نفسه الشيء نفسه في الصحف نفسها ، ويشاهدون الأفلام نفسها تمر تحت أعينهم من طرف العالم الى طرفه الآخر ، ويسمعون الأنباء نفسها معاً ، والافكار نفسها ، والموسيقى نفسها من الاذاعات ؛ وما دامت وسائل النقل نفسها تنقل الناس الى المعامل نفسها أو المكاتب ، الى المطاعم نفسها أو أماكن الأكل ، الى الملاعب الرياضية نفسها أو مسارح اللهو ، الى البنايات نفسها أو الأندية أو الحدائق ، ليعملوا ، ويأكلوا ، ويلهوا أو يستريحوا ، وهم رجال ونساء تشابهوا في دراساتهم ، ومعلوماتهم وانهماكهم ، واشتغالهم ، ولباسهم ، وشخصية كل واحد منهم — ما دام ذلك كله قائماً فان موقف التحفظ ، والاختيار الحر لا يجدان بعد مكاناً . لقد تحقق ضربٌ من التأليل[1] العام ، لا يفلت الفرد فيه من الانسحاق ، إلا أن يبذل جهداً كبيراً لاستنقاذ نفسه منه .

ويزداد هذا الجهد ويعظم بمقدار ما تأبى الجماهير الاندفاع في هذا التوحُّد ، والإقبال عليه وهي أبعد ما تكون في الوقت نفسه ، عكس الفرد ، عن النفور منه . وقد عاش أبناء جيلي زمناً طويلاً لدرجة لم يشهدوا معها انتشار الإلزام وحسب ، بل الارتياح أيضاً الى الوجود المتراكم .

ان ارتداء البزة نفسها ، والسير على الاقدام ، والغناء في جوقة ، والسلام بطريقة واحدة ، والتأثر الجماعي للمشهد الذي تمثله الجماعة لنفسها ويكون المرء جزءاً منها ، كل ذلك ينزع نحو التحوّل الى حاجة لدى معاصرينا . وواقع الحال ان الدكتاتوريين سعوا بعقائدهم وشعائرهم وراء النجاح في هذه النزعات الجديدة ووجدوه . ومن المؤكد انهم نجحوا ، أول ما نجحوا ، بين شعوب تبنّت حماسة التنظيم الذي

---

(١) التأليل : من الآلة ، وهي ترجمة مستحدثة لكلمة *Mécanisation* (المترجم)

تعيش به قوى الأرَضَة ، أملاً منها في بسط سيطرتها على الآخرين .
ولكن لا يجوز أن نموّه على أنفسنا أن التطور نفسه يقدّم للنظام الذي يقال له « جديد » تسهيلات خارقة ، كما يقدم لأبطاله إغراءات مزمنة.

وانتصار جيوش الأمم الديموقراطية ، وأساطيلها وأسرابها ، بالغاً ما بلغ يوماً ما من الكمال ، وبالغاً ما بلغت سياستها بعد النصر ، من البراعة وبعد النظر ، تجـاه هؤلاء الذين توفّق هذه المرة أيضاً إلى دحرهم ، كل ذلك لن يمنع أن ينبعث الخطر أشدّ هولا مما لم يكن قط من قبل ، إذ لا شيء يضمن السلام ، ولا شيء ينقذ نظام العالم ، إذا لم يتوصل حزب التحرير في خضمّ التطوّر الذي يفرضه التقـدّم الآلي الحديث ، إلى بناء نظام تتمجّد به الحرية ، والسلامة ، والكرامة ويضمنها لكل فرد ، إلى درجة تبدو له معهـا تلك المعاني الثلاثة محل إعزازه وتشوقه اكثر من اي نفع يقدمه له توارثه . ومـا من امرىء يرى وسيلةً أخرى يتحقق بها في النهاية نصر الروح على المادّة . وذلك لأن هذا هو المراد ، في خاتمة المطاف .

ولكن كيف لنـا أن ندرك مثل هذا الجهد من تجديد روحي ، إجتماعي ، أخلاقي بمقـدار ما هو سياسيّ ، في انقسام شعبينا ؟ إن فرنسا وإنكلترا كانتا منذ قرون ولا تزالان ، مهديْ الحرية للناس وبطلتيها . الحرية في خطر الهلاك إذا لم يتعاضد هذان المهدان ، وهاتان البطلتان لم تتحدا . إن جميع موارد الذكاء والإرادة التي انبجست منفصلة من بلدي وبلدكم ، منذ زمن طويل ، تعزيزاً للقضية الواحدة نفسها ، قضية الحضارة ، ألا ينبغي أن نضعها معاً ما دام أعداء مثلنا الأعلى متحدين في سبيل قلبه رأساً على عقب ؟ وواقع الحـال أن هذا التعاون الحارّ الصادق بين عقول جميع أولئك الذين يزحفون عندنا وعندكم نحو النـور ذاته ، وإراداتهم ، لا يمكن بعد اليوم تصوّره ، من غير اتفاق الأمتين .

عليّ أن اعتذر عن الوقوف بكم طويلاً عند مثل هذه الاعتبارات . ولكن شبان النخبة الذين يودّون الاستماع إليّ يعرفون أن الأفكار تقود العالم . ولذلك اعتقدت أن من المفيد أن أبيّن لكم هذه الأفكار ، لتتأملوا فيها . وإذا أنتم فحصتموها ، ربما ترون معي ما أراه ، ألا وهو أنّ من الخير أن نأخذ بعين الاعتبـــار المعطيات المبدئية الكبرى للحوادث الرهيبة واليومية الجارية في هـــذه الحرب – اكبر حروب التاريخ – لنحيط بمجموعها ونستخلص الدروس منها ، وإلاّ خسرناها حتى بعد عشرين معركة نكسبها . وقد وصف الشاعر في مشهدٍ تمثيلي ، الريفيّ الذي يصعد المنحدر الوعر :

« – لِمَ تتسلق الرابية يا فتى السهل ؟

« – ذلــك لأستطيع ان أرى السهل جيداً . فأنا لم أفهم السهل إلا برؤيته من أعالي الذرى » .

رسالة الى الجنرال إسماي

رئيس أركـان ديوان الحرب ، وديوان السيد تشرشل

لندن ، ٢٨ تشرين الثاني ١٩٤١

عزيزي الجنرال ،

تلقيت أمس رسالتك المؤرخة في ٢٧ تشرين الثاني جواباً عن كتابي إليك في ٧ تشرين الأول . وقد تفضلت بالإشارة اليّ ان اقتراحي إشراك قوات الشرق الفرنسية في عمليات ليبيا لم يلق قبولاً من حكومة جلالته ، باستثناء ما يتعلق بسرب طائرات القصف .

لا يمكنني بهذه الشروط إلا ان أسحب مجموع المقترحـات التي وضعتُ صيغتها حول إسهام قوات الشرق وأفريقيا الفرنسية في عمليات القوات البريطانية ، سواء في ليبيا حالياً ، أو في أفريقيا الغربية احتمالاً .

فإن أمر هــذه العمليات التي كان لي شرف عرضها في المذكرة المرفقة بكتابي في ٧ تشرين الأول ، إنما تشكل فعلاً ، فيما يتعلق بالفرنسيين ، كلاً لا يتجزأ سواء من وجهة النظر السياسية والمعنوية .

وإني لأحتفظ ، مع ذلك ، بشروعي في عملية تقوم بها عناصر من تشاد ضد « مرزوق » ، كما احتفظ بالمبـادرة لنفسي في البدء بتلك العملية عند المقتضى .

بقي لي أن أتمنّى باسم القوات الفرنسية ، أفضل التوفيق للقـوات الحليفة البريطانية في الهجوم الذي شنته على الأعداء المشتركين في أفريقيا الشمالية .

لكم بصدق .

برقية الى الجنرال كاترو

في بيروت

لندن ، ٩ كانون الأول ١٩٤١

كتب إليّ السيد تشرشل يسألني إشراك وحـدةٍ فرنسية كبيرة في ليبيا . وأجبته أنني سأصدر بملء اختياري ، الأوامر الضرورية .

أنا اعلم أنك على صلة بأوكنلك حول هذا الموضوع .

علينا إما أن تشترك وحدة كبرى أحسن حشدها ، وإمـا أن لا نشترك أبداً . وعليك من جهةٍ أخرى ، أن يكون لديك مسبقـاً خطوط المهمة العامة لهذه الوحدة الكبرى . أرجوك أن تعلمني ، متى أمكنك ذلك ، عن تلك المهمة العامة ، وعن تأليف العناصر المعينة أيضاً .

وأخيراً ، يمكن أن ننـال الموافقة على أن يُستخدم سرب طائرات القصف في مهمات لها علاقة بمهمة قواتنا ، وذلك هو الأفضل .

رسالة الى السيد ونستون تشرشل

لندن ، ١٠ كانون الاول ١٩٤١

عزيزي الوزير الأول ،

إن سكان الجزيرتين الفرنسيتين : سان – بيير وميكلون قرب الأرض – الجديدة (تير – نوف) ، كما تعلمون ، جِد منحازين لفرنسا الحرة .

والأميرال موزيليه في طريقه الآن من الأرض الجديدة صوب هاليفاكس مع ثلاث سفن حربية فرنسية : « ميموزا » و « آليس » و « آكوني » ، وهو يقصد فوراً إلى ضمّ سان – بيير وميكلون ، وتلك عملية يبدو أنها لا تنطوي على مصاعب ، وأنا أوافق موافقة تامة على هذا المشروع .

وإني لأكون لكم ممتنا إذ تعلموني في أقرب وقت ممكن ، مـا إذا كان لحكومة جلالته اعتراض على هذه الغارة الطفيفة .

لكم بصدق .

برقية الى الأميرال موزيليه
في هاليفاكس

لندن ، ١٣ كانون الأول ١٩٤١

طلبت إلى البريطانيين موافقتهم عـلى ضمّ الجزيرتين . ولكني لا أركن إلى جواب إيجابيّ ، وهم يعتبرون أن للولايات المتحدة وكنـدا علاقةً رئيسية في هذا الشأن . ثم إن المهلة جد قصيرة لا تسمح بتلقي جواب عن طريق المفاوضات . وإني لأكِلُ إليك ، كما قلت لك قبـل سفرك ، أمر النتيجة على أن تنالها بوسائلك الخاصّة . وعلى كل حال ، أنا أحمي كل مبادرة ترى اتخاذها ممكناً في هذا الشأن .

برقية الى الاميرال موزيليه

في هاليفاكس

لندن ، ١٧ كانون الاول ١٩٤١

أظهرت مفاوضاتنا هنا أننا لا نستطيع أن نشرع بشيء في سان ـ بيير وميكلون إذا رحنا ننتظر الإذن من جميع أولئك الذين يحسبون أنهم أصحاب علاقة . وكان ذلك مُتَوَقّعاً . والحلّ الوحيد انما هو عمل بمبادرتنا الخاصة . اكرر عليك أنني احيلك كليّاً في هذا الشأن .

برقية الى الاميرال موزيليه

في هاليفاكس

لندن ، ١٨ كانون الاول ١٩٤١

استشرنا ، كما طلبت ، حكومتيْ بريطانيا وأميركا . وإنّا لنعلم ، من مصدر موثوق ، أن الكنديين ينوون هم بأنفسهم تدمير محطة إذاعة سان ـ بيير . وإني لأوصيك ، في هذه الاحوال ، أن تعمد الى ضمّ سان ـ بيير وميكلون بوسائلك الخاصة دون أن تقول شيئاً للاجانب . وإني لآخذ على عاتقي تبعة هذه العملية برمتها ، وقد أصبحتْ مما لا يستغنى عنها لحفظ الممتلكات الفرنسية لفرنسا .

برقية الى الجنرال لوكلير

في فور ـ لامي

لندن ، ٢٠ كانون الاول ١٩٤١

تقوم بتركيز موقعك من أجل عملية « فزان » بمبادرتك ، والإتفاق مع أوكنلك .

تطلعني ساعة تأخذ القرار بالتركز .

عند ذاك ، سأصدر إليك الأمر العام بتنفيذ العملية التي تطلقها ساعة تشاء ، واضعاً في حسابك اقتراحات القيادة البريطانية . عليك ان تفهم ما اريد ان اقول .

لي ثقة بك وبقواتك ، وانا احبك كثيراً .

رسالة الى السيد إيدن
في لندن

لندن ، ٢٢ كانون الاول ١٩٤١

عزيزي السيد إيدن .

إن اللجنة الوطنية الفرنسية تسعى ، كما تعلم ، في تشكيل منظمة ترمي إلى جمع اكبر عدد ممكن من الفرنسيين ، في فرنسا وافريقيا الشمالية ، لمقاومة العدو وأعوانه . وتبدو الظروف مؤاتية للجنة الوطنية بسبب من الانضواء العلني أو السري الذي نالته الآن من أغلبية المواطنين الفرنسيين ، وهي أغلبية جدّ كبيرة .

وكنتُ قد طلبت ان تتفضل حكومة جلالته بتقديم مؤازرتها لعمل اللجنة الوطنية هـذا ، بأن تضع تحت تصرفها ، على نحو واسع ، الوسائل المادية اللازمة . وكنت يا صاحب السعادة ، قد تفضلت بتلبية طلبي مبدئياً ، في رسالتك المؤرخة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤١ .

ويبدو لسوء الحظ ، أن التعاون الذي تنشده اللجنة الوطنية بين الدوائر الفرنسية والدوائر البريطانية ذات العلاقة ، لم يكن ممكن التحقيق . أرجو سعادتك أن تطلّع على عرض لثلاث وقائع حدثت مؤخراً ، في ملحق لهذه الرسالة .

ثم إن اللجنة الوطنية أحيطت علماً ، من جهة أخرى ، أن الدوائر السرية البريطانية أرسلت ، وترسل عدداً من المواطنين الفرنسيين إلى فرنسا ، .

إما لجمع معلومات ذات طابع عسكري ، وإما للقيام باتصالات ذات طابع سياسي ، وحتى دون استشارة اللجنة الوطنية ، ودون أن يكون ذوو العلاقة من الفرنسيين قد تلقوا إذناً منها .

وإن سير العمل في الدوائر السرية الفرنسية يتطلب سواءً للاستخبارات والأعمال العسكرية الصرف كما لتنظيم المقاومة في فرنسا ، عدداً كبيراً ، نسبياً ، من الأشخاص ، وينطوي على أخطار كبرى ، كما يكبّد أولئك الذين يشاركون فيه ، خسائر فادحة . واللجنة الوطنية الفرنسية لا تستطيع أن تكرس له ذلك العدد ولا أن تفرض عليه تلك الأخطار والخسائر ، إذا لم تكن النتيجة تطابق الأهداف التي يسعى بنفسه إليها .

وإني لأجد نفسي ، بالتالي ، مرغماً على أن اطلب إلى سعادتك أن تتفضل بإعلامي ما إذا كانت حكومة جلالته ترى إمكان تغيير النظام الراهن للتعاون من هذه الوجهة للنظر فيما يتعلّق بالوسائل المادية الضرورية من جهة ، والأعمال التي تقوم بها الدوائر السرية البريطانية في فرنسا ، مستقلّة بها عن الأعمال التي تقوم بها اللجنة الوطنية .

لكم بصدق .

ملحق

١ - قيدم السيد مرسيه[1] ، وهو شخصية بارزة ، من فرنسا عن طريق لشبونة ، منذ اكثر من ثلاثة أشهر ، ليطلب الى الجنرال ديغول توجيهات من قِبَل المنظمات القائمة والناشطة على الأرض الفرنسية ، وكان عليه ان يعود بسرعة ملحة الى فرنسا مع هذه التوجيهات ، ولم يتمكن بعد من مغادرة إنكلترا . وقد انتهى أمره بانكشاف سره ، وأصبح تنفيذ مهمته بعد اليوم ، نتيجة ذلك ، بالغ الصعوبة .

---

(١) المقصود جان مولان

٢ – لا يستطيع المقدم سرفيه ان يجد الوسيلة الى الالتحاق بمركز عمله لأداء مهمته ، وهو الذي كلفه الجنرال ديغول ان يذهب الى جبل طارق ومالطـــة ليقوم باتصالات مهمة وعاجلة مـــع منظمات قائمة في أفريقيا الشمالية .

٣ – كان الجنرال ديغول قد توجّه برجاء إلى الدوائر البريطانية ان تقول للسيد مونيه ان يقدم الى بيروت ليأخذ منها تعليماته . ومونيه هذا رئيس منظمة فرنسية حرة في تونس ، وكان قد قدم الى مالطة . وعلى الرغم من ذلك ، فإن الدوائر البريطـانية دعت السيد مونيه الى العودة الى تونس ، وقتل أثناء السفر في حادث جوماء .

أمر بمهمة صادر الى جان مولان

لندن ، ٢٤ كانون الاول ١٩٤١

أعيّن السيد جان مولان المحافظ ، كممثل لي ومندوب للجنة الوطنية في المنطقة غير المحتلة مباشرة من الوطن الأم .

ومهمة السيد مولان ان يحقق وحدة العمل في تلك المنطقة بين جميع العناصر التي تقاوم العدو وأعوانه .

يطلعني السيد مولان مباشرة على تنفيذ مهمته .

برقية الى الأميرال موزيليه
في سان بيير

لندن ، ٢٥ كانون الاول ١٩٤١

تفضل وقل لأهـالي جزيرتي سان – بيير وميكلون ، العزيزتين جداً والأمينتين جداً لفرنسا ، عن الابتهاج كله الذي تشعر به الأمة إذ تراهما متحرّرتين . فإن سان بيير وميكلون تستأنفان معنا ومع حلفائنا البواسل ، شرف القتال في سبيل تحرير الوطن ، وحرية العالم .

وإني لأوجه اليك شخصياً باسمي واسم اللجنة الوطنية تهانيّ الحارة على الأسلوب الذي حققت به هذا الضمّ ضمن النظام والكرامة .

لتحيى فرنسا !

برقية الى مفوضية فرنسا الحرة

في واشنطن

لندن ، ٢٦ كانون الاول ١٩٤١

عليكم ان تتخذوا الموقف الآتي ، في شأن سان – بيير وميكلون :

١ – علمت اللجنة الوطنيـة الفرنسية ، على نحو اكيد ، ان أهالي سان – بيير وميكلون يرغبون في الانضمام الى فرنسا الحرة ، لاستئناف القتال من أجل تحرير الوطن الأم وظفر القضية الحليفة .

٢ – إن هذا الواقع ، وهو ان الأميرال موزيليه سيطر على الجزيرتين ، ليس بهدوء وحسب ، بل وسط هتافات الابتهاج ، يدل جيداً على انه لم يقم بشيء سوى تحقيق ما يتفق وأماني الاهالي الذين سعدوا بالخلاص من العبوديات المشينة التي أخضعتها لهم الهدنة . وهنـاك دليل دامغ هو نتيجة الاستفتـــاء الذي أعطى في سان – بيير ٩٨٪ الى جانب فرنسا الحرة ، وفي سان – بيير تجمّعت غالبية الاهالي العظمى تقريباً (٤٢٠٠ نسمة من أصل ٤٥٠٠) .

٣ – لقد ثبت ان محطة إذاعة سان – بيير في عهـد فيشي ، كانت تعطي معلومات عن حالة الطقس تفيد العدو . وعدا ذلك ، فان الجزيرتين يمكن ان تفيدا كقاعدتين للغواصات الالمانية . وقد زالت هذه الاخطار بعد اليوم . وستوضع سان – بيير في خدمة الملاحة الحليفة .

٤ – سان – بيير وميكلون جزيرتان فرنسيتان ، ولا يقطنهما منذ عدة قرون سوى فرنسيين . وامتلاكهـــا قضية بين فرنسيين ، ومن العسير

تصور جانب ثالث يستطيع ان يرفض لفرنسيين الحق في فك السلاسل التي تقيدهما بها المدنة ، واستعادة موقعها في الكفاح .

برقية الى السيد ونستون تشرشل

في كويبك

لندن ، ٢٧ كانون الاول ١٩٤١

إن لديّ جميع أسباب الخشية أن يكون موقف نظارة الخارجية الراهن في واشنطن ، تجـاه الفرنسيين الأحرار وفيشي ، على التوالي ، مضرّاً اكثر الضرر بروح الكفاح في فرنسا وغيرها من البلدان .

وإني لأخشى الانطباع السيء الذي سيحدثه هذا الضرب من التفضيل الذي تقدّمه حكومة الولايات المتحدة علناً للمسؤولين عن الاستسلام ومجرمي التعاون ، في الرأي العام ، وفي القوات المسلحة ، وفي الأراضي الفرنسية الحرة ، كما في فرنسا التي لم تتحرر بعد .

ولا يبدو لي من السداد أن تسلّم المكافأة لرسُل الخزي والعار ، في أثناء الحرب .

أقول ذلك لك ، لأني أعـلم أنك تشعر به ، وأنك الوحيد الذي يقدر على الجهر به كما ينبغي أن يُجهر به .

برقية الى الجنرال كاترو

في بيروت

لندن ، ١٢ كانون الثاني ١٩٤٢

أنا أواجه ، في الحالة التي لا يستطيع بها الهجوم الحليف على ليبيا أن يستمر في أفريقيـا الشمالية الفرنسية ، وعلى افتراض أن لا ينتقل العدو قريباً إلى الهجوم في الشرق – أواجه إرسال قوة فرنسية مهمة إلى روسيا الجنوبية ، ابتداء من ١٥ آذار . وستشترك هذه القوة

في العمليات الحليفة المتوقعة خلال الربيع ، في ذلك الميدان . وقد اتفقت اللجنة الوطنية مع حكومة السوفيات التي ترغب أشدّ الرغبة في كسب مشاركتنا ، على هذا الشأن . إن الأهمية السياسية والعسكرية لعملنا في أوروبا الشرقية مما لا يخفى عليكم ، بكل تأكيد . ثم إن الحكومة البريطانية وافقت مبدئياً في حدود ما يتعلق الأمر بها .

تشتمل هيئة الحملة في روسيا على :

١) فرقة خفيفة مؤلفة من :

– شرذمة استطلاع ،
– ثلاثة أو أربعة أفواج من المشاة بينها فوج أوروبي وفوج افريقي ،
– شرذمة مدفعية ذات بطاريتين ،
– مفرزة هندسة ،
– مفرزة إشارة ،
– مصالح جيش ،

والكل ايضاً مجهز بآلات ومحركات قدر المستطاع . وهذه الفرقة الخفيفة هي التي توجد حالياً في سوريا ولبنان .

ب) مفرزة من أربعين طياراً في المطاردات الفرنسية ، قدمتها القوات الجوية المقيمة حالياً في انكلترا .

وعناصر القوات التابعة لإمرتك تتحرك من تبريز ، ابتداء من ١٥ آذار .

برقية الى الاميرال موزيليه

في سان - بيير

لندن ، ١٥ كانون الثاني ١٩٤٢

جرى لي أمس حديثان مع إيدن حول جزيرتينا . كان إيدن يستحثني لقبول نص بلاغ وضعته في واشنطن الحكومات الثلاث :

الانكليزية والكندية والأميركية . تصبح الجزيرتان بموجب هذا البلاغ الصادر عن جانب واحد محيّدتين ، منزوعتي السلاح ، ويوكل أمر إدارتها الى مجلس استشاري يكون مستقلاً عن فرنسا الحرة وفيشي ، والموظفون الكنديون والاميركيون يتعاونون على الادارة والاشراف على محطة الاذاعة . وأراد إيدن أن يخيفني ، فتحدث عن إمكانية عمل تقوم به الولايات المتحدة في سان ـ بيير ، ورفضتُ بطبيعة الحال ، فكرة التحييد ، ونزع السلاح ، وانفصال الجزيرتين ؛ ورفضت كذلك ، الاشراف الأجنبيّ على محطة الاذاعة ، ولم أرض إلا بارتباط في شأن هذه الأخيرة . وقلت لإيدن ان عملاً تقوم به الولايات المتحدة في الجزيرتين يؤدي الى نتائج في منتهى الخطورة . وفي هذا الصباح أعلمني الفورين أوفيس أن الحكومات الثلاث تخلّت في الوقت الراهن ، عن كل بلاغ .

أظن أن هذه آخر حملة تشنها نظارة الخارجية ، وأنها افرغت حتّى الآن اقوى ما في جعبتها . غير ان هناك ، مع ذلك ، ما يدعو لأن تُظهر جانب اليقظة ، على أن لا يكون في مظهرك طبعاً ، موقف الاستفزاز . وأضيف أن الرأي العام الاميركي والانكليزي المؤاتي لنا في وضعه الراهن ، يجعل لجوء حلفائنا الى القوة أمراً غير محتمل ، إلا بمفاجأة ، في أبعد احتمال . وكيف كان الوضع ، فالأزمة تقترب من نهايتها ، واعتقد ان النهاية ستكون خيراً . لك مودتي .

كلمة ألقيت من اذاعة لندن

في ٢٠ كانون الثاني ١٩٤٢

ما من فرنسي بارّ إلا ويهتف لنصر روسيا .

إن الجيش الألماني ، وقد اندفع بكامله في الهجوم منذ حزيران

الماضي ، على هذه الجبهة الهائلة المترامية الاطراف ، ولديه عتاد ضخم ، وهو المنقطع الى القتال والظفر ، والذي ينجده أعوان شدّتهم السلاسل الى مصير الرّايخ طموحـــاً أو إرهاباً ، يتراجع الآن منهكاً بأسلحة الروس ، يقرضه البرد ، والجوع ، والمرض قرضاً ..

وفيا تتداعى قوة الألمان وهيبتهم ، يشهد الناس نجم القوة الروسية في ارتفاع . والعالم يلمس أن هذا الشعب الذي يبلغ تعداده ١٧٥ مليون نسمة ، خليقٌ بأن يكون عظيماً لأنه يعرف كيف يقاتل ، أي كيف يتعذّب ويضرب ...

وإن الشعب الفرنسيّ ليحيي بحماسة ظفر الشعب الروسي وتصاعده . وذلك لأن التحرر والثأر يصبحان بهذه الضربة من أعذب آمال فرنسا . فإن موت كل جنديّ ألماني قتيل أو مجمّد في روسيا ، ودمار كل مدفع ، وكل طائرة ، وكل دبابة ألمانية في أرجاء لينينغراد ، وموسكو ، أو سيباستوبول ، هاتيك الأرجاء الفسيحة ، يقدم لفرنسا فرصة أخرى تضاف الى غيرها ، لتنهض وتغلب ...

ولكن ، إذا لم يحدث بعد شيء ، من الناحية الاستراتيجية أوفى ثمراً من الإخفاق الذي أصاب هتلر على يد ستالين في جبهـة الشرق الأوروبية ، وظهور روسيا الأكيد ، من الناحية السياسية ، في الصف الاول من صفوف الغالبين غداً ، فإن مـا من دولة تملك من دواعي التهنئة لنفسها ، ما لدى فرنسا . لقد كان التحالف الفرنسي - الروسي يُمنى أغلب الاحيان ، ومنذ قرون ، لسوء حظ عام ، بما يمنعه أو يعرقله من دسيسة او سوء فهم . بيد انه يظلّ ضرورة يلوح ظهورها في كل منعطف من منعطفات التاريخ ...

إن فرنسا التي تتألم تقف الى جانب روسيا التي تتألم ، وفرنسا التي تقاتل تساند روسيا التي تقاتل . وفرنسا التي أغرقت في لجـة اليأس

تعاضد روسيا التي عرفت كيف تطلع من ظلمات الهاوية الى شمس العظمة.

برقية الى المفوض السامي دارجنليو
في نوميا

لندن، ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٢

الأكيد ان تطور هجوم العدو يرهق بثقله الممتلكات الفرنسية القائمة تحت سلطتك ويهدّدها بخطر كبير، وربما، وشيك الوقوع. وانا اعرف ان وسائلك ضعيفة وأتبيّن ان الجوّ حوالــك مربدّ لا سبيل فيه الى الصمود. وانا اعمل كلّ ما بوسعي لأنجدك. وقد اصبحت «سركوف» كما تعلم، في طريقها لتلتحق بك، وكذلــك هو شأن عدد من ضباط البر. وانا ارسل اليك من دوالا، ضابطاً رفيعاً جــدّ بارّ ومكين: العقيد لانوس القادم من المغرب.

علينا ان نتوقع، بحسب ما لدي من معلومات، تحسناً قريباً في وضع الباسيفيك العام، على قــاعدة أوستراليا، بسبب من النجــدات الجويّة والبحرية التي أرسلها الحلفاء.

أما من حيث الوضع الداخلي، فإن سلطاتك عمليا ذات طابع سري. وإعلان حالة الطوارىء إنما يتوقف عليك وحدك، وبها تستطيع مراس سلطاتك على نحو أسرع. وإني لأعلم، أية كانت الحال، أنك تحسن الدفاع عن نفسك. ويمكن القول: إن شرف العلم الفرنسيّ وعلم النصرانية هناك، هما بين يديك. أعانقك.

يلي أمر مني للقوات التابعة لإمرتك، والأهالي الخاضعين لسلطتك:

جزر الهبريد الجديدة، وكاليدونيــا الجديدة، ومنشآت أوقيانيــا الفرنسية، هي الآن مخافر الحرب الأمامية. ومهمتكم جميعاً ان تدافعوا عنها، وانكم لتحسنون أداءَها ببسالة، وبراعة، وانتظام، تحت إمرة

رئيس محنتك ، ألا وهو الأميرال دارجنليو . وحلفاؤنا البواسل الذين يتقوون بسرعة يعينونكم عليها . ان لفرنسا والامبراطورية ملء الثقة بكم .

« الجنرال ديغول »

رسالة الى السيد ونستون تشرشل

لندن ، ١١ شباط ١٩٤٢

عزيزي الوزير الاول ،

لقد أصبح للمستعمرة الفرنسية مدغشقر ، وللقاعدة دييغو – سواريز خاصة ، أهمية استراتيجية عظيمة في الوضع العام الناشيء عن دخول اليابان الحرب ، وذلك فيما يتعلق بالاوقيانوس الهندي .

وواقع الحال ، أن قسماً جدّ كبير من اهالي مدغشقر ، ظلّ أميناً لفرنسا ، وهو في الوقت نفسه ، وبمجرد واقعه هذا ، يرغب في خدمة قضية الحلفاء . بيد ان أعمال القمع هناك التي تقوم بها سلطات فيشي الخاضعة لسيطرة العدو ، شأنها مع أجزاء أخرى من الامبراطورية ، تحول دون الأهالي وأمانيهم .

واللجنة الوطنية الفرنسية مصممة على المضيّ في ضمّ مدغشقر بتكريس جزءٍ من قواتها الخاصة ، لهذا الغرض ، كي تأخذ على عاتقها الدفاع عن هذه المستعمرة الفرنسية ضد الأعداء المشتركين ، وتجعل مواردها تساهم في مجهود الحلفاء الحربي .

ويحتمل ان تشتمل هذه العملية على حماية بحرية ومساندة جوّية من قوات الامبراطورية البريطانية . وللجنة الوطنية الفرنسية الشرف بأن تقترح على حكومة جلالته ، وضع خطة مشتركة تنفذ في أقرب وقتٍ ممكن .

تفضل ، ياعزيزي الوزير الأول ، بقبول أخلص عواطفي وأسماها .
(يلي تفصيل خطة العملية المقترحة)

برقية الى المفوض السامي دارجنليو
في نوميا

لندن ، ٢٥ شباط ١٩٤٢

أنهت إلي واشنطن ان الجنرال باتش ، قائد القوات البرية الأميركية في الباسيفيك ، تلقّى الأمر بالذهاب لمقابلتك . والتعليمات التي صدرت اليه ، ان يتفق معك مباشرة وبأقصى روح ودية ، لتنظيم القيادة .

وتلقى قنصل الولايات المتحدة في نوميا ، من جهة أخرى ، أمراً بأن يصرح علانيةً ان حكومته لا تعترف بسلطة في جزر الباسيفيك الفرنسية ، سوى سلطة اللجنة الوطنية الفرنسية .

ليس لنا ، في هذه الأوضاع المرضية ، أي اعتراض على نزول قوات أميركية في أراضينا . فإذا تحقق هذا النزول ، يصبح ثمة مجال لاظهاره بأبرز قوة ممكنة .

وعليك ، مع ذلك ، ان تبذل كل ما في وسعك ، خلال اتفـــاق التسوية الذي يعقده معك الجنرال باتش ، للحصول على هذه النقطة ، وهي أن تظلّ قيادة الدفاع المباشر عن مستعمراتنا ، من اختصاصك . وإذا كان لباتش ، في المقابل ، ان يحظى بمنطقة عمل محدّدة ، وكان لديه احتياطيّ ، فإني لا أرى ما يضر في أن تقبل تبعيتك له بالنسبة لمجموع عمل الحلفاء فيما بينهم ، في ذلك الميدان .

رسالة الى السيد إيدن

لندن ، ٨ آذار ١٩٤٢

عزيزي السيد إيدن ،

يبدو لي من الضروريّ ، بعد محادثاتنا في ٥ و ٦ آذار ، ان أوضح

لك بدقة بعض النقاط التي أودّ من سعادتك ، ان تقدر أهميتها .

لقد وقع حادث داخل فرنسا الحرة ، وذلك أن الأميرال موزيليه المفوض الوطني للبحرية قدّم استقالته من عضوية اللجنة الوطنية . وقبلت اللجنة هذه الاستقالة وعينت الأميرال أوبوانو مفوضاً للبحرية . ومذ أصبح الاميرال في حالة استيداع ، تلقّى بالتالي ، تكليفاً عسكرياً خاصاً .

ورأت حكومة جلالته البريطانية انها تستطيع التدخل في هذا الشأن ، وتفضلتَ فأعلمتني أن هذه الحكومة ، وإن كانت لا تريد التدخل في تأليف اللجنة الوطنية الفرنسية ، تود ان يحتفظ الأميرال موزيليه بمركز القائد الاعلى للقوات البحرية الفرنسية الحرة . وأضفت انك ستبيّن لي قريباً التدابير التي عزمت الحكومة البريطانية على اتخاذها في حالة رفض اللجنة الوطنية الفرنسية هذا الشرط .

أشعر انه يجب ، قبل أن يصل الأمر الى هذا الحد ، أن أصوغ الأسباب التي تجعل مثل هذا القبول من جانبنا امراً مستحيلاً .

لا حاجة ، فيما احسب ، إلى الإلحاح في بيان إرادتنا أن نكون ونظل حلفاء حازمين وأمناء لبريطانيا العظمى . فلقد أعطينا ولا نزال نعطي ، على صحة ذلك ، اسطع الأدلة وحتى أشدّها إيلاماً للرجال .

إلا أنّ ما شرعنا في عمله خدمة لفرنسا ، إنما يبنى خارج كل عرف (رئيس دولة ، حكومة ، برلمان ، هيئة الدولة ، امكانات تشريعية) ، فاللجنة الوطنية الفرنسية نفسها وقسمٌ من قواتها ودوائرها مرغمة على الإقامة في أرضٍ أجنبية . إنّا لنأسف بالطبع لذلك ، ونأمل أن تتبدل هذه الأوضاع الشاذة يوماً ما . ولكن يجب أن نأخذ الاشياء كما هي . وينجم عن ذلك أن البناء كله يقوم في جوهره ، على ثلاثة عناصر استثنائية .

الاول هو العمل الشخصي والرمزي للجنرال ديغول — وأعتذر عن

كتابة ذلك – في الحرب وسلطة اللجنة الوطنية الفرنسية التي انشأها .

الثاني هو انضواء الفرنسيين الحر السخيّ ، والتعاطف المتقد معنا من قِبل عدد جدّ كبير ممن لم ينضووا إلينا .

الثالث الاحتفاظ بما بقي من استقلال وسيادة فرنسيتين يحاسَب عليهما الجنرال ديغول واللجنة الوطنية الفرنسية من قِبَل بلادهما .

تلك هي العناصر الثلاثة التي سمحت للفرنسيين الاحرار أن يعيدوا الى متابعة الحرب أراضيَ فرنسية ذات أهمية ، وقوات فرنسية لا بأس بها ، وأن يبعثوا في بلادهم ذاتها أملاً ، وحتى شعوراً بالكرامة تخيبُ معها الخيانة والتعاون مع العدو .

وجلية الأمر ان المطلب الذي تقدّمت به الحكومة البريطانية فيما يتعلق بالمنصب الذي يُسند الى ضابط فرنسيّ عام عن طريق اللجنة الوطنية الفرنسية اذا هو نفذ ، إنما يكون مساساً مباشراً بهذه المبادىء الثلاثة دفعة واحدة . وان اللجنة الوطنية لترفض القبول به .

وانه لأكيد ، من جهة أخرى ، ان تنظيم فرنسا الحرة وعملها لا يستطيعان حالياً أن ينموّا ، وحتى ان يظلا على قيد الحياة ، لأسباب مادية وسياسية ، دون مساندة الحكومة البريطانية . ثم ان الجنرال ديغول انما انشأ بنيانه كله ، على اساس من الامانة والتحالف مع بريطانيا العظمى ، مهما كلف الامر ، ضمن السعي في بلوغ الهدف ، وهو النصر المشترك . والفرنسيون الأحرار يعتبرون ان ما يقومون به الى جانب البريطانيين وفي سبيل قضية واحدة ، يتضمّن ان يُعاملوا ويُتصرف معهم كحلفاء وانّ تأييد البريطانيين لا يجوز ان يكون موضوع إعادات نظر وقيود متواصلة ، أو لقاء شروط تتنافى ومبرّر وجودهم نفسه .

وإن الجنرال ديغول خاصة ، الذي يتحمل ، في الواقع والقانون ، تبعة فرنسا الحرة ، تجاه بلاده والدول الأجنبية ، لا يستطيع أن

يستمر في عمله اذا نوزع في المساعدة المادية والمعنوية من قِبَل الحكومة البريطانية جملة او تفصيلا ، ومن طريق أولى ، اذا اتخذت هذه الحكومة من الفرنسيين الأحرار ، موقفاً مناقضاً للتدابير التي يتخذها الجنرال ديغول واللجنة الوطنية الفرنسية .

واذا كان لمثل هذه الفرضية ، مع ذلك ، ان تتحقق ، فان الجنرال ديغول واللجنة الوطنية الفرنسية يكفان عن الاصرار على أداء مهمة تغدو مستحيلة . ومما يتمسكان ، في الواقع ، بهذه النظرة الا وهي ان من الجوهري على نحو مطلق ، ان يظلا أمينين للهدف الذي عيناه لنفسيهما ، فيما يتعلق بمستقبل فرنسا كما يتعلق بحاضرها . وهذا الهدف انما هو إنهاض فرنسا وإعادة بناء وحدتها الوطنية في الحرب الى جانب الحلفاء ، ولكن دون ان نضحي باستقلال المؤسسات الفرنسية وسيادتها .

أكرم بصدق .

برقية الى غاستون بالوفسكي

مفوض فرنسا الحرة في أفريقيا الشرقية

لندن ، ١٢ آذار ١٩٤٢

تتبّعت جهودك ووافقت عليها لبلوغ الهدفين اللذين نسعى اليها في منطقة عملك وتمثيلك :

١) إعادة ساحل الصومال الفرنسي الى الحرب ، ضد العدو ، وذلك بوضع حدّ نهائيّ للمعارضة اللاوطنية من جانب سلطات فيشي عن طريق الحصار .

٢) إعادة حقوق فرنسا وتمثيلها في أمبراطورية الحبشة ، المتحررة بمؤازرة حرابنا .

لم نستطع حتى الآن ، بلوغ الهدف الاول الذي يتجاوز بكثير حتى قضية جيبوتي . وسياسة شبه الحماية التي توليها نظارة خارجية واشنطن

حكومة فيشي ، أحد أسباب عجزنا ذاك ، ثم اعتبار حلفائنا البريطانيين في الوقت الراهن أن من المستحيل أن يفصلوا سياستهم عن سياسة واشنطن في أي موضوع خطير .

إن هذا ينطوي ، في رأينا ، على عنصر شؤم من جميع النواحي ، وليس لدينا بعد إمكانية إزالته . ومع ذلك ، فإن قضية سان - بيير وميكلون كانت بداية طيبة في فقء الدّمل .

أما إعادة حضور فرنسا في الحبشة ، فأنا أعتبر ان مهمتكم فيها قد نجحت الى أبعد حدّ تسمح به الظروف . ولم يكن في مستطاعنا ان نمنع البريطانيين من التعامل وحدهم مع النجاشي ، ولكن كان عليهم ان يقوموا بذلك في أحوال من شأنها ان تترك الباب مفتوحاً لفرنسا في المستقبل . وفيما يتعلق بالعاجل من الامور ، فقد كسبنا اولاً بفضل جهودنا ان نثبت وجودنا محلياً ، ثم إمكانية إعادة وطنيينا ومؤسساتنا إلى نفوذنا . واخيراً لم يكن وجود قواتنا خالياً من الاهمية .

خاتمة خطاب ألقي في لندن

في اول نيسان ١٩٤٢

امام « لجنة مصلحة الدفاع الوطني العام »

كيف يمكن الاعتقاد ان في مداراة العهد القائم في فيشي لمنفعة هتلر ، ما يمنعه من ان يندفع في تعاونه مع العدو ، حتى نتائجه الاخيرة ؟ من ذا الذي يستطيع ان يتصوّر جاداً ان رغبات هتلر وأوامره ، في مثل هذا الموضوع يمكن ان يزعزعها شيء سوى مقاومة الأمة الفرنسية التي تكهربها فرنسا المحاربة ؟ واذ كفّت فرنسا غداً عن القتال ، في افتراض مستحيل ، ، فأي سفير يستطيع ولو لدقيقة واحدة ، أن يمنع هتلر من التصرف بها على هواه ؟ اننا لا نحسب أبداً ان حزب الحرية يبغي يوماً من الايام ان يجازف ويخسر فرنسا مستسلماً لمثل هذه الاوهام .

كيف بالتالي يمكن أن تعزى أدنى قيمة لبعض الاتجاهات التي تشير إلى أن على الديمقراطيات أن تعترف بفرنسا في شخص جماعة فيشي ، أكثر من أن تعترف برؤساء فرنسا المحاربة ، بحجة أن هؤلاء لم يتخذوا بوضوح كاف موقفاً مؤيّداً للحريّة ؟ هناك ، في مثل هذه المزاعم ، إهانة حقيقية للديمقراطيات نفسها . وهذا يعني إيلاء هـذه الديمقراطيات ، على نحو مصطنع ، نية التدخّل فيما يخصّ سيادة الشعبْ الفرنسيّ وحده ، ولكن ذلك يعني أيضاً التشهير بها أنها ذات غباوة عمياء مضحكة . وذلك لأن الميـــل إلى قوم سبق أن هدّموا جميع الحريات الفرنسية ، ويحاولون الآن أن يجعلوا عهدهم على مثال الفاشستية أو صورتها الممسوخة ، أكثر من أن يحاولوا إيـــلاء ثقتهم فرنسيين أبرارا يثابرون على تطبيق قوانين الجمهورية ، ويكافحون حتى الموت وهـــذا ضمن كفاحهم ، ضد العدو المستبد ، ويعلنون على رؤوس الأشهاد أن مهمتهم إنما هي تخليص الشعب المغلول لاعادة بنائه سيداً ، فإن ذلك يعني في الحقيقة ، إدخال مبدأ المسكين غريبوي" على السياسة ، وهو الذي ألقى بنفسه في اليم خشية من البلل .

وكيف يمكن القبول أخـيراً أن تستسلم الديمقراطيات ، بموقفها من فرنسا المحاربة ، للتقليد الشائع التافه ، وتترك نفسها تحت تأثير أسفها أن لا تجد في فرنسا كثيراً من الأسماء التي سبق لها ان اخذت بذلك التفكير ؟ إن في ذلك قبل كل شيء ، حيفـاً كبيراً يصيب كثيراً من الرجال المشاهير الذين لا يحيـــون في فرنسا وخارج فرنسا ، الا من اجل انتصارنا . وان في ذلك ايضاً نسياناً للأسر الكامل الذي وضع فيه العـــدو والخونة ، بلادي المنكوبة . ثم ان في ذلك على الأخص ، تنكراً خطيراً لواقع يسيطر اليوم على القضية الفرنسية ويدعى « الثورة » . وذلك بأن هـــذه ثورة ، وهي اعظم الثورات في تاريخ فرنسا ، اذ تخونها نخبتها الحاكمة ، وطبقة ذوي الامتيازات من ابنائها ، ولا تزال

ثورتها هذه في بداية قيامها . وإن عليّ أن أقول في هـذا الشأن أن الذين يتصوّرون في أنحاء العالم ، أن يجدوا في فرنسا ، بعد آخر طلقة مدفع ، فرنسة مماثلة لتلك الـتي يعرفونها من النواحي السياسية ، والاجتماعية ، والأخلاقية ، إنما يقترفون خطأً فادحاً ؛ فإن في قرارة آلامها الدفينة تنبعث ، في هـذه الفترة نفسها ، فرنسة أخـرى جديدة كلّ الجدّة ، وسيكون قادتها رجالاً جدداً . والذين يدهشهم أن لا يجـدوا في صفوفنا ساسة استهلكهم الزمن وأكاديميين غـافلين ، ورجال أعمال تدرّبوا على المضاربات ، وجنرالات أثقلتهم الرتب ، انما يذكروننا بأولئك المتخلّفين من رجال بلاطات أوروبا الذين كانوا يختنقون أثنـاء الثورة الفرنسية الكبرى حين لا يجدون تورغو ، ونيكر ، ولوميني دي بريين في مقاعدهم بين أعضاء لجنة السلامة العامة . ماذا تريدون ! ان فرنسا وهي في ثورة ، تفضل دوماً ان تربح الحرب على يد الجنرال هوش اكثر من ان تخسرها مع المارشال دي سوبيز . وفرنسا الثائرة تفضل دومـاً ان تنصت لدانتون ، لتعلن حقوق الانسان وتفرضها ، على ان يغشاها النعاس وهي تصغي لدندنات الصيَغ العتيقة .

كان كليمنصو ، يا سادة ، يقول عن الثورة : « انها هذه كتلة » . ويمكن القول نفسه عن هذه الحرب اللامنظورة. ولا يُسمح للديمقراطيات ان تحتال على واجباتها في اسوأ لحظة من لحظات النزاع ، هذا النزاع الذي هو بالضبط نزاع أخلاقي . ولن يسمح لما يسمى الواقعية التي قادت الحرية ، من مونيخ الى مونيخ اخرى ، الى حافة الهاوية نفسها ، ان تستمر في خداع الحماسات وخيانة التضحيات . اننا نقاتل الشر ، وقد سخونا في ساحة القتال بأجلّ ما هو رهيب لدينا ، وأعني مصير أوطاننا . وما من احد يملك الحق ، تجاه الآخرين كما تجاه نفسه ، ان يسيء العمـل مع هذه التخليات الجبانة التي تضع القضية المشتركة بـين الجميع ، في

خطر . وان فرنسا المحاربة لتزعم انها من هذه الوجهة ، تقدم القدوة الصالحة الى ابعد مدى تنالهُ وسائلها . وهي على ثقة تامة انها ستلاقي الثواب الكافي لدى حلفائها .

برقية الى الجنرال لوكلير
في فور ـ لامي

لندن ، ٢ نيسان ١٩٤٢

تلقيت برقيتكم المؤرخة في ٢٨ آذار ، وأمعنت النظر فيها ، وبها تجيبون عن تعيينكم قائداً أعلى لقوات افريقيا الفرنسية الحرة .

وما دمت قد اطلعت على رأيكم هكذا ، فإني أصر على الاوامر التي اصدرتها اليكم مع الالتفات الى المصالح العليا التي انا عنها مسؤول ... لا يهولنّك الارتقاء السريع . فأنا لم أقصد بحال ، الى ادخال السرور على قلبك ، رغم صداقتي لك . وانما القصد تلبية ضرورات عليا فرضت عليّ ان افيد من كل فرد اقصى الإفادة ، حسب استعداداته . نحن في ثورة . والكفاءة وحدها هي التي تبرر الوظيفة وانا قاضي الكفاءة .

رسالة الى السيد أنطوني إيدن

لندن ، ٩ نيسان ١٩٤٢

عزيزي السيد إيدن ،

لفتّ انتباه الوزير الأول في ١٦ كانون الأول ١٩٤١ ، إلى قضية مدغشقر .

وأنهيت ، بعد شهرين ، في ١١ شباط ١٩٤٢ ، إلى السيد ونستون تشرشل مشروع عملية ، بغيـة استنقاذ هذه المستعمرة الفرنسية من الخطر الياباني ، ووضعها في خدمة الحرب من أجل قضية الحلفاء . وقـد أرسلت نسخة من ذلك المشروع الى مفوضية اتحاد جنوب أفريقيا العليا ، ونسخة اليكم .

وفي ١٩ شباط ١٩٤٢ ، وجهت من جديد رسالة الى الوزير الأول أبيّن له فيها أهمية القضية وإلحاحها إزاء تطور الحالة في الشرق الأقصى .

صحيح أنّه منذ ذلك الحين ، حصلت الولايات المتحدة من فيشي على تأكيدات جديدة تتعلق بمدغشقر ، ولكني أشك في انّ أحداً ، حتّى في واشنطن ، يقيم أدنى وزن لهذه التأكيدات .

وقد ترامى اليّ ان مشاعر قلق شديد أخذت تساور بعض الأوساط الأميركية السياسية ، حول الخطط التي يمكن ان يعدّها اليابانيون ضد جزيرة لا تحتاج أهميتها الاستراتيجية الى بيان .

أعتقد ان من واجبي ، في هذه الحال ، ان أذكّر اننا نتمسك تمسكاً جوهرياً بمشاركة القوات الفرنسية الحرة في كل عملية يمكن ان يشرع بها الحلفاء . واللجنة الوطنية ترى ، عدا ذلك ، ان تتولى إدارة هذه المستعمرة الفرنسية في منطلق تلك العملية ، على نحو ما هو الشأن مع الاراضي الفرنسية الاخرى التي تتابع الكفاح الى جانب الحلفاء .

وإني لأكون لكم ممتناً إذ تتفضلون باطلاعي على مشاعر حكومة جلالته إزاء هذه المسائل المختلفة . لكم بصدق .

مذكرة حول تنظيم فرقة فدائيين فرنسيين

أودعت الاميرال لورد لويس مونتباتن

رئيس العمليات المختلطة

لندن ، ٢٥ نيسان ١٩٤٢

إن الجنرال ديغول يعتبر ان من الجوهري اشتراك عناصر فرنسية في أعمال الفدائيين البريطانيين ، ولا سيما اذا جرت الأعمال فوق أرض فرنسية .

وعلى الرغم من أنه لا يستطيع أن يزوّد هذا الميدان إلا بملاكات ضئيلة ، فهو يقدّر أن أعمال حرب فرنسية - بريطانية في أرض فرنسية يكون ذات تأثير فعّال في نفوس الأهالي .

بيد أنه يصرّ على ان لا تكون مثل تلك المشاركة محض امتصاص بسيط لشرذمة من الجنود الفرنسيين في فيلق من الفدائيين البريطانيين .

إنّ الجنرال ديغول يريد تشكيل فرقة من ٤٠٠ فدائي فرنسيّ ، وهو يُنزل في الحال إلى الميدان ٦٠ فدائياً طلبهم اللورد لويس مونتباتن ، ويستقدم الاضافيّ الباقي من الشرق حيث توجد وحدات فرنسية فائقة ماضية العزيمة .

ولديه في الشرق ، من جهة أخرى ، سرية من المظليين وقطعة في إنكلترا . فإذا جمع هذه العناصر كلّها في إنكلترا ، استطاع ان يجعلها تشارك في كل عملية في فرنسا يُستخدم بها المظليون .

وهناك أخيراً في بورتسموث وكاوز :

٤ زوارق بمحركات ، ٨ مطاردات غواصات ،

ونوتية هؤلاء مؤهلون بصورة خاصة للمشاركة في العمليات المختلطة .

ومن الضروري أن نضيف ان الجنرال ديغول يعتبر شيئاً أولياً ان يكون على علم سابق بكل عملية في فرنسا . وإذا كان للعناصر الفرنسية ان تشارك ، فهو الذي يصدر اليها الأمر بذلك .

وإذا كانت القيادة البريطانية موافقة ، فالجنرال يعطي تعليماته تبعاً لذلك .

برقية الى المفوض السامي دارجنليو

في نوميا

لندن ، ٩ أيار ١٩٤٢

تفضل ، وسلّم الجنرال باتش ، الرسالة الشخصية الآتية ، من قِبلي :

« يهمني في الوقت الذي يقترب القتال به من كاليدونيا الجديدة ، أن أقول لكم إنني شخصياً وجميع الفرنسيين الأحرار ، نتوجه بثقة نحوكم ، ونحو القوات الأميركية الباسلة العاملة تحت إمرتكم . وإني لأعرف المصاعب الاضافية التي يمكن ان تطرأ عليكم ، كما يمكن ان تطرأ على دارجنليو ، وأعرف مشاعر أهالٍ ذوي ولاء ولكن أصابهم بعض الاضطراب تحت وطأة الحوادث . وأنا مقتنع ان تلك المصاعب تزول حالاً اذا سرت مع دارجنليو يداً بيد ، فإن هذا موضع ثقتي ، وهو المسؤول عن سيادة فرنسا وسلطتها في كاليدونيا الجديدة . وإني لأدعو ، من جانبي ، دارجنليو ان يسلك على وفاق صريح معكم . ولكم سلامي القلبي » .

برقية الى الجنرال كاترو
في بيروت

لندن ، ٢٦ أيار ١٩٤٢

جواباً عن برقيتكم المؤرخة في ٢٠ أيار ١٩٤٢ التي درسناها في اللجنة الوطنية :

أنتم تضعوننا من قضية الانتخابات هذه في سوريا ولبنان أمام مسألة لا يزال ينقصها الشيء الكثير ، ما دمتم قد أصبحتم ملزمين تجاه كايزي ، وما دامت الصحافة الأميركية قد روت الخبر على أنه منتهٍ . ولا أزال على اعتقادي انه كان من الافضل ان نعيد نحن بأنفسنا العهد الدستوري ، في سوريا على الأقل ، خلال شهر آب المنصرم ، باستدعاء هاشم بك الاتاسي . وبذلك كنا تداركنا الاتهام بعدم الصدق والبلاء باستفتاء انتخابي ، ونحن في صميم الحرب .

ربما كان اهالي سوريا قد كسبوا بعض الفوائد من براعة الشيخ تاج الدين . ولقد كان من المتوقع أن لا يصمد النظام القائم هناك على المدى

الطويل ، سواء تجاه الخارج والداخل . ها نحن نضطر اذن الى العمل في شأن يتعلق بانتدابنا ، تلبيةً لدعوة من مزاحمينا البريطانيين ...

ومهما كان الأمر ، فإن اللجنة الوطنية لا تستطيع أن ترد اقتراحكم المتعلق بالانتخابات في سوريا ولبنان ضمن الشروط التي تقدمونه بها .

غير أننا لا نملك ان نقبل ، إذ تدعون الأهالي الى الاقتراح ، قولكم انكم تتصرفون باسم الحلفاء ، فليس للبريطانيين مطلقاً أي حق سياسي ، أو شرعي للظهور في هذه القضية . نحن وحدنا المنتدبون في المشرق .

وإني لأعلق على هذه النقطة الدقيقة أهمية قصوى . أرجوكم أن تعيروها اهتمامكم وان تُفهموها ، على نحو قاطع ، للسيد كايزي .

برقية الى الجنرال كاترو في بيروت
الى الجنرال دي لارمينا في بيروت
الى الحاكم العام ايبويه في برازافيل
الى الجنرال لوكلير في برازافيل
الى المفوض السامي دارجنليو في نوميا

لندن ، ٦ حزيران ١٩٤٢

يبدو ان لسياسة إنكلترا مآرب خاصّة في مدغشقر ، رغم الاحتياط الشكلي الذي اتخذته الحكومة البريطانية تجاهنا في قضية تلك المستعمرة الفرنسية .

وإن لديّ من الأسباب ما يحملني أفكر أن عملية من الطراز نفسه ، ربما تحال مُشترَكة بين الولايات المتحدة وانكلترا ، وتُعَدّ ضدّ دكار

وحلقة النيجر . وسنبعَدُ عنها كما أبعِدْنا عن مدغشقر للأسباب نفسها . ولكن سنُستَخدم لتغطية الموقف تجاه الرأي العام الفرنسيّ الذي يولينا الآن ثقة تكاد تكون عامة .

وإن من واجبي أن أقول لكم ، وانتم رفاقي في خدمة فرنسا أنه إذا تحققت شكوكي ، فلن أقبل أن أظـل شريكاً للدول الأنكلو – سكسونية . واني لأقدّر ، انطلاقاً من هذه النقطة ، أنه سيكون من الاثم ان نستمر في تقديم عوننا المباشر لهم

ولقد وجهت اليوم تحذيراً الى الحكومة البريطانية ، في هذا الشأن ، وأضفت ، طبعاً ، انني آخذ مثل هذه الفرضية على أنها شيء غير محتمل تقريباً .

وحظ فرنسا في هذا الاحتمال الرهيب إنما هو أن نبقى متحدين في كتلة لا تتصدّع . وأطلب اليكم أن تبينوا بوضوح ، منذ الآن ، لممثلي الانكلو – سكسون الذين يتصلون بكم ، ان تلك هي عزيمتنا . ومع ذلك ، اقدم لكم التعليمات الآتية لتتصرفوا بموجبها في الحالة التي تجد بها أنفسنا مكرهين على التخلي عن شراكة أصبحت غير مقبولة :

نتجمّع ، قدر المستطاع ، في الأراضي التي حررناها . نصمد في تلك الأراضي . نقطع مع الانكلو – سكسون كلّ علاقة ، مهما كلفنا ذلك . نحذر الشعب الفرنسيّ والرأي العالمي ، بكل ما لدينا من وسائل ، ولا سيا عن طريق الاذاعة ، ونبسط أسباب موقفنا . وسيكون ذلك الوسيلة الكبرى ، فيما اعتقد ، لمحاولة حمل الامبريالية على التراجع ، عند الاقتضاء . وسيكون الموقف اللائق الوحيد ، في جميع الاحوال .

وأبين لكم ان الحكومة البريطانية حادت بي عن الطريـق ، وانا الذي كنت أود ان اذهب الى بيروت وبرازافيل في مستهـل ايار ،

لأعذار مزيفة ، مفتعلة . وبعد ايام جرت حادثة دييغو - سواريز .
وقد كنت أريد أن اذهب لمقابلتكم في الوقت الحاضر ، فقد جاءتني الحكومة البريطانية تطلب الي تأجيل السفر ، زاعمة إمكانات عمليات يقال إنها في الغرب ، وأنا اعرف ، من جهة اخرى ، ان مثل هذه العمليات مما لا يمكن تصوره ، في الحالة الراهنة . وليس لديّ هنا وسائل خاصة ، لأتنقل بدون موافقة الانكليز .

واختم قائلاً : أعتقد اننا سنخرج من هذا المأزق ، على نحو مُرضٍ ، بيد أن ذلك لا يقوم الا على أساس من حزمنا ، واتحادنا . لكم مودتي.

برقية الى مفوضية فرنسا الحرة

في واشنطن

لندن ، ١٠ حزيران ١٩٤٢

برنار (أو : داستيه دي لا فيجيري) رئيس حركة « التحرير » هو منذ بضعة أيام في لندن . وقد اطلعت بعطف ، على مشروعه في السفر إلى الولايات المتحدة ، وغاية رحلته هذه أن يبسط أمام الحكومة الأميركية حالة الرأي العام الفرنسي ، على حقيقتها . سيصل إليكم بلا انقطاع . قدّموا له كل سند مستطاع ، واتركوا له في الوقت ذاته حرية المبادرة لأسباب تدركونها . وبسبب من طبيعة سفره السرّية البالغة في سريتها ، لا تعرّفوه - في مفوضيتنا - إلى أحدٍ سوى شفيتيه .

رسالة الى الجنرال كونيغ

في بيرحكيم

لندن ، ١٠ حزيران ١٩٤٢

أيها الجنرال كونيغ ! اعلم وقــل لقواتك إن فرنسا كلّها تنظر إليكم وأنكم فخرها .

برقية الى الجنرال كاترو في بيروت
الى الجنرال دي لارمينا في بيروت
الى الحاكم العام ايبويه في برازافيل
الى الجنرال لوكلير في برازافيل
الى المفوض السامي دارجنليو في نوميا

لندن ، ١٤ حزيران ١٩٤٢

قابلت أمس السيد إيدن مطولاً ، بعد حديثي في ١٠ حزيران مع السيد تشرشل . المخابرات التي قمتم بها محلياً ، بناء على تعليماتي ، مع ممثلي بريطانيا ، أحدثت أثرها ، اذ قدّم لي السيد ايدن بعد السيد تشرشل ، التأكيـد الصريح ، أنه ليس لحكومته أي مأرب في أي ارض من أراضي الامبراطورية الفرنسية ، وأنها لا تختطّ أي مشروع للقيام بعمل ما ضد دكار ، على وجه الخصوص ، ولا ضدّ حلقة النيجر ، وهي واثقة من أن للأميركان وجهة النظر ذاتها . وقد أخذت علماً بهذه التأكيدات . غير أني بينت للسيد ايدن مع ذلك ، أن المصاعب التي تثيرها لنا السياسة البريطانية في المشرق ، وتأخير إرسال بشكوف الى دييغو – سواريز ، وسياسة تشتيت الامبراطورية الفرنسية وتحييدها التي تتبعها الولايات المتحدة ، وموقف هـذه من سان – بيير وميكلون والأنتيل الفرنسية وغيّانا ، وكاليدونيا الجديدة ، واعمال بعثة فرانك في اتجاه اراضينا في النيجر ، تظل في نظرنا عناصر قلق . وكرّر لي سكرتير الدولة البريطانية ، حينذاك ، تصريحاته المطمئنة .

أرجوكم ، في هذه الحال ، ان تحيطوا الممثلين البريطانيين علماً ، ممن يتصلون بكم (وللجنرال كاترو ان يعلمَ كايزي) أنني اطلعتكم على محادثاتي الاخيرة مع السيد تشرشل والسيد إيدن . تقولون لهم ان علامات الخطر

التي أحدثت لدينا مظاهر قلق شتّى ، يمكن اعتبارها بعد تلك الحادثات مستبعدة فيما يتعلق بالجانب البريطاني . وتضيفون انكم على استعداد ، بالتالي ، في منطقة سلطتكم ، لبعث جوّ من الانفراج .

واعتقد ، موقناً ، ان تلك الرحلة الاخيرة التي قام بها مولوتوف الى لندن وواشنطن ، كانت لنا سنداً فعالاً ، وان متطلبات الروس حول فتح جبهة غربية هذه السنة ، جعلت مشاريع اخرى كانت تداعب قبلاً بعض المخيلات ، معلّقة .

خاتمة خطاب ألقي في ١٨ حزيران ١٩٤٢

في ألبرت هول بلندن ، على « فرنسيي بريطانيا العظمى »

لم تنقطع الموجة منذ سنتين عن ضرب فرنسا المحاربة وإحداث شقاق في صفوفها . فقد تآمر الجور ، والدعاية ، والبؤس في الداخل على إضعاف حركتها والتقليل من شأنها ، وكان عليها في الخارج ان تتغلب معنوياً ومادّياً على مصاعب لا حصر لها . ولكن فرنسا المحاربة تطفو ، وهي تقاوم ابداً ، فوق اللجج العارمة . وحين أقبل في بير حكيم ، شعاع من مجدها المنبعث ، يعانق جبين جنودها الدامي ، عرف العالم فرنسا من جديد .

آه ! نحن لا نعتقد ان المحنة بلغت منتهاها . ذلك أكيد . ونحن نعرف كل ما بقي من قوة وكيد لدى العدو . ولا نجهل الامد الذي يقتضيه حزب الحرية ليظهر كل قوته . ولكن ما دامت فرنسا قد أسمعت الدنيا إرادتها في الظفر ، فلن يكون ابداً بالنسبة الينا شك ، ولا عناء ، ولا ملل . اننا ونحن المتحدون في سبيل القتال ، مصممون على النضال حتى يتحرر الوطن . وعند ذاك ، بعد ان تنتهي مهمتنا ، ونفرغ من دورنا ، على أثر اولئك الذين خدموا فرنسا منذ فجر التاريخ ، وقبل

أولئك الذين سوف يخدمونها في مستقبلها الابديّ تقول لها بكل بساطة ، كما قال بيغي

« ها هم يا أمّاه ابناؤك الذين قاتلوا ذلك القتال العظيم ! »

تصريح ظهر في نشرات سرّية في فرنسا

٢٣ حزيران ، ١٩٤٢

أصبحت الحجب الأخيرة التي استتر خلفها العدو والخيانـــة ، ليعملا ضد فرنسا – اصبحت ممزقة بعد اليوم . ان مدار هذه الحرب واضح لدى الفرنسيين جميعهم : الاستقلال او العبودية . وعلى كل واحد منـــا الواجب المقدس لأن يعمل كل ما بوسعه للمشاركة في تحرير الوطن عن طريق سحق الغزاة . ولا مخرج ولا مستقبل الا بالنصر .

ولكن هذه المحنة المروعة كشفت للأمة أن الخطر الذي يهدد وجودها لم يأت من الخارج فحسب ، وأن نصراً لا يحمل معه تجديداً داخليـاً جريئاً وعميقاً ، لا يكون نصراً .

لقد هوى في الهزيمة عهد اخلاقي ، اجتماعي ، سياسي ، اقتصادي ، بعد ان كان قد شُلّ هو نفسه في الاباحية . وثمة عهد آخر ، انبثق من استسلام إجرامي ، ينتفخ في سلطة شخص . إن الشعب الفرنسيّ ليدين العهدين معاً ، وفيما هو يتحد في سبيـــل النصر ، يتجمّع من أجل ثورة .

وعلى الرغم من السلاسل والكمامات التي ترهق الأمة بأغلال العبودية، فان ألف شهادة ارتفعت من أعمق أعماقها ، تظهر للملأ شوقها وأملها . وإننا لنعلن هذين باسمها ، ونؤكد أهداف الحرب التي يخوضهـا الشعب الفرنسي .

إننا نريد أن يعود إلى الأمة الفرنسية كل ما كان في حوزتهـــا . وكلفة الحرب إنمـا تعني في نظرنا ، إعادة الكيان لاراضي فرنسا ، وامبراطوريتها ، وتراثها دفعة واحدة ، وإعادة السيادة التامة للأمة على نفسها . وكل اغتصاب ، سواء أتى من الداخل أو من الخارج ينبغي أن يدمر ويكنس . وإننا إذ نزعم أننا سنرد فرنسا وحدها وبمفردها سيدة في ديارها ، فإننا سنعمل على نحو يكون معـه الشعب الفرنسي وحده وبمفرده سيداً في داره . وفي الوقت ذاته الذي يغدو به الفرنسيون متحررين من جور الأعداء ، ينبغي أن ترد إليهم حرياتهم الداخلية . فاذا تم طرد العدو من أرض البلاد ، ينتخب جميع رجالنا وجميـع نسائنا الجمعية الوطنية ، وفيها يقررون مصير البلاد بملء سيادتهم .

اننا نريد ان ننزل العقـــاب بكل من مسّ او يمس حقوق الأمة الفرنسية ، ومصالحها ، وشرفها وان يُلغى من الوجود . وهذا يعني اولاً ان الرؤساء الأعداء الذين يسيئون استعمال حقوق الحرب على حساب الفرنسيين وممتلكاتهم ، ينبغي ان ينالوا عقابهم . ثم هو يعني ان نظام الاستبداد الذي اقام اعداءنا ضدّنا ، وسلّحهم ، وحرّضهم علينا ، ونظام تحالف المنافع الخاصّة الذي لعب دوره في بلادنا ضدّ المصلحة الوطنية ، ينبغي ان يسحقا معاً الى الابد .

نريد ان يعيش الفرنسيون في أمان . ويجب ان نحصل ، في الخارج ، على الضمانات المادّية من الغازي المزمن ، هذه الضمانات التي تجعله عاجزاً عن العدوان والبغي . ويجب ان تتحقق في الداخل الضمانات العملية التي تؤمّن لكل فرد الحرية والكرامة في عمله وبقائه ضد طغيان المساوىء المتكررة . الأمن الوطني والضمان الاجتماعي هما بالنسبة الينـا هدفان لازمان متلازمان .

نريد ان يُلغى نهائياً هذا التنظيم الآلي للجـماهير البشرية الذي حققه

العدو مزرية فيه بكل دين ، وكل خلق ، وكل محبة ، بدعوى انه من القوة بمنزلة تمكن معها من إرهاق الآخرين . ونريد في الوقت نفسه ان يوضع بعد اليوم موضع التنفيذ في ديارنا ، ذلـــك المثل الفرنسي الأعلى القديم في الحرية والمساواة والإخـــاء خلال تجديد قويّ لموارد الأمـــة والامبراطورية عن طريق تقنية موجّهة ، بحيث يكون كل امرىء حراً بفكره وعقائده ، وأعماله ، ويكون لدى كل امرىء في بدء من نشاطه الاجتماعي ، فرصٌ تتكافأ مع فرص الآخرين جميعهم ، ويكون كل امرىء محترماً من الجميع ، ومعاناً اذا احتاج العون .

نريد ان يكون لهذه الحرب التي تؤثر ، على مستوى واحد ، في مصير جميع الشعوب وتوحد الديموقراطيات في المجهود الواحد ذاته ، كنتيجة ، ان يتم تنظيم للعالم يقيم على نحو دائم ، تعاونـــاً بين الأمم ومساعدة متبادلة في جميع المجالات . ونحن نرى ان تحتل فرنسا في هذا الجهاز الدولي المكانة العليا التي تبوّؤها اياها قيمتها وعبقريتها .

ان فرنسا والعالم يكافحان ويتعذبان في سبيل الحرية والعدالة ، وحق الناس في التصرف كما يريدون . يجب ان يربح حـق التصرف والعدالة والحرية هذه الحرب،وان يجعل من هذه الامور حقاً لكل انسان كما لكل دولة.

وان مثل هذا النصر الفرنسي والانساني هو التعويض الوحيـد عن المحن التي لا مثيل لها والتي يقاسيها وطننا ، وهو التعويض الوحيد الذي يشق له من جديد ، طريق العظمة . ان مثل هذا النصر يوازي جميع الجهود والتضحيات . . وسننتصر !

فهرست

طبع على مطابع « امبريمتو » بيروت - لبنان

منشورات عويدات ١٩٦٨/١/١٢٢

CHARLES DE GAULLE

MEMOIRES
DE
GEURRE

L'APPEL

(1940 – 1942)

Texte traduit par Abdullatif SHERARA
et révisé par Ahmad OUEIDAT

EDITIONS OUEIDAT
BEYROUTH - PARIS



EDITIONS MEDITERRANEE
BEYROUTH - PARIS